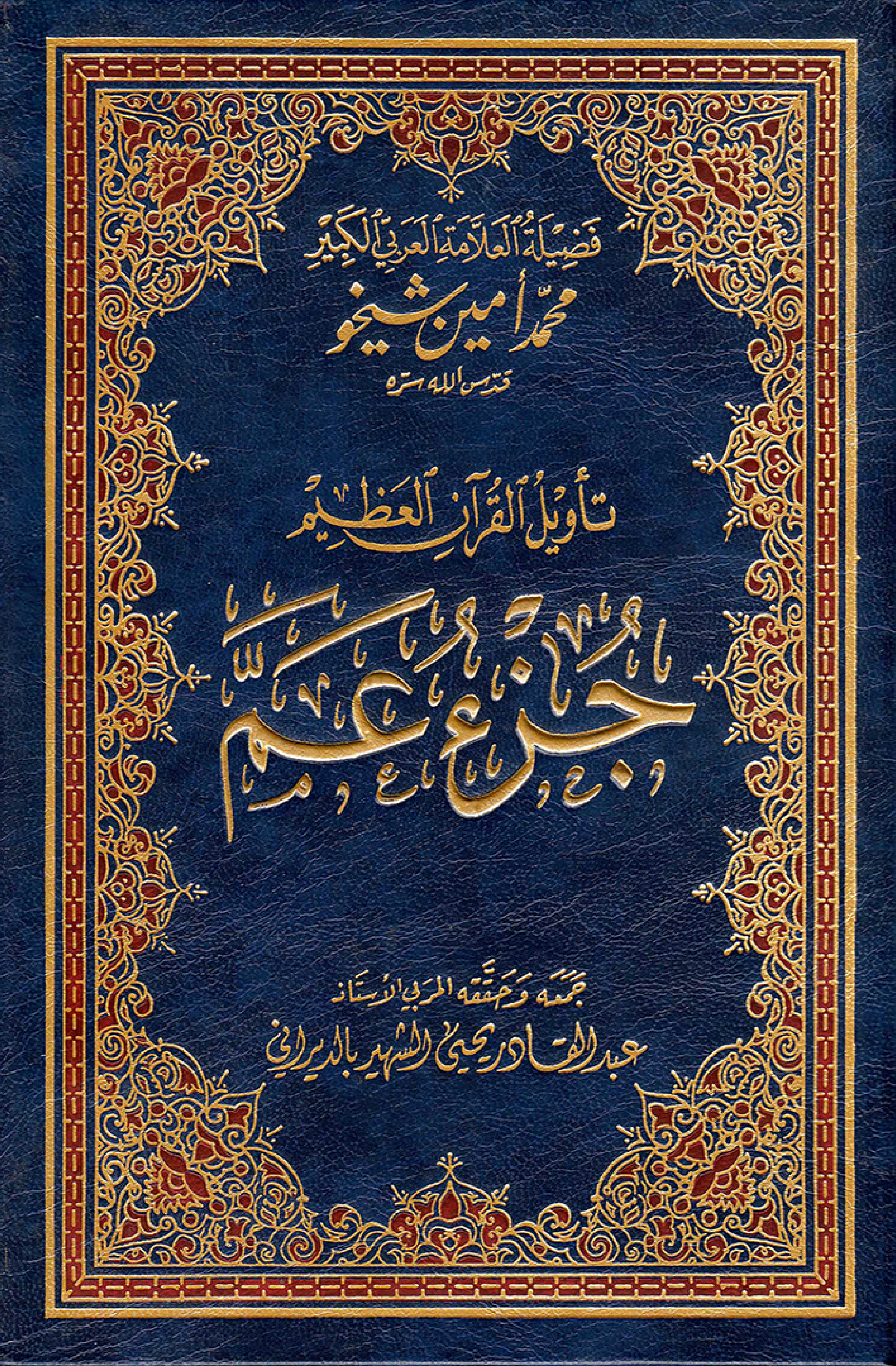


فضيلة العلامة العربي الكبير
محمد أمين شيخو
قدس الله سره
تأويل القرآن العظيم
جزء عم
جمعه وحققه المربي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

فضيلة العلامة الإنساني الكبير

محمد أمين شيخو

(قدّس الله سرّه)

تـأويلُ جـُزْء عَـمَّ

(الجزء الثلاثون من القرآن الكريم)

جمعه وحققه الباحث والمفكر الإسلامي الأستاذ:

عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

بإشراف محدث دمشق الأكبر فضيلة الشيخ المرحوم محمد الديراني

موقعنا على شبكة الإنترنت:
www.amin-sheikho.com
info@amin-sheikho.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

"**جزء عمَّ**" به الآيات الكونية المحسوسة الملموسة وأنَّ بالنظرات الكونية التأملية بصفاء بها ينتقل طالب الوصول للإله العظيم للاتصال بربِّه، حتى إذا عقل عظمتها توصَّل لعقل عظمة مُبدعها، صانعها العظيم، والتفتت نفسه التي خشعت للصنع واستعظمته إلى الخشوع والاستعظام للصانع وتنعَّمت بهذه المشاهدة التي انتقلت من المشاهدة العينية إلى المشاهدة القلبية النفسية، فسرى نوره تعالى وعظمته إلى نفس طالبه مشاهدة نفسية تركع لها النفس وتعود إليها في ركوع كل صلاة من الصلوات الخمس، فتغدو الصلاة والاتصال حقيقياً لا صوريّاً فقط.

عندها تخرُّ النفس على بحور مشاهدات أسماء الله الحسنى مستغرقة به تعالى، حيث تفتَّحت منها عين البصيرة وتنعَّمت بالقرب بمن به الكائنات بأسرها تنال وتتنعَّم، وعادت إلى الوفاء بعد الجفاء والقُرب بعد البُعد، والحب والهيام بالله بعد جفوة الانقطاع، بذا تشتق النفس وتستقي من معين الحضرة الإلهية تغذية لا تميل بعدها إلى الدناءات وتسمو وتتسامى بأنسها بربِّها، وتشرب وترتوي من ربِّها شراب الحياة السرمدية ماءً غدقاً لا تظمأ ولا تموت بعده أبداً، فكل نفسٍ خالدة، ولكن هذه النفس الصادقة خلدت بإيمانها وصلتها وصلاتها بربِّها واستنارتها الوثيقة بنوره تعالى إلى الروح الدائمية المرفقة بالريحان وجنَّات النعيم، فبالوصول بهذه الأصول تكون قد نالت الكمالات الإنسانية، وتنمحي منها صفات السوء والمكر والخداع وتغدو وقد تدثرت بوشاحات الفضائل كلّها وازدانت بسعادة لن تخرج منها وتكسب المعالي وتسمو للإنسانية الحقَّة.

فكل من صدر بالتفكير بهذه الآيات الكونية التي تُشير إليها آيات جزء عمَّ وتحثُّنا عليها ورد شهود الحقائق وغدا عالماً حكيماً، فبها موادُّ مدرسة عظمى بها درس أبونا إبراهيم فصار عظيماً وغدا أبا الأنبياء ..

بمواد هذه المدرسة صدر أهل الكهف نُوَّامُهُ، طلبوا الإله الحق، وبهذه المدرسة وصلوا لربِّهم حينما أعملوا تفكيرهم بالصنع المشار إلى آياته بجزء عمَّ، فتوصَّلوا إلى الصانع العظيم، فكشف عنهم لثام العمى واستناروا بربِّهم وشاهدوا عظيم جلاله فأحياهم تعالى نفسياً وجسدياً، نموذجاً كاملاً لمن أراد النجاة والفوز، سموّاً وعلواً فوق الكائنات، ليكونوا عبرة وأنموذجاً كاملاً لكل طموح للمعالي.

وصحابة الرسل الكرام وصحابة رسول الله ﷺ طبَّقوا آيات جزء عمَّ فتوصَّل المهاجرون الكرام إلى درجاتٍ من السمو والعلو وتَبِعَهم الأنصار بتطبيق هذه الآيات المكِّية فثبتوا على الحق حين ارتد العرب بالردة إثر انتقال الحبيب ﷺ، ثم ردُّوا الفرس والبيزنطيين إلى فراديس النعيم والسعادة الدنيوية والأبدية.

بآيات جزء عمَّ بحثاً وتحقيقاً وتدقيقاً يصل المرء إلى العلم بلا إله إلا الله بعد تفكيره المتواصل، وهو العلم المطلوب من الله تعالى لهذا الإنسان ليحقِّق إنسانيته على علم بقوله تعالى (**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ**...)[١] ويحصل على الخشية بجناب العظيم جلَّ وعلا "وكفى بالمرء علماً أن يخشى الله".

وبذا يصبح الإنسان في حال يشهد وجود الإله ويشهد معه أن الله تعالى ناظر رقيب، ومشرف قريب، فيستقيم ولا يتحرَّك إلاَّ بأمر الله. وتستحكم صلته بالله ومحبته به وبرسوله فيغدو من أهله ويسمو لأوج إنسانيته ويحقِّق مراد الله تعالى من خلْقه سموّاً

---

[١] سورة محمَّد: الآية (١٩).

وعلواً متدرّجاً بمنازل الكمال ومراتب الأنس بالله.

كتاب (جزء عمَّ) يتضمن مدرسة سيدنا إبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء بها سلك ومنها صدر وقام بما قام به من جلائل الأعمال.

آيات جزء عمَّ تتضمن أسماء الله الحسنى، وحينما طبَّقها الصحابة الكرام وعقلوها غدوا سادة الدنيا وأخرجوا الناس من الظلمات إلى النور.. من البهيمية العمياء إلى الإنسانية العلياء... شموخ ما بعده شموخ، وسموا في الحياة وفي الممات، لعمْرُ الحق بعقل آيات جزء عمَّ حصلت المعجزات.

فتوحات علمية كبرى ويقينية عظمى فأنقذونا من الاستعمار البيزنطي والفارسي وبهذه المدرسة فتحنا الكرة الأرضية، كانوا مناراتٍ ومشاعل مضيئة يضيئون للإنسانية سُبل الهداية والسلام... فعليك بالتحقيق بآيات عمَّ واربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل، رشَّحك الله لمقام لو فطنت له...

نرى فيه أن الله عمَّنا بفضله وإحسانه وكلأنا برحمته وعظيم رعاياته، وبه نرى العدالة الإلهية تتجلَّى بأجلى معانيها وقد انقشرت قشرة الدسوس فبان وجه الحقيقة الناصع وتجلَّت كمالات الله بأجلى معانيها، فأعظم بتاليها وذاكرها وقارئها وناشريها ينابيع الحق والحقيقة والدين، وكل هذا من فضل من سما وعلا فوق العُلا فأكرم به ﷺ وأعظم لتدبر هذه المعاني وتطبيقها، ولتكن لك به أسوة ﷺ عُليا وقدوةٌ أبدية سرمدية... فبِهِ نهض الصحابة الكرام وبه بدأ رسول الله ﷺ ومنه كان نجاح الدولة العرباء والصفوة الأخيار من شعوب وأمم أفاقت على النعيم والسعادة بعد أن كانت سادرة في كوابيس الظلام...

هذا طريق الجنان وبه يتخرَّج متخرّج من صفوف الحيوان ويسمو إلى سوية الإنسان

الذي يستأنس بالعلي الأعلى الوهَّاب فتستأنس به المخلوقات والأرض والسموات..

ليس هذا فقط كان به سمو أبينا إبراهيم العظيم ﷺ، بل به سلك أوج المعالي كافة الرسل الكرام والأنبياء العظام فلكاً ففلكاً وأخرجوا العوالم للنور والبهجة والسرور وأنالوهم سعادة الدنيا والآخرة.

تقديم المربي الأستاذ

عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

صدق الله العظيم

تأويل سورة الناس

في هذه السورة الكريمة يُرشدك الله تعالى أيُّها الإنسان إلى الوسيلة التي تخلِّصك من شرِّ الشيطان ومن وساوسه، فإن أنت تمسَّكت بإرشاده تعالى فعندها تُبصر حقيقة كل شيء. وبِذا تُميِّز الشر من الخير، ولا يعود لهذا العدو عليك من سبيل، ولذا قال تعالى:

{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۞ مَلِكِ النَّاسِ ۞ إِلَهِ النَّاسِ ۞ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ}.

والمراد بكلمة (**قُلْ أَعُوذُ**): أي: قل[١] أيها الإنسان لنفسك إني أعتز وألتجئ.

وليكن حالك دوماً حال المعتز بربِّه، المتمسِّك بمالكه، الملتجئ إلى إلهه ومسيِّره، وقد بيَّن لك تعالى ثلاث صفات من صفاته ليكون ذلك سبباً يحمل نفسك على الإقبال عليه، ودافعاً يجعلك ترى ضرورة هذا الإقبال فلا تجد لك مندوحةً عنِ الاعتزاز به والالتجاء الدائم إليه، فهو تعالى: **{رَبِّ النَّاسِ}**.

والربُّ: كما مرَّ في سورة الفاتحة[٢]، هو: المربي المِمِدُّ بالحياة، ولا يقتصر إمداده على عنصر من عناصرك، بل يشمل نفسك وجسدك وكل عضو من أعضائك، وبشيء من التفصيل نقول:

---

(١) **قل**: خطاب لرسول الله ﷺ: أي قل لعبادي وبلِّغهم أن يلتجؤوا إلي، ثم هي خطاب للإنسان ذاته. فإذا قرأ الإنسان هذه الآية (قل أعوذ) وكأنه يسمعها من الله تُتلى على رسوله الكريم، فهنالك تُقبل نفس القارئ مع نفس رسول الله ﷺ. وعندها تعي ما تقول وتُدرك المراد الإلهي من هذا القول.

(٢) انظر المجلد الأول من تأويل القرآن العظيم.

العينُ وما فيها من الأجهزة والطبقات التي تُعينها على رؤية الأشياء، والأذن وما فيها من الأغشية والعظيمات التي تساعدها على سماع الأصوات، والقلب وما فيه من أربطة وأوتار، والجهاز الهضمي وما يتعلَّق به من غدد وعصارات، وإن شئت فقل: كل ذرَّة من ذرات جسمك، لا بل كل حجيرة من حجيراتك مهما صغرت ودقَّت، حتى تصل إلى ما لم يتصوَّره خيالك، أو يدركه فكرك، كل ذلك يقوم وجوده ويستمر بقاؤه ويبقى كيانه وتكوينه بهذا الإمداد المتواصل.

فإمداده تعالى لك كلّي، وإمداده تعالى دائمي لا ينقطع أبداً، ولا يتوقف عنك في لحظة من اللحظات.

وهو تعالى **{مَلِكِ النَّاسِ}**، **والملك**: هو الذي مَلَكَ الناس بإمداده وتربيته، فهم باحتياجهم إليه مستسلمون له، ومفتقرون لفضله وإمداده، وهم مضطرون دوماً بنفوسهم وأجسادهم لاستدامة الصلة به، واستمرار الإقبال عليه.

وهو تعالى **{إِلَهِ النَّاسِ}**، **والإله**: كما مرّ معنا في سورة الفاتحة هو المطاع والمسيِّر طوعاً أو كرهاً، فهو إله الناس يسيِّرهم على حسب اختيارهم، بما يناسبهم وبما يكون به صلاح حالهم، فبه تعالى سيرك في أعمالك وجميع شؤونك، وبه تعالى تسيير كل عضو من أعضائك.

فاليد تعمل وتتحرك، والعين ترى وتُبصر، والأذن تصغي وتسمع، والأنف يشم، والفم يمضغ، واللسان يتحرَّك ويتكلَّم، والقلب يتَّسع وينقبض، والصدر يعلو ويهبط.

وبصورة مجملة: ما من حاسة من حواسّك، ولا عضو من أعضائك إلاّ وهو مسيَّر بأمر الله تعالى، وخاضع لتسييره، فَلَكَ المشيئة والاختيار، ومنه تعالى الحول والقوة والتسيير في الأعمال.

فربُّ الناس ومَلِك الناس وإله الناس يأمُرُكَ بأن تعوذ به دوماً في كل لحظة من اللحظات.

وكلمة (**الناس**): اسم جنس لبني آدم، وقد سُمُّوا بالناس لأنهم بمجيئهم لهذه الدنيا وخروجهم لعالم الصُّور والأجساد نسوا ما كانت عليه نفوسهم في عالم الأزل من المعرفة بالله تعالى[١]، فكان هذا الجسد المادي حجاباً حجب النفس عن معرفتها بذاتها من حيث ضعفها وحاجتها وافتقارها الكلِّي إلى خالقها ودوام عنايته بها، فإن هي عادت إلى الإقبال على ربِّها تذكَّرت حالها الأول ورجعت إلى سابق معرفتها، قال تعالى:

(**... وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ**)[٢].

(**... وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**)[٣].

فإذا اعتززت بالله صاحب هذه الصفات المذكورة اعتزازاً صادقاً والتجأت إليه التجاءً كلِّياً، فهنالك تخلص من شر الوسواس الخناس، ولذلك قال تعالى:

{مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ}:

والشر: هو الأذى والضرر، **والوسواس**: مأخوذة من وَسْوَسَ، أي: تكلَّم بكلام خفي وحدَّثَ بالشرِّ، **والخنَّاس**: مأخوذة من خنس، أي: تأخَّر وانقبض، **والوسواس الخناس**: هو الشيطان، وهذان الاسمان يدلاَّن على صفتين من صفاته، فهو **وسواس** لأنَّه يُوسوس للنفس، ويُحدِّثها بالشر عندما تكون منقطعة عن الله، وهو **خنَّاس** لأنه

---

(١) انظر كتاب عصمة الأنبياء بحث " عالم الأزل " للعلاّمة محمد أمين شيخو.

(٢) سورة غافر: الآية (١٣). (٣) سورة آل عمران: الآية (٧).

يندحر مطروداً، ويتأخَّر منقبضاً متراجعاً عندما تعود النفس إلى الاعتزاز بالله والإقبال عليه.

فإذا استمرَّت النفس على إقبالها، وكانت دائمية الصلة بربِّها، فلا سلطان له عليها البتَّة، وهو لا يستطيع الدنو منها، ولا يجرؤ على الوسوسة إليها.

وتظل هذه النفس في حصنٍ حصين، وحرزٍ منيع ما دامت في حضرة الله وعلى اتصال دائم به، فإن هي خرجت من تلك الحضرة المقدَّسة، هرع إليها الوسواس يحدِّثها بما يحزنها ويسوؤها، وبما فيه الشر والأذى.

أما كيفية **الوسوسة** فقد بيَّنها تعالى لنا بقوله:

{الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ}.

وقد ذكر لنا تعالى الصدور لأنها مستقر النفس ومركزها[1]، فالشيطان يوسوس للنفس المنقطعة عن الله ويتراءى تزيينه لها.

وأخيراً بيَّن لك تعالى مدخل الشيطان عليك، والطريق الذي يسْرُبُ منه إليك، فقال تعالى:

{مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}:

فهو على حسب ما تبيِّنه الآية الكريمة: يوسوس للإنسان عن طريقين:

١. طريق باطن خفي لا تراه بعينك، ولا تدركه بحواسك، بل تشعر به في سرِّك وتدركه بنفسك، وذلك عندما يأتيك بذاته فيحدِّثك بما فيه معصية الله. وهو المراد بكلمة

---

[1] انظر كتاب مصادر مياه الينابيع في العالم لفضيلة العلامة الكبير محمد أمين شيخو (القسم الأول).

(**الجِنَّةِ**).

٢. وطريق ظاهر جليّ، وذلك عندما يأتيك متلبِّساً بالناس المعرضين عن الله، فيحدِّثك بلسانهم بما فيه ضررك، ويزيِّن لك بواسطتهم بما فيه الخروج عن أمر الله، وفي ذلك ما فيه من تعاستك وشقائك.

وهذا هو المراد بكلمة (**الناس**) في هذه الآية الأخيرة.

فإذا أنت أقبلت على الله وعُذت به، خَلَصْتَ من شر هذا الوسواس، وعشت سعيداً في كنف ربِّك الرحيم، وخالقك الكريم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

صدق الله العظيم

تأويل سورة الفلق

في هذه السورة الكريمة يبيِّن لنا تعالى أن الالتجاء إليه يُخلِّصنا من الشرور كلِّها ويجعلنا في مأمن منها.

وقد سلكتْ بنا هذه السورة في بيانها الطريقة التي سلكتها سورة الناس من قبلها، فذكرتْ لنا عظمة ربنا لتذعن نفوسنا إليه وتقبل عليه إقبالاً صادقاً بعد أن بيَّنت لنا الثمرة التي نجنيها من التجائنا والفائدة التي نحصل عليها من اعتزازنا بربِّنا.

وإذا كانت سورة الناس كدرس أوّلي تعرِّف الإنسان أوَّل ما تُعرِّفه بربِّه، وتُبيِّن له أنَّ الاعتزاز به تعالى يخلِّصه من شر الشيطان في نزغه ووساوسه، فهذه السورة، سورة الفلق، تنتقل بالإنسان إلى أفق أعلى من ذلك، فتبيِّن له أنَّ ربَّه الذي يلتجئ إليه هو ربّ الكون كله والممدّ بالحياة لهذا الوجود جميعه، ثم هي بعد ذلك تُفصِّل لنا الشرور التي نخلص منها إذا نحن التجأنا إلى ربِّنا ولذلك قال تعالى:

{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}:

هذه الآية الكريمة تدعونا إلى الالتجاءِ إلى الله، والاعتزاز به تعالى (**قُلْ أَعُوذُ**) أي: قل لنفسك أيها الإنسان أن تعتز وتلتجئ إلى ربِّ الفلق، فما هو الفلق؟

الفلق: مأخوذة من فَلَقَ، وفَلَقَ أظهر الشيء بعد احتجابه، وكشف عنه الظلمة، **والفلقُ هنا**: كلمة جامعة تشمل كل ما أظهره الله تعالى، وما سيظهره إلى الوجود، مما كان موجوداً في علمه تعالى من قبل في عالم الأزل، يوم إيجاد الأنفس، وينطوي تحت كلمة (**الفلق**): الأرض والسماء، والشمس، والقمر، والحر، والبرد، والليل والنهار، والإنسان والحيوان، لا بل كل شيء أوجده الله في هذا الكون، أو سيوجده أو يُظهره

إلى العيان، وعالم الصور والأجساد.

فالله سبحانه **ربُّ الفلق**، أي: هو المربِّي الممد لكل ما في الكون بالحياة، ولكن من أي شيء نعوذ بربِّ الفلق؟ لقد بيَّن لنا تعالى ذلك بقوله:

{مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ}:

والشر: هو الشهوة الخبيثة التي تتولَّد في نفس المخلوق عند إعراضه عن الله.

وأما في هذه الآية فإنما تعني الأذى المتولِّد عن الشهوة والضرر الناشئ عنها بعد خروجها من النفس إلى حيِّز العمل.

وخَلَقَ: هنا تعود على الله، فبالله تعالى يكون الخلق، أي: يكون خروج ما في النفس إلى الوجود، ومنه تعالى يكون الإمداد بالفعل، فالمخلوق يشتهي ويختار في نفسه، وبعد ذلك يحصُلُ الخلق من الله تعالى، ويكون مجمل المعنى في قوله تعالى: **{مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ}**:

أي: أعوذ بالله مما ينبعث عن المخلوق من أذى وضرر خَلَقَهُ الله عند شهوة هذا المخلوق واختياره.

{وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ}:

والغاسق: هو المظلم، مأخوذة من الغسق، وهو الظلمة الشديدة، والمراد **بالغاسق** هنا: الشيطانُ، فهو بإعراضه عن الله وبعده عنه أصبح مُظلِم النفس.

ووقَب: أي دخل في الوقب. **والوقب**:هو الحفرة في الصخرة يجتمع فيها الماء، وهو الكوَّة العظيمة، أي: النافذة، والمراد **بالوَقْبِ** هنا: صدْر الإنسان فإذا أعرض الإنسان

عن الله جاءه الغاسق، ودخل ووقب في صدره. وجعل يُخَيِّلُ للنفس ليُخْرِجَ منها الأشياء المؤذية التي تولَّدت فيها من جرَّاء إعراضها عن ربِّها، وبهذا التخييل والتزيين يحصل العزم على تنفيذ الشَّهوة، فإذا استمرَّت النفس على إعراضها، وأصرَّت على شهوتها وفعلت ما زيَّنه الشيطان لها، فهنالك يعود عليها فعلها الخبيث بسيء العذاب وأليم الوجع، وذلك العذاب والألم هو الذي يتسبَّب عن الغاسق.

فبالالتجاء إلى الله تَخلُص النفس من العذاب والشقاء الذي يتولَّد عن الفعل الخبيث الناشئ عن تزيين الشيطان وتخييله.

وهذه الآية التي شرحناها الآن مرتبطة أوثق ارتباط بالآية التي قبلها، إذ إنها تبيِّن لنا أن الشر الذي يقع علينا من غيرنا من المخلوقات ناشئ ومنبعث عن الأعمال الخبيثة التي زيَّنها لنا الشيطان، فقمنا بها وآذينا بها غيرنا من الخلق، ويوضِّح لنا ذلك قوله ﷺ:

« **اللهم إني أعوذ بك من شرِّ نفسي، ومن شرِّ كلِّ دابةٍ أنت آخذٌ بناصيتها، إنَّ ربِّي على صراطٍ مستقيم** »[1].

فهذا الدعاء يوضِّح لنا ما جاء في هذه السورة، ويبيِّن لنا شرَّ نفوسنا، أي إن الأذى الذي يقع منا على غيرنا يعود علينا بأذى ينبعث عن مخلوق من المخلوقات، وقد بيَّن لنا هذا الدعاء أيضاً أنه لا يصيبنا شيء إلا بإذن الله ضمن الحق، فإن نحن فعلنا ما نستحق عليه التأديب، أعاد علينا أذانا بواسطة دابة من الدواب، أي كل مخلوق يدبُّ على الأرض، وذلك ما تعنيه كلمة (**دابة أنت آخذ بناصيتها**) الواردة في الحديث الشريف.

---

(١) انظر سورة هود الآية (٥٦)، وانظر مسلم في الذكر والدعاء باب ما يقال عند النوم وأخذ المضجع.

فما من شرٍّ يقع علينا إلاَّ وقد سبقه شرٌّ صدر منا، وأوقعناه نحن على غيرنا، قال تعالى:

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [1].

{وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}:

والنفَّاثات: مأخوذة من النَفَثِ، والنَفَثُ: هو ما يلقيه الإنسان من فيه (فمه) من البصاق، **والنفث**: هو الإلقاء والرمي، يُقال: نَفَثَتِ الأفعى السُّمَّ: إذا أَلْقَتْهُ ورمتْ به في جسم الملدوغ، فالأفعى والحالة هذه نافثة.

وإذا أردت المبالغة وتكرّر صدور الفعل منها، قلتَ: نفَّاثة، الجمع: نفَّاثات: **والنفَّاثات** إذاً: الملقيات.

المراد **بالنفَّاثات** في هذه الآية الكريمة: الساحرات.

والعقد: جمع عقدة، والعقدة: هي كل شيء يمكن إبرامه وإحكامه، **والعقدة**: كل ما يملك الشيء ويوثقه. والمراد **بالعقد** في هذه الآية: الروابط الاجتماعية كعقدة النكاح التي تربط وتوثق العلاقة بين الرجل وزوجته، والروابط التي تربط بين الصديق وصديقه.

والمراد **بالنَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ**: الأنفس الشريرة التي تتخذ السحر وسيلة تتوصَّل به إلى مآربها الدنيئة.

فالسواحر نفَّاثات، لأنهنَّ يُلقين ما في نفوسهن من خبث ومكر، فيكون من عملهن

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٦٥).

هذا الإفساد بين شخص وشخص.

ونفْثُ الساحر كما يُفهم من كلمة (**فِي الْعُقَدِ**) الواردة في هذه الآية يكون على صورتين:

١. فإمَّا أن يكون مراده من نفثه إيجابياً، وهو التقريب والجمع بين شخص وشخص، ويكون عزمه منصرفاً إلى عقد العقدة وإنشاء الرابطة غير المشروعة.

٢. وإما أن يكون مراده من نفثه سلبياً، وذلك بالتفريق وإلقاء العداوة والبغضاء بين المرء وزوجه وبين الفرد والفرد كما نزغ بين سيدنا يوسف وإخوته (... **مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي**)[١]، وتكون بغيته في هذه الحالة هادفة إلى حلِّ العقدة وإفساد العلاقة القائمة. قال تعالى:

(.. **فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ**)[٢].

ولكن كيف ينبعث الأذى من الساحر إلى المسحور، وكيف تستطيع النفاثات التأثير على أحد الأشخاص؟

١. فمن حيث الظاهر: الساحر في نفثه يسوق الشيطان نحو المسحور ، ويستخدمه في التخييل إليه بما يرغب من الخيالات.

٢. ومن حيث الباطن: الشيطان يستخدم الساحر فيتوصَّل بواسطته إلى المسحور، فيخيِّلُ إليه ما يشاء مما فيه إيقاع الأذى وإنزال الضرر، وبشيء من التفصيل نقول:

---

(١) سورة يوسف: الآية (١٠٠).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٠٢).

إن الساحر عندما يتَّجه إلى المسحور يسري شعاع نفسه إليه، فينتهز الشيطان هذه الفرصة ويسري في ذلك الشعاع ويدخل فيه على المسحور، وهنالك يخيِّل له ما يشاء من إنشاء روابط، أو نقضٍ، أو حلّ للعلاقات القائمة.

والحقيقة كل الحقيقة: أن الساحر لا يُمكَّن من سَوْق الشيطان. وكذا الشيطان لا يستطيع استخدام نفس الساحر، إلا إذا كان المسحور امرءاً ظالماً من قبلُ مستحقاً لذلك الأذى الذي يشترك الشيطان والساحر في إيقاعه عليه. قال تعالى:

(... وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ)[1].

وإذاً الشهوة الخبيثة التي تتولَّد في نفس الإنسان عند إعراضه عن الله، وذلك الأذى الذي ينبعث منها ويوقعه المرء بغيره ، هو الذي يعيد على الإنسان عمله فيجعل هذين الشريكين الخبيثين يتسلَّطان عليه ويسحرانه، ولو أنه كان مُقبلاً على الله لما فعل شرّاً، ولما ناله منهما ضرر ولا أذى.

فالالتجاء إلى ربِّ الفلق إذاً يخلِّصنا من شرِّ النفَّاثات في العقد.

{وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}:

والحاسد: هو امرؤ مُعرض عن الله، يرى النعمة على غيره فيستهويها ويستحبّها، ويتمنَّى زوالها عن صاحبها ومجيئها إليه.

وإذا حسد: أي إذا قام بالحسد وصَدَرَ منه ذلك الاستهواء، والاستحباب لتلك النعمة، أما الأذى المتولِّد عن حسده فهو ما يسمُّونه في العامّية: بالإصابة بالعين.

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٠٢).

ولعلك تقول: كيف يقع الأذى من الحاسد على المحسود؟

فأقول: إن الحاسد عند رؤية النعمة واستهوائه الشديد لها، تسري نفسه نحو نفس المحسود، حتى إنها لتلامسها وتصطكّ بها، ويشتبك شعاعها بشعاعه، وهنا يتهيأ السبيل للشيطان، فيتخذ من نفس الحاسد مسلكاً وطريقاً يمرُّ به إلى نفس المحسود، فيوقع ما يوقعه من المرض والمضرَّة، وتكون نفس الحاسد آنئذٍ بالنسبة للشيطان كالسلك بالنسبة إلى القوى الكهربائية، ولولا ذلك الحاسد لما وَجَد الشيطان سبيلاً يتوصَّل به إلى نفس المحسود، ولو أن المحسود كان مُقبلاً على الله مُلتجئاً إليه لما استطاع الشيطان أن يدخل في نفسه، ولما تمكَّن من إيذائه والإضرار به، ذلك لأن الإقبال على الله يجعل النفس مُحاطة من جميع جهاتها بنوره تعالى، وبذا تصبح في حرزٍ منيع، ويقف ذلك النور الإلهي سدّاً بينها وبين الشيطان، فإذا أراد احتراقه هَلَكَ واحترق.

والتجاؤك إلى الله كما يحفظك من شرِّ الحاسد يحفظك أيضاً من أن تكون نفسه مرتبطة بنفسك، أو من أن تكون نفسك مرتبطة بنفسه، ومتجهة إليه.

فأهلك وأولادك، حتى الأشياء التابعة لك، وكذلك جميع الأشخاص الذين تحبُّهم ويحبُّونك يُحفظون بوجهتك إلى الله من الإصابة بالعين، وتلك الإصابة هي شرُّ الحاسد. وأخيراً نختم القول فنقول:

الإقبال على ربِّ الفلق، والالتجاء الدائم إليه، يحفظ الإنسان من كلِّ الشرور ويدفع عنه جميع ما يكره وما قد يقع عليه من السوء والضرر.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ

وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٣﴾ ﴿٤﴾

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلعَظِيمُ

تأويل سورة الإخلاص

بعد أن أمرنا ربُّنا في السورتين السابقتين بالإلتجاء إليه، وبعد أن تبيَّن لنا أن ذلك الاعتزاز الدائم به يكون سبباً في خلاصنا من كلِّ شيء يسوؤنا وشرٍّ يصيبنا، أراد تعالى أن ينقلنا في هذه السورة إلى درجة أعلى من المعرفة، فذكرَ لنا من الآيات ما يُعرّفِنا بذاته العليَّة وصفاته الحسنى معرفة تجعلنا نعكف بنفوسنا عليه، ولذلك قال تعالى:

{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}.

وكما مرَّ في المعوذتين (**قل**): أيها الإنسان لنفسك وعرِّفها أن الذي أُمرت بالالتجاء إليه والاعتزاز الدائم به، هو الله.

وكلمة (**الله**): هي اسم الذات، يدلُّك لفظها على المسمَّى جلَّ جلاله، ويبيِّن لك أنك إن عرفْته تولَّهت به عشقاً، وطارت نفسك لما تشهده من إكرامه وفضله شغفاً وحباً، فربُّ الناس، وربُّ الفلق، هو الله الذي تتولَّه الأنفس به إذا هي أقبلت عليه، ويحار العقل في شهود كماله إذا هو نظر إليه، فهو سبحانه العليم الحكيم، واللطيف الخبير، والرؤوف الرحيم، وهو سبحانه المتَّصف بالكمال الذي لا يتناهى، والذي تدلُّك عليه أسماؤه الحسنى.

ولله تعالى كما ورد في الحديث الشريف تسعة وتسعون اسماً:

« إنَّ لله عزَّ وجلَّ تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنَّة »[1]

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

وكلمة (**الله**) جامعة لها كلَّها، فإذا ذكرت كلمة (**الله**)، فقد ذكرت اسم الله الأعظم الجامع لسائر الأسماء، والدالَّة على صفات الكمال.

ويكون معنى قولك: **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}**، أي: قل لنفسك: بأن ذلك الربّ هو الله، صاحب الكمال الذي تتولَّه به الأنفس: إذا هي شهدت فضله وأقبلت عليه.

والأحد: الواحد الذي لا يكون متعدِّداً. **وأحد** توضِّح لنا في هذه الآية كلمة (**الله**).

فصاحب الكمال وهو الله تعالى، أحدٌ في علمه وحكمته، أحدٌ في قوَّته وقدرته، أحدٌ في رأفته ورحمته، أحدٌ في ذاته ومتفرِّد في كلِّ صفة من صفاته.

{اللَّهُ الصَّمَدُ}:

والصمد: هو الدائم الرفيع الذي لا يستمد من أحد، ولا يحتاج إلى غيره، فإذا كان المخلوق يحتاج في وجوده إلى موجدٍ يُوجده ويربّيه، وفي حياته إلى محيٍ يمدُّه بالحياة ويحفظها عليه، وفي قوَّته إلى قوي يمنحه القوة ويبعثها فيه، حتى إذا ما انقطع عن هذا الإمداد لحظة انعدمت قوته وانقطعت حياته وانمحى وجوده وزالت عنه كل موهبة، وافتقد كلَّ خلق أو صفة كانت لديه، فالله سبحانه لا يستمدُّ من أحدٍ ولا يحتاج إلى أحد، بل هو الصَّمدُ في ذاته، وفي كل صفة من صفاته.

فوجوده تعالى ذاتي، وهو **الصَّمد** في وجوده، بمعنى: أنه لم يستمد وجوده من أحد، ولا يتوقف بقاء وجوده على غيره، وقوَّته تعالى ذاتية، وهو **الصَّمد** في قوته، أي: أنه لا يحتاج إلى مُمد يمدُّه بالقوة، بل منه القوة، وهو مصدر كل قوة، وهو الممد بالقوة.

وحياته تعالى ذاتيةٌ. وهو **الصَّمد** في حياته، أي: أن حياته تعالى لم تأته من سواه، وهو مصدرُ الحياة، وهو الذي يبعث الحياة في الأكوان كلِّها، وفي كل ذرَّة من ذرَّاته

(أي ذرَّات هذا الكون وغيره من الأكوان..).

وهكذا كل صفة من صفاته تعالى ذاتية لم يستمدها من غيره، وهو تعالى كما ذكرنا آنفاً صمدٌ في ذاته وصفاته، وقد أراد تعالى أن يفصِّل لك ذلك فقال:

{لَمْ يَلِدْ}:

ويَلِدْ: من وَلَدَ، ووَلَدَ: بمعنى صار له ولد، وبما أن الولد يكون نظير والده ومماثلاً له في صفاته، والله سبحانه لم يلد، أي: لا يمكن أن يكون له ولد يماثله في ذاته ولا صفاته، وكيف يكون له ولد، والصمد كما مرَّ: الذاتي الوجود والصفات، أي: الأسماء الحسنى.

والولد لا يكون متولِّداً إلاَّ من غيره. فلا يمكن والحالة هذه أن يكون له ولد له مثل صفاته.

{وَلَمْ يُولَدْ}:

ويولد: من وُلِدَ، أي: تولَّد عن غيره، وبما أن الوالد يكون أصلاً وسبباً في وجود ابنه، فالله سبحانه لم يولد، ولا يمكن أن يكون له والد، لأن الصَّمد كما رأينا ذاتي في وجوده وفي صفاته.

{وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ}:

والكفو: هو المثيل والنظير، والله تعالى الصَّمد لا يمكن أن يكون له مثيل ولا نظير، فليس له والد ولا ولد، ولا يمكن أنْ يماثله في هذه الصفات أحد، بل هو المتفرِّد في ذاته، وهو الأحد في كل ما تقدَّم بيانه في هذه السورة من صفاته، وهو مصدر الكمال كلِّه فمنه الكمال.

وبالإقبال عليه تصطبغ النفس بصبغة الكمال، وتشتق الكمال، وهو سبحانه أحدٌ في ذلك كلِّه، فلا بداية له، ولا نهاية لوجوده.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ٥

صدق الله العظيم

تأويل سورة المسد

بعد أن بيَّن الله تعالى لنا في سورتي الناس والفلق ما يندفع عنا من الشرور إذا نحن عُذْنا بربِّنا والتجأنا إلى خالقنا، وبعد أن عرَّفنا في سورة الإخلاص بصفاته تعالى ليكون لنا في تلك المعرفة حافز يحفِّزنا إلى ذلك الإقبال، ودافع يدفعنا إلى الالتجاء. أراد سبحانه في هذه السورة الكريمة أن يبيِّن لنا ضرورة التعوُّذ والإقبال فذكر لنا ما يجرُّه الإعراض، وما يكون عليه حال المعرض عن الله، ولذلك قال تعالى:

{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}:

وتبَّت يدا: فلان أي: عجزتا وضعُفتا عن القيام بما عزم عليه من أعمال. إذ أنَّ التباب هو العجز والضعف والخسران.

يُقال: أصبح فلان تابّاً، أي: عاجزاً ضعيفاً. وفي المثل: كنتُ شاباً فصرتُ تابّاً، **وأبو لهب**: رجل من قريش، وهو عمُّ الرسول الأعظم ﷺ.

وقد كان أبو لهب في الجاهلية غنياً مُثرياً، وكان يُقرِضُ الناس المال، وينال عليه فائدةً ورباً، فلما أن بعث الله رسوله بالهدى ودين الحق، خافَ أبو لهب على دنياه، فقام يُشاقق ويُعارض رسول الله ﷺ، وهو يحسب أنه إنما يستطيع بذلك أن يردَّ الحق، ويُطفئ نور الله، ولكن تبَّت يدا أبي لهب وقصرتْ يداه وعجزتا عن مقاومة الحق، وذهبت مساعيه أدراج الرياح.

وتبَّ: أي: خسر خسراناً كلِّياً أبدياً، فهو لم يستطع أن يدحض الحقَّ بمعارضته، بل عاد عليه سعيه بالذل والخسران في الدنيا، ورجع عليه عمله بالخسران في الدار الآخرة، فأصبح من أهل النار والخالدين فيها أبداً.

ويكون مجمل معنى كلمات {**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ**}: أي: عَجَزَ أبو لهب عن ردِّ الحق ودحْضه، ولم تُفِدْهُ معارضته، ولم تُجْدِهِ شيئاً.

وتبَّ: أي: وأهلك نفسه هلاكاً كلِّياً أبدياً، فخسر الدنيا وما كان يناله بإسلامه من عزٍّ، وخسر الآخرة وما كان يلقاه فيها من نعيم.

{مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ}:

وأغنى: أي: أجداه ونفعه، يُقال: ما أغنى هذا الدواء عن المريض شيئاً، أي: لم يُفِده، ولم يدفع عنه ألماً ولا وجعاً.

فأبو لهب جمع ما جمع من مال، وعارض ما شاء أن يُعارض، كلُّ ذلك لتبقى له دنياه، وليظلَّ متمتِّعاً بما فيها من شهواتٍ، ولكن لما جاء أمر الله تعالى، وحقَّ عليه الهلاك، لم يفده ولم يغنِ عنه ماله أبداً.

لم يكن ما كسبه وقام به من أعمال ليدفع عنه أمر الله تعالى، بل حاق به العذاب، وحلَّ به الشقاءَ دَهْر الدهور وأبد الآباد.

{سَيَصْلَى ناراً ذَاتَ لَهَبٍ}:

ويصلى: من صَلِيَ، وصَلِي الأمر: قاسى شدته. والنار كلُّ جوهرٍ مُضيءٍ مُحرق، والمراد **بالنار**: هنا ما خالط نفس أبي لهب من الشرِّ، وما تخلَّل فيها من مُحرِقِ الشهوات والخبث.

واللهب: لسان النار الساطع، **واللهب**: الحرُّ والاشتعال، يُقال: لَهَبتِ النارُ، أي: اشتعلت خالصة من الدخان.

والمراد **بالنار ذات اللهب**، أي: النار الشديدة الاشتعال والاضطرام.

ويكون ما نفهمه من آية: **{سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ}**.

أي: إن الأعمال التي قام بها أبو لهب السيِّئة ستنقلب عند موته ناراً ملتهبة فيه، وما تخلَّل في نفسه من الشهوات الخبيثة سيُحرقه وسيُصبح سعيراً عليه.

ويكون والحالة هذه عمله السيِّء هو ناره وعذابه، وتعود نفس المعرِض الشريرة سعيره الذي يضطرم به ويلهبه، وهنالك ومن رحمة الله بهذا الشقيِّ المريض، الذي جرَّ لنفسه ذلك السعير والعذاب الأليم، أن يأمُر به إلى الجحيم، فتكون نار الله الموقدة[1] علاجاً لما فيه من النار، ويكون سعيرها دواءً لما يكابده من الاحتراق.

ونعوذ بالله من حال أهل النار فهم بين نارين، قال تعالى:

(هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ۞ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ) [2].

{وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ}.

وفي هذه الآية الكريمة بيان لما سينشأ في نفس امرأة أبي لهب من العذاب وبيان للسبب الذي جرَّ لها ذلك الشقاء، قال تعالى: **{وَامْرَأَتُهُ}**، أي: إنها عند موتها أيضاً ستعود نفسها سعيراً عليها، وستنقلب أعمالها الخبيثة التي قدَّمتها في الدنيا ناراً محرقة فيها، كما هو حال زوجها.

ثم بيَّن تعالى السبب الذي جرَّ ذلك لها، فقال تعالى:

{حَمَّالَةَ الْحَطَبِ}:

---

(١) انظر تأويل سورة الهمزة في هذا المجلد.

(٢) سورة الرحمن: الآية (٤٣-٤٤).

والحطب: ما أُعِدَّ من الشجر وقوداً للنار، والمراد **بالحطب** هنا: الأعمال التي كانت تقوم بها هذه المرأة لتصُدَّ الناس عن الله، وذلك التحريض الذي كانت تحرِّض غيرها لتُشعل الفتنة تجاه رسول الله ﷺ.

فهذه الأعمال، وذلك التحريض، وتلك الفتنة، هي الحطب الذي كانت تحمله وتسعى به، وهو الذي سيجرُّ لها تلك الآلام، فيجعلها في منزلة زوجها، تصْلى معه ما يصلاه، فتعود نفسها كلِّياً ناراً ملتهبة، تقاسي منها آلاماً مريرة، وتُكابد حريقاً أبدياً.

{فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ}:

والجيد: هو العنق: **والحبل**: هو الرباط والوصال والتواصل.

والمسد: هو المحور من الحديد، أو الحبل المضفور المحكم الوصل.

والمراد بكلمة (**في جيدها**)، أي: ما يمرُّ بعنقها من القول منبعثاً من نفسها وصدرها وجارياً على لسانها.

والمراد بكلمة (**حبل**): وصف ذلك القول بالتواصل والاستمرار.

والمراد بكلمة (**من مسد**): وصف تلك الحالة النفسية القائمة فيها من حيث التصميم على الإيذاء، وشدّة العزم على معارضة رسول الله ﷺ، وما هي عليه من الإصرار.

ويكون ما نفهمه من آية: **{فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ}**.

أي: أن الكلام المؤذي الذي كان ينبعث من نفسها، جارياً على لسانها متواصلاً تواصُلَ الحبل، كان ناشئاً عن عزم أكيد، وتصميمٍ قويّ فيها، كأنه الحبل المحكم المضفور الذي يكاد لا ينقطع أبداً. وكان ذلك كلّه سبباً في هلاكها كما هَلَكَ زوجها.

فإذا أنت أيُّها الإنسان لم تُقبل على ربِّك، ولم تعتز به الاعتزاز الصادق، فلا شكَّ ولا ريب أنَّك تفعل ما فعل أبو لهب وامرأته، وستقع فيما وقعا به.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ)[١].

(وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) [٢].

---

(١) سورة فصلت: الآية (٤٦).

(٢) سورة العنكبوت: الآية (٦).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ

يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ

وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾

صدق الله العظيم

تأويل سورة النصر

في هذه السورة الكريمة تعزية من الله لرسوله وبيان لفضله عليه، وفيها أيضاً: تعريفٌ لنا بعطف الله تعالى وحنانه على خلقه، فالرسول ﷺ لما حزِن على عمه أبي لهب حيث عارضه وخسر ذلك الفضل الذي قد كان يناله بسبب إيمانه، عزَّاه الله تعالى عن ذلك وبيَّن له ذلك الفضل العظيم الذي تفضَّل به عليه، إذ أيَّده بنصره وجعل هداية الخلقِ ودلالتهم إلى طريق الحق بسببه وبواسطته، ولذلك قال تعالى:

{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}:

والنصر: هو العطاء وحُسْنُ المعونة، يُقال: نَصَرَنا الله على عدوِّنا، أي: أعطانا القدرة وأعاننا على ردِّهم ودفْعهم.

والنصر أيضاً: هو الفوز والغَلَبة، يُقال: انتصر فلان على فلان، أي: تغلَّب عليه، وفاز في دحره.

والمراد **بنصر الله** هنا أي: معونة الله لرسوله بأن أظهر الحقَّ على لسانه وألهَمَهُ من الدلالة والبيان ما يدفع به أقوال خصومه ويدحض حجج معارضيه وأعدائه.

والفتح: هو الإظهار بعد غموض، والكشف والتعريف بعد خفاءٍ واستغلاق، يُقال: فتح الحاكم بين الخصمين بالحق، أي: أظهر الحقَّ وكشفَهُ.

يقال فتح الله على فلان بالأمر، أي: أطلعه عليه وأظهره له وعرَّفه به، والمراد **بالفتح** هنا: تلك الهداية والمعرفة التي فتح الله بها على الناس، وذلك الإيمان والعلم الذي تفتَّحت له قلوبهم لما جاءهم الرسول، رسول الله الأمين ﷺ، بما جاءهم من الدلالة والبيان.

وإذا: الواردة في هذه الآية أداة شرط، والشرط: هو أن يتوقف حصول الشيء على حصول شيء آخر، كقولك: إذا جاء فلانٌ فأكرمه. فالمجيء شرطٌ لازم لحصول الإكرام، وتستعمل (**إذا**) بأصل وضعها بكلام ما يجزمُ المتكلم بوقوعه وحصوله في المستقبل، وذلك لقوله تعالى:

(**حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ**) [١].

فالمجيء الوارد في هذه الآية: إنما يقع في الزمن المستقبل ويحصل بعد الموت، وقد تأتي (**إذا**) للزمن الماضي، وذلك فيما إذا دلَّت القرائن وأفاد مسرى الكلام ذلك كقوله تعالى:

(**وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّواْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً..**)[٢].

فالرؤية في هذه الآية، إنما وقعت وحدثت قبل نزول الآية على الرسول ﷺ فجاءت الآية الكريمة مبيِّنة لحكاية ذلك الحال.

وقد تخرج (**إذا**) عن الزمن الماضي والمستقبل وتجيء للحال كما في قوله تعالى:

(**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۞ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى**)[٣]. ومنها نفهم معنى (**إذا**) الشرطية الواردة بهذه الآية الكريمة: **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}**.

نفهم ثبوت مجيء النصر وحصوله ودوام استمراره وتجدُّده، وإن شئت فقل: ملازمته لرسول الله ﷺ طوال حياته. ونعلم أن الله ذكر ذلك بياناً لفضله على رسوله ﷺ وتذكيراً بتلك النعمة الكبرى التي أنعم بها عليه، ويكون ما نفهمه من آية:

---

(١) سورة الزخرف: الآية (٣٨). (٣) سورة الليل: الآية (١-٢).

(٢) سورة الجمعة: الآية (١١).

{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}:

أما وقد حصل لك التأييد الإلهيُّ، فبيَّنْت للناس ما ألهمك ربُّك من البيان ودحضت حجَّة كل معارض، حتى أذعن لك الناس وتفتَّحت قلوبهم للهدى والإيمان، ثم أردف تعالى ذلك مبيّناً تمام فضله على رسوله الكريم بقوله:

{وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً}:

والدين: هو الشريعة والطريقة، والمراد **بدين الله**: طريق الحق الذي بيَّنه الله لعباده على لسان رسوله ورسله الكرام مما فيه من السعادة والخير للإنسان.

والأفواج: جمع فوج، **والفوج**: هو الجماعة والطائفة، والمراد بآية:

{وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً}:

أي: اذكر فضلي عليك في جعل هداية الناس إلى الحق على يديك، وما دام قد حصل لك ذلك فاسبح مسترسلاً في نعمة ربك وفضله. قال تعالى:

{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ}:

وسبِّح: من سَبَحَ في الأمر: أي أمعن فيه واسترسل، وسَبَحَ في الماء، أي: عامَ وانبسطَ، وسبح في السير، أي: أبعد، وفي الكلام، أي: أكثر منه وأسهب. وسبَّح أي: سبَّح نفسه وابتغى لها السير والاسترسال.

ويكون المراد من كلمة (**سبّح**)، أي:سبِّح نفسك في فضل الله واسترسل في تذوُّق بِرِّهِ وما يسوقه إليك من الإحسان.

والحمدُ: هو ما ينشأ في النفس من الرضى تجاه المحسن بسبب ما قدَّمه من الخير وما

ساقه من الفضل.

فهذا التأييد الذي أيَّد الله به رسوله، وذلك الفتح الذي فتحه الله له، ذلك كله نعمة عُظمى، وفضل كبير، تفضَّل الله به على رسوله ولذلك خاطبه بقوله:

{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ}:

أي: سبِّح نفسك في هذا الفضل الذي تفضَّل به عليك، واسترسِلْ في تذوُّق الإحسان الذي ساقه إليك.

{وَاسْتَغْفِرْهُ}: واستغفرَ: أي: طلب المغفرة، والغفران، مأخوذة من غَفَرَ، وغفَرَ بمعنى: غطَّى وستَر، يُقال: غَفَرَ الشيب بالخضاب، أي: ستَرَه، وغَفَرَ الرأس بالمغفر، أي: غطَّاه. وغفر أيضاً بمعنى: أصلح، يُقال: غفر الأمرَ، أي: أصلحه بما ينبغي أن يُصلح به. وغفر الله للمسيء، أي: أصلح له نفسه وشفاها مما عَلِقَ بها من الأدران فغَدَتْ طيبةً طاهرةً.

ويكون معنى **استغفره** الواردة في هذه الآية:

أي اطلب من ربك أن يغفر للذين آمنوا فيُصلح لهم نفوسهم مما كان قد علق بها من الشهوات وأن يشفيها من عللها وما فيها من أمراض.

ولكن كيف يكون هذا الاستغفار من رسول الله للناس؟

أقول: ليس ذلك الاستغفار استغفاراً قولياً، بل هو حال من الأحوال النفسية، فالرسول ﷺ الذي أقبل على ربه أعظم وأسمى إقبال، والرسول الذي يتوارد عليه أعظم تجلٍّ من الله وأشد نور وإمداد، إذا توجَّه بنفسه إلى أصحابه الذين أقبلوا عليه وصدَّقوا برسالته وبما جاءهم به عن الله، فهنالك يسري ذلك النور الإلهي بواسطة الرسول ﷺ

إلى أصحابه والمؤمنين به، ويكون الرسول في هذا الحال وسيطاً بين الله وبين خلقه، ووسيلةً تُخفِّف من شدَّةِ ذلك التجلِّي، فتتمكَّن الأنفس من تقبُّله وتحمُّله.

ولو أن الله تعالى تجلّى مباشرة على قلوب الناس، ومن دون وساطة الرسول ﷺ لتصدَّعت نفوسهم، فلم تقوَ على تحمُّل ذلك التجلِّي، ولصُعِقوا، وانجذبت عقولهم من شدة ذلك النور.

وربُّك حكيم، ولذلك اصطفى الرسل الذين كانوا أشد الناس حبّاً له وأكثرهم تحمُّلاً لنوره وسطاء بينه وبين عباده.

ومن رحمة الله وحنانه على خلقه أن أمر الرسول ﷺ بأن يتجه بنفسه إلى الذين آمنوا فيكون سبباً في سريان ذلك النور الإلهي إلى قلوبهم، ووسيطاً بينهم وبين ربهم.

وهنالك وبهذا النور تحصل لهم التزكية والمغفرة، وينالون الشفاء النفسي، فما أعظم فضل الله على عباده، وما أشد حنانه على خلقه، وما أحوجنا إلى استغفار رسول الله لنا وعطفه، قال تعالى:

(... **وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ**)[1].

{إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً}:

والتوَّاب: من تابَ، يُقال: تابَ العبدُ إلى ربِّه، أي: رجع عن معصيته، وعاد إلى طاعته، وتاب الله على العبدِ، أي: رَجَعَ بنعمته عليه، والتَّواب: صفة من صفات الله تعالى، وهي صيغة من صيغ المبالغة.

(١) سورة التوبة: الآية (١٠٣).

وكلمة (**كان**): نستطيع إعرابها حين مقارنتها لأسماء الله تعالى الحُسنى بأنها: فعل كامل نسبة لديمومة الكمال الإلهي، وهي هنا تُفيد أن هذه الصفة من صفات الله الذاتية التي اتصفت بها ذاته العليَّة، وذلك مما يعني أنه لا أولَ لهذه الصفة ولا حدَّ لها، وهي لا تقتصر على فئة من الناس، بل تشمل جميع الخلق، ويكون ما نفهمه من آية:

{إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً}:

أي: إن الله تعالى لا يتخلَّى أبداً عن عباده، فمهما أعرض العبدُ، ومهما كفرَ واستكبر، ومهما عصى وأخطأ لا يتركه ربُّه، بل يسوقُ له من الشدائد تارةً، ومن البرِّ والإحسان تارةً، مما يكون مُذكِّراً له في فضل ربّه وداعياً يدعوه إلى الرجوع والعودة إلى كنف سيِّده وخالقه، ليتمتَّع بفضلهِ، وليكون أهلاً لتذوُّق عاليَ برِّه، وكمال إحسانه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

صدق الله العظيم

تأويل سورة الكافرون

بعد أن بيَّن الله تعالى في سورة النصر ما بيَّنه للمؤمن من استغفار رسول الله ﷺ له، وحسن عناية الله به وكمال عطفه عليه.

ذَكَرَ لنا في هذه السورة ما يكون عليه حال المؤمن المقبل بسبب إقباله، وحال الكافر في كفره وإعراضه.

فالمؤمن لا يواقع الشرَّ ولا يقارف المعاصي ما استمرَّ على إقباله، والكافر يظلُّ متلبِّساً بالمعاصي ولا ينزعُ عن الشرِّ ما دام مقيماً على كفره وإعراضه، ولذلك قال تعالى:

{قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ}:

(وأي): نكرة وهي في الأصل لا تعني شخصاً معيّناً، وقد ذُكرت هنا توصُّلاً بها إلى نداء الاسم المعرَّف الذي بعدها.

والكافرون: في تعريفها بأل تعني الجنس، فهي لا تخصِّصُ الكافرين في عصرٍ من العصور، بل تشملُ كلَّ من اتَّصف بهذه الصفة، أي كلَّ من كان جاحداً لفضل الله ونعمه، مُنكراً متناسياً. إذ **الكفر** جحود بالخالق، وهو أيضاً نكرانٌ بالنعمة وسترها، وهو والحالة هذه نقيض الشكر، الذي هو رؤية الإحسان وشهود نعمة المنعم.

ويكون المراد من آية: **{قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ}**:

أي: قل أيها المؤمن لنفسك مخاطباً، ولأولئك المعرضين مُبيِّناً، يا أيها الكافرون لنعم الله الذين عميت نفوسهم، فلم تستنر بنور ربّها، ولم ترَ ما يسوقه من الفضل والإحسان لها.

{لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ}:

ولا أعبدُ: أي: لا أطيع ما تطيعونه من أصنامٍ وشيطان ونفسٍ، وغير ذلك سوى الله تعالى. إذ أنني بإقبالي على ربي أصبحت ذا بصيرة، أسير على نور من ربي وهدى، فأنا لا أفعل ما تفعلون من الشرِّ، ولا أتَّبع الهوى، ذلك لأنني رأيت ما في ذلك من هلاكٍ وأذى.

وقد جاء التعبير عن العبادة هنا بكلمة (**أعبُدُ**) و (**تعبدون**)، أي: في صيغة المضارع، بياناً للحال الراهن، وتخصيصاً لذلك بوقت المتكلِّم.

وجاء في الآيات التالية بصيغة اسم الفاعل، أي كلمة (**عابد**) و (**عابدون**) بياناً للاستمرار والدوام. إذ أن صيغة اسم الفاعل تعني ثبوتُ الصِّفة غير مقيَّدةٍ بزمنٍ من الأزمان.

{وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}:

أي: وأنتم بإعراضكم عن خالقكم أصبحت نفوسكم فاقدةً ذلك النور الذي يُضيء لها طريقها، محرومة من تلك البصيرة التي تريها سبيل سعادتها.

ولذلك مهما نَصحْتكم وبيَّنت لكم، لا تنزعون عن الشر ما دمتم متلبِّسين بهذا الإعراض.

{وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ}:

أي: ما دمت على هذا الحال من الإقبال مُستنيراً بهذا النور الإلهي الذي أرى به طريق الحق، فلا يمكن أن أسلك سلوككم، أو أفعل ما تفعلونه أنتم.

{وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}:

ما دمتم أنتم مستمرين على هذا الحال من الكفر بنعم الله، والجحود لفضله، وعدم

الإقبال بنفوسكم عليه، لا يمكن لكم أن تسلكوا طريقي، ولا تطمئن نفوسكم إلى فعل الخير وعمل الصالحات، بل تظلّون على ما أنتم عليه من مقارفة الأذى والشر، وفي النهاية:

{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}:

والدين: هو الشريعة والمذهب، **والدين**: هو الحساب والجزاء، والمراد **بالدين** هنا: الجزاء على الأعمال، مما يدينك الله به، أي: يُوفِّيك عليه حسابك جزاءً على ما قدَّمت.

ويكون معنى هذه الآية: **{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}**:

أي: لكم ما ينتج عن عملكم، وستُجزون على ما قدَّمتم من أفعالكم، وليَ نتاج عملي، وسأُكافأ على ما أقدّم من الخير، ويكون مُجمل ما نفهمه من هذه السورة:

إن الإنسان إذا أقبل على ربه حُفِظَ من عمل الشر ودام محفوظاً من الوقوع فيه ما استمر على إقباله. فإذا هو لم يُقبل على ربه ولم يقدِّر نِعَمه حق قدرها، كان ذلك سبباً في مقارفته المعاصي وإيذائه للناس، وهو لا يهتدي إلى طريق الحق ولا يفعل الخير ما دام متلبِّساً بكفره وإعراضه.

وإذاً: فالإيمان والإقبال على الله مصدر كل خير وإحسان، والكفر والإعراض عنه تعالى سبب كلِّ شرٍّ ومبعث كل أذى وشقاء.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

صدق الله العظيم

تأويل سورة الكوثر

في هذه السورة الكريمة يريد الله تعالى أن يبيِّن للإنسان ما أعدَّه له من الفضل، وما أعطاه من الخير الكثير. ثم هو سبحانه يبيِّن لنا أيضاً الطريق الذي نرى به هذا الفضل، والسبيل الذي نتوصَّلُ منه إلى هذا الخير، فقال تعالى:

{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}:

وقد جاءت كلمة (**أعطى**) في هذه الآية في صيغة الفعل الماضي، تبيِّن وقوع العطاء من الله وحصوله والسماح للإنسان بأخذه.

والكوثر: هو الكثير، والملتف من كل شيء. **والكوثر**: هو المتراكم، يُقال: تَكَوْثَرَ الغبار، أي: تراكم وكثر، والمراد بالكوثر الواردة في هذه الآية:

الفضل الإلهي الكبير. والعطاء الربَّاني الذي يسرُّ صاحبه السرور المتزايد، الذي لا نهاية له. ولكن ما هو هذا العطاء الرباني الذي يسرُّ صاحبه السرور المتزايد الذي لا نهاية له والذي تفضَّل به علينا ربنا؟

أقول: هذا العطاء يشمل الدنيا وما فيها من لذائذ مادية لا تتناهى، واللذائذ المعنوية، والنعيم النفسي الذي يجده المؤمن ساعة إقباله على ربه تعالى.

وفي الحديث الشريف: « **لي ساعة مع ربي لا يسعني فيها مَلَكٌ مقرَّبٌ و لا نبي مرسل** »[1].

وتشمل كلمة (**الكوثر**): الجنَّة وما أعدَّه الله فيها من النعيم المقيم الدائم المتواصل.

---

[1] وفي رواية « لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرَّب ولا نبي مرسل ».

والإكرام الإلهي الذي يبعث السرور العالي المتزايد.

وينطوي تحت كلمة (**الكوثر**): ما يتفضَّل به الله تعالى على عباده في الجنة من النظر إلى وجهه الكريم، وشهود جماله العظيم. وإن شئت أن تحدَّ هذا الفضل الإلهي الذي تُشير إليه هذه الآية المذكورة فإنك لا تستطيع أن تحدَّه بحدٍّ. وإن أنت أردت أن تحصي فضل الله ونعمه، ففضله ونعمته أعظم من أن تحصيها بعدٍّ. قال تعالى:

(**وَإِنْ تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا...**) [١].

(**لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ**)[٢].

ويكون ما نفهمه من آية: **{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}**:

أي عبدي: أعطيتك: قبل أن أخرجك لهذه الحياة الدنيا، ومنحتك في الأزل ومن قبل أن أبعثك لهذا الوجود، منحتُك خيراً عظيماً.

وكيف السبيل إلى التمتُّع بهذا الخير؟ . لقد بيَّن تعالى ذلك بقوله:

{فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}:

والصلاة: كما مرَّ بنا: هي الصلة بالله. **والربُّ**: هو المربي الممد بالحياة.

ويكون ما نفهمه من كلمة (**فَصَلِّ لِرَبِّكَ**):

أي عبدي: هذا العطاء الذي تفضَّلت به عليك يتوقَّف وصوله إليك على صلتك بربِّك، فإذا أنت صلَّيت نِلْتَ هذا الفضل وجذبته إليك.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية (٣٤).

(٢) سورة ق: الآية (٣٥).

وقد دخلت اللام على كلمة (**لربِّك**)، لتبيِّن أن الصلة يجب أن تكون مقصورة على المربي وخاصة به.

ونقول هذا الكتاب لفلان أي: هو خاص به من دون غيره. فصلتك يجب أن تكون مقصورة على ربك، فلا تتصل بغيره ولا تتعلَّق بسواه.

والنحرُ: هو أعلى الصدر، حيث يبدو الحلقوم. **والنحرُ** أيضاً: هو الطعن في أعلى الصدر، يُقال: نَحَرَ البعير أي: طعنه من نحره. ونَحْرُ العدوِّ: هو دفعه الدفعة التي تصيب مقتله، فتجعله يندحر ولا يعود ثانية إلى الخصام.

والمراد بكلمة (**وانحر**) هنا: أي: ادفع عدوَّك وهو الشيطان الدفعَ الذي يردُّه خاسراً مدحوراً، فلا يقوى على الدنوِّ منك، ولا يجرؤ على التعرُّض لك.

فبالصلاة إذن: تنال فضل الله تعالى الذي أعدَّه لك، وبالصلاة أيضاً تردُّ عدوَّك ويندفع الشيطان عنك.

{إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ}:

والشانئ: هو العدوُّ المبغض. يُقال: شَنَأَ فلان فلاناً، أي: أبغضه عن عداوةٍ. والمراد بالشانئ: الشيطان. فهو وحده عدوُّك المبغض.

والأبتر: هو المقطوع. مأخوذة من بَتَرَ، أي: قطع. يُقال: عضوٌ أبتر، أي: مقطوع. ويد بتراء. والمراد **بالأبتر**: الشيطان أيضاً. فهو أبتر لأنه مقطوع عن الخير. إذ أنه بإعراضه عن ربِّه انقطع عن ذلك الفضل الإلهي الذي أعدَّه الله لخلقه، وكذلك كلُّ معرض عن الله يعود أبتر كالشيطان، محروماً من الخير.

أما المصلِّي المقبل بنفسه على ربِّه، فهو الذي يفوز بفضل الله، وينال برَّه وعطاءهُ.

فالمدار كله على **الصلاة**. أعني الصلة بهذا المربي، فإن أنت صلَّيت نِلْتَ، وإن أنت أعرضتَ خسرتَ وحُرمت، كما خسر الشيطان وحُرِم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَظِيمُ

تأويل سورة الماعون

بعد أن بيَّن الله تعالى لنا في السورة السابقة أن الصلاة هي السبب الوحيد الذي يكون به وصول الإنسان إلى الخير، وما أعدَّه له ربه منذ الأزل من الفضل، أراد سبحانه أن يبيِّن لنا في هذه السورة أنَّ ترْكَ الصلاة هو السبب الوحيد الذي يكون به شقاء الإنسان، ووقوعه في أحضان الهلاك والبلاء، ولذلك قال تعالى:

{أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ}:

وقد خرج الاستفهام هنا عن الغرض الأصلي الموضوع له، وهو طلب العلم بالشيء، وجاء لتقرير الأمر وبيان ثبوته، ويكون ما نفهمه من آية:

{أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ}: أي: انظر أيها الإنسان حال المكذِّب بالحق، وعاين ما يصدر عنه من الأعمال الخبيثة. ثم وضَّح لنا تعالى ذلك بقوله:

{فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ}:

والدّعُّ: هو الدفع، وليس المراد من دعِّ اليتيم مجرَّد دفعه الدفع الظاهري باليد، وإنما يكون بنَهْرِهِ في القول، أو الصدود عنه بالنفس، وعدم شموله بالرعاية والعطف.

فالمكذِّب بالحق بتكذيبه انقطعت صلته عن الله، وبذلك الانقطاع أصبح فاقد الحنان، محروماً من الرحمة وعاطفة الإحسان، وهذا ما نفهمه من آية:

{فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ}.

وكما أن التكذيب بالدين يجعل الإنسان امرءاً محروماً من الرحمة، فاقد العواطف الإنسانية النبيلة، فهو أيضاً يجعله خسيسَ النفس، مُتَّصفاً بالشحِّ والبخل. فهو لا

يُساعد المسكين، ولا دافع يدفعه إلى الإحسان إليه، ولذلك قال تعالى:

{وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}:

وبعد أن وصف الله تعالى لنا أحوال المكذِّب بالدين، وما هو عليه من الصفات، أراد تعالى أن يبيِّن لنا ما يكون عليه حاله وما سيصيرُ إليه فقال تعالى:

{فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ}:

والويل: هو حلول الشرِّ والهلاك. وجاء التعبير هنا عن المصلِّين بصيغة الجمع بياناً لكون ذلك يتناول سائر الخلق، فالخلقُ جميعاً قائمون بإمداد الله المتواصل، وهذا ما تُعبِّره وتفيده كلمة (**المصلين**)، فهم أبداً على اتصال دائم بربِّهم، سواءً شعروا بذلك أم لم يشعروا، إذ لا قيام ولا حياة لهم إلا باستدامة صلتهم به تعالى. سواءٌ في ذلك أجسامهم ونفوسهم، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ)[1].

ومن هذا يتبيَّن لنا أنه لا فرق بين مخلوق ومخلوق، ولا بين كافر ومؤمن في هذه الصلة، ولكن الاختلاف والتباين إنما يكون في الشعور بهذه الصلة، أو السهو عنها.

فالمؤمن يمتاز عن الكافر بكونه يشعُرُ بصلته بربه، والكافر مع وجود الصلة واستمرارها تراه غافلاً ساهياً عنها.

ومثل الكافر في سهوه عن ربه، كمثل الإنسان مع الهواء يستنشقه ولا ينفكُّ عن الاستفادة منه، لكنك تراه ساهياً مشغولاً بمشاغل الحياة، فإذا انتبه الإنسان لهذه

---

(١) سورة الحج: الآية (١٨).

الصلة وشعر بها، فقد فاز وصار من أهل الخير، وإن هو سَهَا عنها انحطَّ وباء بالخسران، ولذلك جاءت الآية التالية مبيِّنةً وواصفةً حال الأشخاص الذين هم ساهون عن هذه الصلة. قال تعالى:

{الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ}.

ولكن ما يُفيدنا هذا الشعور بالصلاة؟ أقول:

النفس كالمرآة الصافية حيثما اتجهت انتقشت آثار الشيء المتجهة إليه بها، فشخوص النفس ببصيرتها إلى الله يُريها كماله، وهناك تعشقه وتحبّه، إذ النفس مفطورة على حب الكمال. وبعشقها لله ودوام نظرها إليه ينطبع فيها ذلك الكمال الإلهي وتصطبغ فيه، فتنال منه على حسب إقبالها، وتزداد فيه كلما ازداد حبُّها، وبهذا الحال تغدو فاضلة، ذات سموّ وخُلُق إنساني كريم، قال تعالى:

(... **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**)[1].

أما إذا هي أعرضت فقد حُرِمَت من تلك الصفات العالية، ولذا تصبح سيِّئة العمل، خبيثة الفعل، تتظاهر بالخير وليس فيها ذرة من خير، وإن فعلت الخير فعلته رياءً كما وصف الله تعالى حالها في الآية التالية بقوله:

{الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۞ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}:

والماعون: هو المعونة. فهذا الإنسان الغافل عن صلاته عدا عن كونه مرائياً بفعله تراه يُسيئ لمن يساعده ويحسن إليه. فإذا أقرضه امرؤٌ شيئاً من المال أو مدَّ له يد المعونة في أمرٍ من الأمور قابل ذلك الإحسان بالإساءة، وبذا يصبح المحسن حذراً يخشى الناس

---

(١) سورة الحجرات: الآية (١٣).

أن يقابلوه بمثل ما قابله به ذلك المسيء.

ونجمل ما ورد في هذه السورة الكريمة. فنقول:

المكذِّب بالدين وإن شئت فقل الساهي عن صلاته الذي لا يُقبل على ربِّه بنفسه إن هو إلا امرؤٌ محروم من العواطف الإنسانية، شحيحٌ خسيس النفس وهو إلى جانب ذلك رجل مُراءٍ منَّاعٌ للخير.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴿٢﴾ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴿٤﴾

صدق الله العظيم

تأويل سورة قريش

في مطلع هذه السورة الكريمة يريد الله تعالى أن يبيِّن للناس ذلك النظام البديع الذي قام عليه ذلك الكون، ثم هو يُلفت نظرهم ويذكِّرهم بذلك الترتيب الحكيم الذي جعل المخلوقات متآلفة مع تبدّلات الفصول، فلعلَّهم إن فكروا في هذا النظام، توصَّلوا منه إلى الربِّ المنظِّم وتعرَّفوا إلى الخالق العظيم الحكيم المبدع، قال تعالى:

{لإِيلافِ قُرَيْشٍ}:

والإيلاف: من آلَفَ. يُقال: آلَف إيلافاً ومؤالفةً. وآلَفَ مأخوذة من أَلِفَ نقول: أَلِفَ فلان فلاناً، أي: كانت بينهما مودَّة وأُلفة، وأنِسَ أحدهما بصاحبه، وآلفَ الشيء، أي: كان بينهما ائتلاف وتجاذب.

وقريش: مأخوذة من قَرَشَ، وقرش بمعنى جمع. يُقال: قَرَشَ الشيء، أي: جمعه وضم بعضه إلى بعض. وتقرَّش القوم أي: تجمَّعوا، وسُمِّيت القبيلة التي سكنت مكة بقريش: لأن أفرادها تجمَّعوا حول المسجد الحرام.

ولذلك فكلمة قريش تشمل كل ما تراه عينك في ترابطه وتماسكه، وكل ما تدركه مشاعرك من تآلف أجزائه وذرَّاته.

فالكون كله وحدة منسجمة تجمَّعت أجزاؤها إلى بعضها، وتجاذبت وتآلفت ذراتها وكل ما تجده في هذا الكون من إيلاف ومؤالفة ينطوي تحت هذه الآية الكريمة، فالنجوم في تماسكها، والشمس والقمر والأرض في تجاذبها، والأشجار في ترابط أوراقها وثمارها وسير المياه في أوعيتها، والإنسان في انتظام أعضائه وتناسقها، وفي قيام أجهزته بوظائفها وافتقارها إلى بعضها، وهذه الأغذية التي نتناولها في إيلافها مع

أجسامنا، وفي تحوُّلها وتمثُّلها إلى أنسجة وحجيرات عصبية ولحمية، على حسب الأعضاء التي تُساق إليها.

ومن جهة ثانية الحيوانات في اجتماعها وحنينها إلى بعضها بتنوُّع أنواعها، والناس في روابطهم الاجتماعية كلها، والأم مع أطفالها، والزوجة مع زوجها، وأرباب الحرف في عدم استغنائهم عن بعضهم بعضاً.

كلُّ ما ذكرناه توحي لنا به هذه الآية الكريمة، ويكونُ مُجمل ما نفهمه من آية:

{لإِيلافِ قُرَيْشٍ}:

أي: عبادي انظروا إلى الترابط الموجود في هذا العالم، ودقِّقوا في إيلاف الأشياء الموجودة في هذا الكون.

وبعد أن بيَّن لنا تعالى هذا الإيلاف بصورة عامة، لفت نظرنا إلى إيلاف الأشياء مع تبدُّلات الفصول بصورة خاصة فقال تعالى:

{إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ}:

والإيلاف: كما رأينا في الآية السابقة: هو انسجام الأشياء ومؤالفتها.

والرحلة: هي الانتقال، ولا يقتصرُ المعنى في رحلة الشتاء والصيف على هذين الفصلين المذكورين، بل يشمل الفصول الأربعة كلها. إذ الرحلة هي الارتحال.

والارتحال من فصل الشتاء إلى الصيف وبالعكس، يقتضي المرور بفصلَيْ الخريف والربيع، فهذه الآية تشير إلى إيلاف الأشياء وانسجامها مع تبدُّلات الفصول. فالنباتات والحيوانات وكذلك الإنسان، وإن شئت فقل سائر الموجودات لها انسجام وإيلاف مع الفصول الأربعة، وما يحدث فيها من تغيرات، وعلى سبيل المثال نقول:

من الأشجار ما تتساقط أوراقها شتاءً كالمشمش والتفاح، فهذه الأشجار مع رقَّة أوراقها ولطافة نسجها، ولولا تقبُّض أوعيتها وجمود حركتها، ولولا نومها وتساقط أوراقها في الشتاء، أقول لولا ذلك: لجمد الماء عند اشتداد البرد في أنسجة أوراقها وهنالك تتفجر أنابيب أوعيتها فتموت ولا تقوى على البقاء، أفليس استسلامها للنوم وسقوط أوراقها في فصل الشتاء إيلاف مع هذا الفصل وما يحصل فيه من صقيع وبرد وجمود.

ولننظر الآن إلى الأشجار التي لا تسقط أوراقها شتاءً، بل تظلُّ دورتها النسغية جارية، وتبقى حياتها وحركة الماء فيها مستمرة كالزيتون والليمون وغيرها من الحمضيات، فنضج ثمار هذه الأشجار شتاءً يقضي بدوام حياتها وبقاء جريان النسغ فيها. ولذلك تجد أوراقها إما أن تكون مستورة بطبقةٍ شمعية، أو تكون ليفية الأوعية، وبذا تكون أكثر تحمُّلاً وأشدّ مقاومةً.

أفلا يدلُّ تركيبها الذي هي عليه على إيلافها مع رحلة الشتاء والصيف، أفلا تدلُّ تبدُّلات هذين النوعين المذكورين على قوةٍ خفية تزوي الحياة عن النوع الأول شتاءً، وتمدُّ النوع الثاني إمداداً متواصلاً، أفلا يدل إيلاف هذه الأشجار مع رحلة الشتاء والصيف على ربٍّ عظيمٍ وخالق قديرٍ حكيمٍ.

أقول: وما ذكرناه عن إيلاف الأشجار ينطبق على الإنسان، فللإنسان إيلاف مع الفصول حرّها وبردها، ثمارها وفواكهها، وكذلك الحيوانات والمخلوقات جميعها لها إيلاف مع تغيُّرات الفصول، وما ضربناه مثل من الأمثال، وآية من الآيات، قال تعالى:

﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[1].

فالله سبحانه بما ذكره لنا من إيلاف المخلوقات مع تبدُّلات الفصول يريد أن يوجِّهنا كما رأينا من قبل إلى التفكير والتأمُّل في هذا الكون، فلعلنا إن نحن فكَّرنا التفكير الدقيق، توصَّلنا إلى معرفة ربِّنا العظيم، وخالقنا الكريم.

ويكون مُجمل ما نفهمه من آية:

{إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ}:

أي عبادي: انظروا إلى إيلاف المخلوقات مع تبدُّلات الفصول، تجدوا أنَّ لهذا الكون ربّاً عظيماً ومسيِّراً حكيماً، يقبض ويبسط، ويعطي ويمنع، وقد سيَّر هذا الكون كله ضمن الحكمة وبما يعود عليه بالخير والمنفعة.

وبعد أن بيَّن الله تعالى لعباده ما يدلُّهم على وجوده وعظيم حكمته، أراد أن يدعوهم إلى عبادته، وأعني بذلك: طاعته، والسير ضمن هدايته ودلالته، فقال تعالى:

{فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ}:

وكلمة (**البيت**): هنا وعلى حسب سياق الآيات المتقدمة، تشمل هذا الكون كلّه، السموات وما فيها، والأرض وما عليها. فالكون كله إنما هو بمثابة بيتٍ لهذا الإنسان، أعدَّ الله له فيه كل ما يتطلَّبه، وهيَّأ له جميع ما يحتاجه.

ويكون ما نفهمه من آية **{فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ}**، أي: إذا ذكَرَ عبادي عظمة هذا الكون، وتوصَّلوا منه إلى معرفتي والإيمان بي، وبعظيم تدبيري وحكمتي، فما

---

(١) سورة العنكبوت: الآية (٤٣).

عليهم إلاَّ الإذعان لأمري، والاستسلام لطاعتي. فإني أنا الربُّ الممدُّ لهذا الكون بالحياة.

وبعد أن ذكر لنا تعالى من الآيات ما وسَّع تفكيرنا وإدراكنا، ذكَّرنا بشيءٍ من فضله علينا فقال تعالى:

{الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}:

وكلمة: **{الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ}**: توحي لنا بنعمتين من نعمه علينا تعالى: وهما الجوع والإطعام.

فمن نعمة الله أن خلق فينا الجوع، إذ أوجد لنا من الأعضاء والأجهزة وخلق لنا من العصارات والأنظمة ما يجعل أعضاءنا تهضم الطعام، وتذهب بفضلاته ومن بعد ذلك ينبعث فينا الجوع وتتجدَّد الشهوة إلى الطعام مجدَّداً وبهذا نتمتَّع بما أعدَّ الله لنا من النعيم والإكرام.

وكما أن الله تعالى خلق فينا الجوع، فهو إلى جانب ذلك يُطعِمُنا، فيمدُّنا بما نحتاجه من فواكه وثمرات، ويخلق لنا ما يخلقه من نعيم وخيرات.

وأما كلمة: **{وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}**: فإنها تُعرِّفنا بذلك النظام الذي رتَّبه تعالى لهذا الوجود، وبتلك السنن الثابتة التي يكون بها خلق الأغذية والأطعمة اللازمة.

فهذه الأرض الدائبة الحركة، وهذه الفصول المتجددة منذ الخليقة، وهذه الأمطار التابعة في نزولها لكثير من القوانين الجوية، وهذه الجراثيم التي تعمل على نموِّ الأغذية، كل ذلك يجعلنا نطمئن إلى تدبير الله، فلا نخشى ولا نخاف فقدان الأغذية، ونعلم أن الذي خلقَ هذا الكون جعل له نظاماً ثابتاً مُطَّرداً، يتأمَّن به غذاؤنا، ويندفع معه كلُّ

خوف.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَظِيمُ

تأويل سورة الفيل

بعد أن بيَّنت لنا سورة قريش نظام هذا الكون البديع، وما فيه من تناسق وإيلاف وتنظيم، وبعد أن عرَّفتنا بخالقنا العظيم، وبأنه تعالى بنا رؤوف رحيم، جاءت هذه السورة تُحذِّرنا من مخالفته تعالى، وتبيِّن لنا أن أخذه سبحانه أليم شديد، وأنه لا يُعجزه في هذا الكون شيء، وإذا كان الإنسان لا يقدِّر إحسان ربه المحسن إليه ولا يسلك الطريق الذي أمره به ودلَّه عليه فلْيستعد للبلاء وليذكر ما حل بأصحاب الفيل. قال تعالى:

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ}:

وقد جاء الخطاب هنا ليس في صيغة الاستفهام، بل التذكير والتقرير، وتثبيت الحادث في الأذهان، وبذا يكون الكلام أكثر وقعاً في النفوس، ويكون التنبيه والتحذير أبلغ أثراً. ويكون ما نفهمه من هذه الآية:

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ}:

أي: هلا سمعتَ أيها الإنسان بما سلَّطه خالقك ومربّيك على هؤلاء الظالمين، وهلاَّ رأيت ما فعله ربُّك بأولئك الذين خرجوا عن الحق وحادوا عن طريق الإنسانية، فجاؤوا لهدم الكعبة ليحوِّلوا الناس إلى كعبتهم التي بنوْها في اليمن طمعاً في الأرباح المادية التي تعود عليهم من الحجِّ.

ثم بيَّن تعالى ما حلَّ بأولئك المعتدين، ليكون ذلك عبرةً لمن يكون ميله إلى الدنيا سبباً في حياده عن الحق، فقال تعالى:

{أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ}:

والكيد: هو إرادة السوء بالآخرين، وفعل ما يغيظ، **والتضليل**: هو الضياع، فسعي هؤلاء المعتدين ذهب أدراج الرياح، وكيدُهم عاد عليهم بالخذلان والدمار، وكذلك شأن كل معارضٍ للحق، مُعاند لأمر الله.

ثم بيَّن تعالى أن هلاك أولئك مع عظيم شأنهم وكبير قوتهم كان بأبسط الأشياء، وأضعف المخلوقات، قال تعالى:

{وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ}:

والأبابيل: الطائفة البسيطة، ومنه الإبَّالة، وهي الحزمةُ من الحطب أو الحشيش، والمراد بذلك: الكناية عن الضعف، لأن الطيور الضعيفة هي التي تجتمع إلى بعضها بعضاً، أما الطيور الكاسرة الجارحة فلا تتكتَّل، ولا تطير مجتمعة.

فالطير الأبابيل، أي: ذلك المخلوق الضعيف الذي لا طاقة له بمقاومة عدوٍّ ولا يقوى على القيام بعمل عظيم، أرسله ربُّك وكان سبباً في هلاك أولئك المعتدين الظالمين، ثم بيَّن تعالى عدله في خلقه، وأن كلَّ ظالم عمله مسجَّلٌ عليه، فإذا حان الحين عاد علىكل امرئٍ ما قدَّم ونزل به ما هو مسجَّل ومدوَّن، قال تعالى:

{تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ}:

والسجيل: هو العمل المسجَّل المكتوب. فالحجارة أصابت أولئك بما قدَّموه، ومما هو مسجَّل عليهم.

ثم بيَّن تعالى حالهم عند حلول العذاب، ونزول الهلاك، قال تعالى:

{فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}:

والعصف: هو التبن، والورق اليابس الذي لا جرم له ولا مقاومة، تعصف به الريح

وتأكله الدواب.

فهؤلاء لما رأوا الهلاك، أصبحوا بين يديه كالعصف الذي تريد أن تأكله الدواب، فهو لا يقوى على الخلاص منها، ولا بدَّ له من الدخول في فكَّيها، والنزول تحت رحى أضراسها.

هذا كان مصير هؤلاء، وكذلك حال كل ظالم لنفسه، وخارج عن طاعة ربِّه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَظِيمُ

تأويل سورة الهمزة

بعد أن بيَّنت لنا السورة السابقة ما حلَّ بأصحاب الفيل، الذين فعلوا ما فعلوا طمعاً في المال والدنيا، جاءت هذه السورة الكريمة تبيِّن لنا أن الذي يُحب الدنيا، ويقبل على جمع المال نصيبُهُ الويل والهلاك، وليس له في الآخرة إلا النار. قال تعالى:

{وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ}:

والويل: هو حلول الشرِّ والهلاك يُصيب الإنسان فيجعله تعيساً معذَّباً ولو كان يملك القناطير المقنطرة من المال، وإن كان صاحب نفوذ وسلطان.

ولكن لمن هو الويل؟ فقد بيَّن تعالى ذلك بقوله:

{لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ}.

فمن هو الهمزة؟

الهُمزةُ: هو الذي غابت نفسه في محبة الدنيا، مأخوذة من الهمز، وهو الضغط والنَّخْسُ، ومنه: المهماز، يُقال: همزَ الفرس، أي: نخسها بالمهماز لِتُسرِع في الجري، فهو همَّاز، وهمزة: أي: كثير النخس والغمز.

والهمزة هنا: تدل على الذي يهمزُ، أي: يندفع ويغيب في محبة الدنيا سعياً وراء زينتها، كما يغيب المهماز في بطن الفرس.

واللمزة: مأخوذة من اللمز، وهو: العيب. يُقال: لَمَزَ فلان فلاناً، أي: عابه[1]، فهو

---

(١) (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ). التوبة (٧٩).

لماز ولُمَزَةٌ. واللمزة: هو العيَّاب، وليس المراد منه هذا الذي يعيب الناس بذكر نقائصهم، بل الذي يعيب نفسه بما يلصقه بها من الشُّح والبخل والبغي والحسد وغير ذلك من العيوب النفسية التي تنشأ عن محبة الدنيا.

ويكون مُجمل ما نفهمه من آية: **{وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ}**:

أن **الهُمزة**: الذي يغيب منهمكاً في محبة الدنيا. واللمزة: الذي جرَّ العيوب لنفسه، فنصيبه حلول الهلاك ونزول الشر والبلاء، وقد أراد تعالى أن يبيِّن لنا الآية الأولى فقال سبحانه:

{الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ}:

وعدَّد المال: أي: أحصاه وجعله ذا عددٍ. عدَّد المال أيضاً بمعنى: جعله عُدَّة للدهر. فمن خصائص المستغرق في محبة الدنيا أن يجمع المال ويجعله عدةً له، ظنّاً أنه بالمال قد أمَّن لنفسه الحياة الهنيئة والسعادة الدائمية. وقد ردَّ تعالى عليه بقوله:

{يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ}:

وفي ذلك تقريع له وتنبيه، أي: وهل يظنُّ هذا الرجل أنَّ ماله يجعله خالداً فلا يمدُّ له الموت يده.

ثم بيَّن تعالى مصير هذا المسكين بعد الموت بقوله:

{كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ}:

وكلا: كلمة ردع، أي: ليس الأمر كما يحسبه ذلك الغافل المطمئن بالدنيا، فإن ماله لا يخلده، وإنه ليُنبذن في الحطمة. والمراد بكلمة (**لَيُنْبَذَنَّ**) أي: ليطرحنَّ، يُقال: نَبَذَ الشيء، أي: طرحه ورمى به.

والحطمة: مأخوذة من حطَّم، بمعنى: كسر، ومنه الراعي الحطَم، أي: الظلوم، يسوق الماشية فيحطمها، **والحطمة**: كل شيء شديد يُضعف الإنسان ويحطمه.

ويكون ما نفهمه من آية: **{كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ}**:

أي: ليطرحن فيما يحطِّمه، ثم بيَّن تعالى عظيم شأن الحطمة بقوله:

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ}:

أي: إنك لا تعلم ما هي الحطمة؟ ولو أنك علمتها لما انكببت على الدنيا ولما انهمكت في محبتها.

ثم وضَّح تعالى **الحطمة** بقوله:

{نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ}:

فالحطمة: هي النار، نار الله، وقد نسبها تعالى لنفسه بياناً لشدَّتها. **والموقدة**: بمعنى المشعلة الشديدة الحرِّ.

ثم بيَّن تعالى فعلها بقوله:

{الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ}:

فهذه النار إنما تطَّلعُ، أي: تصيب وتأتي على الأفئدة، **والأفئدة**: جمع فؤاد، وهو لبُّ النفس.

أي: إن حريقها إنَّما يُسلَّط على لبِّ النفس وينصبُّ عليها. ثم بيَّن تعالى ما تلْقاه تلك الأنفس الملوَّثة من شدة الحر وحريق النار، فقال تعالى:

{إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ}:

والمؤصد: هو المغلق والمطبق. يُقال: أوصد الباب، أي: أغلقه، وأوصد القدر أي: أطبقها.

فالنار **مؤصدة** على تلك الأنفس، أي: مطبقةٌ عليها محيطة بها من جميع جهاتها. ثم بين تعالى كيفية انصباب النار على تلك الأنفس بقوله:

{فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ}:

والعَمَدُ: جمع عمود وهو ما كان على خط مستقيم، كما ينصبُّ لهيب النار نار الصائغ على القطعة التي يصوغها، فبهذا الوضع العمودي يكون حريقها أكثر وفعلها أعظم، وقد جاءت كلمة (**عَمَد**) بصيغة الجمع لتبيِّن أن النار إنما تُمَدَّدُ وتُصوَّب على تلك الأنفس من جهات عدَّةٍ، تصيبها من جميع جهاتها، فلا تجد لها مخرجاً ولا مخلصاً.

(**ونعوذ بالله من حب الدنيا، ونعوذ به تعالى أن تكون النارُ لزاماً**)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾

صدق الله العظيم

تأويل سورة العصر

بعد أن ذكر لنا الله تعالى في (**سورة الهمزة**) أن الإقبال على الدنيا، والاسترسال في محبتها، يصل بصاحبه إلى الحطمة، ويُلقيه في نار الله الموقدة، أراد أن يحذِّرنا في هذه السورة من تضييع عمرنا سدى، وبيَّن لنا أن هذا العمر كنز ثمين، فإن نحن صرفناه في الدنيا وجمعِ حطامها خسرنا خسراناً مبيناً وكان أمرنا فُرُطاً: ولذلك قال تعالى:

{وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ}:

وللعصر معانٍ عدة: فهي آخر النهار، وهي بمعنى الدهر، بمعنى اليوم، والمراد بالعصر هنا: عمر الإنسان، تعتصر فيه نفسه، فيظهر خيرها من شرها. وتنكشف حقيقتها وطويتها، وكلمة (**العصر**) والحالة هذه مفتاح هذه السورة، فبها يستطيع الإنسان أن يُقبل على الله، وبها يستطيع أن يتمثَّل معاني السورة كلها.

فإذا قرأ الإنسان كلمة: (**وَالْعَصْرِ**)... عرَّفته هذه الكلمة أن له في هذه الدنيا مدةً معلومة، وعصراً معيَّناً، وأن له بداية، وهي يوم خروجه طفلاً إلى الدنيا، ونهايةً ينتهي بها أجله، فيفارق هذه الحياة ويرحل عنها، وبهذا تحصل للنفس موعظةً وذكرى، فهي تَذْكُرُ بدايتها، وأنها من قبل لم يكن لها وجود، ولم تكن شيئاً مذكوراً، والخالق العظيم الذي خلقها وساقها لهذه الدنيا هو الذي يعظها ويُذكِّرها، ثم هي تذكر نهايتها، إذ أن عصرها سينقضي يوماً ما، وأنها لا بد لها من الرحيل والزوال، وعندها تتذكر يوم فراقها فلا تعود تركن إلى الدنيا، ولا تعود تطمع في البقاء فيها، ثم إن كلمة (**وَالْعَصْرِ**) تُعرّفنا أيضاً أن هذه المدة التي نقضيها في الدنيا ثمينة وثمينة جداً، فيها يستطيع الإنسان أن ينال سعادة أبدية لا نهاية لها، وبهذه المدة المحددة نستطيع أن نؤمِّن لأنفسنا حياة طيبةً أبداً وسرمداً.

فإذا اغتنم الإنسان هذه الحياة، فقد فاز فوزاً عظيماً، وإن هو اشتغل بالدنيا وزينتها، فقد خسر خسراناً مبيناً، ولذلك قال تعالى:

{إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ}:

والخسر: ضد الربح، فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان، وقد أعدَّ له من قبل أن يخرجه إلى الدنيا خيراً كثيراً، وعطاءً عظيماً، **(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)**، ولكن هذا الإنسان بإعراضه عن ربه تعمى بصيرته، فيضلّ طريقه، ولا يرى ذلك الخير الذي أعدَّه له ربه بل يضيّعه ويخسره.

ومن جهة ثانية ذلك المعرض عن الله يتناول الأشياء المؤذية، ويُقارف المعاصي المهلكة، وبذلك يغدو مريض القلب، عليل النفس، فيخسر السعادة التي أعدَّها الله له في الدنيا، ومن رحمة الله به ألاَّ يدعه في ذلك المرض النفسي المهلك، بل يزوي عنه الدنيا ويسوق له من المرض والفقر والنغص والكرب ما يكون مُطهِّراً لقلبه وعلاجاً لنفسه، ولو أنه سلك الطريق الذي بيَّنها له ربُّه لبُدِّل فقره غنىً، ومرضه صحة، ولكان عمره كله خيراً.

ذلك لأن الله الذي خلق هذا الكون، وجعله على أبدع نظام، لم يخلق الإنسان عبثاً، ولم يُرسله إلى هذه الدنيا ليعيش فيها شقياً معذَّباً، بل جعل له نظاماً، وبيَّن له طريق السعادة شِرعةً ومنهاجاً.

وقد أراد تعالى أن يُبيِّن لنا الطريق الذي به ننال الفضل الإلهي المعدَّ لنا، ويندفع به ذلك الخسر عنا، فقال تعالى:

{إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ}:

ولكن ما هو هذا الإيمان الذي يكون سبباً في نوال الفضل الإلهي، ودفع الخسران؟

أقول: هذا الإيمان هو الإيمان بالله، أي: معرفة الإنسان بصفات ربِّه، وشهود كماله، ورؤية فضله وإحسانه.

فإذا أقبلت النفس إقبالها الصادق على الله، فهنالك تشهد من عطفه ورحمته، وترى من لطفه ورأفته، وتُعاين من إحسانه وفضله ما يجعلها تذوب في محبته، وتُسبِّح بحمده، وتقدِّره حق قدره.

ذلك مبدأ الإيمان، وهنالك وبهذا الإيمان وبتلك المشاهدة يستسلم الإنسان إلى ربِّه، كيف لا وقد رأى أنه سبحانه أرحم به من أمه وأبيه! لا بل من نفسه التي بين جنبيه، نعم يستسلم الإنسان لربه، فيطيعه في أوامره، ذلك لأنه رأى أن جميع أوامر الله كلها في خير الإنسان ومصلحته، وجميعها سبب جلب الخير والسعادة إليه، ولذلك ذكر تعالى عمل الصالحات بعد الإيمان، إذ أن الإيمان الذي تكلَّمنا عنه أصلٌ، ومنه ينبعث العمل الصالح وبسببه تنشط النفس لفعل الخيرات وعمل الصالحات. فالإيمان يُري النفس أن سعادتها وهناءها لا يكون إلا بطاعة الله، وبهذه الطاعة يعود الخير على النفس بما قدَّمته من الأعمال، فتشكر الله وتزداد إقبالاً عليه، وهنالك تشتق من الرحمة والعطف فتعود عطوفة رحيمة، تتمنى الخير لكل إنسان، وعندها تنطلق في دعوة الناس إلى ذلك الربِّ الرحيم مبيِّنة لهم أن طاعته سبحانه سبب السعادة ومصدر الخير، ولذلك قال تعالى:

{وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ}:

والتواصي بالحق: إنما هو مرتبة تتلو العمل الصالح المرتكز على الإيمان، ومن شأن هذا الرجل المؤمن الذي أخذ يوصي الناس بالحق وسلوك طريق الخير أنه يتكلم للناس

دوماً عن رحمة الله بخلقه، مبيّناً لهم أن الله تعالى لا يدع الإنسان مريض النفس، عليل القلب، بل إن الرحمة الإلهية تقتضي مداواة الأنفس الملوَّثة بجرثوم الشهوات الخبيثة، فكل ما يسوقه الله تعالى من البلاء والشدة كل ذلك علاجٌ ودواءٌ للأنفس المريضة، التي أعرضت عن الله فوقعت في المعصية. وعلى الإنسان أن يصبر على ما ابتلي به، فإن ذلك كله علاج ومن بعده الشفاء واليسر، والله رحيم بخلقه، ولذلك قال تعالى:

{وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ}:

فالمؤمن المقبل يدرك بإيمانه حكمة الله في البلاء الذي يسوقه لخلقه، ولذلك تراه يُوصي الناس بالصبر، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات تراهم ينطلقون في الدعوة إلى الحق والتواصي بالصبر، ومن سلَكَ مسلكهم فقد خلُصَ من الخسر وفاز بالسعادة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

صدق الله العظيم

تأويل سورة التكاثر

بعد أن جاءت سورة العصر مبيِّنة قيمة العمر وعظيم شأن هذه المدة التي يقضيها الإنسان في هذه الحياة، جاءت سورة التكاثر تُحذِّر الإنسان من تضييع عمره في جمع حطام الدنيا، وتبيِّن له أن هنالك مسؤوليةً كبرى سيكون مُعرَّضاً لها، ولذلك قال تعالى:

{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ}:

وألهاكم: بمعنى شغلكم، **والتكاثر**: هو الاستزادة والتسابق إلى تكثير الشيء.

ويكون المراد من آية: **{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ}**:

أي: شغلكم التكاثر في الأموال والأولاد، وألهاكم ما في الدنيا من المناصب والسلطان واللذائذ المادية عن التمتُّع بذلك الكنز الثمين، وهو معرفة الله.

وبالحقيقة: الدنيا وما فيها من أموال وأولاد، وجميع ما يسعى الناس إليه من عزٍّ وسلطان، كل ذلك لهو باطل وظل زائل، والعبرة كل العبرة من هذه الحياة والمقصود منها أن يتعرَّف الإنسان منها على ربِّه، وأن تحصل له الصلة بالله، فإن وصل إلى ذلك فقد أصبح إنساناً وفاز بالسعادة في الدنيا والآخرة، وهنالك يحيا حياة طيبة.

وفي الحديث القدسي الشريف:

« ابن آدم: اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فِتُّك فاتك كل شيء، وأنا أحَبُّ إليك من كلِّ شيء »[1].

---

(١) الزبور، وفي كتاب إحياء علوم الدين: الجزء الرابع ص٤٦٩ بلفظ: "من طلبني وجدني ومن طلب غيري لم

ولكن ضيَّع الناس ذلك الكنز الثمين، واشتروا بتلك السعادة الحقيقية الخالدة متاعاً زائلاً، ولهواً باطلاً، وثمناً قليلاً، غير شاعرين بالخسران الذي يلحق بهم وينالهم، فهم لا يزالون كذلك حتى يوافيهم أجلهم، وهنالك يستفيقون من نومهم، ويصحون من غفلتهم، والناس نيام إذا ماتوا انتبهوا.

ولذلك قال تعالى:

{حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ}:

فعند الموت وحين تنكشف الحقائق يرى كلُّ امرئٍ نتائج سعيه ولهوه وعظيم خسرانه، وقد جاء التعبير عن الموت بقوله: **{زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ}** لتبيِّن للإنسان أن هذه المدة التي يقضيها في القبر مهما طالت منذ موته إلى يوم بعثه إنما هي زيارة مؤقتة، وستكون بعد الموت عودة إلى الحياة، تلك الحياة الأبدية التي يمتد فيها شقاء الكافرين، فلا ينتهي ولا ينقضي، ويستمر فيها نعيم المحسنين أبداً، ذلك كله تُوحيه لنا كلمة (**زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ**).

وفي كلمة (**زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ**) عظة بليغة تجعل حدّاً بين الإنسان وبين مطامعه الدنيوية.

وقد أراد الله تعالى أن يُنبِّه الإنسان إلى تلك المعرفة التي ستحصل له عند موته، وردعه عن الاستمرار في لهوه وضلاله فقال تعالى:

{كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ}:

وكلاَّ: كلمة زجرٍ وردع. تردعُ المخاطب عن الاستمرار في غيِّه، وتزجره عن التمادي في ضلاله، **وسوف تعلمون**: أي: ستعلمون عند الموت ما أنتم الآن فيه من الضلال،

يجدني"، فقال أبو الدرداء: أشهد أني لسمعت رسول الله ﷺ يقول هذا.

وما تجرُّونه لأنفسكم من الخسران في لحاقكم بالدنيا وتضييعكم لمعرفة الله، ستعلمون أن هذه الحياة التي أنتم الآن فيها ليست بالحياة الهنيئة وأن جميع ما تبذلونه في سبيلها لا يصل بكم إلى السعادة الحقيقية، وستعلمون خسارتكم في تضييعكم معرفة ربكم، تلك المعرفة التي تسمو بالنفس فتجعلها نفساً إنسانية وتجعلها تحيا حياة سعيدة.

{ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ}:

وقد كرَّر تعالى كلمة (**كلاَّ**) زيادة في الرَّدع والزَّجر، وجاءت كلمة (**ثم**) وبعدها (**سَوْفَ تَعْلَمُونَ**) لتبيِّن لنا أن هنالك معرفة ثانية تلي المعرفة الأولى التي تكون عند الموت، وهذه المعرفة الثانية ستكون غداً عند البعث والحشر، وقت الصيحة بالحق والخروج من القبر، وحينئذٍ يعلم المفرِّطون في جنب الله العظيم خسارتهم، ويرون أن ما جمعوه من الدنيا وتكاثروا به إنما هو حسرة عليهم.

وقد أراد تعالى أن يُتمم الردع والزجر، وأن يبيِّن للإنسان الطريق الذي يخرج به من هذا الضلال، ويصل به إلى الهدى والرشد، فقال تعالى:

{كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ}:

واليقين: هو ثبوت الأمر واستقراره في النفس: **والعلم**: هو الرؤية والمشاهدة، وهذه الرؤية على نوعين:

١. رؤية ترى بها النفس صورَ الأشياء.

٢. رؤية ترى بها حقائق الأشياء، أي: ما فيها من الشرِّ والخير.

فأما **رؤية الأشياء**، فهذا يكون بواسطة العين. إذ أن النفس في هذه الحال ترىالخيال المرتسم في العين، والعلمُ المبنيُّ على هذه الرؤية المذكورة ليس بعلم اليقين.

وأما **رؤية الحقيقة**، فإنما هي إدراك النفس بذاتها ما في الأشياء من الشرِّ والخير سواءً كان هذا الإدراك مبنياً على سماعٍ أو رؤيةٍ بالعين.

وهذا العلم المبني على هذا النوع من الرؤية هو: علم اليقين، ولكن كيف تستطيع النفس أن تدرك ما في الأشياء من الشرِّ أو الخير؟

أقول: هذا الإدراك لا يكون إلاَّ إذا أقبلت النفس على ربِّها. وهذا الإقبال لا يكون إلا بالصلاة، تلك الصلاة التي تجتمع فيها النفس بكلِّيتها مقبلة على ربِّها، وبهذا الجمع والإقبال تستنير بنور الله، ذلك النور الذي يكشف لها الحقائق المستكنَّة وراء الصور والظواهر. فالمدارُ إذاً كله على الصلاة، وعلم اليقين لا يكون إلا بالصلاة، وما الخلاص من الشرور إلا بالصلاة، قال تعالى:

(... **إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ**...)[1].

ولكن كيف تجتمع النفس في الصلاة بكلِّيتها؟ وما هي الشروط التي إذا تحققت استطاعت النفس أن تُقبل على ربِّها؟ أقول هنالك شرطان أساسيان:

١. فأما الأول: فهو الاستقامة على أمر الله، ومن دونه لا تكون الصلاة، لأن النفس المجرمة إذا وقفت في الصلاة وقفت خجلى من ربِّها فلا تستطيع أن تقبل عليه تعالى.

٢. وأما الشرط الثاني: فهو أن تستقبل النفسُ الكعبةَ، ذلك البيت الذي طهَّره الله بتجلِّيه المتواصل عليه من دخول الشيطان فيه. فإذا وقفت النفس للصلاة في ذلك البيت المحرَّم، انقطعت عنها الوساوس، وأصبحت مستعدَّة للإقبال.

ومن جهة ثانية: النفس وهي قبسٌ من نورٍ، إذا وقفت في تلك البقعة المباركة فهنالك

---

(١) سورة العنكبوت: الآية (٤٥).

يجتمع نورها بكلِّيته ولا يعود مشتتاً هنا وهناك، ويكون مثلها كمثل شمعة حُصرت في غرفة صغيرة مظلمة، فعندها يضيء نورها ما حولها، بخلاف ما إذا كانت موقدةً في فلاةٍ واسعة.

فهذه النفس المحفوظة من الوسوسة والمجتمعُ نورها إذا هي أقبلت على ربها فعندها يستطيع نورها أن يكشف لها من صفات ربِّها، فتشهد طرفاً من الكمال الإلهي الذي لا يتناهى، وهنالك تستعظم خالقها وتحبُّهُ، وتجد أن الحمد والثناء على ربِّها في صلاتها وأن ذلك التسبيح والتمجيد الذي تتلوه بلسانها في قراءتها إنما هو حقائق ظاهرة لها، فهي تشعر بها وتتذوقها بذاتها.

ثم إنها بهذا الشعور والذوق تنطبع فيها انطباعات من الكمال الإلهي الذي شهدته، فإذا هي تَلَتْ أوامر ربِّها شهدت ما فيها من الخير، وإذا هي تَلَتْ نواهيه رَأَتْ ما في مخالفتها من الشرِّ، ويكون هذا العلم الذي تكسبه النفس في مثل هذا الحال علماً بحقائق الأشياء، أي: بما فيها من الشرِّ أو الخير، فذلك هو العلم الحقيقي الذي سمَّاه تعالى بعلم اليقين.

ونريد الآن أن نضرب مثلاً نميِّز به العلم الظاهر عن العلم بحقيقة الشيء، فنقول: السمكة بعينها الظاهرة لا ترى إلا قطعة اللحم التي رماها لها الصياد في صنارة الشصِّ، ولو كان لها بصيرة ونور نافذ قوي لرأت الشوكة التي انطوت عليها قطعة اللحم، ولشاهدت الموت المستكن وراء الطعم، وهنالك تعاف قطعة اللحم فلا ترغب فيها ولا تميل إليها.

ولو أن الكلب كان ذا بصرٍ نافذ لرأى السمَّ الذي يدسُّ له أحياناً في قطعة اللحم، ولشاهد ما يتبع تناوله لها من الآلام التي تنتهي به حتماً إلى الموت.

وكذلك الإنسان إذا أصبح ذا بصيرة، وإن شئت فقل ذا نفسٍ مستنيرة بنور الله، فعندها يرى حقائق الأشياء ولا تعود تغرُّه الشهوات الدنيا، أي: الدنيئة، أي: أنه يرى ما فيها من المضارِّ، وما تنطوي عليه من النار، تلك النار التي ستضطرم في نفسِ من يتناولها، وذلك ما سمَّاه الله تعالى بالجحيم، فقال تعالى:

{لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ}:

أي أنكم لو أقبلتم واستنرتم وعلمتم علمَ اليقين لرأيتم ما في الشهوات الدنيا من الجحيم.

ثم بيَّن تعالى أن كل إنسان لا بدَّ وأن يشهد حقيقة الدنيا ويراها رؤية حقيقية، فيرى الشرَّ المستكن في شهواتها بعد الموت، كما رآه في الدنيا من حصل له علم اليقين. قال تعالى:

{ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ}:

أي: سترون حقائق الشهوات والشرَّ الذي انطوت عليه بعين اليقين، أي: بعين النفس لا بعين الرأس، ببصائركم لا ببصركم، وسترون الحقائق ظاهرة لكم، تشهدون حقائق ما كسبتم.

{ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}:

فهذا النعيم الذي ينعُمُ به المعرضون عن الله في الدنيا، وتلك اللذائذ المحرَّمة ستنقلب عليهم حسرات، وسيجدون من ورائها مسؤولية كبرى تتبعها أنَّات وزفرات، ورُبَّ لذّة آنية أعقبتها آلام أبدية، ومن عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها، وإذاً فالمدار كلُّه على الصلاة، تلك الصلاة التي تكلَّمنا عنها، حيث تشهد النفس فيها الحقائق فترى

ما في المعاصي من الشرور والأذى، وما في الطاعة من الخيرات.

﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[1].

---

(١) سورة العنكبوت: الآية (٦).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ
ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ
ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ
رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ
مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَظِيمُ

تأويل سورة القارعة

بعد أن بيَّن لنا تعالى في سورة التكاثر مسؤولية الإنسان عما يقدِّمه من الأعمال في حياته الدنيا، جاءت هذه السورة الكريمة تبيِّن لنا شأن ذلك اليوم الذي تقع فيه الصيحة، فيقف الخلق جميعاً بين يدي الله. وهنالك يتقرر المصير ويكون الفصل بين الشقي والسعيد، ففريقٌ في الجنَّة، وفريقٌ في السعير، قال تعالى:

{الْقَارِعَةُ}:

والْقَارِعَةُ: مأخوذة من القرع. هو أن يصدُم شيءٌ شيئاً آخر. فتحصل من أثر هذا الصدم هزةٌ نفسيةٌ وأثر مزعج. يُقال: قرع الباب: إذا كان في طرقه ما يهز النفس ويزعجها. ويُقال: قرع جُلجُلُ المدرسة، لما ينشأ عن القرع من هزةٍ في النفس تقطع عن التلميذ استرساله في اللعب والمرح. أو هدوءه واستسلامه للدرس، وفي كلا الحالين هزَّةٌ للنفس. والمراد بالقارعة الواردة في هذه الآية: تلك الصيحة التي تسمعها الأنفس يوم القيامة بعد الخروج من القبور.

فالناس بعد خروجهم من قبورهم، وعودة أرواحهم إلى أجسادهم، ينادى بهم للوقوف بين يدي ربِّهم، فإذا سمعوا الصيحة، وجَفَتْ قلوبهم، واهتزَّتْ من الفزع نفوسهم.

ويكون المراد من **القارعة**: تلك الصيحة التي تنزعج منها النفوس المعرضة، وتهتزُّ لها القلوب الغافلة عن الله في ذلك اليوم العظيم الذي يتقرر فيه المصير. وبما أن القارعة وردت في الآية الأولى عامة، وتشمل كلَّ نداء وصيحة تنشأ على أثرها هزةٌ نفسيةٌ مزعجة، لذلك أراد تعالى أن يعرِّفنا بهذه القارعة فقال:

{مَا الْقَارِعَةُ}:

أي: ما هذه القارعة؟ وأي قارعة هي؟ ثم بيَّن تعالى عظيم أمرها وكبير أثرها فقال:

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ}:

أي: ما أعظمها عليك أيها الإنسان، وما أشد أثرها في نفسك. ثم بيَّن تعالى يوم وقوعها بقوله:

{يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ}:

والفراش: هي تلك الحشرات الضعيفة الخفيفة التي مع ضعفها لا تكاتف بين أفرادها ولا اتحاد ولا قوة لها على الوقوف أمام أضعف المؤثرات التي تقع عليها.

والمبثوث: هو المنتشر، فالناس يومئذٍ ضعفاء متفرِّقون أشبه بالفَراش، وهم يومئذٍ منتشرون على صعيد واحد، واقفون بين يدي ربهم ينتظرون الفصل ليروا نتائج أعمالهم.

{وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ}

والعهن: هو الصوف. **والمنفوش**: هو المتباعد الأجزاء. فالجبال الصلبة المتماسكة الآن ستكون في ذلك اليوم كالصوف المنفوش، فهي قائمة منتصبة، ولكنها مُتخلخلة متفرقة الذرَّات، فلا تماسك ولا ترابط بين ذرَّاتها.

فإذا كان هذا شأن الجبال العظيمة الصلبة بين يدي ربها في ذلك اليوم فما حَوْلُكَ وما قوّتك يوْمئذٍ أنت أيها الإنسان؟

ثم بيَّن تعالى نتائج الناس ومصيرهم فقال:

{فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ}:

والموازين: جمع ميزان. وثِقلُ الميزان إنما يكون على حسب ما يوضع فيه من عمل ثقيل. ويكون العمل الثقيل ثقيلاً على حسب ما فيه من نيَّةٍ صادقة وإخلاص.

فالعمل الذي يريد به صاحبه وجه الله تعالى، ولا يبتغي من ورائه فائدةً دنيوية ولا منفعة شخصية، هذا العمل يكون ثقيلاً لما انطوى عليه من الصدق، ولما ينشأ عنه من الخير. فقد يتكلم الإنسان بكلمةٍ تكون سبباً في هداية شخص، ومن ورائه أشخاص كثيرون، فهذه الكلمة إنما هي ثقيلة عند الله لما يتولد عنها من الخيرات. قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۞ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1].

ولكن ما هو المراد من ثقل الميزان؟

إن ثقل الميزان لا يعني رجحان كفةٍ على كفة، إنما المراد أن تتكوَّن لدى الإنسان الثقة بإحسانه، تلك الثقة التي تُنسيه كلَّ سيئةٍ.

فإذا قدَّم الإنسان عملاً من أعمال الخير العظيمة، فعندها يرجح عمله على سيئاته، فتنسى نفسه كل سيئة. وبنسيانها لسيِّئاتها يتيسَّر لها طريق الإقبال على ربِّها، وبإقبالها يحصل الشفاء والطهارة، وتخلص بذلك من كل علَّة، وتصبح أهلاً لكل إكرام ونعمة، فتدخل الجنة، ويغمرها الله بإحسانه، وتحيا حياةً طيبة، وهذا ما تعنيه آية: **{فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ}**.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية (٢٤-٢٥).

فهذا الإنسان إنما هو في عيشة راضية لما يُقدَّم له من الإكرام الإلهي العظيم، ذلك الإكرام التام المتمادي في الازدياد، والذي لا تشوبه شائبة، ولا يَعْرُضُ له نقصان.

{وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ}:

وذلك بأن كانت أعماله صادرة عن مطامع شخصية وغايات دنيوية، فهذا الرجل لا وزن لأعماله، لأنها مجردة من كل خير، خالية من كل فائدة، ولذلك تظهر له يوم القيامة خفيفة لا وزن لها، وعندها تتراءى له سيئاته فيقف بين يدي ربه خجلاً، ويحول خجله بينه وبين الإقبال على الله، فيبقى مريض النفس ويصيح ألماً، ثم يستغيث مُستنجداً، عندها يُساق إلى النار، ولذلك قال تعالى:

{فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ}:

والأم: هي التي يؤمُّها الإنسان ويأوي إليها، فيجد في أحضانها عطفاً ورحمة، والنار للمجرم أمّ لأنه يؤمُّها بسبب ما فيه من ألم وأوجاع، وهي هاوية لأنه يهوي عليها ويرتمي في أحضانها ليكون حريقها وسعيرها دواءً له يخفف عن نفسه آلامها وأوجاعها. وقد أراد تعالى أن يبيِّن لنا شأن النار وخطرها، فقال تعالى:

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ}.

ثم أجاب تعالى بقوله:

{نَارٌ حَامِيَةٌ}:

وإذاً فالعمل الصالح سبب الإقبال، وفي الإقبال شفاء وحياة. والعمل السيِّء سبب الإدبار، وفي الإدبار ممات النفس والهلاك، وإنه لا بدَّ للإنسان من عمل صالح يجعله يقبل بوجهه على الله، ومن لا عمل صالح له فيُخشى عليه من الهلاك. وفي الحديث

الشريف:

« **يكاد الفقر أن يكون كفراً** »[1].

وليس المراد من الفقر فقر المال، وإنما المراد الفقر بالخير، والتقصير في الأعمال الصالحة.

---

(١) رواه البيهقي وغيره مرفوعاً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ﴿١﴾ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ﴿٢﴾ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ﴿٣﴾ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ﴿٤﴾ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ﴿١١﴾

صدق الله العظيم

تأويل سورة العاديات

في هذه السورة يريد الله تعالى أن يبيِّن لنا بعض الآيات الكونية التي تدلُّ الإنسان على عظمة خالقه، وتعرِّفه بعظيم فضله وعنايته به، فلعلَّه يستيقظ من غفلته ويصحو من سكرته، فيرجع عن إعراضه وكفره ويثوب إلى رشده، ولذلك قال تعالى:

{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً ۞ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً ۞ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً۞ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ۞ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً}.

فهذه الآيات الخمس تلفت نظرك أيها الإنسان إلى ذلك النظام البديع الذي تنزل به الأمطار، وتتوفَّر لك بواسطته المياه في العيون والآبار. وقد ذكر لنا تعالى هذه الآيات على وجه الترتيب كما تقع وكما يراها الإنسان، فقال تعالى:

{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً}:

والعاديات: جمع عادية، مأخوذة من عَدَا، أي: ركض وجرى. **والعاديات** هنا: هي الرياح تجري بصورة مستمرة متنقِّلة في الطبقات الجوية حسبما تصرِّفها يد القدرة الإلهية من جهة إلى جهة أخرى ومن مكان إلى آخر.

والضبح: هو الصوت، يُقال: ضبحت الخيل في عدوها، أي: أسمعت من أفواهها صوتاً ليس بصهيل ولا حمحمة، وضبحت الأرنب، وضبح الثعلب، أي: صوَّت... وضبحُ الرياح: صوتها الذي يُسمع منها أثناء جريها، وضبح الرياح هو الأصل اللغوي لها، إذ أن ضبح الخيل والأرنب والثعلب إنما وضع لصوت جريان الهواء في أفواهها، فضبح الرياح هو الصوت الجامع لها كلها.

ويكون ما نفهمه من آية: **{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً}**:

أي: انظر أيها الإنسان إلى هذه الرياح في جريها، وإلى ذلك الصوت المنبعث عنها، وتطلَّع من ذلك إلى هذا الربّ العظيم الذي يُرسلها لك ويصرِّفها، فكِّر في ذلك، تُدرك من ورائها عظمة خالقها وقدرة مُرسلها.

ثم بيَّن تعالى لك آية ثانية من آياته فقال سبحانه:

{فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً}:

والموريات: جمع مورية، **والمورية**: هي المخرجة الشَّرر أو النار، يُقال: أوْرى فلانٌ النار، أي: أشعلها. وأوْرى الزند، أي: أخرج ناره.

والمراد بالموريات هنا: أي الغيوم. **والقدْحُ**: هو الطعن، وأن يصدُم شيءٌ شيئاً، فيخرج من ذلك شررٌ ونار. يُقال: قدح فلان بالزَّند، أي: حاول إخراج النار به، وقدح عود الثقاب، أي: صكَّه بالعلبة ليخرج النار.

والمراد ب**الْمُورِيَاتِ قَدْحاً**: الغيوم تحتكُّ ببعضها وتقدح، فينشأ عن هذا القدح شرارات كهربائية، وبرق لامع. فمن الذي ساقَ لك هذه الغيوم؟ ومن الذي جعل فيها هذه الكهربائيات؟ ومن الذي يجعلها تحتكُّ وتقدح فينشأ عنها هذا النور والضياءِ؟ ثم بيَّن لنا تعالى آية ثالثة من آياته فقال:

{فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً}:

والمغيرات: جمع مغيرة، والمغيرة: هي المسرعة في سيرها ووقوعها. والمغيرة هي المغيثة. يقال: أغارنا الله بالمطر، أي: أغاثنا. والمراد **بالمغيرات** هنا: الأمطار فهي تغير، أي: تنصبُّ انصباباً، وهي تغير، أي: تُغيث الناس فينبت بها الزرع ويحيا الضرع، **والصبح** هو الشيء الظاهر البيِّنُ، يُقال: أصبح الحقُّ، أي: استبان ووضَحَ. وأصبح الصباح:

أضاء.

وصبحاً: هنا يُبيِّن حال الأمطار في ظهور نفعها للخلق، فالله تعالى يقول:

انظروا عبادي إلى الأمطار كيف أنها تغير على الأرض، فتغيثكم غياثاً ظاهراً بيِّناً كالصبح!

ثم بيَّن لك تعالى آية رابعةً من آيات رحمته وكرمه بك، وفضله عليك، فقال تعالى:

{فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً}:

وأَثَرَ: بمعنى نَقَلَ وحَفِظَ. ومنه الحديث المأثور عن الرسول ﷺ،أي: المنقول والمحفوظ. والنون في كلمة (**أثرن**) إنما تدل على صفات الله تعالى من رحمةٍ وإحسانٍ وعطفٍ وحنانٍ وغيرها من صفات الكمال.

والهاء: من كلمة (**به**) إنما تدلُّ على ذلك النظام الذي بواسطته صار نزول الأمطار، **والنقع**: هو الماء المجتمع، ويكون مُجمل ما نفهمه من آية:

{فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً}:

أي: وإنني يا عبادي برحمتي وإحساني وعطفي وحناني نقلتُ لكم بذلك النظام البديع مياه الأمطار وحفظتُها لكم في تلك المستودعات.

{فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً}:

ووسط الشيء، أي: جعله في مكان متوسط، والنون في كلمة (**فوسطن**)، تعود أيضاً على صفات الله تعالى. **والهاء**: من كلمة (**به**) ترجع إلى النقع، أي: الماء المجتمع. وكلمة (**جمعاً**) تعني: جميع المخلوقات الحية من إنسان وحيوان ونبات.

ويكون مُجمل ما نفهمه من آية: **{فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً}** أي: إنني برحمتي وحناني وما إليها من صفاتي سيَّرتُ لكم هذا الماء المجتمع من فتحات معيَّنة وبمعايير مناسبة، فكانت منه العيون والأنهار التي تجري متخلِّلة الأرض بحيث تستفيدون منها جميعاً.

وبعد أن ذكر تعالى للإنسان من الآيات الدالة على فضله وكبير قدرته، أورد الآية الآتية في صيغة العجب والعتاب لهذا الإنسان فقال تعالى:

{إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ}:

أي: أفبعد هذا الفضل والإنعام؟ أبعد هذا المنِّ والإكرام، أبعد عناية خالقك بك وتسخيره هذا الكون كله من أجلك تكون كنوداً؟ أي: غير مكترثٍ بفضل ربك، فلا ترى رحمته بك ولا فضله وإحسانه عليك.

{وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ}:

أي: وإنك لشاهد هذا الكون كلَّه الذي يعمل من أجلك. فهذه الرياح تعدو جارية لتجمع ذرَّات بخار مياه البحار وتسوق لك السحاب، والسحب تتكاثف وتقدح لتنزل لك الأمطار، والأمطار تهطل حاملةً ما تحمل من المواد التي تنبت الزرع، والأرض والينابيع تخزِّن المياه ثم تأتيك بمقدار مناسب مع حاجتك وحاجة زرعك. فأنت ترى هذا الفضل وهذه العناية، وتشهد هذا التسخير والتدبير، ثم تكفر بخالقك ولا تتذكر ولو قليلاً نِعَمَ ربِّك وفضله عليك.

{وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}:

أي: وأنت لما أحبَّه لك ربك من الخير لشديدُ البخل على نفسك، فتهرب من الإقبال عليه تعالى، وفي إقبالك عليه حياتك وسعادتك!!

{أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ}:

والمراد من: (**أَفَلاَ يَعْلَمُ**): الحثّ والتحضيض. و (**بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ**): تعني خروج الناس من قبورهم.

ويكون المراد من الآية الكريمة، أليس من الواجب على هذا الإنسان أن يتعرَّف ويعلم ما سيكون عليه مصيره: إذا صار يوم القيامة وخرج من قبره، أهو غافلٌ لا يفكر بذلك اليوم الذي تتوقف عليه سعادته؟ ثم بيَّن تعالى:

{وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ}:

أي: أليس من الضروري اللازم عليك أيها الإنسان أن تتعرَّف إلى ذلك اليوم الذي يُحصَّل فيه ما في الصدور، أي: تظهر مخبَّآتُ النفوس وما كمُنَ فيها من الشهوات والشرور.

نعم، لا بدَّ لك من معاينة هذا اليوم، ولا بدَّ من ظهور حقيقتك، فترى حينئذٍ ما انطوت عليه نفسك من خير أو شرٍ، من صحة أو مرض، وعندها لا بدَّ لربك الرحيم بك من إعطائك ما يوافقك، فهو عليم بك، ولذلك يسوقُ لك ما يناسب حالك، ولذا قال تعالى:

{إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ}:

أي: إنَّ هذا الرب الرحيم عليم حكيم، فهو يسوق لكل امرئٍ ما يناسب حاله ويواتيه، فإن أنت نظرت في هذا الكون واتَّعظت بما فيه، وإن أنت عرفت نِعَمَ ربِّك واستدركت أمرك، وأقبلت عليه فلك الحسنى والخير، وإن أنت أصررت على إعراضك وظللت مُستمراً في ضلالك فلك المداواة والمعالجة، وفي المداواة والمعالجة ما فيها من

الكرب العظيم والعذاب الأليم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَظِيمُ

تأويل سورة الزلزلة

بعد أن حثَّنا ربُّنا في سورة العاديات على السعي وراء معرفة ما سيكون عليه حالنا إذا نحن خرجنا من قبورنا وقد جمعت بين أيدينا أعمالنا، فصَّل لنا في هذه السورة (**سورة الزلزلة**) ما أجمله في السورة السابقة. وبيَّن لنا أن ذلك اليوم يومٌ عظيم، فكلُّ امرئٍ مرهونٌ بما قدَّم، فإن خيراً فخير وإن شراً فشرٌ.

وقد بدأ تعالى هذه السورة ببيان ما سيحدث في ذلك اليوم فقال تعالى:

{إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا}:

والزلزال: هو الهزَّة العنيفة والاضطراب، يتبعها تفرُّق الأجزاء وانفكاك الترابط بين الذرَّات، فالأرض كلها في قبضة الرحمن، وهي الآن مترابطة متماسكة الأجزاء، فإذا جاء أمر ربِّك وزُلزلت الأرض في ذلك اليوم العظيم، تفرَّقت أجزاؤها وزال هذا الترابط بين ذراتها وعادت تلك الأنفس المجتمعة على بعضها متفرِّقة متفكِّكة ورجعت إلى أصلها.

(... **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**)[1].

ولكن ما الذي يتبع هذه الهزة والزِّلزال؟ لقد بيَّن لنا تعالى ذلك بقوله:

{وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا}:

والأثقال: جمع ثِقلْ، والمراد بهم الناس الذين وارتهم الأرض تحت ترابها وضمَّتهم في بطنها، فهم أثقال الأرض لما بين أيديهم من أعمال ثقيلة لهم إن كانت خيراً، وعليهم

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (١٠٤).

إن كانت شراً.

فإذا حدث ووقع هذا الزلزال فهنالك تُخْرِجُ الأرضُ هؤلاء من بطنها، وتجعلهم على ظهرها، فقد انتهى الرقاد وانقضى وقت السبات. وهنالك وعندما يخرج الإنسان من قبره وتُخرجه الأرض من بطنها، يُدهش لهذا ويتساءل عمَّا جرى ولذلك قال تعالى:

{وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا}:

أي: وما بالُ الأرض؟ وما حدث فيها حتى اهتزَّت اهتزازاً، وزلزلت زلزالها وأخرجتنا من بطنها؟

وهنالك وبعد استفاقة الإنسان يعلم أنه صار في اليوم الموعود، يوم الجزاء على الأعمال الذي كان حدَّثه عنه ربُّه في الدنيا. وأن الأرض إنما زُلزلت وأخرجتْ من فيها بأمر من الله تعالى. ثم إن الأرض بعد ذلك ستتحدَّثُ لك بما كنت فعلته على ظهرها. فكل عملك محفوظٌ وحقائقه ماثلةٌ لا تنمحي ولا تزول.

فإذا كان يوم القيامة أوحى الله إلى الأرض بأن تحدِّث بما جرى عليها، وبما كان فعله الإنسان على ظهرها خيراً كان أو شراً، ولذلك قال تعالى:

{يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۞ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا}.

ولكن ماذا يكون عليه حال الناس بعد وجودهم في هذه الحياة الثانية.

إنهم سيكونون أشتاتاً، أي: متفرِّقين، فكل امرئٍ قد أهمَّته نفسه، وشغله أمره، والكلُّ يصدرون ويسيرون ليروا أعمالهم، تلك الأعمال التي كانوا قدَّموها في الحياة الدنيا، وإذاً فيوم القيامة إنما هو يوم رؤية الأعمال، ويوم الجزاء على الأعمال، وما هذه الحياة الدنيا إلا سوق يتزوَّد فيه الإنسان ما شاء من الأعمال، وفي ذلك اليوم الآخر يرى

كل امرئ ما جمع وقدَّم، وقد بيَّن لنا تعالى ذلك بقوله:

{يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ}.

ومن رحمة الله تعالى وعظيم رأفته أن شوَّقنا إلى فعل الخير، وحذَّرنا وأنذرنا من فعل الشر، فقال تعالى:

{فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ}:

أي: فمن يعمل منكم يا عبادي في دنياه هذه خيراً مهما كان قليلاً ولو كجزء صغير من هذه الذرَّات التي نراها تطير في شعاع الشمس، فإنه لا بدَّ له من رؤية ذلك الخير والجزاء عليه.

{وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ}:

وإن كنت فعلت في دنياك شراً ولو كمثقال ذرَّة فلا بدَّ لك من أن تشهده وتراه، وإن كل عملك مُسجَّل مكتوب، وحقيقته محفوظة لا تزول وستُجزى عليه إن شراً فشر، وإن خيراً فخير.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ



صدق الله العظيم

تأويل سورة البينة

بعد أن بيَّنت لنا سورة الزلزلة أنَّ الإنسان مَجزيٌ بعمله، وأن من يعمل مثقال ذرَّة خيراً يره، وأنَّ من يعمل مثقال ذرَّة شراً يره.

أرادت هذه السورة أن تُبيِّن لنا عطف رسول الله ﷺ على الخلق وحنانه على الناس.

فرسول الله ﷺ كان يتمنى لو يستطيع هداية الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، فيقيلُ عثارهم، ويبدِّد الشقاء عنهم، بأخذه بأيديهم إلى الإيمان، ذلك الإيمان الذي ينتقل به الإنسان من الجحيم إلى النعيم، ومن التعاسة والشقاء إلى ظلال السعادة والهناء، وهذه الرغبة الملحَّة كانت ملازمةً رسول الله ﷺ تكاد لا تفارقه، عطفاً منه وحناناً على عباد الله أجمعين.

وقد أراد تعالى أن يبيّن لرسوله ﷺ إصرار هؤلاء على كفرهم، وهو سبحانه العليم بهم وبما انطوت عليه قلوبهم من الميل إلى الدنيا، وبما استقر في نفوسهم، فقال تعالى:

{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ}:

فالله سبحانه وتعالى يُخبر رسوله الكريم ﷺ بأنَّ هؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب، وهم فريقٌ من بني إسرائيل الذين أقرُّوا لله بالوحدانية ولموسى عليه السلام بالرسالة غير أنهم كفروا بالله، فلم يروا فضله ونعمتهُ ولم يقدِّروا إحسانه، وأعرضوا عن الرسول ﷺ فلم يقدِّروه ولم يطيعوه ولم يتَّبعوا دلالته.

وكذلك الذين كفروا وكان كُفرهم ناشئاً عن إشراكهم، أعني الذين عرفوا أن لهم خالقاً مربّياً، غير أنهم أشركوا به وزعموا أن له شريكاً، فهذان الفريقان المذكوران لا يمكن أن ينفكُّوا عن كفرهم وعمَّا هُم عليه من الضلال حتى تأتيهم البينة. فما **البيِّنة؟**

البيّنة: لغةً هي الشيء الواضح الظاهر، وهي أيضاً: الدليل والحجة، فما هو المراد من (**البيّنة**) الواردة في هذه الآية الكريمة؟ لقد وضّح ذلك تعالى بقوله:

{رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ}:

فالبيّنة إذاً: رسول من الله. ولكن من هو هذا الرسول؟ إنه سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام، فحيث إنه وُلد من أمٍّ بغير أبٍ، وتكلَّم في المهد، وحيث إنه أبرأ الأَكْمَهَ والأبرص، وأحيا الموتى بإذن الله، ذلك كله بيِّنة على أنه رسول من الله. ولكن ماذا سيتلو هذا الرسول الكريم على الناس؟ لقد بيَّن لنا تعالى ذلك بقوله:

{يَتْلُواْ صُحُفاً مُطَهَّرَةً}:

والصحف: جمع صحيفة. والمراد بها سُوَرُ القرآن الكريم سُمِّيت صُحُفاً لأن الصحيفة تحوي بياناً كاملاً. يُقال: اطَّلع فلان على صحيفة أعماله.

فكل سورة من سُور القرآن الكريم إنما هي كاملة في ذاتها، تبدأ بمقدِّمة وتنتهي بنتيجة، وهي كلها إنما تدور حول تقرير فكرةٍ واحدةٍ بما تتضمَّنه من ذكر العبر والوقائع والأمثلة.

وكلمة (**مطهَّرة**): تبيّن لنا شرف هذه الصحف، فكلُّ ما فيها حق وخيرٌ، وهي مطهَّرة من كل شائبة، وباتِّباعها تحصل للإنسان الطهارة النفسية.

ولا تنسى ما في كلمة (**يَتْلُواْ صُحُفاً**) من إشارة إلى مجيء سيدنا عيسى عليه السلام في آخر الزمان. فإن التعبير بتلاوة الصحف لا يكون إلا إذا كانت هذه الصحف معروفة منزَّلة من قبل.

فسيدنا عيسى عليه السلام إذاً سيتلو على الناس تلك الصحف المطهَّرة التي جاء بها سيدنا

محمد بن عبد الله ﷺ. تلك الصحف التي جمعت بين طيَّاتها سائر الكتب المنزَّلة، ولذلك قال تعالى:

{فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ}:

والقيِّمة: مؤنث قيِّم، والقيِّم: هو القائم على غيره المسيطر عليه، يُقال: فلانٌ قيِّم في منزله، وقيِّمٌ في دائرته.

ويكون مُجمل ما تفيده هذه الآية: أن القرآن الكريم حوى ضمنه التوراة والانجيل وسائر الكتب الإلهية، تلك الكتب التي جاءت بالحق، فكان الحقُّ مهيمناً وقائماً في وجه الباطل الذي هو زاهق، وهي والحالة هذه كتبٌ قيِّمة.

ثم إن الله تعالى بعد أن بيَّن لنا الموعد الذي سينفكُّ فيه أولئك عن كفرهم وضلالتهم، وبعد أن بين لنا ما سيتلوه ذلك الرسول الكريم من الصحف المطهَّرة التي تضمَّنت تلك الكتب القيِّمة الدالَّة على طريق الحق والسعادة، أراد تعالى أن يبيِّن لنا أن الحق واحدٌ لا يتعدد، وأن الدين الحق هو طاعة الله وحده واتِّباع أوامره، فإذا اتَّبع البشر هذا كانوا أمَّةً واحدة.

غير أن بني إسرائيل لما جاءهم سيدنا عيسى عليه السلام بالبيِّنات انقسموا وتفرَّقوا، ففريق ادَّعى أنه تابع لموسى عليه السلام، غير أنهم في الحقيقة أعرضوا عن الله وانحرفوا عن طريق الحق والهدى وكفروا برسول الله المسيح عليه السلام، والحواريون هم الفريق الآخر الذين تابعوه وبعد هجرته مع أمِّه عليهما السلام بأمر من الله تعالى إلى غارٍ بربوةٍ ذات قرار ومعين[1] إلى حين ظهورهما على سحابة من المجد عند قيام الساعة الكبرى فأيدوه

[1] {وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ} سورة المؤمنون (٥٠).

هؤلاء الحواريون رضي الله عنهم ونصروه وآمنت روما على أيديهم.

(... **فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ**)(٢)، ولذلك قال تعالى:

{وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ}.

ثم بيَّن تعالى أن التشيُّع لمذهب دون مذهب ولدين دون دين مردود على صاحبه. فالرسل جميعاً أدلاَّء على الحق والحق واحد.

وما أُمِرَ الناس جميعاً إلا لينتظموا في صف واحد، فيعبدوا ويطيعوا إلهاً واحداً، قال تعالى:

{وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ}:

فالله سبحانه وهو الخالق العظيم العليم، هو وحده يضع الدين، وهو وحده المشرّع للإنسان ومنه وحده التشريع، فله الحق في هداية خلقه وله بيان السبيل، وله وحده الدين ذلك الدين الحق الذي يدين له ويخضع أهلُ الفضيلة والكمال.

فالإنسان إذاً مأمور أن يتلقَّى دينه عن ربه مخلصاً باتّباعه. ثم بيَّن تعالى صفة ثانية من الصفات التي يجب أن يتحلَّى بها الناس في طاعتهم لربِّهم، تلك الصفة أن يكونوا حنفاء، **والحنفاء**: جمع حنيف، والحنيف: هو المائل لربِّه بالحب، فعلى الناس أن يعبدوه مخلصين، يقومون بأعمالهم الخالصة حنفاء مائلين إلى ربهم بالمحبة، فلهم دوماً شغف به وحنين إليه.

---

(٢) سورة الصف: الآية (١٤).

ولكن كيف يكون الطريق إلى هذا الحال الرفيع الذي يجب أن يتحلَّى به الإنسان؟ لقد بيَّن لنا تعالى بقوله:

{وَيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ}:

فهذا الإخلاص وهذه الحنيفيَّة السامية لا يكونان إلاَّ بإقامة الصلاة، أي: بدوام الصلة بالله، وبقيام النفس عاكفةً في حضرة الله، فبهذا الإقبال تسمو النفس وتعرج إلى صاحب الرفعة والسمو والكمال، فتستمد منه الرِّفعة والسمو والكمال. ولكن كيف تستطيع النفس أن تُقبل على ربها فتصبح ولها هذه المنزلة وهذه الصلاة بصاحب الكمال؟ لقد بيَّن تعالى ذلك بقوله:

{وَيُؤْتُواْ الزَّكَاةَ}:

وما الزكاة: إلا الطهارة، طهارة النفس مما فيها من شوائب ودناءة وأدران، ولقد سُمِّي إنفاق المال في وجوه الخير زكاة لأن النفس بعملها هذا تصبح مطمئنة وواثقة بإحسانها، وهنالك تُقبل على ربها فتطهر وتزكو، ويكون في عملها الصالح طهارةٌ لها وزكاة.

وإيتاء الزكاة: يكون أيضاً بأن يقدِّم الإنسان من أعمال الخير ما تستطيع به نفسه أن تُقبل على ربها فتحصل لها الزكاة.

ولعلك تقول: كيف تحصل للنفس هذه الطهارة والزكاة؟

فأقول: إذا كفَّ الإنسان عن المحارم، وحفظ جوارحه من العصيان، ثم أدَّى ما عليه من الحقوق نحو كلِّ ذي حق، فهنالك تصطبغ النفس بصبغةٍ من الكمال، وعندها يرى رسول الله ﷺ وما انطوى في نفسه من سمو وكمال ورفعة وخُلُق.

وبرؤيتها لرسول الله ﷺ وكماله تُحبُّه وتشغف به وبحبِّها له تُقبل معه على الله فتشهد كمال الله تعالى وقدرته فتعبده، وبذلك تحصل لها الصلة به سبحانه. تلك الصلة التي تجلو صفحات النفس وتردّها زكية طاهرة لا شائبة فيها وذلك طريق الحق، وذلك هو التشريع والدين الذي يجب أن يعتنقه الإنسان فيصبح إنساناً حقاً، وذلك ما دعا إليه الرسل جميعاً وما سيدعو إليه سيدنا عيسى بن مريم عليها السلام عندما يجيء في آخر الزمان. قال تعالى:

{وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}:

أي: وهذا الدين الذي بيَّنته تلك الآية، إنما هو دين الشريعة الباقية، التي ستكون لها الهيمنة والسيطرة فتكون قائمة على كل مذهب.

أقول: وفي ذلك إشارة إلى أن لا بدَّ وأن تزول كلمة الكفر والضلال، وأنَّ هذا الدين الحق سيسمو على الديانات كلها يوم يجيء سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام، قال تعالى:

(... وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)[1].

ثم بيَّن تعالى حال الكفار المعرضين، وهم الذين ادَّعوا بلسانهم أنهم أتباع الرسل، وهم في حقيقتهم كفَّار معرضون فقال تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا}.

ولعلك تقول: ما هو الخلود في النار؟

فأقول: **الخلود**: مأخوذة من خَلَدَ، بمعنى: أوَى ولَزِمَ، يُقال: خَلَدَ المسافر في الصحراء

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٥٥).

إلى ظلٍّ شجرةٍ. وخَلَدَ العامل بعد تعبه إلى الراحة، وخَلَدَ المريض إلى المستشفى لما يجده فيها من علاج لأمراضه.

فالكافر المعرض عندما تشتد عليه آلامه يوم القيامة، وترهقه أمراضه وعللُهُ، لا يجد لنفسه ملجأً يلتجئُ إليه سوى النار، فتراه ينقلبُ إليها ويخلد فيها.

(وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّواْ أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفاً)[1].

ولكن ما هو مصدر هذه الأمراض المعنوية، والعلل النفسية، التي ترهق هؤلاء وتضطرهم إلى النار؟؟؟

إنها أعمالهم الخبيثة وثمرات ما اكتسبوه في حياتهم الدنيوية من المعصية والأذى للخلق، وبسبب إدبارهم عن الله سبحانه. وقد بين تعالى ذلك بقوله:

{أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ}:

والبرية: هم الخلق. فهؤلاء الكفار والجاحدون إنما كانوا في حياتهم شرّاً وبلاءً على الناس، فهم مصدر الشر ومبعث الأذى في المجتمع.

وبالحقيقة الكافر المعرض لا يدخل في مجتمع إلاَّ ويؤذيه، ولا يعامل أحداً إلاَّ ويؤذيه ويضرُّه، فأعماله شرٌّ كلها، ولا ينال الناس منه غير الضرر والأذى.

أما المؤمن فتراه لا يدخل في بيئة إلاَّ ويكون مصدراً لخيرها ونفعها، ولا ينال الناس منه إلا الإحسان، فأعماله خير كلها، ولذلك قال تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ}:

---

(١) سورة الكهف: الآية (٥٣).

أي: إنهم مبعثُ الخير ومصدره، وقد شملت هذه الآية المؤمنين كافة من لدن آدم عليه الصلاة والسلام، فكل من آمن بربِّه وسلك طريق الخير الذي جاءت به الرسل عن الله كان امرءاً خيِّراً ومخلوقاً مُحسناً.

ثم بيَّن تعالى جزاء هؤلاء المحسنين عند ربهم فقال تعالى:

{جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً}:

والجنات: جمع جنة، وهي النعيم النفسيُّ، **والعدن:** هو الإقامة الدائمية.

وقد جاءت كلمة (**جنات**) في صيغة الجمع، لتبيِّن أن نعيم هؤلاء، دائم مستمر لا ينقطع ولا يزول، وقد بيَّن تعالى ما يقارن ذلك النعيم النفسي من نعيم مادي أيضاً وذلك بقوله:

{تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}: إذ الأنهار إنما هي الخير المستمر الدائمي الجريان. فهؤلاء إلى جانب ما هم فيه من نعيم نفسي يتمتَّعون بنعيم مادِّي.

ثم بيَّن تعالى سرورهم بما هم فيه وخلودهم دوماً إليه، وذلك بقوله:

{خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ}:

وذلك مما قدَّموه من الإحسان.

{وَرَضُوا عَنْهُ}:

بما تفضَّل به عليهم من الخير والإكرام.

{ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ}:

إذ الخشية تولِّد الطاعة والاستقامة، وبالطاعة ترى النفس كمال رسول الله ﷺ فتحبّه

وتحصل لها الصلة به. وبهذه الصلة تزكو وتطهر فتغدو محسنةً خيِّرة، وبإحسانها هذا يرضى الله عنها وترضى عنه.

فالاستقامة إذاً أول حلقةٍ في هذه السلسلة. قال تعالى:

(وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)[١].

---

(١) سورة العنكبوت: الآية (٦).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

صدق الله العظيم

تأويل سورة القدر

القدر: هو مبْلغ الشيء، والقدر: هو الحال والشأن، يُقال: قدَّر فلانٌ هذا الأمر، أي: عرف حاله وشأنه. وقدَّر الإنسان خالقه: أي: عرف عالي شأنه وعظيم جلاله وكماله. ولكن كيف تكون معرفة الله ورؤية عظمته وجلاله؟ وكيف يقدِّر المخلوق خالقه حقَّ قدره؟

أقول: لا يصل الإنسان لهذه الحالة الرفيعة إلا بعد شهوده عظمة الله ورؤية كماله، فأنا لا أعرف قدرك إلاَّ إذا رأيتك، أو إذا رأيتك على رأس عملك، أو في حال ممارستك لشؤونك، أو إذا رأيت صفاتك التي تشهد لي بعلوِّ قدرك، وتنطق بسموِّ مكانتك وعظيم شأنك. وكذلك النفس لا تُوقن بعظمة خالقها إلاَّ إذا شهدت عظمة ذلك المالك العظيم في ملكوته، قائماً بالتربية والإمداد على خلْقه، مُفيضاً برَّه وإحسانه على سائر مخلوقاته، غامراً الكون برأفته وواسع رحمته.

فالإنسان بعد أن آمن بربِّه إيماناً غيبياً، وبعد أن أقرَّ بعظمة الخالق ورحمته إقراراً فكرياً، إذا هو استقام على أمر ربِّه، ومَرِنَ على طاعة الله، فلم يخالفه، ولم يعصه في أمرٍ من أوامره، فلا بدَّ له إذا هو استمر على هذا الحال من الاستقامة والطاعة، وثابر على التقرُّب إلى الخالق بالإحسان إلى المخلوقات كافة، من ساعة يشهد فيها كمال الله سبحانه شهوداً نفسياً، ولا بدّ له من حالة تنغمر فيها نفسه بذلك النور الإلهي، فترى عظمة خالقها وموجدها وتعاين حنانه تعالى عليها وواسع عطفه ورحمته بها، وبالمخلوقات جميعها، وهنالك تعرف قدر ربِّها وتوقن برحمته وعطفه عليها.

وتلك الليلة العظيمة التي يشهد فيها الإنسان هذه المشاهدة النفسية، ويرى هذه الرؤية الذوقية، وتحصل له بها تلك المعرفة الشهودية، تلك الليلة هي **ليلة القدر**، أي: ليلة

رؤية الإنسان عظمة الخالق وتقديره كمال الله.

أقول: وفي تلك الليلة، وإن شئتَ فقل في تلك اللحظة التي تحصل فيها هذه المشاهدة النفسية، ينطبع في قلب هذا المؤمن الحق، فتتنزَّل في قلبه حقائق الإيمان والقرآن كلها، فيغدو عارفاً بالمراد من الآيات وحكمتها، ولذلك قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم:

{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}:

أي: إنَّ تنزيل ما انطوى عليه القرآن الكريم من الحقائق على قلبك إنما كان في ليلة القدر، أي ليلة مشاهدتك لعظمة ربك وتقديرك لخالقك.

والله تعالى لم يخاطب رسوله بهذا الخطاب إلاّ ليبيِّن لنا أنه لا يحصل للإنسان العلم بحقائق القرآن ولا تكون المعرفة الصحيحة بما فيه من الآيات التي ملؤها السعادة والخير وقوامها الحق والإحسان إلاَّ في ليلة القدر.

فهذه الآية الكريمة تبيِّن لنا أن العلم الصحيح لا يكون إلا عن الله، ولا يُكتسب إلاَّ من الله.

فهذا الهدى والبيان الذي جاء به رسول الله ﷺ، وهذه الدلالة والعلم الذي بيَّنه للناس، والذي لا يستطيع البشر قاطبةً أفراداً وأمماً، قروناً وأجيالاً أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً.

كيف تسنَّى للرسول الكريم ﷺ وهو الذي لم يدرس من قبلُ في كتاب، ولم يتلقَّ العلم عن أحدٍ من الناس، كيف تسنَّى له وحده أن يأتي بما جاء به من الهدى متحدِّياً العصور والأجيال مُبيِّناً عجزهم عن الإتيان بمثله!!!

إن هذه الآية لتدحض ما زعمته قريش، وما يزعمه أولوا العقول القاصرة، أن القرآن

إنما هو من وضع رسول الله ﷺ، فهي تبيّن لنا ذلك المصدر السامي الذي تلقّى منه الرسول ﷺ هذا الهدى، وهذه الدلالة إلى طريق الحق طريق الإنسانية والسعادة الكاملة معلنة أن ذلك الهدى والكمال الذي جاء به رسول الله ﷺ إنما هو تنزيل من الله، أنزله على قلب رسوله الكريم في ليلة القدر، ليلة تقديره لكمال ربِّه وتعظيمه لخالقه كما أنَّ هذه الآية الكريمة تنفي ما تقوَّله بعضهم من أن فهم القرآن يحتاج إلى ستة عشر علماً من العلوم المختلفة والانكباب على دراسة تلك الكتب المطوَّلة.

فما الدراسات المفصَّلة بمجدية عن معرفة الحقيقة شيئاً، ولا تحصل للإنسان المعرفة الصحيحة إلا إذا تعرَّض لنفحات الله سبحانه، وفاز بتلك الليلة المباركة. ولكن هل هذه الرؤية ميسورة لكل شخص؟ ومتى هي ليلة القدر؟

أقول: إن العدالة الإلهية تقضي بأن لا يكون العطاء الإلهي قاصراً على شخص دون شخص، فكلّ من أعدَّ نفسه الإعداد المطلوب لهذه المشاهدة، وإن شئت فقل أيُّما امرئ أطاعَ ربَّه حق الإطاعة فلم يتهاون في أمرٍ من أوامر الله سبحانه وتعالى، ولم يتلبَّس بثوب من أثواب المعصية، فلا بد له من الإكرام بهذه المشاهدة والفوز بتلك الليلة: فالنفس العاصية المسيئة تُحجبُ عنها، إذ أنها تقف في صلاتها خجلى من ربها، مُعرضة عنه بوجهها، وهي والحالة هذه لا تستطيع أن تُقبل على الله تعالى، وهي إن وقفت في صلاتها فوقوفها صورة لا حقيقة، وسيئاتها حجاب وستر بينها وبين الله تعالى، أما النفس المطيعة فمن لوازمها أنها إذا وقفت بين يدي ربها فإنها تقف متجهة مقبلة، ذلك لأن إحسانها الذي تحمله بين يديها يجعلها فخورة بعملها واثقة مطمئنة من رضاء الله تعالى عنها. فالاستقامة على أمر الله، والتقرُّب بالعمل الصالح إلى الله، ذانك هما الشرطان الأساسيان، وإن شئت فقل: هما الجناحان اللذان يجعلان النفس تطير إلى تلك الآفاق العالية، وعندها تشهد ما تشهد من كمال الله سبحانه، وتتحلّى

بالفضيلة والمعرفة.

أما الموسم المناسب الذي تتهيأ فيه النفس لتلك الحال من الرؤية والفوز بتلك الليلة المباركة، فإنما هو شهر رمضان وفي العشر الأواخر منه تُلتمسُ كما أخبر الصادق المصدَّق عليه أفضل الصلاة والسلام، ذلك لأنه يتوفَّر للصائم حينئذٍ ذانك الشرطان الأساسيان، فالجوع والعطش في رمضان عون على القطيعة بين الإنسان والشيطان، والإنسان قد مَرِنتْ نفسه طوال نهارها على هذه القطيعة الميمونة، تجده غير خجل من ربه البتَّة.

كما أن له من طاعته لله بصيامه سبباً عظيماً، وحافزاً قوياً يحفزه على الإقبال على ربِّه، فإذا وقف عشاءً للصلاة بعد أن تناول يسيراً من الطعام والشراب، وقف وكلّه اتجاه وإقبال وطارت نفسه تحلِّق في ذلك الأفق العالي لا يعوقها عائق، ولا يقف بينها وبين خالقها حجاب.

وإنك لتجد الصائم بمجرَّد دخوله في الصلاة لا يلبث أن يرى نفسه مغمورةً بفيضٍ من نور الله، شاخصاً ببصيرته إلى الله، يعبده حق العبادة لأنه يراه، ولا يزال يعيد الكرَّة يوماً فيوماً، وليلة بعد ليلة، حتى إذا أقبل العشر الأواخر من هذا الشهر وقد صلب عود النفس وأصبحت لذلك النور أكثر تحمُّلاً، ولمشاهدة ذلك الكمال الإلهي أهلاً، هنالك ينكشف لها عن كمال صاحب الجلال والجمال طرف من الستر، فتشهد ما يتناسب مع حالها من جماله وجلاله وعظيم صفاته، وترى الكون كله قائماً بإمداده وتسييره، سابحاً بفضله وإحسانه، مغموراً برحمته وحنانه.

وبشهود الإنسان ذلك الجلال الإلهي والجمال، وبرؤيته كمال ربّه المتعال، وبتطلُّعه إلى الرحمة الشاملة ولذلك العطف والحنان يمتلئ حبّاً بذي الجلال والإكرام والعطف

والإحسان.

والنفس بفطرتها مجبولة على حب الجمال والكمال، مشغوفة بتقدير صاحب الإحسان، وبهذا الحب السامي لصاحب الكمال سبحانه تصطبغ النفس بصبغة الكمال، وهذا النوع من الحبِّ هو وحده المهذِّب لأخلاق الإنسان، والمحوِّل النفس من حال إلى حال.

فإذا قضيت الصلاة وعاد المصلِّي من ذلك السَّفر الميمون، عاد بخير زاد، عاد والفضيلة إلفه وأليفه، والكمال رفيقه وحليفه والتقوى زاده، والإحسان إلى الخلق كافة همّه ومراده.

تلك هي ليلة القدر التي يشهد فيها العبد عظمة ربه، وسامي صفاته، ويتنزَّل فيها القرآن على قلبه، تلك هي ليلة القدر التي زيَّن الله بها شهر رمضان، تلك هي الليلة التي يجب أن يفوز بها كل إنسان ليخرج من صنف الحيوان، وينتظم في سلك بني الإنسان، المتصف بالرحمة والإحسان والحنان، ومن ماتَ ولم يشهد ليلة القدر فقد أضاع حياته وخسر هذا العمر. قال تعالى:

(... وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ)(١).

(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ)[٢].

وقد أراد تعالى أن يبيِّن لنا عظيم شأن هذه الليلة فقال تعالى:

---

(١) سورة الرعد: الآية (٢٦).

(٢) سورة العنكبوت: الآية (٦٤).

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ}:

أي: وما أعظم هذه الليلة، وما أكثر الخير الذي يناله الإنسان في ليلة القدر، وإنك أيها الإنسان لعاجز عن الإحاطة بما في ليلة القدر، وذلك الفضل والخير الذي يناله المؤمن في ليلة القدر. ثم فصَّل تعالى ذلك بقوله:

{لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ}:

والألف شهر: هي أربع وثمانون سنة تقريباً، فإذا أضفنا عليها سنَّي الطفولة والمراهقة كانت حصيلة ذلك مائة عام على التقريب. فليلة القدر، أي: أنَّ العلم والمعرفة والفضيلة والكمال الذي ينطبع في نفس المؤمن في تلك الليلة، وإن شئت فقل في تلك اللحظة خيرٌ مما يحصل عليه امرؤ عاش مائة عام قضى منها الألف شهر في الصيام والدراسة الجادَّة لاكتساب المعرفة.

فالغافل المعرض عن ذكر الله مهما امتدَّ به العمر وطال حتى ولو أنه عاش مائة عام، فليس يجني من عمره إلاَّ الشقاء والخسارة، ولا يعود على الناس من عمله إلاَّ الإيذاء والإضرار.

أما المؤمن المقبل فعمره كله خير، وحياته كلها إنسانية وإحسان، وما ليلة القدر التي يفوز بها إلاَّ مدرسةً يتعلم فيها الفضيلة والإنسانية والرحمة، والإحسان، وشتَّان بين غافل مُعرض حياته كلها شر وإيذاء، وبين مؤمن مُقبل ليس قصده من أعماله إلاَّ خدمة الخلق كلِّهم والفوز برضاء الرحمن.

وليلة القدر: والحالة هذه تلك الليلة التي يفوز بها المؤمن والتي هي خير من ألف شهر، أي: خير من عمر الكافر كله، ومن حياته التي ليس فيها خير، ولا ينتج عنها

إلا الإساءة والخسران، وإذا كانت ليلة من ليالي القدر التي يُكْرَم بها المقبل خيراً من حياة طولها مائة عام من العمر، فأي نسبة بين حياة المؤمن وحياة الكافر المعرض؟ أي نسبة بين علم الأول... وعلم الثاني؟ وفي أي منزلة يكون ذلك المعرض بالنسبة لذلك المؤمن المقبل الذي عمره كله خير، وحياته كلها إنسانية، والذي تتوالى عليه ليالي القدر فمن ليلة إلى ليلة أعلى وأرفع، ومن معرفة إلى معرفة أرقى وأوسع، ومن منزلة إلى منزلة أسمى وأبدع. إنه ليس من نسبة بين مقبل وبين غافل معرض. فمهما جدَّ الغافل وكدَّ فلا يبلغ ذرَّةً مما هو عليه المؤمن من علم ومعرفة وكمال وفضيلة، وما بين الأول والثاني كما بين السماء والأرض، وهذا مثال نُقرِّب به الحقيقة:

(وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ۞ وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ ۞ وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ ۞ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ)[١].

أقول: وإذا كانت كل ليلة من ليالي المؤمن، لا بل كل لحظة خيراً من عمر الكافر المعرض كله، فماذا نقول إذا كانت كل لحظةٍ من لحظات رسول الله ﷺ ليلة من ليالي القدر، وماذا نقول وكيف نستطيع أن نتصوَّر ذلك الكمال وذلك العلم وتلك الأخلاق النبوية، والتي تحلَّى بها قلب رسول الله، وأين نحن من رسول الله ﷺ، وأين البشر كلّهم أجمعون منه ﷺ، ذلك البحر الواسع والبدر اللامع، والسراج المنير الساطع، ولكن لا يعرف قدر رسول الله ﷺ، إلا من عرف الله وفاز بليلة القدر، ولا يعرف الفضل إلا ذووه والله ذو الفضل العظيم.

ثم إن الله تعالى أراد أن يبيّن لنا حال ذلك المؤمن بعد اصطباغه بتلك الصبغة من

---

(١) سورة فاطر: الآية (١٩-٢٢).

الكمال والفضيلة، وانطباع الحقِّ على صفحات نفسه الطيبة الطاهرة، فقال تعالى:

{تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا}:

فالرسل والأنبياء جميعاً بإقبالهم العالي على ربِّهم وصلوا إلى درجة من الطهارة النفسية والمعرفة الشهودية التي لا يمكن معها أن تميل نفوسهم إلى شيء من الأشياء المنهية، أو أن تنشأ في نفوسهم شهوة من الشهوات المحرَّمة ذلك لأن النور الإلهي ساطع دوماً في نفوسهم، والحقائق بادية ظاهرة بصورة مستمرة أمام أعينهم، والملائكة دائبة تتنزَّل بالروح عليهم بإذن ربهم، فهم في رؤية مستمرة متواصلة، وتلك هي العصمة... وفي الحديث الشريف:

« **نحنُ معاشر الأنبياء تنامُ أعيننا ولا تنامُ قلوبُنا** »[1].

أما المؤمنون، وهم الذين لم يبلغوا ولا يمكن أن يبلغوا منازل الرسل والأنبياء، فهؤلاء قد تعرض لهم شهوة من الشهوات، وقد تُحدِّثهم نفسهم بميل إلى بعض الأمور المنهيّة، غير أن قلوبهم التي سطع فيها نور الحق من قبل، تلك القلوب التي رأت الكمال فأحبَّته واصطبغت به في ليلة القدر، تعوذ بربِّها مما نشأ فيها، وتلتجئ إليه طالبةً الخلاص مما ألمَّ بها، وبعياذها بالله، والتجائها إلى الله يسطع نور الله فيها، فيتبدَّى لها الحق ويظهر، وتشهد بذلك النور الإلهي، وهو ما سمَّاه الله تعالى " **بالروح** "، ما تشتمل عليه تلك الشهوة، وذلك الميل من الأذى والشر، قال تعالى:

(وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا

---

(١) البخاري في التهجد ١٦ . مسلم في المسافرين ١٢٥.

إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)[1].

وهذا ما بيَّنته لنا هذه الآية الكريمة من سورة القدر، فالروح كما رأينا هي ذلك النور الإلهي الذي يتجلَّى به الله على قلب عبده العائذ به الملتجئ إليه.

{... بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ}:

أي: تظهر بها حقيقة كل شهوة، وينكشف بواسطتها ما ينطوي عليه كل أمرٍ من خير أو شر، وإنما تتنزَّل الملائكة بها، ذلك لأنهم وسطاء يسري بهم النور الإلهي على مثل ما تسري القوة الكهربائية في الأسلاك، ويشع نور الله على تلك النفوس المقبلة، فيكشف لها حقائق الأمور، ولا يكون هذا إلا بإذن ربِّهم، فلا تحصل هذه المشاهدة والرؤية إلا لمن أذن الله له بذلك، فكان ممَّن أقبل على ربه وتحلَّت نفسه بالكمال من الله، وقدَّر خالقه تقديراً يتناسب مع وجهته وإقباله.

ونجمل القول فنقول:

قد تنازع المؤمن نفسه في شهوة من الشهوات، غير أن الصبغة صبغة الكمال التي اصطبغت بها نفسه من قبل في ليلة القدر تجعله يرجع إلى ربه عائذاً طالباً منه أن يكشف له حقيقة تلك الشهوة وما فيها من الشر، وهنالك يتنزَّل الروح على قلبه، وتأتيه الملائكة بذلك النور الإلهي من ربه، فتنكشف له الحقيقة التي يطلبها، ثم يرجع إلى القرآن فيجد الآية مصدِّقة لما شهد ورأى، وهنالك يطمئن قلبه، وتهوي إلى الحق نفسه، وفي الحديث الشريف:

« لا يؤمنُ أحدكُم حتى يكون هواهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِه »[1].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٢٠٠-٢٠١).

وفي الحديث القدسي الشريف:

« لا يزالُ عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافلِ حتى أُحبَّه، فإذا أحببته كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به وبصرَه الذي يُبصر به ولسانَه الذي ينطقُ بِهِ »[٢].

ومن كان كلام الله دليله في كل أمر من أموره، فسيره كله في أمان واطمئنان، ومن كان نور خالقه سراجه وضياءه فحياته كلها سعادة وسلام.

وقد بيَّن تعالى ذلك بقوله:

{سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}:

وقد عبَّر تعالى عن الموت بمطلع الفجر، ذلك لأن الموت ينكشف به الغطاء عن النفوس، فلا يحول بينها وبين رؤية الحق سترٌ ولا حجاب، فيرى الناس جميعاً الحقائق ظاهرة جليّة بادية للعيان، ويشهد الناس جميعاً الحق الذي جاءت به رسل الله صلوات الله عليهم أجمعين، فهذا المؤمن الذي تدارك أمره من قبل أن يأتيه الموت، وفاز بليلة القدر أشبه برجل يسير في المغاور والقفار وبيده سراج ساطع منير، فهو أبداً على بصيرةٍ وهدىً يسير في النور، والنور يكشف له كلَّ شيء، وبيده الثانية كتاب دليل يهديه " خارطة الطريق " كيلا يضلَّ طريق الحق، فهو يسير في طمأنينة وسلام مدى العمر وطوال الحياة، ينقلب دوماً في الخير، ولا يعمل إلاّ الخير، فإذا انتهت به مرحلة الحياة وطلع الفجر، جاءه الموت وهو بخير حال. وهنالك البشرى والفرح والغبطة بما قدَّم من أعمال.

---

(١) انظر البخاري في الإيمان، باب حبّ الرسول ﷺ ومسلم في الإيمان باب وجوب محبة رسول الله ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة، الأتحاف ـ للزبيدي (ج٣ص١٦٥).

فإن شئت العلم والمعرفة، وإذا كنت ممن يطلب الكمال والفضيلة، وإذا أردت أن ينطبع الحقُّ في قلبك، وتصطبغ نفسك بصبغة من الله ومن أحسن من الله صبغة. وإن أحببت أن يتحلَّى قلبك بنور تمشي به في الظلمات، يكون لك به من الله برهان وفرقان، فما عليك إلاّ أن تسعى لتفوز بليلة القدر، وهنالك تكسب حياتك الثمينة الغالية، وتكسب هذا العمر. قال تعالى:

(وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً)[1].

(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) [2].

(وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)[3].

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٧٢). (٣) سورة العنكبوت: الآية (٦٩).

(٢) سورة العنكبوت: الآية (٦).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَظِيمُ

تأويل سورة العلق

بعد أن بيَّن لنا تعالى في سورة القدر ما يعودُ به الإقبال على الله من العلم والمعرفة، أراد أن يبيِّن في هذه السورة الكريمة ضرورة هذا الإقبال لنا في حياتنا، فلفت نظرنا إلى المعرض وسوء معاملته وشقاوته، وإلى المقبل المستنير وإحسانه للخلق وسعادته في حياته.

وقد بدأ لنا هذه السورة الكريمة ببيان شرف الرسول الكريم ﷺ، الذي اكتسب بإقباله على ربه من الصفات والكمالات الإلهية ما جعله حقيقاً بأن يكون رسول رب العالمين، ومُبلِّغاً رسالات ربِّه إلى الناس أجمعين، فقال تعالى مخاطباً رسوله الكريم ﷺ:

{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}:

وكلمة (**اقْرَأْ**): مأخوذة من قرأ، وقرأ: بمعنى اطَّلع، نقول: قرأتُ الغضب في وجه فلان، أي: اطَّلعت عليه. وقرأتُ الصحيفة، أي: اطَّلعت على ما فيها. وتأتي (قرأ) بمعنى: بلَّغ، فقد تقول لصديقك: إذا وصلت المدينة فاقرأ السلام على أهلي، أي: بلِّغهم سلامي.

ويكون ما نفهمه من خطاب الله لرسوله الكريم ﷺ بكلمة (**اقْرَأْ**): أي بلِّغ عبادي ما اطَّلعت عليه من كلامي وهدايتي. وأما كلمة (**رَبِّكَ**) فالمراد بها: توجيه الإنسان إلى صاحب هذا الكلام، فإذا عرفت أنه كلام ربك، فلعلَّك تُصغي إليه بإذنك وسمعك.

والرب: هو المربي الممدُّ بالحياة الذي به قيامك وبقاؤك، فبإمداده تسري الحياة في كل ذرَّة من الذرَّات، وبتجلِّيه الدائم تنبعث فيك الحياة ويستمر وجودك.

وأما كلمة (**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**): فهي تشير إلى ما تحلَّى به الرسول الأعظم ﷺ من

الصفات، وما اشتقَّه من ربه من الكمالات التي جعلته أهلاً لتبليغ الأوامر والرسالات، فالملِك لا يقول لرجل من عامَّة الناس اقرأ باسمي هذا المنشور على رعيَّتي، وإنما يقول ذلك لأمين سرّه وأخص وزرائه. ذلك لأن الذي سيقرأ باسم الملِك، إنما يجب أن تكون فيه الصفات والمؤهِّلات التي تجعله جديراً بتلقّي الأوامر من مليكه وقراءتها على رعيته.

فهذا الرسول الكريم ﷺ بإقبال نفسه على ربِّه الإقبال العظيم، حاز من الصفات العالية، وكان له من الصفاء والطهارة ما جعله أهلاً لانطباع الحق على صفحات نفسه الطيبة الطاهرة، فصار ذا أهلية لتبليغ ما انطبع فيه من الكمال والمعرفة، ومُجمل ما نفهمه من كلمة (**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**): أي: بلِّغ عبادي كلامي باسمي، أي: عن لساني.

ثم أراد تعالى أن يبيِّن لرسوله صفة من صفات ربه الممد بالحياة:

{الَّذِي خَلَقَ}:

وخلق الشيء، أي: أخرجه للوجود، وأظهره على غير مثالٍ سبق.

فكل ما تشهده من الكائنات، وكل ما تقع عليه حواسك وتدركه من الموجودات إنما خلقه على هذا الترتيب، وأوجده بهذا الحال من الإتقان والكمال ربُّك الممد لك بالحياة.

وقد أراد الله تعالى أن يفصِّل للإنسان هذه العظمة في الخلق بما هو متصل بنشأته ووجوده، فقال تعالى:

{خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ}:

والعلق: جمعُ علقة، والعلقة هي: القطعة من الدم، فهذا الإنسان الذي هو أغلى الموجودات وأكملها، والذي هو أشرف المخلوقات وأتمها صورة، إنما هو مخلوقٌ من علقٍ، فإذا كان هذا هو أصل الإنسان وحاله، فما أعظم قدرة الخالق وما أجلَّ شأنه، وما أجدر الإنسان وهذا حاله وأصله أن يذعن إلى خالقه الذي خلقه وأنشأه، فيصغي إلى هداه، ويتّبع نصحه وبيانه.

ثم أراد تعالى بأن يبيِّن للإنسان واسع فضله، وبالغ نعمته وإحسانه، فقال تعالى:

{اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ}:

فمهما رأيت من إحسانه وعطائه، ومهما شهدت من إكرامه وإنعامه، ففضله أعظم، وما هيَّأه لك من العطاء في الآخرة أبقى وأوسع. ثم بيَّن تعالى فضله على الإنسان وسائر المخلوقات فيما بثَّه في نفوسها من الغرائز التي تستطيع بواسطتها السير في هذه الحياة، ويتأمن لها معها السرور والهناء، فقال تعالى:

{الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ}:

والمراد **بالقلم**: الكتابة. نقول: قلم الوزارة، ونعني بذلك: دائرة التسجيل والكتابة، حيث تُسجَّلُ الوقائع وتُكتب.

ويكون المراد من كلمة (**القلم**) الواردة في هذه الآية: ما ثبَّته الله على صفحات الأنفس من الغرائز، وما أوجده فيها من الشهوات، فلكلِّ مخلوق غريزة خاصة، ولكل مخلوق شهوات مناسبة. فالبطُّ لا يلبث فرخه أن ينقف حتى يعدو إلى الماء، فيسبح فيها بمهارة وإتقان عجيب، والهرُّ يفترس، والعُصفور يبني عشه على أكمل وجه وأتم ترتيب، والنحلة تبني الخلية بناءً مُحكماً وتجني العسل من الأزهار، والطفل الصغير لا يلبث أن يخرج من بطن أمِّه حتى يُحرِّك شفتيه مُستعداً للرضاع.

فمن الذي علَّم فرخ البط السباحة في الماء، وعلَّم الهرَّ الافتراس والقضاء على الحشرات؟ ومن الذي علَّم العصافير كيفية بناء الأعشاش وأرشدها إلى أن تضع فيها ألين الريش ونُتف الحرير؟ أمَّن هذا الذي علَّم النحل بناء الخلية، وعلَّم الطفل منذ خروجه إلى هذا العالم الرضاع؟؟؟

تلك هي قدرة الحكيم الخبير والخالق العظيم، كتَبَتْ على صفحات كل نفس ما يناسب معيشتها وما هي بحاجة إليه. فترى كلَّ مخلوق يهتدي بفطرته إلى ما أثبته الله في نفسه من الغرائز مما تقوم به حياته ويتأمَّن معه بقاؤه، وتتم له به سعادته، من غير ما حاجة إلى دلالته وإرشاده إليه، فهذه الغرائز المثبتة على النفوس والشهوات المكتوبة على صفحات القلوب، أمكنتْ كلَّ مخلوق من الإهتداء، وأرتهُ طريق السير في هذا الوجود.

ولولا هذا النقش، وإن شئت فقل لولا هذا القلم لوقفت الخلائقُ حيارى لا تقوم بعمل، ولا تشتهي شيئاً، ولا تهتدي إلى شيء.

فالتعليم إذاً إنما هو بالقلم، أي: توصُّل كلِّ مخلوق إلى كيفية السير في الحياة إنما هو ناشئ عن تلك الكتابة التي كتبتها يد الحكيم الخبير على النفس، فسبحان من أودع الغرائز المختلفة في هذه المخلوقات، وجعل لها هذه الشهوات تدفعها إلى السير وتجعلها تتمتع بلذة الوجود والسعادة في الحياة.

وقد أراد تعالى أن يعرِّف الإنسان ذاتَهُ بهذه الكتابة التي كُتِبت على صفحات نفسه، وأن يسوق له على ذلك القلم الدليل على نفسه فقال تعالى:

{عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}:

فلولا التعليم الذي علَّمك ربُّك لكنت لا تعلم شيئاً، أي: لولا ما كتبه الله في نفسك

من شهوة لكنت جماداً لا تفقه ولا تسير في الحياة خطوة، لكنها نعمة الله عليك، أثبتت في نفسك ما تقوم به في حياتك من الغرائز، وما تتأمَّن معه سعادتك من الشهوات، وأنت بهذه الكتابة تندفع وراء حاجاتك وتتعرف إلى كلِّ شيءٍ.

فهذه الكتابة وإن شئت فقل بالقلم علَّمك ربُّك فأصبحت في هذه الحياة تهتدي إلى الأشياء، وتستطيع أن تتعرَّف إلى الموجودات وتلتذ وتنعم بما أوجده ربك من الطيبات، ولولا هذه الكتابة لما وجدت لذة ولا نعمة بشيء ولما اهتديت إلى شيء، وقد أراد تعالى أن يُبيِّن للإنسان ضرورة اهتدائه بربه في سيره في هذه الحياة، وتمتّعه بما أودعه فيه ربه من شهوات، ليكون سيره كله خيراً ولتكون لذته وتمتعه عائدة عليه بالسعادة والهناء، وقرَّر تعالى ذلك في النفوس، وأورد بصيغة الاستفهام ليكون أوقع وأثبت في القلوب فقال تعالى:

{كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى}:

والمراد بكلمة (**كَلاَّ**): التقرير، أي: أليس ذلك حقاً؟ ألست أنا أيها الإنسان الربُّ الذي خلقك؟ ألستُ الذي خلقتك من علق؟ ألستُ الذي علَّمتُ بالقلم؟ ألستُ الذي علَّمتك ما لم تعلم؟

أفبعد كل هذا تُخالف أمري، وتطغى مجاوزاً نصيحتي، معرضاً عني وأنا الذي خلقتك، وأنا أعلم بما فيه سعادتك؟

ثم ندَّد تعالى على الإنسان طغيانه واستغناءه عن ربِّه فقال تعالى:

{أَنْ رَءَاهُ اسْتَغْنَى}:

ويعود الضمير وهو (**الهاء**) في كلمة (**رَءَاهُ**) إلى الإنسان ذاته، ويكون ما نفهمه من

الآية المذكورة:

أي أَبعد أن أصبحت إنساناً سوياً ورأيت ما وهبتك من علم ومعرفة، وما أكرمتك به من صحة ونشاط وقوّة، أَبعد أن رأيت ذاتك ومكانتك نسيتني واستغنيت عني، فأصبحت لا ترى فضلي، وأنا الممد لك في كل لحظة وحين، ولا تذكر عطفي وإحساني وأنا لا أغفل عنك طرفة عين.

ثم أراد تعالى أن يخفِّف من غلواءِ هذا الإنسان الجاهل، وأن يغضَّ من كبرياء هذا المخلوق الضعيف الغافل، فذكر له أن كلَّ ما لديه الآن من علم ومعرفة، وكل ما يتمتَّع به من صحة وحياة وقوة، كل ذلك من فضل الله عليه، وراجع إلى إحسانه، فقال تعالى:

{إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى}:

والرجعى: هي الرجوع، فرجوع الإنسان دوماً إلى ربه، وهو مرجعه في كل حركة من حركاته، فلولا إمداده تعالى لك لما استطعت أن تقوم بعمل أو أن تتحرك بحركة، فلا تحسبنَّ أن لك غِنى عن ربِّك، أو أن لك حَوْلاً وقوة، فحولُك منه، وقوَّتك به، ومرجعك في كل أمر من أمورك إليه، فهو المسيِّر وهو الربُّ الممد المتصرِّف.

ذلك ما نفهمه من آية: **{إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى}**، كما نفهم أن كل ما وهبنا ربنا من العلم والمعرفة والحياة والقوة ذلك كله وديعة عندنا من الله وأمانة وعارية مستردَّة، وأنه لا بدَّ لنا من يوم تكون فيه الرجعى إلى الله، يوم نموت فنعود إلى ربنا فيستوفي ما أوْدعنا، وإليه تعالى إذ ذاك مردُّنا ومرجعنا، ثم لفت تعالى نظرنا إلى حال المقبل وحال المعرض لنعلم أن المقبل سعيد في نفسه ومحسن للخلق أجمعين، فقال تعالى:

{أَرَءَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۞ عَبْداً إِذَا صَلَّى ۞ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى ۞ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ۞ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى}.

وفي قوله تعالى: **{أَرَءَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۞ عَبْداً إِذَا صَلَّى}**: لفت تعالى نظرنا إلى امرئ معرض ازداد في الإعراض لدرجة أوصلته إلى أن يصد الناس عن الله.

وجاءت كلمة (**أَرَءَيْتَ**) بصيغة الاستفهام بياناً وتقريراً، أي: انظر أيها الإنسان إلى معاملة المعرض السيِّئة وسلوكه المنحط ثم انظر إلى تعاسته في دنياه وما هو فيه من شدة وشقاء واعلم أن ما يجرّه الإعراض لصاحبه من الشقاوة وما يرجع له من الأذى والاضرار بالناس، وفي قوله تعالى:

{أَرَءَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ۞ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى}: لفت تعالى نظرنا إلى حال رجلين مؤمنين: امرئ مُقبل، وآخر زاد في الإقبال حتى ساقه إقباله إلى دعوة الناس إلى التقوى والتوجُّه إلى الله، وجاءت كلمة (**أَرَءَيْتَ**) أيضاً بصيغة الاستفهام للتقرير والبيان، أي: انظر إلى المعاملة الطيبة والسير العالي الذي يصدر عن المقبل على ربِّه وعن المؤمن الداعي إلى الله، ثم انظر إلى سعادتهما وما هما فيه من طمأنينة وهناء. وإن ذلك المعرض لو كان سائراً سيرهما لما أصابه من التعاسة والشقاء.

وأخيراً لفت تعالى نظرنا إلى المعرض الذي تولَّى عن الله بآية:

{أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى}:

نعم إنه تولّى بنفسه غير أنه لم يتعرَّض لصدِّ أحد من الناس، فهو وإن كان لا يصدُّ الناس عن الهدى غير أن تكذيبه وتولِّيه عن ربه يجعله يضل طريق سعادته، ولذا تجده أيضاً شقياً في نفسه غير سعيد في حياته سيِّء المعاملة، شديد الإيذاء لغيره.

وإذن فالمقبل كيفما كان سعيد مُحسن، والمعرض أياً كان شقي ومؤذٍ. والسعادة والإحسان ثمرة الإقبال والإيمان، والشقاء والإيذاء ثمرة الإعراض، فسعادتك بيدك والخير كلّه في الإقبال على الله، وشقاوتك بيدك، والشرّ كله في الكفر أي الإعراض.

وبعد أن ساق تعالى من الأمثلة ما بيَّن به حال المقبل من حيث سيره وسعادته، وحال المعرض من حيث أذاه وشقاوته ذكَّر تعالى ذلك المعرض بقوله:

{أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى}:

أي: ألا يعلم الذي ينهى غيره ويصدُّ الناس عن الهدى أن الله تعالى يرى الخلائق كلها، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرةٍ في السموات ولا في الأرض، وأنه ناظر إليه، وشاهد على عمله، فكل ما يعمله مسطَّر عليه.

ثم بين تعالى ضلال ذلك المعرض عن طريق السعادة والخير فقال تعالى:

{كَلاَّ}:

أي: ليس هذا السير الذي تسيره يا أيها المعرض بالسير المفيد لك، وليس هذا العمل الذي تقوم به بالموصل إلى ما فيه خيرك وسعادتك، ثم هدَّده تعالى بقوله:

{لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ}:

والسفع: هو اللطم والأخذ بشدة، **والناصية**: هي مقدمة الرأس، **والسفع بالناصية**: كناية عن الأخذ بشدة مع الإذلال، وعدم القدرة على التفلُّت. فإنك إذا أخذت امرءاً من ناصيته فقد تمكَّنت منه وأخذته بقوةٍ أخذاً لا يستطيع التفلُّت منه.

وكما تأتي **الناصية** كناية عن النفس المجرمة التي فقدت معظم نورها الأزلي، إذ كانت في الأزل نفساً مستنيرة استنارة ساطعة مكتسبةً من نور الله، ثم غاصت في الشهوات

فتضاءل نورها واضمحلَّ فحلَّت بها الآفات والخطايا والإجرام والذي كان سبباً لشديد الإيلام والآلام، فبسبب هذا الضعف تُؤخذ للعلاج كما يؤخذ المريض إلى المشفى ليخفَّف عنه ما به من أسقام وأدران[1].

فالله سبحانه يُذكِّر المعرض وينبِّهه فإذا لم ينته ويرجع عن غيِّه فهنالك يأخذه أخذاً شديداً لا يجد لنفسه منه مخلصاً. ثم بين تعالى صفة تلك الناصية بقوله:

{نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ}:

وكاذبة: أي: مكذِّبة بالحق. **وخاطئة:** بمعنى: مخطئة، فقد أخطأت طريق سعادتها، وأخطأت طريق الحق الذي فيه خيرها وحياتها. ثم بيَّن تعالى أن الأخذ بالناصية إنما يكون ساعة الموت يوم ينقضي عمر الإنسان وينتهي أجله.

وقد حذَّر الله تعالى من تلك الساعة الرهيبة، حين تأتيه الملائكة، ملائكة الموت، لتستلَّ روحه فما يفيده في تلك الساعة تكذيبه، ولا يخلِّصه من الموت ذووه ولا أصحابه، ولذلك قال تعالى:

{فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ}:

والنادي: هم الجماعة الذين تناديهم في المهمّات فيلبُّون نداءك. وتدعوهم فيبادرون لنصرتك ثم قال تعالى:

{سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ}:

والزبانية: مأخوذة من زَبَنَ بمعنى نحَّى وفصل، وقد سمَّت العرب الشرطة الزبانية، لأنهم يفصلون المجرم عن المجتمع وينحونه.

---

(١) لطفاً للإستئناس راجع كتاب عصمة الأنبياء ـ بحث الأزل.

والزبانية: هنا هم ملائكة الموت، يفصلون الروح عن الجسد، وينحُّون المرء عن هذه الحياة فإذا كنت أيها المعرض لا تبالي بما تفعل، ولا تنتهي عما تقارف وتكسب، فاعلم أنك لا بد ميت وراجع إلى ربك، واستعد لتلك الساعة التي تأتيك فيها الملائكة لتتوفاك فتفصل روحك عن جسدك، وهنالك لا مفر ولا ناصر لك.

{كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ}:

أي: لا تعبأ أيها المؤمن بهذا المكذِّب الذي يريد أن يصدَّك ولا تلتفت إليه.

{وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}:

وسجد: طلب حاجته بخضوع. واسجد أي: ثابر على إقبالك على ربك طالباً فضله وإسباغ نعمته عليك. **واقترب**: أي: وتقرَّب إليه بعملك لتصبح أهلاً لفضله ونعمته عليك.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨

صدق الله العظيم

تأويل سورة التين

بعد أن عرَّفنا الله تعالى في سورة العلق بأنه الخالق الذي خلق، وأنَّه خلق الإنسان من علق، وبعد أن بيَّن لنا ما يعود به الإقبال على الله تعالى من السير القويم والسعادة في الحياة، أراد تعالى عطفاً منه علينا ورحمةً بنا أن يُلفت نظر الإنسان إلى عظمة المخلوقات، فلعلَّه إذا فكَّر بها واستعظم خلْقَها انتقل منها إلى تعظيم خالقها وموجدها فكان له من تعظيمه سبب لإقباله وسعادته، ولذلك قال تعالى:

{وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ}:

فبكلمة: **والتين**: يريد تعالى أن يُلفت نظر الإنسان، وأن يوجِّه تفكيره إلى ما في ثمرة التين من عظمة الخلق. فلو نظر الإنسان إلى هذه الثمرة مُفكِّراً في كيفية تلقيحها وانعقادها لوجد أمراً عجيباً، فالتين كما نعلم ذكر وأنثى وأنه لا يتم انعقاد الثمرة إلا بعد تلقيحها بواسطة تلك الحشرات الصغيرة التي تطير من الثمرة المذكَّرة حاملة غبار الطلع حتى تصل إلى الثمرة المؤنثة، فمن الذي جعل التين ذكراً وأنثى؟ ومن الذي خلق هذه الحشرة الصغيرة تغدو وتروح بين الثمرتين؟ من الذي عرَّفها وأرشدها إلى أن تحمل هذا الغبار من ثمرة إلى ثمرة، وجعل لها هذه الوظيفة؟

ثم انظر إلى الثمرة بعد استوائها ونضجها، وسَلْ نفسك من الذي أودع الحلاوة في هذه الثمرة، وجعل لها هذا الطعم اللذيذ، وهي إنما تخرج من الخشب وليس في الخشب من ذلك شيء؟

ثم انظر من جهة ثانية إلى ثمرة التين تجد فيها بذوراً عديدة، في كل بذرة صغيرة انطوت شجرة كبيرة عظيمة، وفي الشجرة المنطوية أوراق وأغصان وأثمار، وفي الأثمار بذور، وفي البذور أشجار، وفي الأشجار أثمار وبذور، وإنك إذا ذهبت تفكِّر في ذلك

وجدت في البذرة الواحدة الملايين من الأشجار، مما لا يحصيه عدد ولا يحيط به إدراك، فكيف انطوى ذلك كله في تلك البذرة الصغيرة التي اشتملت عليها ثمرة التين؟

وإذا كان فكرك يضيق، وإدراكك يعجز عن الاحاطة بما في بذرة التين من أشجار وأثمار وهي مخلوق صغير من المخلوقات فكيف أنت إذا نظرت إلى خالقها العظيم، خالق الأرض والسموات، ذلك كله توحيه لنا كلمة: (**وَالتِّينِ**).. وفي كلمة: (**وَالتِّينِ**).. آيات بيِّنات.

أما كلمة (**وَالزَّيْتُونِ**): فإنها توجِّه نظرك وتدعو فكرك إلى النظر في هذه الثمرة وما فيها من آيات.

فمن أين أتت هذه المادة الدهنية إلى الزيتون وليس في التراب الذي يتغذى منه دهن ولا زيت، فمن الذي أودع فيه الزيت وجعل له هذا الطعم اللذيذ؟ من الذي أخرج نبتة الزيتون الضعيفة من تلك النواة القاسية الصلبة التي لا تتكسَّر إلا بعد جهد جهيد؟ ما هذه القناطير المقنطرة من الزيت والزيتون التي تجود بها شجرة الزيتون التي تعيش وتُعمِّر مئات السنين، ذلك كله إنما انطوى في تلك النواة الصغيرة التي تلفظها من فمك غير ناظر إلى ما أودعته فيها يد الخالق العظيم والمدبِّر الحكيم.

وبعد أن ذكر تعالى التين والزيتون وما انطوى فيهما من حكمة عالية وقدرة عظيمة وفضل ونعمة، بيَّن تعالى لعباده مصدر تلك الحكمة والقدرة والمنبع الذي يفيض بهذا الفضل الواسع والنعمة السابغة، فقال تعالى:

{وَطُورِ سِينِينَ}:

أي: إنما ذلك هو صادر عن طور سينين. **والطور**: إنما تعني تلك الصفة الإلهية الكاملة والشأن الإلهي الذي يفيض برّه وتشملُ رحمته ويغمر إحسانه الكائنات كلها

والمخلوقات جميعها.

وسينين: مأخوذة من السناء، وهو الرفعة والعلو، وطور سينين: أي: العالي الذي لا يتناهى. وبشيء من التفصيل ولتقريب ذلك من الفهم نقول:

قد يتحدَّث الناس عن كرم رجل، ويُكبرون فيه هذه الصفة العالية، ثم يرجعون بالقول فيقولون: لا عجب ففلان طوره عالٍ، طوره الكرم، وقد يذكرون مروءة شخص وأعماله الإنسانية ثم يقولون: لا غرابة في ذلك ففلان طوره عالٍ طوره المروءة والإنسانية.

وإذا كانت كلمة (**الطور**) إنما تعبِّر عن طبيعة المخلوق وعن خُلُقه، فإن كلمة (**الطُور**) إنما تشير إلى صفة الذات العلية الكريمة وإلى شأنها العالي البالغ في العظمة والرحمة، فمن الطور الإلهي لا يصدر إلاَّ الفضل والإكرام، وعن طور سينين لا يفيض إلا البر الإلهي والإحسان. ومن طور سينين تنبعث الرحمة الإلهية الشاملة التي تسبح فيها سائر المخلوقات.

وبعد أن بدأ تعالى هذه السورة الكريمة بذكر التين والزيتون ليُشهدنا ما في هاتين الثمرتين من حكمة وقدرة وفضل ومنَّة، ذكر لنا كلمة (**الطور**) ليبين لنا المصدر الذي ينبعث عنه هذا الفضل، ثم تدرَّج بنا إلى درجة أوسع في التأمُّل والتفكير فوجَّه نظرنا إلى الكون كله. ولذلك قال تعالى:

{وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ}:

والمراد **بالبلد** هنا: الكون كله، فهو لهذا النوع الإنساني بلد أمين فيه كل شيء، فليس ينقصه شيء.

وبعد أن بيَّن لنا تعالى من الآيات ما يعرِّفنا بشأنه العالي وفضله العظيم أراد تعالى أن يعرِّفك أيها الإنسان بنفسك، فذكر لك ذلك المركز العالي الذي أقامك به بين سائر المخلوقات وأراك منزلتك في هذا الكون العظيم، وأنك فيه أحسن تقويماً من بين كل هذه المخلوقات ولذلك قال تعالى:

{لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}:

فالله سبحانه خلق الإنسان في أحسن تقويم بما جعل فيه من القابلية للتحلِّي بالفضيلة والكمال، والله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم بما فطره عليه من الاستعداد لاشتقاق الصفات الكاملة من ربه اشتقاقاً عجزت عن الوصول لمثله كل المخلوقات.

والله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم بما جعله فيه من الأهلية لمعرفة الذات العلية معرفة عالية قصرت عنها أنفس الملائكة الكرام، فلا السماء ولا الأرض ولا الجبال ولا البحار ولا الشمس ولا القمر حتى ولا الملائكة المقرَّبون بأقدر على تحمُّل التجلِّيات الإلهية وشهود الكمالات التي تدل عليها أسماءِ الذات العلية من نفس هذا الإنسان، وفي الحديث القدسي:

« **ما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبديَ المؤمن** ».

فالله سبحانه وهب هذا الإنسان من الفكر والملكات وأعطاه من البصائر، وساق له من الآيات، وجعل له نفساً أشد قدرة وأصلب عوداً وأكثر تحمُّلاً من أنفس جميع المخلوقات، وإلى جانب ذلك كله منحه الحرية في الاختيار ولم يَكِلْ أمره إلى أحد كما هو عليه حال الحيوانات، فلعله بذلك يستطيع أن يشهد كمالات ربه تعالى، وأن ينعم برؤية أسمائه الحسنى رؤية تجعله يسبح في ذلك الكمال ويتمتع بذلك الكنز العالي دهر الدهور وأبد الآباد. وفي الحديث القدسي:

« كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق وعرَّفتهم بي فبي عرفوني »[1].

فإلى ذلك خُلِقتَ أيها الإنسان، ومن أجل التمتُّع بذلك الكنز أوجدك ربك، ووهبك ما وهبك من فكر وإدراك وملكات. وأنت في أحسن تقويم لتستطيع السمو بنفسك سمواً لا يدانيك فيه مخلوق. فإن أنت أقبلت على ربِّك وتعرَّفت إليه فقد فزتَ بالسعادة الأبدية والحياة السرمدية. وإن أنت أعرضتَ فقد خسرت نفسك وما أعدَّه لك ربك من عطاء في الجنان وأصبحت مع أسفل السافلين من المخلوقات، قال تعالى:

{ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}:

ولتفصيل معنى هذه الآية الكريمة نقول على وجه المثال:

هب أن ضبعاً وقع في قبضة إنسان، فانظر كيف يجد هذا الإنسان الضبع منحطاً دنيئاً لما ينبعث عنه من رائحة منتنة ولما كان يصدر عنه من الأذى. ثم انظر كيف يرى هذا الضبع نفسه في يد ذلك الإنسان مُحتقَراً وضيعاً. كذلك حال المعرض بعد موته، وفي القيامة حيث تظهر أعماله المنحطة، وتنكشف حقيقته الدنيئة المنتنة، فيراه الناس حقيراً سافلاً، ويجد نفسه خبيثاً منتناً فيتألم من ذلك ويتقزز. ويشمئز منه الناس ويتقززون، ويشتد عليه الأمر ويسوؤه هذا الحال فلا يجد لنفسه إلا النار، فهو يطلب النار بحريقها ليمحو بها نتن رائحته وليداوي بها خبيث مرضه. وإنه وهذا حاله لا

---

[1] قال تعالى: **(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)** سورة الذاريات /٥٦/ وقد وافق على صحة الحديث الشيخ علي مُلاَّ القاري مُستنداً إلى تأويل ابن عباس رضي الله عنه لقوله تعالى: **(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)** أي ليعرفوني وقد اعتمده الصوفية وابن عربي وبنوا عليه أصولاً.

يطمع في الجنة حيث يرى نفسه بأنه غير لائق بها ولا جديراً بأن يكون من أهلها الأطهار الأصحاء وتمثيلاً لحال ذلك المعرض نقول:

هب أن امرأة خلقها الله على أبدع صورة وأجمل هيئة، ثم إنها أصابها المرض فظهرت في وجهها دمامل منتنة تقيَّحت وراح صديدها المنتن يسري، فهل تطمع هذه المرأة بعد أن أصبحت فيما أصبحت به أن تذهب إلى مجتمع فيه النساء الصحيحات؟ وهل تجدها تحب أن تجلس بين الناس؟ أعتقد لا... لأنك تجدها خجلى بعلَّتها، متقززة من نفسها لا تحب إلاَّ أن تكون في مستشفى تُداوى به، وهي ممقوتة في نظر نفسها وفي نظر غيرها.

وكذلك حال كل معرض عن أمر ربه مخالف لخالقه، فهو يُردُّ أسفل سافلين.

وتمتد به هذه السفالة ويستمر عليه ذلك الحال إلى أن يُصار به إلى النار حيث المعالجة والمداواة.

أما المؤمن الذي قدَّم صالح الأعمال ولم يلوِّث نفسه بدرن المعاصي والآثام فتستمر عليه النعمة، ويدوم له الإكرام الإلهي فينزل بعد الموت في حالة أرقى ونعمة أعظم وأسمى، قال تعالى:

{إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}:

فهم في حياة أسعد من حياتهم الأولى،(**فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**): أي غير ممتن عليهم به، بل يكرمهم ربهم بما يكرمهم مكافأة على ما قدَّموه من العمل الصالح وجزاءً على ما أسلفوه من الإحسان.

وبعد أن لفت تعالى نظرنا إلى النظام الكوني الذي قام به في هذا البلد الأمين، وبعد

أن جاءنا تعالى بآيات تبيَّن منها للإنسان: أن كل ما في الكون من المخلوقات قائم على أتم نظام وأكمل ترتيب قرر ذلك في نفوسنا فقال تعالى مخاطباً رسوله الكريم:

{فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ}:

والدين: هو الحق، والوضع الذي تقتضيه الحكمة لكل شيء مما يدين أي يخضع لكماله ويراه حقاً أهل العقل السليم. ويكون ما نفهمه من آية:

{فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ}: أي: بعد أن بيَّنتُ لعبادي ما بيَّنته من حيث سير الكون بالحق وكونه قائماً بالدين فأي شيء لا يؤيد قولك، وهذا البيان العالي الرفيع هل عليه أي ردٍّ منطقي: أليس هو الحق وما سواه باطل، وهل يستطيع أحد أن يأتي بمثله، أفلا يتبدى من خلال سير الكون بالحق قدرة ربّك، أولا ينطق لسان حاله بأنه حق وأنه قائم على أحسن ترتيب؟

وبعد أن أرانا تعالى ما أرانا أراد أن يُعرّفِنا بمن نظَّم هذا الكون وأحكم كل شيء فيه لننتقل من استعظام الكون إلى استعظام خالقه ومربّيه فنذعن له ونأوي بنفوسنا إليه ولذلك قال تعالى:

{أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ}:

أي: أليس هو الله تعالى الذي أحكم المخلوقات كلها وأتقن صنعها فجاءت على هذا الكمال الذي تراه فيه؟ أفليس يجدر بك وقد عرفت عظمة ربك وخالقك أن تطيعه وتعلم أنه يجب ألاَّ يُعصى ولا يُخالف في شيء؟

وهكذا كلمة: (**أحكم**): في هذه الآية، فالمراد منها ثبوت صفة الإحكام والإتقان لله تعالى وحده فيما تراه في هذه المخلوقات.

وأما كلمة (**الْحَاكِمِينَ**): فإنها تأتي لمعنيين اثنين.

. **الحاكم**: الذي يصدر عنه الحكم ويفصل في الأمور.

. **والحاكم**: الذي ينفِّذ الحكم ويطبِّقه.

وكلمة (**الحاكم**) في هذه الآية ليس المراد منها الحاكم الذي يفصل، فإنه ليس في الحقيقة في هذا الوجود حاكم غير الله. وهو وحده الحاكم، إنما المراد بها الذي ينفِّذ الحكم.

وعلى هذا فكلمة (**الحاكمين**): إنما تدل على المخلوقات كلها، فكل شيء منها قائم بوظيفته وعمله ويُنفِّذ ما أمره به ربه.

فالشمس مثلاً حاكمة على المياه، أي أنها تقوم بما رتَّبه لها الله تعالى من وظيفة وسيَّرها به وبذلك تتبخَّر المياه، والرياح حاكمة على السحب، أي أنها تُنفِّذ أمر الله تعالى فتسوقها من جهة إلى جهة ومن مكان إلى مكان، وهكذا كل شيء في هذا الكون قائم بوظيفته، مُسيَّر بأمر ربِّه.

وهذا ما نستطيع أن نفهمه من كلمة: (**الْحَاكِمِينَ**). ولكن من الذي خلق الكون كله وأحكم كل شيء فيه؟ أليس الله رب العالمين! أليس وحده الجدير بالحب والاجلال والتعظيم؟ أليس كلامه حقاً ووعده بالجزاء على الأعمال صدقاً؟ أفلا يجب عليك أن تأتمر بأمره وتطيعه فيما أنزله لك على رسوله الكريم ﷺ؟ فإن أنت أطعته تعالى فقد أفلحتَ وفزتَ بالنعيم المقيم، وإن أنت أعرضتَ ظلمتَ نفسك وخسرت ما أعدَّه لك ربك من الخير.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُواْ هُمُ الظَّالِمِينَ﴾[1].

---

(١) سورة الزخرف: الآية (٧٦).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ﴿٨﴾

صدق الله العظيم

تأويل سورة الشرح

في هذه الغمرة من الحزن التي أصابت نفس رسول الله ﷺ بسبب معارضة قومه له في مكة، وعدم إصغائهم إليه، واهتدائهم بهديه، أنزل الله تعالى عليه هذه السورة الكريمة ليسرِّي عنه ما يجده من ضيق وغم وليبشِّره بالفوز والنصر.

وقد أشار تعالى في مطلع هذه السورة الكريمة مذكِّراً رسوله الكريم بما كان يجده قبل الرسالة من الضيق بسبب تألُّمه على الخلق وعدم معرفته الطريق التي تكون بها هدايتهم وبما تبع ذلك من اليسر وانشراح الصدر، وكذلك الآن ومن بعد هذه المعارضة فلا بد أن تقرَّ عينه بهدايتهم ولا بدَّ أيضاً من اليسر ولذلك قال تعالى:

{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}:

أي: ألا تذكر ذلك اليوم الذي شرحنا لك فيه صدرك بمعرفة طريق الدلالة بعد أن كنت حزيناً متألِّماً على الخلق لا تدري السبيل الذي تنقذهم به من الضلالة والجهالة.

{وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ}:

والوزر: هو الحمل، والمراد به هنا: ما كان يحمله ﷺ من الهمِّ والغمِّ. وما كان يجده في نفسه من الحزن والأسف على قومه، ويكون ما نفهمه من هذه الآية:

أي: ومن بعد أن كنت حزيناً متألِّماً أما حططنا عنك بهذا الفتح والبيان ما كنت تحمله من الهمِّ والغمِّ. وما كنت تجده على قومك من التألُّم والحزن؟

وقد أراد تعالى أن يصف لنا ذلك الهم والغم لا بل ذلك الحمل الذي كان يحمله رسول الله ﷺ بسبب إشفاقه على الخلق، فقال تعالى:

{الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ}:

وأنقض: بمعنى أتعب وأثقل. فقد كان همٌّ رسول الله ﷺ وغمّه على الخلق شديداً أتعبه وأثقل ظهره. ويكون ما نفهمه من هذه الآية: أي: ألم نُنزِلْ عنك هذا الحمل الثقيل من بعد أن عرَّفناك بطريق الدلالة:

{وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}:

والذكر: هو البيان والتذكير. **والرفع:** هو إعلاء الشأن والقدر. ويكون ما نفهمه من هذه الآية:

أي: ألم نُطلق لسانك بالدلالة فجعلناك تتكلَّم بما تتكلم به من البيان الحكيم والكلمات الرفيعة المنزلة العالية الشأن.

{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً}:

أي: ألم يصاحب ذلك الألم على الناس والضيق الذي كنت تشعر به قبل الرسالة الفرجُ واليسرُ بهدايتك تلك الهداية والفتح عليك بتلك المعرفة التي فتح الله بها على قلوب المؤمنين وبذلك الإيمان والعلم الذي تفتَّحت به قلوبهم بما جئت به من الدلالة والبيان فتبع ذلك العسر ما تبعه من البيان العالي الرفيع فرفلوا به بالسعادة والنعيم فزال عنك الهمّ والغمّ والحزن، إذ شرحنا لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك، الذي أنقض ظهرك، ورفعنا لك ذكرك فانتشرت دلالة القرآن وشملت أمة العرب واليمن وتهيأت الأسباب لنشر الحق على العالمين فكنت رحمة لهم كافة. وكذلك الآن لا تحزن ولا يضيق صدرك، فالشدة والعسر اللذان كُنْتَ تلقاهما في نفسك من معارضة قومك وصدودهم عنك، فلا بد وأن يعطيك ربك مطلوبك فتهتدي العوالم ويؤمنوا بك ولذلك قال تعالى:

{إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً}:

فكل عسر لا بدَّ وأن يصاحبه يسر، وذلك قانون إلهي، وتلك سنةٌ ثابتة، وبعد أن بيَّن الله تعالى لرسولهﷺ أن ما يجده من العسر بسبب معارضة قومه لا بد وأن يتلوه الفرج واليسر، أراد تعالى أن يبيِّن للرسول الطريق التي بسلوكها يحصل ذلك الانفراج واليسر، ولذلك قال تعالى:

{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ}:

وفرغ من الشيء: خلا منه. **ونصب**: بمعنى جدَّ واجتهد. فالله تعالى في هذه الآية الكريمة إنما أراد أن يقوِّي عزيمة رسوله ﷺ، وأن يبعث الثبات على الدعوة إلى الحق في نفسه، فأمره بأن يسير في التبليغ قُدُماً غير مبالٍ بمعارضة من يُعارضه، وأن يجدَّ في التذكير غير عابئ بمن يُكذِّبه.

ويكون ما نفهمه من آية: **{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ}**:

أي: إذا لم تتوصل معهم إلى ما تريد من الإيمان والإذعان، إذا كدت أن تيئس من متابعتهم لك وسيرهم معك إلى معرفة صاحب الجود والإحسان، إذا فرغت منهم ولم تصل إلى مطلوبك، فلا تبتئس بما يعملون ولا تنقطع عن التبليغ والانذار، بل انصب في دعوتك وجدَّ واستمر في سيرك.

{وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ}:

ورغب: بمعنى طلب منه. **وربّك**: أي: مربِّيك ومُمدّك بالحياة، ويكون مانفهمه من الآية، أي: ليكن همّك في دعوتك رضاء خالقك ومربِّيك، فهو وحده قصدك، ورضاه وحده مطلوبك.

أقول: وفي هذه السورة إنما يُعلِّمنا الله تعالى كيف نثبت على الحق غير مبالين بمعارضة المعارضين وتكذيب المكذِّبين، فإن نحن ثبتنا أيَّدنا ربُّنا بالفوز والنصر وجاءنا من بعد العسر بالفرج واليسر، قال تعالى:

(وَكَأَيِّن مِن نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۞ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ۞ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)[١].

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٤٦-١٤٨).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾
وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾
أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ
عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴿١٠﴾
وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾

صدق الله العظيم

تأويل سورة الضحى

المعنى الإجمالي:

يُريد الله تعالى في هذه السورة الكريمة أن يُبيِّن للإنسان دوام عنايته به، وأن يُعرفه باستمرار رعايته له وعطفه عليه، ولذلك فإنه تعالى بدأ هذه السورة ببيان فضله العالي فيما خلقه لك، وفيما أكرمك به، ثم بيَّن لك أن الذي عُني بك هذه العناية، وأن الذي ساق لك هذه النعمة الكاملة، ما يكون له أن يتركك ويهجرك ولذلك قال تعالى:

{وَالضُّحَى ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۞ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}:

المعنى على التفصيل:

وبعد أن فهمنا مُجمل هذه الآيات، نُفصِّل بعض التفصيل، ونُمهِّد بشيء من الشرح اللغوي، فنقول: **الضُّحَى**: هو البيان والظهور، يُقال: ضحا الشيء: إذا انكشف واستبان. والطريق إذا بدا، **وَالضُّحَى**: في هذه السورة إنما تشير إلى الظهور والبيان الذي يرافق طلوع الشمس وإشراقها.

فهذه المخلوقات التي تراها على أتمّ صورة وأكمل حال، هذه الأنظمة التي يسير عليها الكون دون أن يتسرَّب إليه أي خلل أو نقصان، هذه الدقة في التكوين، هذا الجمال والتنظيم، هذا الخلق التام البديع. وإن شئت فقل: كل ما يظهر ويبدو، وكل ما يمكن أن تراه إذا طلعت عليه الشمس ينطوي تحت كلمة: (**وَالضُّحَى**).

أمَّا كلمة: (**الليلِ**): فإنها تشير إلى ما ينبعث عن الليل وما يرافقه من فوائد يتم بها السير والتنظيم، ففي الليل إذا سجى: أي: إذا غطَّى الكون بظلمته تتلطَّف حرارة

الجو، ويُخيِّم السكون والهدوء، وفي ذلك ما فيه من معونة على نمو النبات ونضج الثمار، وفي ذلك معونة للإنسان والحيوان على الراحة وتجديد النشاط إلى غير ذلك من الفوائد التي لا يستطيع أن يحصيها الإنسان.

وبناءً على هذا، ومن بعد هذا البيان، لا يمكن وما يكون لهذا الخالق العظيم الذي خلق لك هذا الكون كله وسخَّر لك جميع ما فيه. ما يكون لهذا الخالق الذي عُني بك هذه العناية أن يتركك ويقليك.

إذا كنا لا نتصوَّر أن يبني الإنسان بيتاً حسناً يزيِّنه بأجمل زينة ويُهيِّئه التهيئة التامة ثم ينصرف عنه مُولِّياً ويهجره خالياً، فكيف يتصوَّر أن يُهيِّء لك ربُّك هذا الكون كله ويسخِّر لك ما فيه جميعاً ثم يذرك وحيداً ويهجرك. ذلك ما نفهمه من آية: **{مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}**: إذ أن **التوديع**: هو الترك، **والقلي**: هو الهجر، تقول: قلى فلان فلاناً، أي: هجره وانصرف عنه مولِّياً.

وبعد أن بيَّن تعالى ما بيَّن من فضله عليك فيما خلقه لك في هذه الدنيا أراد أن يبيِّن لك أن ما أعدَّه في الآخرة من النعيم وما هيأه لك فيها من الإكرام أعظم وأبقى، ولذلك قال تعالى:

{وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى}:

فإن أنت أصغيت بأُذنك إلى نصحه وإرشاده تعالى، إذا أنت اتَّبعت أوامر خالقك فزت بالسعادة وأعطاك ربك ما تحب وترضى ولذلك قال تعالى:

{وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى}:

وبعد أن عرَّفنا تعالى بأنه ما يكون له أن يتركنا ويهجرنا وقد خلق لنا ما خلق وأكرمنا

بما أكرمنا، بل إنه تعالى دائم العناية بنا باسطٌ يده أبداً بالتربية والإمداد علينا، أراد تعالى أن يرجع بنا إلى مرحلة من المراحل التي مرَّ بها كل واحد منا فكان فضل الله عليه فيها ظاهراً بيِّناً، ووضع بين أيدينا من يومنا ذلك حقيقة ملموسة وواقعاً ثابتاً فقال تعالى:

{أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى}:

واليتيم: هو الضعيف المنقطع الوحيد المنفرد. والله تعالى في هذه الآية يريد أن يذكِّرنا باليوم الذي كنا فيه في بطون أمهاتنا يوم كان أحدنا يتيماً أي مخلوقاً ضعيفاً منقطعاً، فليس له من يُعنى به يومئذٍ غير خالقه، وليس له عين ترعاه سوى عين بارئه ومصوِّره، فما أن خرجنا إلى الدنيا حتى آوانا ربنا إلى أمنا وأبينا، وأودع في قلبيهما من الحنان والعطف ومن الرحمة ما جعلهما يُعنيان بنا أكثر ممَّا يُعنيان بذاتهما. أفليس هذا كله من رحمة خالقنا بنا؟ أفليس هذا العطف والحنان المودع في قلبيهما صادراً عن ذلك البحر الذي لا يتناهى من رحمته وعطفه تعالى علينا؟ من الذي آوانا في أحضان أمهاتنا؟ أم من هذا الذي جعل في قلب والدينا تلك الرحمة بنا؟ أليس هو الله ربنا!

ثم ذكَّرنا سبحانه بمرحلة أخرى من مراحل حياتنا فقال تعالى:

{وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى}:

والضال: هو الذي لا يعرف طريقه إلى الشيء. وبالحقيقة لقد خرج أحدنا إلى هذا العالم ضالاًّ لا يعلم شيئاً. فمن الذي هدانا إلى الرضاع من ثدي أمهاتنا بعد أن قطعوا حبل السرّة الذي كان يأتينا منه الغذاء؟ من الذي أرشدنا إلى أن أفواهنا هي الطريق والواسطة التي نجتذب بها الغذاء الضروري لأجسامنا؟ من الذي أرشدنا إلى معرفة الأشياء خيرها من شرّها ونافعها من ضارّها، وجعل لنا السمع والأبصار

والأفئدة وكنا من قبل لا نعلم شيئاً؟ من الذي هدانا إلى الطريق الذي نكتسب به معاشنا، ويسَّر لنا أعمالنا وعلَّمنا الطريق إلى استثمار الأرض والاستفادة من خيراتها؟ أليس هو الله صاحب النعمة والفضل، وَمَنْ نعمهُ لا تُعد ولا تُحصى!

وقد أراد تعالى أن يذكِّرنا بمرحلة أخرى من مراحل فضله علينا فقال سبحانه:

{وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى}:

والعائل: هو الفقير المحتاج إلى من يعوله ويرعاه وينفق عليه. وكذلك كان حالنا يوم كان أحدنا وليداً وطفلاً، فقد كنَّا بحاجة لمن يعولنا ويعطف علينا ويقوم بشؤوننا، وما زال تعالى يمدنا بما يمدنا به من قوة ومعرفة يوماً فيوماً، وما زال يهبنا ما يهبنا من نمو وصحة حتى بلغنا أشدَّنا.

فإذا كانت هذه الآيات الكريمة المتتالية تدلّنا على سلسلة من عنايته تعالى بنا. أفليس يجدر بنا أن نطيع أمره تعالى، ونعلم أنه غنيٌّ عنا، وأن أوامره كلها في خيرنا وسبب في سعادتنا؟ ولذلك ومن بعد أن عرَّفنا تعالى بفضله وعنايته وسابغ نعمته، أراد سبحانه أن يرشدنا إلى الطريق الذي نجرُّ به الخير لأنفسنا فقال تعالى:

{فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ}:

واليتيم: كما ذكرنا هو الضعيف المنقطع ومن هو بحاجة إلى المعونة والمساعدة صغيراً كان أو كبيراً، فإذا عُرِض لك إنسان بمثل هذا الحال فكن إزاءه إنساناً حقاً، وعامله بالإحسان، خُذْ بيده وقم إلى نصرته، وأحسن كما أحسن الله إليك، فإن الله يُحب المحسنين.

{وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ}:

وإذا عرض لك امرؤ حاجته فكن له عوناً على حاجته فلا تردَّه خائباً.

{وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}:

وتحدَّث دوماً عن هذه العناية الإلهية التي عنيها بك ربك، حدِّث نفسك بها أيها الإنسان فالكون كله... شمسه وقمره... أرضه وسماؤه... برُّه وبحره... حيوانه ونباته مُسخَّر لك، مُذلَّل لخدمتك، وأنت المكرَّم فيه أكثر من كل مخلوق، وأنت المؤهَّل لنيل كل إحسان فإذا حدَّثت نفسك بنعمة ربّك وذكَّرتها بفضله عليك استطعت أن تشكر المنعم، فإن النفوس جُبلت على حُبِّ من أحسن إليها. وإذا شكرت ربك زادك من فضله:

(... **لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**)[1].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية (٧).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾
إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾
فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ
﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ
عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ
﴿١٤﴾ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا
ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ
تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴿٢١﴾

صدق الله العظيم

تأويل سورة الليل

بعد أن بيَّنت سورة الضحى للإنسان أن الله سبحانه دائم التربية له، ناظر إليه يكلؤه بعنايته وحنانه، أرادت هذه السورة أن تبيِّن لك طريق سعادتك، وترشدك إلى السير الذي يعود عليك بالحسنى في دنياك وآخرتك.

وقد بيَّن تعالى في مبدأ السورة طائفة من الآيات الكونية تعريفاً لك بعظمة من يرشدك ويهديك وبياناً لفضله الواسع عليك ولذلك قال تعالى:

{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۞ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى}:

فالليل: هو هذه الظلمة التي تنبعث من جهة المشرق فتغشى وجه الأرض متزايدة شيئاً فشيئاً، إلى أن تلفّنا بردائها وتسترنا، وهنالك تجدنا ننقطع عن أعمالنا، ونخلد إلى الراحة، ونستسلم إلى النوم، لنستعيد به نشاطنا من بعد أن كلَّت جوارحنا وسرى التعب إلى أجسامنا.

والنهار: وهو ذلك الضياء الذي يرافق ظهور الشمس، فيكشف لنا جميع ما نشهده وما تفضَّل به علينا ربُّنا، فنذهب إلى أعمالنا وقد استعدنا نشاطنا، وزال عنَّا ما كنَّا نجده من تعب، فكأننا وُلدنا من جديد، وبدأنا وصلة جديدة من مراحل حياتنا.

فمن الذي أوجد لنا هذا النظام، وجعل الليل سكناً، والنهار مُبصراً؟

من الذي أوجد الأرض على هذا الحال من التكوُّر، وجعلها تدور حول نفسها، فكان من ذلك الليل والنهار، وبهذا نستطيع أن نستمر في سعينا وأعمالنا، ونتمتَّع بما أعطانا ربُّنا!

على أن معنى هاتين الآيتين ليس قاصراً على ما قدَّمنا، بل هنالك معانٍ عدَّة لا

يعلمها إلاَّ الله تنطوي مكنونة من ورائها.

ففي **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى}** أي: إذا هو غطَّى الأرض بظلامه: سكونٌ وهدوء كما ذكرنا في سورة الضحى، وذلك مما يساعدنا على الراحة والاستسلام للنوم، وفي الليل الرطوبة وبرودة الجو، وفي ذلك ما فيه من الفوائد للإنسان والحيوان ومعونة النبات على النماء، وفي الليل فوائد شتى مهما عدَّدت منها فأنت عاجز عن درك جميعها.

كما ينطوي تحت كلمة **{وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى}**: أي: إذا ظهر وبدا معانٍ شتى. ففي النهار يظهر لك ما خلقه لك ربك من موجودات، وفي النهار بما فيه أيضاً من حرارة وضياء ينمو النبات وتنبت الحبوب وتنعقد الأزهار وتنضج الفاكهة والثمرات، وفي النهار فوائد لا يحصيها غير خالقها وموجدها.

ففكِّر في ذلك أيها الإنسان تفكيراً دقيقاً، تُهْدَ إلى خالقك، وتتعرَّف إلى شيء من عنايته بك وفضله عليك.

وبعد أن ذكر لنا تعالى الليل والنهار وما يدل عليه خلقهما من نظامٍ وإحكام، أراد تعالى أن يرينا من آياته آية أخرى، فقال تعالى:

{وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى}:

فالحيوانات والحشرات والطيور والأسماك والنبات والإنسان: من كل نوع من هذه الأنواع خلق الله تعالى زوجين اثنين. وإنك إذا ذهبت تبحث وتوسَّعت في البحث وجدت هذا النظام يتعدى ما ذكرنا فيشمل ما يُسمُّونه بالجمادات وغير ذلك مما تشهده ويقع نظرك عليه، فمن كل شيء خلق الله تعالى زوجين اثنين وجعل بينهما تآلفاً وتجاذباً، وجعل لكل منهما ما يناسبه ويحتاج إليه لتنظيم الحياة، وليستمر الوجود

والبقاء، ولتتم عليك النعمة والإحسان، فما أرحم الخالق العظيم بنا، وما أكبر ما تفضَّل به علينا جميعاً!

وبعد أن بيَّنت لنا الآية السابقة ذلك النظام البديع، أرادت الآية التالية أن تعرّفِنا بأن لهذه المخلوقات وظائف وأعمالاً مختلفة، وأنه تعالى ما خلق مخلوقاً عبثاً، ولذلك قال تعالى:

{إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى}:

وشتى: بمعنى مختلف، متنوّع، فلكل مخلوق سعيه ووظيفته، فالجمل يحمل، والخيل والبغال تجر، والبقر يحرث، والضأن يأتيك بالصوف واللبن، والدجاج ينتج البيض، والضبع ينظِّف الفلاة من الجيف ليحافظ الجو على صفائه ونقاوة هوائه، والكلب يحرس، والهر ينظِّف المنازل من الحشرات، والنحل يجني العسل ويُلقِّح الأزهار، ويطول بنا الشرح إذا أردنا أن نأتي على ذكر كل مخلوق أو حيوان. فما من مخلوق إلا وله وظيفته الخاصة به، وما من مخلوق إلاَّ وله الأعضاء المتناسبة مع وظيفته، والغرائز التي يهتدي بها إلى كيفية سيره في حياته.

وبتضافر وظائف هذه المخلوقات بعضها مع بعض ينتظم السير في هذا الكون، وتتأمَّن لك السعادة وتدوم الحياة.

فمن الذي خصَّص كل مخلوق بخصائصه، وجهَّزه بالأعضاء التي تساعده على وظيفته، وجعل الكون كله وحدة مترابطة الأجزاء وأبدعه على هذا الحال من الكمال! أليس هو صاحب الرحمة والحنان! أليس هو الله تعالى ذو الجلال والإكرام! ألا يجب عليك أن تفكر بذلك أيها الإنسان فتتعرَّف إلى عظمته تعالى وتذكِّر نفسك بحنانه وإحسانه، وتعلم أنه لا يأمرك إلا بما فيه سعادتك وخيرك فتخضع لأمره ونهيه؟

ولذلك ومن بعد هذه الآيات الأربع التي افتتح بها تعالى هذه السورة الكريمة أراد سبحانه أن يبيِّن لنا الطريق الذي نصل به إلى السعادة الحقَّة والحياة الطيبة فقال تعالى:

{فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى}:

وإذن فربُّك العظيم، وخالقك الكريم، ما تركك سدى وما خلقك عبثاً، بل بيَّن لك طريق سعادتك وذلك ما فيه خيرك، وقد بدأ تعالى بآية:

{فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى}: ليبيِّن لك أن أول خطوة بعد هذا الإيمان الفكري الذي حصلت عليه بنظرك في هذا الكون إنما هو العمل الطيِّب والإحسان.

وأعطى: بمعنى: بذل، فالذي يبذل مما أعطاه ربُّه من مال إن كان غنياً ومن معونة للضعفاء إن كان قوياً، ومن جاه لذي حاجة إن كان وجيهاً، ومن علم ومعرفة إن كان عالماً، وإن شئت فقل: كل امرئ يعطي في حدود إمكانياته كلَّما سنحت له الفرصة وانفتحت في وجهه أبواب العمل إنما يصل به عطاؤه للتقوى:

والتقوى: كما ذكرنا إنما هي إقبال النفس على ربِّها وخالقها، فبالعطاء تُقبل النفس على الله، لأن من قوانينها كما مرَّ بنا أنها لا بدَّ لها من عمل صالح تعتمد عليه حتى تتولَّد فيها الطمأنينة والثقة بذاتها فإن هي غدت واثقةً من صلاح عملها مطمئنة بإحسانها أقبلت راغبة على ربها.

وإذن فأول ما نبدأ به بعد الإيمان الفكري: العمل الصالح، والعمل الصالح وسيلة التقوى، أي: إقبال النفس على خالقها. ولكن ماذا ينشأ عن التقوى؟ لقد ذكر لنا تعالى ذلك بقوله:

{وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى}:

والحسنى: هي ما جاء به القرآن الكريم من الهدى. فالإقبال على الله يجعلك ذا بصيرة ترى بها ما تنطوي عليه أوامره تعالى من الخير لك والسعادة، فإذا أنت رأيت ذلك أيقنت بفضل ربك عليك وشكرته على إحسانه إليك، وشكرت رسول الله ﷺ على ما بذله في سبيل دلالتك وهدايتك، ولكن بماذا يقابلك ربك إن أعطيت واتَّقيت وسرت في طريق الإحسان والإنسانية، لقد بيَّن لك تعالى ذلك أنه سيجزي إحسانك بالإحسان فقال سبحانه:

{فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى}:

واليسرى: هي الحياة الطيبة التي فيها اليسر والسرور، فلا يسوق لك تعالى إلاَّ ما فيه سرورك وهناؤك.

ولا تقتصر تلك اليسرى على الحياة الدنيا، بل تمتد بك إلى الآخرة، والآخرة خير وأبقى، وبعد أن بيَّن لنا تعالى في الآيات السابقة طريق سعادتنا أراد أن يُحذِّرنا في الآيات التالية من الطريق التي إذا نحن سلكناها شقينا وكانت حياتنا ضنكاً وعسراً. ولذلك قال تعالى:

{وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۞ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ۞ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى}.

وقد بدأ تعالى آية: **{وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى}**: ليعرِّفك بما يجرُّه لك البخل بالأعمال الصالحة من الشقاء، فكما أن العطاء والإحسان يصل بالنفس إلى التقوى، أي الإقبال على الله، فبعكسه البخل على النفس يكون بعدم بذل المعونة والتأخُّر عن الأخذ بيد الضعيف ومساعدة ذوي الحاجة فتجعل النفس كسيرة الجناح، مقعدة عن

السير في طريق التقوى، ولذلك تجدها تستغني عن الإقبال على الله والرؤية بنور الله. وفي الحديث الشريف كما مرَّ بنا من قبل:

« **يكاد الفقر أن يكون كفراً** »(١).

وأنه ليس المراد بالفقر فقر المال وإنما المراد: الفقر من الأعمال الصالحة. ولكن ما الذي يعقب هذا الاستغناء؟ وما الذي يتبع ذلك الإعراض؟

يعقبه العمى والضلال، فلا تستطيع النفس والحالة هذه أن ترى الخير من الشر، ولا أن تشهد حقائق الأعمال، ولذلك تجد هذا المسكين يكذِّب بالحق، وما جرَّه لتكذيبه إلا ضلالُه وعماه ولذلك قال تعالى:

{وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى}:

والحسنى: هي الدلالة التي جاء بها القرآن الكريم، سُمِّيت بالحسنى لأنها تجعل حياة الإنسان حسنة طيبة.

وما التكذيب إلا الإنكار، فهذا الذي بخل على نفسه فلم تتفتَّح بصيرته لترى خيرها من شرِّها، تراه لا يشهد ما في القرآن الكريم من الخير ولا يعرف قدر هذه الدلالة وما فيها من الفضل الإلهي، ولذلك تجده يفضِّل سير أهل الكفر والضلالة، ويميل إلى أهل الفسوق والعصيان، فإذا سمع بالسفور ينسى قول الله تعالى:

(يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً)[١].

---

(١) رواه البيهقي وغيره مرفوعاً.

(١) سورة الأحزاب: الآية (٥٩).

كما ينسى سبب غزوة بني قينقاع، ويستحسن كشف الحجاب مُدَّعياً أن الحجاب عادات تقليدية قديمة، وإذا ذكرت له الربا وحرَّمته قال لك: إن فيه بعثاً للحركة الاقتصادية، ولو أنه أعطى واتَّقى، أي: فعل الخير وأقبل على ربه لرأى أن كشف الحجاب هو السبب في تفكيك عرى الأسرة وانحلال روابط الزوجية، ولعلِمَ أنه مبعث التدهور الأخلاقي وفساد التربية وغير ذلك من الأمراض الاجتماعية، ولو أنه أعطى واتَّقى، أي: فعل الخير وأقبل على ربه لرأى أن الربا قليلاً كان أو كثيراً هو السبب في إفلاس أكثر التجار، وحدوث أهم الأزمات الاقتصادية، وركود الأسواق التجارية، فهو يزيد الفقير فقراً، ويجعله عالة على غيره، وكلما ازداد الفقراء بارت التجارة، وعمَّ الكساد، ولحق الأغنياء الفقراء، ويشمل الشقاء سائر الطبقات، وهكذا إنك لتجد المعرض مكذِّباً بالحسنى، فلا يتَّفق تفكيره مع الحق ولا يطابق سيره السير الإنساني، وليس يعرف من الحياة إلاَّ الوصول لرغباته الخاصة ولشهواته الدنيئة. ولكن ماذا يعود عليه من عمله؟ وهل يتركه ربه من غير مداواة، أم أنه تعالى رحيم بهذا الإنسان ولو ضلَّ طريقه وأخلد إلى الأرض واتَّبع هواه؟

لقد بيَّن لنا تعالى أنه لا يترك ذلك الإنسان ولا يهمله، بل إنه سبحانه رحيم ومن رحمته أنه يضيّق عليه، فلعله بذلك التضييق يقبل على ربه ملتجئاً إليه، فيُشفى من مرضه. ويطهِّر قلبه مما فيه من الخبث والشهوات الدنيئة، ولذلك قال تعالى:

{فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}:

والعسرى: هي ضد اليسرى، وهي الحياة التي كلها عسر وضيق، فتجد من كان ذلك حاله تارةً مريضاً وتارة مكروباً مهموماً، وإنك لتجده ضائقاً صدره، ولو ملك الدنيا، وحُيِّزت له الأرض بحذافيرها، فهو أبداً في ضنك، وهو أبداً في همٍّ وغمٍّ، قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً...﴾[1].

ولكن إذا مات هذا الرجل ولم يتب فماذا يحل به؟

إنه سينتقل من هموم الدنيا وغمومها ونغصها وكربها إلى عذاب الآخرة ولعذاب الآخرة أشدُّ وأخزى. ولذلك قال تعالى:

{وَما يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى}:

أي: وماذا يفيده ماله؟ ماذا يدفع عنه ماله إذا هو هلك ودفن في قبره؟ هل يلحق به ماله فيخلِّصه من الشقاء الذي حل به، أم أنه يتمنَّى أن لو تصدَّق في الدنيا ولم يسقط في هذه الهوَّة ولم يكن معذَّباً!

وإذاً فمن يبخل فإنما يبخل على نفسه، والبخل بالعمل الصالح يجرُّ إلى الإعراض، والإعراض يجرُّ إلى العمى والتكذيب بالحق، وماذا بعد التكذيب بالحق إلاَّ الضلال! . ومن مات وهذا حاله فمصيره إلى النار وليس ينفعه البخل وجمع المال، ومن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساءِ فعليها.

وبعد أن بيَّن لنا تعالى طريق السعادة وطريق أهل النار والشقاء، أراد أن يبيِّن للإنسان أنه مطلق حرٌّ في إرادته، وأنه تعالى لم يقيِّد إرادة الإنسان بل إنه أعطاه الحرية وأطلق له الاختيار، فمن شاء سلك طريق الحق، ومن شاء سلك طريق الغيِّ والضلال، ولذلك قال تعالى:

{إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى}:

---

(١) سورة طه: الآية (١٢٤).

فالله تعالى يهديك لما فيه خيرك، ويدلُّك على ما فيه سعادتك، ويُحذِّرك مما فيه شقاوتك، وأنت من بعد ذلك حر فيما تطلب وتختار غير مُجبر على السير في طريق أو عمل من الأعمال.

﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ..﴾[1].

ثم بيَّن تعالى لك أنه بعد اختيارك وتصميمك فهنالك التسيير والإمداد، قال تعالى:

{وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى}:

فإن أنت اخترت الطريق الأولى طريق العطاء والتقوى، سيَّرك الله وأمدَّك، وعادت عليك نتائج سيرك. وإن أنت اخترت الطريق الثانية، طريق البخل والإعراض، منحك من الحَوْل والقوة ليخرج لك ما استقرَّ في نفسك من الشهوة الخبيثة والشر الكامن، ثم كانت عائدة ذلك الفعل عليك بالضنك والعسرى، وإذاً: فللعبد الحرية في الاختيار ومن الله التسيير والإمداد قال تعالى:

﴿كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾[1].

والحمد لله على كل حال.

{فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى}:

في هذه الآية الكريمة يريد تعالى أن يحذِّرنا من سلوك طريق الشقاء، وينذرنا عاقبة الأشقياء، فبيَّن لنا أن بعد هذه الحياة الدنيا حياة أخرى، وأن فيها ناراً تلظى، بمعنى تتوقَّد وتتلهَّب، في هذه الآية تتبدى لنا رحمته تعالى بنا وعطفه علينا، فهو ينذرنا من

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٥٦).

(١) سورة الإسراء: الآية (٢٠).

تلك النار، ويحذِّرنا من الوقوع فيها، رأفة بنا وحناناً منه علينا. ثم إنه بيَّن تعالى عدله فقال:

{لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى}:

وإذاً فليس الأمر كما يزعمه أُناس من أنه إذا شاء تعالى عذَّب المحسن ونعَّم المسيء، بل إنه سبحانه رب عادل، فليس يصلى هذه النار، أي ليس يذوق حرّها وألم حريقها إلاَّ الأشقى، وهو الذي أشقى نفسه، أي أتعبها فأسرف على نفسه في دنياه وبذلك حرمها من النعيم الذي أعدَّه الله له في آخرته، وعرَّضها للعذاب والمداواة، ولكن ما الذي جرَّ له هذا الإسراف على نفسه وبالتالي هذه الشقاوة والبلاء، لقد بيَّن لنا تعالى ذلك بقوله:

{الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى}:

وإذاً فالتكذيب بما جاء به الرسول من الحق والهدى، والتولِّي عن الإقبال على الله تعالى وإن شئت فقل: ترك الصلاة يسوق الإنسان إلى التفريط في أمره والإسراف في الشهوات على نفسه، فيغدو شقياً مُعذَّباً، ولا يظلم ربُّك أحداً.

{وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى}:

وسيُجنَّبها: أي سيُحفظ منها ويُباعد عنها. **والأتقى:** هو التقي الذي أقام الصلاة فأقبل بها على ربه تعالى، واتَّقى بنور الله الوقوع في الشهوات المحرَّمة والأعمال الخبيثة، كما شاهد بذلك النور طريق الخير والسعادة، فجعل يفعل ما تتطهر به نفسه وتتزكى ولذلك قال تعالى:

{الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى}:

ويتزكى: بمعنى يتطهر. فبالإنفاق وفعل الخير كما قدَّمنا تصبح النفس ولها الثقة بذاتها والطمأنينة من إحسانها ما يجعلها تقبل على ربها راضية بعملها، وهنالك وبهذا الإقبال على الله، وإن شئت فقل: بهذه الصلاة يمسح النور الإلهي صفحة النفس فتُشفى من عللها وأدرانها، وترجع صافية نقية طاهرة زكية، لابسة ثوب الكمال والفضيلة، مصطبغة بصبغة من الله ومن أحسن من الله صبغة، سعيدة منعمة.

ثم بيَّن تعالى أن الإخلاص في العمل وخلوَّه من الشوائب والعلل أصلٌ في هذه التزكية والطهارة، فقال تعالى:

{وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى}:

أي: إن ذلك الأتقى لم يكن بإتيانه وإنفاقه ليرجو غايةً دنيوية، وليس لأحد عنده سابقة فضل وإحسان فيكافئه عليها ويجزيه بها، لكن الكمال الذي اكتسبه من ربه بإقباله عليه، والصفة العالية التي تحلَّى بها يجعله مخلصاً في عمله، فليس يطلب غير وجه ربه الأعلى قال تعالى:

{إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى}.

فهو يبتغي، أي: يقصد ويتطلَّب بعمله وجه ربّه، أي نظر ربّه عليه، ذلك الربّ الأعلى الذي لا نهاية لعطائه ولا حد لواسع فضله.

{وَلَسَوْفَ يَرْضَى}:

فإن فعلت الخير وسلكت هذا السبيل، فلسوف يعطيك ربك عطاءً عظيماً تسرُّ به وترضى، فالمدار كله على التقوى، أي: على دوام إقبال النفس على ربها وصلتها الدائمية به تعالى. فإن أنت أقبلت وصلَّيت اتقيت وحُفظت. وإن أنت أعرضت

عميت وشقيت، والعطاء والإحسان وسيلة لتلك التقوى والإقبال.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ)[1].

---

(١) سورة فصلت: الآية (٤٦).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾
وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا
﴿٦﴾ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن
زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ
ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴿١٣﴾
فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا
يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ﴿١٥﴾

صدق الله العظيم

تأويل سورة الشمس

المعنى الإجمالي:

يُريد الله تعالى في هذه السورة أن يعظنا ويحذِّرنا من التكذيب بالحق وأن يبيّن لنا عاقبة المكذِّبين وما يحلُّ عليهم من العذاب الأليم.

وحيث إن النفس من قوانينها وسننها أنها لا تصغي إلى نصيحة الناصح إلا إذا عرفت محبته لها وعطفه عليها، كما أنها لا تخاف الإنذار ولا ترجع عن غيِّها إلا إذا أيقنت بقوة من ينذرها وقدرته عليها، ولذلك بدأ تعالى هذه السورة بآيات تعرِّف النفس عظمة خالقها من جهة، ومن جهة ثانية تعرِّفها برأفته تعالى ورحمته بها وحنانه وفضله المتواصل عليها فقال تعالى:

{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا}:

والضحى: كما مرّ بنا من قبل هو البيان والظهور، وكلمة (**وَضُحَاهَا**) إنما تعني: ظهور الشمس وإطلالها علينا كل يوم بوجهها من بعد أن ودَّعتنا منصرفة عنَّا في أمسها.

كما تعني أيضاً ما يظهر عن الشمس من الخيرات، وما ينبعث عنها من الفوائد مما أودعه الله فيها من الحرارة والضياء وغير ذلك من الخاصِّيات.

فالشمس وهي هذه الكرة الملتهبة، لا بل السراج المنير التي أمدَّت العالم بالحرارة والضياء منذ ألوف السنين والأجيال وهي ما تزال تمدُّه دون أن يعتريها ضعف أو نقصان.

الشمس وما في أشعتها من خاصِّيات يستعين بها الحيوان والإنسان والنبات على

الحياة. الشمس في موضعها في الفضاء وبُعدها المناسب عن الأرض وعلاقتها البنَّاءة بها وتوليدها بذلك: الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء. الشمس التي لها فوائد لا تحصى ومنافع لا تستطيع إذا استقصيت في البحث أن تجد لها نهاية أو حدّاً، كل ذلك ينطوي تحت كلمة {**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا**} والله أعلم بما في الشمس من آيات، وأنه لولا الشمس لما نبَتَ نبتٌ ولا حُصد زرع، ولا نضجت ثمار، ولما عاش إنسان ولا حيوان. ولولا الشمس لما تبخَّر ماء البحر، ولما هبَّت الرياح، ولما تكوَّنت الغيوم، ونزلت الثلوج والأمطار.

ولولا الشمس لما تكوَّنت الفصول ولا تشكَّل الليل والنهار. فانظر أيها الإنسان إلى الشمس في خلقها وتكوينها فمن أين هي تستمد حرارتها وضياءها؟ ولو قربت الكرة الأرضية منها بما فيها من بحار وأنهار وسهول وجبال وأتربة ومعادن وأحجار لذابت في لحظة، لا بل لتبخَّرت جميعها ولأصبحت كالدخان، فمن أين تُوقد هذه الشمس؟ وما الذي يجري فيها... فإذا هي تشع لك هذا الشعاع وتمدُّك بهذه الحرارة والضياء.

ثم انظر إلى تنظيم حرارتها واستمرار هذا التنظيم، فهي دوماً ثابتة الاشعاع ضمن نظامها الدوري السنوي الفصلي وحلولها في الأبراج فلا تعتريها زيادة ولا نقصان ضمن تنظيمها هذا، ولو أنها زادت حرارتها أو نقصت عن ذلك لاختل نظام الأرض ولما أمكنت الحياة.

انظر أيها الإنسان إلى هذا البعد المناسب الكائن بين الشمس والأرض، فلو أن الشمس كانت أقرب من الأرض ميلاً واحداً وذلك بخروجها عن مدارها لأحرقت بحرِّها ما في الأرض من حيوان وإنسان ونبات، ولو أنها كانت أبعد ميلاً أيضاً عن

سماء أو سقف مدارها هذا أثناء دورتها السنوية على الأبراج وحول الأرض[1] لكان وجه الأرض متجمِّداً لا تُمْكن عليه الحياة. فمن الذي وضعها في موضعها المناسب وجعلها على هذا الحال؟

انظر إلى هذه الجاذبية وذلك الارتباط بين الشمس والأرض، ولولا ذلك لما كان هذا الدوران ولما أمكنت الحياة، ولما شاهدت هذه الفصول ولا الليل والنهار، ولما آتت الأرض أُكلَها من مختلف النبات والأثمار.

انظر إلى أشعة الشمس وحرارتها ونورها كيف تُنبت البقول، وتُنضج الحبوب وتُلوِّن الأثمار والأزهار، وتبعث فيها ما تبعثه من روائح وطعوم وخواص. ألا يليق بك أن تفكر بذلك كله ثم تسائل نفسك من الذي خلق هذه الشمس وأوجدها؟ من الذي قرنها بالأرض وربطهما معاً في سيرهما؟ من الذي يمد الشمس بتلك الحرارة والضياء دوماً؟ من الذي جعلها على هذا البعد المناسب من الأرض؟ أليس ذلك المبدع بخبير حكيم؟ أليس ذلك الرب الممد الذي يمدُّها برب عظيم؟ ألا تدل هذه الشمس على الله العليم القدير؟

وبعد أن لفت تعالى نظرنا إلى الشمس، وفي الشمس مرتع خصيب للتفكير، ومجال واسع للنظر والتأمُّل الدقيق، أراد تعالى أن يُلفت نظرنا إلى آية أخرى فقال تعالى:

{وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا}:

وتلاها: بمعنى تبعها. فالله تعالى يُريد بهذه الآية الكريمة أن يُلفت نظرنا إلى القمر إذا هو طلع علينا بوجهه وأشرق علينا بنوره. فلنفكِّر في القمر، في هذه الكتلة العظيمة

---

(١) انظر سورة البروج الآية الأولى.

السابحة في الفضاء... هذه الكتلة التي تفوق أكبر جبل في الأرض بأُلوف المرات. كيف هي تسبح، وما الذي يمسكها أن تسقط أو أن يصيبها في جريها خلل أو اضطراب!

لنفكِّر في القمر هذا الكوكب المنير!

ما الذي جعله مَبعثاً لهذا النور اللطيف ينير أرجاء الأرض في ظلام الليل البهيم فيطمئن قلب الخائف المرتاع ويبعث السلوة في قلب الحزين الملتاع ويؤنس المريض فيخفِّف عنه ما به من أوجاع؟

من الذي جعل شعاعه في هذا اللطف من الإنارة فلا وهج ولا حرارة في وقت أشد ما يكون الإنسان فيه بحاجة إلى الراحة؟

من الذي جعله يدور حول الأرض مرتبطاً بها لا يفارقها متنقلاً في منازله واحداً فواحداً، آخذاً بالنماء لحظة فلحظة يوماً فيوماً، يولد أول ما يولد هلالاً ضئيلاً مقوَّساً فإذا انتصف الشهر وأصبح بدراً كاملاً عاد سيرته الأولى حتى ينمحق ويختفي فلا يعود يظهر ويُرى؟

من الذي جعله يسير هذا السير المنظَّم، فلا يستقدم في سيره ولا يستأخر لحظة، ولا يخرج عن مداره المخصص به أنملة؟ فإذا ما تمَّ دورته عاد وليداً وبدأ شهراً جديداً، فعرَّفنا عدد السنين والحساب، وجعلنا نفرِّق بين الأشهر والأيام، وكان في ذلك كله آية من أعجب الآيات!

أليس في القمر ولن نحصي ما في القمر من آيات دالّة على خالقه العظيم، الذي أوجده على هذا الحال من الإتقان والدقة والكمال؟

وبعد أن ذكر لنا تعالى الشمس والقمر لنعلم ما فيهما من آيات، وما ينبعث عنهما من خيرات، لفت نظرنا تعالى إلى آيتي النهاروالليل..فقال تعالى:

{وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا}:

ونبدأ بآية: **{وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا}** فنقول: ليس المراد بالنهار ذلك المعنى الضيِّق، وأعني به الوقت الذي به ينتشر ضوء الشمس، لكن كلمة (**النَّهَارِ**) إنما تعني ذلك الخير الكثير المتوارد من كل شيء، ونفصِّل بعض التفصيل فنقول:

كلمة (**النهار**) إنما مأخوذة من كلمة (**نَهَرَ**)، ونَهَرَ بمعنى: سال بقوة واتِّساع، ومنه النهر: أي: الماء الكثير، والناقة النَّهيرة، أي: الغزيرة اللبن، وأنْهَرَ الدمُ: إذا سال سيل النهر.

فإذا كانت كلمة (**النهر**) إنما تعني الماء الكثير الجاري بقوة واتِّساع، فإن كلمة (**النهار**) لا تعني شيئاً واحداً، إنما تشمل الأشياء الكثيرة المتوارد عليك خيرها من الله توارداً كثيراً متَّصلاً.

فالفواكه في تواردها صيفاً شتاءً، لا بل في الفصول كلها، والحبوب والخضر في جريها عليك من الله جرياً دائماً، والهواء في تجدده، والينابيع في إمدادها الأرض بالماء إمداداً مطرداً... الخ.

وبصورة عامة إذا أنت وسَّعت نظرك رأيت من كل شيء نهراً يفيض عليك بالخير من الله فيضاً عظيماً متواصلاً... وعلى هذا فكلمة (**النهار**) إنما تشمل ما تراه من كل شيء، في تواصل جريه، ودوام تواره وعدم انقطاع خيره.

فإذا أنت نظرت للأشياء نظرة شاملة من هذه الناحية أدركت طرفاً من معنى كلمة

(**النهار**) التي ليس يحصيها بيان على قرطاس ولا تعبير في كتاب وعرفت ما تعنيه تلك الكلمة مما ينهال عليك من الله من الخيرات.

فالله تعالى يريد أن ينبِّهك إلى ذلك الخير الكثير المتوارد عليك بصورة دائمية من كل صنف ونوع، لتعلم مصدر ذلك ولتتعرَّف إلى ربك، ولتقدِّر فضل خالقك.

وأما كلمة (**إِذَا جَلاَّهَا**): فمأخوذة من جلَّى، وجلَّى: بمعنى كشف وأظهر وأخرج، ويعود الضمير (**ها**).. في كلمة (**جلاها**) إلى الخيرات التي شملتها كلمة: (**النهار**).. في ظهورها وخروجها لك من عالم الغيب إلى عالم الظهور والرؤية، وفاعل جلاّها هو لفظ الجلالة الله تعالى، وتدل كلمة: (**إذا**) على الكيفية التي يكون بها ظهور هذه الخيرات إلى حيِّز الوجود.

فانظر إلى القمح كيف يخرجه لك ويجلِّيه ربُّك، فهو ينبت ثم تخرج سنابلاً فتخرج شيئاً فشيئاً حتى يتم نماؤها ونضجها فتصبح لك طعاماً...

انظر إلى العنب كيف تخرج عناقيده من براعمها، فتنمو شيئاً فشيئاً إلى أن يصبح طعمها سكَّرياً من بعد أن كان حامضاً.

وفي اللبن كيف يخرج من بين فرث ودم نقياً خالصاً... وفي الأزهار كيف تنبعث روائحها العطرة وتتلوَّن بألوانها الزاهية، من بعد أن مرَّت في أدوارها ومراحلها، ومن بعد أن كانت لا لون ولا رائحة لها.

وهكذا كل ذلك توحيه لنا كلمة: (**إِذَا جَلاَّهَا**).. ويكون مجمل ما نفهم من الآية:

أي: انظروا إلى هذه الخيرات المتواردة من كل شيء، وإلى تلك الكيفية التي يكون بها ظهورها إذا أخرجها الله تعالى لكم وجلاَّها.

ونتنقل الآن إلى كلمة: (**وَاللَّيْل**).. فنقول: ليست كلمة: (**الليل**) قاصرة على ما يفهمه عامة الناس من أنه الوقت الذي تغيب فيه شمس النهار... إنما تدلُّ على ذلك الحال الذي ينتاب الأرض من عدم رؤية الأشياء رؤية واضحة جليّة، وما يرافق ذلك من هدوء وسكون ورطوبة وبرودة في الجو وغير ذلك من العوامل العديدة.

ويغشاها: مأخوذة من غشى، بمعنى: غطَّى وأتى وحلّ. تقول: غشى الأمر فلاناً، أي: أتاه وحلَّ به، وغشيته بالسوط بمعنى: ضربته.

فالليل يغشى ما خلقه الله لك من الخيرات فيغطِّيها بظلمته، ويأتيها ببرودة جوِّه ورطوبته، ويكون سبباً في سريان ما ينطوي فيه من العوامل والمؤثرات في أجسام الإنسان والحيوان والنبات، وإنه لولا الليل وما فيه لما نبت النبات، ولما نضجت الفواكه والثمرات، بل لاحترقت بحرارة الشمس ولما حصل النماء، فأنت ترى أن الثمرة المعرَّضة دوماً لأشعة الشمس والتي لم تُغطِّها الأوراق صغيرة الحجم متغيرة الطعم متأثرة من تواصل حرارة الشمس ولفح أشعتها.

وهكذا فالنباتات إذا لم يأتها الليل بما فيه من مؤثرات لما استطعت أن تتمتع بها وبما فيها من الخيرات. هذه ناحية من النواحي التي تجتذب نظرنا إلى الليل، وفي الليل ما فيه!

أفلا تنظر إليه كيف هو سبب في انتظام الحياة! أفلا تفكر في الليل فتستعظم ما فيه من الخير وتنتقل من ذلك إلى تعظيم خالقه وتقدير عنايته بل وعطفه عليك.

وبعد أن لفت تعالى نظرنا إلى النهار والليل انتقل بنا إلى السماء والأرض، وليلفت نظرنا إليهما قال تعالى:

{وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا}:

فالسماء هذه القبة الزرقاء المحيطة بالكون من جميع الجهات من الذي بناها هذا البناء؟ ما هذه القوة العظيمة التي نظَّمتها هذا التنظيم؟ ما هذه القدرة الحكيمة التي أوجدتها على هذا الحال التي هي عليه؟ ثُمَّ:

من الذي زيَّنها بالكواكب تلمع فيها ليلاً؟ من الذي قرن نجومها إلى بعضها وجعل منها بروجاً فإذا هي تسبح مترابطة لا تنفك عن بعضها بعضاً؟ من الذي جعل فيها سراجاً وهاجاً تضيء نهاراً، وقمراً منيراً يسطع ليلاً؟ من الذي يمسك نجومها في هذا الفضاء الواسع، وكم من نجم أكبر من الأرض بملايين المرات!!! من الذي يسيِّر هذه الكواكب جميعها فلا يصدم كوكب كوكباً ولا يخرج نجم عن مجراه قيد أُنملة؟

وهل يستطيع أحد أن يتصوَّر سعة هذه السماء؟ أم تراه عاجزاً عن أن يدرك لها نهاية أو حدّاً؟

فانظر أيها الإنسان إلى السماء متأمِّلاً مفكِّراً لذلك قال تعالى:

(ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ)[١].

وهنالك تعلم أن للسماء خالقاً عظيماً، وإلهاً قديراً، وربّاً ممداً بصيراً. وإذا كنت لا تستطيع أن تدرك سعة هذه السماء وهي من مخلوقاته تعالى، فكيف أنت إذا نظرت إلى عظمة ربك وجلاله الذي لا يتناهى!

وما أعظم هذا الإله الذي خلق الأرض والسماوات العُلى! ثم انظر ما حولك وما قوّتك! وكم أنت مخلوق عاجز وضعيف، وكم هذا الإله الذي خلق السماء وما فيها

---

(١) سورة الملك: الآية (٤).

وخلقك واسع عظيم!!!

ثم انتقل تعالى بنا إلى الأرض فقال سبحانه:

{وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا}:

وكلمة (**الأرض**) إنما تشير إلى الأرض في قيامها محمولة في هذا الفضاء، كما تشير إلى ما تحويه من جبال وبحار وسهول وأنهار ومعادن وأحجار وحيوان ونبات.

وأما كلمة (**وَمَا طَحَاهَا**).. فإنما تشير إلى حال الأرض، وما قامت به من تنظيم بديع، وما هي عليه من خَلْق عظيم، وما ألقاه لك ربك فيها من كل شيء.

تقول: طحا الحجر: ألقاه. وطحا الكرة: رماها. طحا فلاناً على وجهه: طرحه في الأرض وألقاه.

ويكون ما نفهمه من كلمة (**وَمَا طَحَاهَا**) أي: ما هذه القدرة العظيمة التي ألقت في الأرض ما ألقت من جبال! ما هذه القدرة العظيمة التي جعلت في الأرض السهول والبحار! من الذي أجرى في الأرض هذه العيون والأنهار؟ من الذي ألقى في البحر هذه الأملاح فإذا هي تحفظ مياهه من الفساد وتحول دون انتشار البعوض والحشرات؟ .

من الذي جعل في بطن الأرض ما جعل من معادن نستخدمها فيما نقوم به من الأعمال؟ من الذي جعل لنا في هذه الأرض الأتربة والأحجار؟ من الذي جعل التراب حاوياً المواد الغذائية المختلفة التي تمتصُّها النباتات؟

من الذي جعل مستودعات الماء في القطبين ثم في أعالي الجبال وجعل لمنابعه معايير مناسبة تستطيع معها أن تمدنا بالماء المخزون طوال السنة دون أن ينفد ماؤها أو

يعتريها انقطاع[1]؟

من الذي بثَّ في الأرض من كل دابة وجعلها كلها خدماً للإنسان فهي قائمة بوظائفها التي يتأمَّن بها الخير ويطَّرد معها النظام وبقاء الحياة؟ من الذي جعل في الأرض أنواعاً من الزروع وألواناً من الثمرات، وجعلها متعددة المنافع، منوّعة الفواكه، ضرورية لحياة هذا الإنسان؟

أفلا تنظر أيها الإنسان في الأرض وما قامت به من ترتيب وما هي عليه من نظام بديع وما ألقاه الله لك فيها من كل شيء فتعلم أن خالقك عظيم وربك رؤوف رحيم!

وبعد أن ذكَّرنا تعالى بالسماء والأرض انتقل بنا إلى أنفسنا فقال تعالى:

{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا}:

ولمعرفة النفس نقول: الإنسان مركب من عناصر ثلاثة: نفس، وروح، وجسد. فالنفس هي الشيء النفيس في الإنسان، يُقال: أَنْفَسَ الشيء، أي: كان نفيساً له شأن وقيمة عالية تجعل الناس يتسابقون إليه. ولذلك لا بدّ لنا من كلمة موجزة نتكلم فيها عن النفس فنقول:

النفس: هي ذات الإنسان الشاعرة المستقرة في الصدر والسارية أشعتها بواسطة الأعصاب في سائر أنحاء الجسد. وهذه النفس المسجونة في الجسد إنما تتعرَّف بما يحيط بها من الأشياء بواسطة الحواس، فعن طريق العين تُبصر، وعن طريق الأذن تسمع وبالأنف تشم، وبواسطة الجلد تحس وتلمس، وباللسان تذوق طعوم الأشياء

---

(١) انظر كتاب مصادر مياه الينابيع في العالم للعلاّمة محمد أمين شيخو.

كما تعبِّر به عما يجول فيها من الخواطر والأفكار وبشيء من التفصيل نقول:

إذا وقف أحدنا مثلاً على ساحل بحر فلا شك أن رؤيته للبحر تجعله يخشع أمام هذا المنظر ويستعظمه، وهذا الخشوع والاستعظام إنما هو خشوع النفس واستعظامها. وإذا وقع نظرنا على شخص جرحت يده مثلاً جرحاً بليغاً وجعل الدم يتقاطر منها، فلا بدّ أننا نحزن لهذا المشهد ونتألم على صاحبه، فهذا الحزن والألم الذي نجده إنما هو حزن النفس وألمها. وإذا كان أحد أقاربنا الذين نحبُّهم مسافراً سفراً بعيداً وسمعنا بعودته سالماً فهنالك نُسر ونفرح، وما ذاك إلا فرح النفس وسرورها.

وهكذا **فالنفس** هي العنصر الأساسي في الإنسان فهي التي تستعظم وتخشع، وهي التي تحزن وتتكدَّر، وهي التي تُسرُّ وتفرح وترضى وتغضب وتلتذ وتتألم وعليها المعوَّل.

والنفس هي المخاطبة دوماً في القرآن، وهي المكلَّفة بالسير في طريق الحق، وهي التي تتألم بالنار عندما تُعالج بها وتُداوى، وهي التي تتنعَّم في الجنان فلا تبغي عنها حولاً. وما هذا الجسد المركَّب من اللحم والعصب والعظام والدم إلاَّ ثوب النفس ولباسها، وما الروح المتوارد شعاعها من الله تعالى على الجسد إلاَّ قوة محركة تبعث للنفس الحياة في جسدها وتؤمِّن لها فيه سيرها. وذلك بعض ما نفهمه من كلمة (**نفس**).

أما كلمة (**وَمَا سَوَّاهَا**): فإنما تشير إلى ذلك الوضع الكامل الذي خُلقت عليه النفس. يُقال: سوَّى الشيء أي جعله سويّاً مستوي التركيب خالياً من كل عيب، ويُقال: رجلٌ سويٌّ، أي: كامل الخلق لا عيب فيه.

وأما كلمة: (**وما**): فإنما تلفت نظرنا إلى تلك القدرة العظيمة واليد الحكيمة التي رتَّبت للنفس هذا الترتيب، وجعلت لها هذا الجسد على هذه الصورة الكاملة والتركيب البديع.

فالعين تُبصر، والأذن تسمع، واللسان يذوق ويتكلَّم، والأنف يشم، وهذه الأجهزة إنما تستعين بها النفس على إدراك الأشياء، والمعدة تهضم الأطعمة، والكبد يفرز الصفراء ويخزِّن المواد الزلالية والسكَّر ثم يخرجها في أوقاتها بمعايير مناسبة، والكلية تصفّي الدم، والقلب يُنظِّم الدورة الدموية، والرئة تنظِّم التنفس، والكريات الحمراء في الدم كالعمَّال فهي تمتص من الجسم الغازات المضرة ثم تطرحها في الرئتين وتعود منها حاملة مولِّد الأكسجين ذلك الغاز الضروري للاحتراق وبقاء الحياة، والكريات البيضاء في مراكزها كالجنْد المرابط في القلاع تصدُّ الجراثيم وما تفرزه من السموم القاتلة لها... الخ.

وهكذا إذا ذهبت تفكِّر في الجسد وجدت تركيباً عظيماً وخلْقاً عجيباً وقد مررنا على ذلك مسرعين إذ أنّ شرْح ذلك يطول وكل عضو من هذه الأعضاء يحتاج في بيان أجزائه ووظائفه إلى صحف مطوّلة.

فمن الذي ربط هذه الأعضاء بعضها ببعض فإذا هي كلها ساهرة على قيام هذا الإنسان؟ من الذي جعلك أيها الإنسان على هذا الحال وصوَّرك هذه الصورة البالغة في الكمال؟ من الذي جعل للنفس هذه الحواس تتعرَّف بها إلى ما يحيط بها من الأشياء؟ من الذي جهَّز النفس بتلك الملكات من تفكير وذاكرة وتخيُّل وإدراك؟ من الذي جعل لها ذلك العقل تعقل به الخير من الشر والنافع من الضار؟ من الذي جعل فيها تلك الغرائز والطباع من خوف وسرور وفرح وحزن ورضا وغضب؟ وجعل لها الشعور باللذائذ والآلام؟

من الذي أوجد النفس فأخرجها من العدم وأبرزها للوجود ولم تكن شيئاً مذكوراً فإذا هي أكرم المخلوقات وأرفعها شأناً؟

أليس يجدر بك أيها الإنسان أن تبحث عن ذلك كله، وتفكِّر في ذلك كله، ثم تتعرَّف على هذه اليد الحكيمة التي كوَّنتك والقدرة العظيمة التي خلقتك وأوجدتك؟

وبعد أن لفت تعالى نظرنا إلى ما نراه في هذا الكون من الآيات، وبعد أن عرَّفنا تعالى بأنفسنا بيَّن لنا: أنه ما خلقنا عبثاً ولم يتركنا سدى بل بيَّن لنا طريق سعادتنا وفلاحنا وعرَّفنا بما فيه خيرنا وصلاح أمرنا فقال تعالى:

{فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}:

وألهَمَ: مأخوذة من الإلهام، والإلهام هو أن يعرِّف الله النفس بالشيء. تقول: ألهمني الله الطريق، وألهمني الجواب.

والفجور: هو أن يقوم الإنسان بعمل يظهر منه الشر ويخرج الأذى والفساد تقول: فجر الماء، أي: ظهر وخرج من مستودعه.

والتقوى: هو أن يقوم الإنسان بعمل يقيه أذى شيء ويدفع ضرره عنه فإذا اشتدت علينا أشعة الشمس وحملنا بيدنا مظلة تقينا حرَّها فعملنا هذا تقوى. وإذا أردنا النزول عن سطح البيت فنزلنا على السلّم فعملنا هذا تقوى إذ أننا اتَّقينا الأذى الذي كان يصيبنا فيما لو ألقينا بأنفسنا مباشرة على الأرض. وبناءً على ما قدَّمنا نقول:

إن الله تعالى لما خلق النفس البشرية خلق فيها الشهوة والذوق، وهذه الشهوة هي من تمام نعمة الله على الإنسان وكمال فضله وإحسانه إليه، إذ أنه لولا الشهوة لما ذاق الإنسان لذة ولا عرف نعمة ولما وجد للحياة طعماً بل لكان أشبه بالجماد.

لكن هذه الشهوة إنما يكون الوصول إليها من طريقين:

طريق مؤذٍ مُضرٍّ يعود على صاحبه بالشقاء وعلى المجتمع الإنساني بالفساد وطريق

مفيد نافع يعود على صاحبه بالسعادة والسرور وعلى المجتمع بالصلاح والخير. وتقريباً لهذه الحقيقة من الأذهان نضرب على ذلك مثلاً فنقول:

هبْ أن أحدنا رأى شجرة صبّار مثمرة فاشتهى ثمرة من ثمراتها، ومالت نفسه إليها، فهنا يصبح أمام أحد أمرين: إما أن يأتي إلى الثمرة من طريقها أي: يقطفها بعد أن يلبس القفاز الجلدي المخصص لذلك، ثم يغسلها ويقشرها ويجعلها في فمه وهنالك يهنأ بها ويتلذذ بطعمها ويكون وصوله إليها وتناوله لها خالياً من كل ألم وأذى.

وإما أن يمد يده كما يمدُّ طفل صغير لم يعقل بعدُ يده إليها من غير قفّاز، ثم يجعلها في فمه دون أن يقشِّرها وتكون لذته والحالة هذه مشوبة بالآلام كما يعقب تلك اللذة الآنية لذع الشوك المتواصل في أصابعه ويديه ولسانه وشفتيه، وينال حظَّه من الألم لقاء استعجاله وعدم اتقائه، لا بل جزاءً له على تفريطه وعدم سلوكه الطريق السوي إلى شهوته، وهكذا فالمال مثلاً:

إما أن يتوصَّل الإنسان إليه عن طريق شريف كأن يحترف حرفة عالية ويسير فيها بصدق وأمانة فتدر عليه بالمال، وإما أن يتوصل إليه من طرق ملتوية دنيئة فيختلس ويسرق أو يغش ويخدع ويعود ذلك عليه بالأذى وعلى المجتمع بالفساد.

وكذلك الأمر في الشهوة إلى النساء وحب الجاه والسلطان والتمتُّع بالطعام والشراب إلى غير ذلك من الشهوات. كل ذلك له طريقان: مفيدٌ نافع، وضارٌّ مُهلك.

على أن الله عندما خلق الأنفس لم يتركها وشأنها تضل طريقها ولا تهتدي إلى ما فيه خيرها وسعادتها بل طبَعَها بطابع الحق والفضيلة وفطرها على الفطرة الكاملة، وبذا أصبحت تُدرك الحق والفضيلة وتعرف الطريق السوي الذي تصل منه إلى شهوتها فتوقى كل أذى وشقاوة كما تدرك الطريق الملتوية التي تقودها إلى الفجور والرذيلة

وذلك ما نستطيع أن نفهمه من آية: **{فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}**.

وبالحقيقة ما من إنسان إلاّ ولديه ذلك التمييز بين الحق والباطل والتفريق بين الفضيلة والرذيلة، وما من إنسان إلا وفي نفسه تلك المحكمة الداخلية المعنوية فهو يحكم على ما يصدر عنه وعلى ما يصدر عن غيره من الأعمال فيرى ما فيها من الخير أو الشر ويلحقها بزمرة الأعمال الفاضلة أو الرذيلة المنحطة.

وفي الحديث الشريف: « **الحلال بيِّن والحرام بيِّن** »[1].

« **واستفتِ قلبك وإن أفتاك المفتون وأفتوك** »[1].

« **والإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطَّلِعَ عليه الناس** »[2].

وإذاً فهذه الفطرة العالية التي فطر الله الناس عليها هي التي جعلت في الإنسان ذلك التمييز والإدراك فإذا هو يفرِّق بين الخير والشر، والحق والباطل، والفضيلة والرذيلة.

ويحكم لأول وهلة على سيره في أي عمل من الأعمال، فترى البائع الغاش مثلاً واجفاً قلبه في بيعه متخفِّياً عن الناس في غشّه خائفاً من إطِّلاعهم عليه.

وتجد الناصح الأمين مطمئن القلب لا يُبالي بشيء، وما ذاك إلاّ لعلم الأول بخروجه عن طريق الحق وإن شئت فقل بفجوره، وعلم الثاني بسمو سيره، وإن شئت فقل: بتقواه وتباعده عما فيه الأذى والإضرار بالناس.

وبعد أن عرض لنا تعالى في مطلع هذه السورة عدداً من الآيات الدالة على عظمته

---

(١) البخاري في الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه.

(١) رواه أحمد والدرامي في سنديهما حم ٢٢٨/٤.

(٢) رواه مسلم ٢٥٥٣، وأخرجه ت (٢٣٩٠).

وجليل نعمته، وبعد أن بيَّن لنا أنه عرَّف النفس بما فيه خروجها عن الطريق السوي وبما فيه صلاح أمرها وتقواها، بعد ذلك كله ساق لنا تعالى الآية التالية ليعرِّفنا أن الظفر بالخير إنما يكون بتزكية النفس وتطهيرها فقال تعالى:

{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}:

والفلاح: هو أن يظفر الإنسان بالخير من بعد أن سعى له سعيه، وأن يصل إلى السعادة من بعد أن قدَّم لها الأعمال الطيِّبة. يُقال: أفلح القائد في ردِّ العدوِّ. وأفلح العمال في إزاحة الصخرة... وأفلح المزارع في زراعته.

والتزكية: تطهير النفس من السوء، وتنقيتها من الشوائب. وتزكية النفس إنما تكون بالصلاة الصحيحة، أي: بصلة النفس بالله وإقبالها عليه.

فإذا أقبل الإنسان بنفسه على ربِّه فهنالك يسري النور الإلهي إلى النفس ويتخلَّل هذا النور كل ذرَّة من ذراتها وبهذا النور ينمحي الخبث من القلب وتنقرض الشهوات الدنيئة وتتطهَّر النفس من الرذيلة فلا يبقى فيها شيء من المعاصي ولا يعود الإنسان يطلب إلاَّ الأشياء العالية، ولا يميل إلاَّ إلى الفضيلة.

فمن أقبل على الله بنفسه منذ حداثة سنِّه وُقيتْ نفسه وعُصمت فلم يتولَّد فيها خبث ولا شر ونشأ نشأة طاهرة لم يمازجها سوء ولا معصية، ومن حصلت له غفلة وميل عن ربه ثم عاد إلى التوبة والإقبال على الله عادت له طهارة نفسه ورجع إلى فطرته الطيبة، قال تعالى:

(قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)[1].

ومثل النفس والحالة هذه كمثل غرفة بَنَيْتَها وجعلت لها نوافذ وأبواباً تسمح بدخول النور، وتأذن بوصول أشعة الشمس، فإن أنت عرَّضت الغرفة لذلك النور ظلَّت طاهرة من العفونة، نقية من الجراثيم، وإن أنت حرمتها من النور وأشعة الشمس تولَّدت فيها الجراثيم والعفونة، فإذا عدتَ لتعريضها للشمس أعدت لها طهارتها وتزكيتها، وهكذا فما دام الإنسان مقبلاً على ربِّه ظلَّ طاهراً نقياً، وكلما ازداد إقبالاً ازداد طهارة وزكاة.

وإذاً فما خلق الله إنساناً طاهراً وآخر شريراً، بل فطر الجميع فطرة واحدة طيبة، غير أن الإقبال والإدبار على الله ميَّز أناساً عن أناس. فمن كان أكثر إقبالاً كان أكثر طهارة، ومن كان أتقى كان أنقى، ومن زكّى نفسه فقد أفلح، أي فقد فاز بالسعادة وعادت أعماله جميعها عليه بالخير، فهو لا يقوم إلا بالأعمال الشريفة الفاضلة، وهو لا يعمل إلاَّ صالحاً ولا يرى في حياته إلا خيّراً.

{وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}:

والخيبة: هي عكس الفلاح وهي الخذلان وعدم الوصول إلى المطلوب.

ودسَّى: عكس زكّى. فالذي يُعرض عن الله يتولَّد الخبث في نفسه وتحدِّثه نفسه بالشرور والرذيلة، فإذا هو لم يقبل على الله بل دسَّ نفسه، أي: غمسها في الرذيلة وأوقعها في الأفعال المنحطة فعاقبتُه الخيبة وعدم الظفر بالخير، فهو يحسب أنَّ في غشّه ربحاً، فإذا الغش ينفِّر الناس منه ويعود عليه بالخسارة، وهو يحسب أنَّ في الزنا سعادة، فإذا بالزنا يعود عليه بالأمراض الوبيئة والنتائج المخزية ويعقب له الفقر والفاقة، وهكذا

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٢٩).

تجد من يغمس نفسه في الرذيلة ولا يزكِّيها بالإقبال على الله، ينتقل من همّ إلى همّ ومن تعاسة إلى تعاسة، وليس له في الدنيا إلا الشقاء ولعذاب الآخرة أشق والسعادة كل السعادة للمقبل على ربه والتعاسة والشقاء للمعرض.

{كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا}:

والتكذيب: هو إنكار الشيء مع العلم به. و**ثمود**: هم قوم سيدنا صالح، **والطغوى**: هي مجاوزة الحد، مأخوذة من طغى، أي: خرج عن حدِّه، تقول: طغى البحر على البر، وطغى السيل على المنازل، وتقول: طغى الرجل إذا جاوز الحد المشروع وخرج عن طريق الإنسانية.

(**والباء**) في كلمة بطغواها إنما تبيِّن السبب في التكذيب. فثمود بسبب طغواها: أي بفسقها وبانغماسها في شهواتها الخبيثة كذَّبت رسول الله ﷺ فردَّت قوله ولم تعبأ بإنذاره، ولم ترَ ما في أعمالها من الشر والهلاك. ومن هنا يتبيَّن أن الفاسق المنغمس في شهواته الخبيثة لا يستطيع أن يرى حقائق الأوامر الإلهية وما ينطوي فيها من الخيرات، كما لا يستطيع أن يرى حقائق المنهيات وما فيها من الأذى والشرور، بل يظل محجوباً وراء الصورة، فهو يرى فسقه غير أنه لا يستطيع أن يرى الشر المستكنَّ فيه، ويرى استقامة المؤمنين ولكنه لا يشهد ما في أعمالهم من النفع، وإنه لا بدَّ له من الاستقامة على أمر الله حتى يشهد الحقائق.

ومن لم يستقم فمهما شهد من المعجزات ومهما رأى من الآيات فشأنه دوماً التكذيب، لأن الفسق حجاب بين النفس وبين الحقائق.

وقد ضرب لنا تعالى مثلاً من ثمود: فهؤلاء طلبوا من رسولهم أن يخرج لهم ناقة من الصخرة لتكون معجزة دالَّة على صدق رسالته فأخرج الله تعالى الناقة كما طلبوا،

وجعل الماءِ قسمة بينهم وبينها.

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾[1].

ومع أنهم رأوا هذه الآية الظاهرة كالشمس الساطعة لم يستعظموها ولم يعبؤوا بها، بل تقدَّم أخبث رجل منهم وأكثرهم شقاوة يريد الاعتداء على الناقة قال تعالى:

{إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا}:

غير أنهم لم يروا ما ينشأ عن عملهم من الهلاك، وحذَّرهم الرسول فلم يصغوا إلى قوله، بل عقروا الناقة وعتوْا عن أمر ربهم قال تعالى:

{فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۝ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا}:

وهكذا نجد الفاسق المنغمس في شهواته المحرَّمة أجرأ الناس على حدود الله وأكثرهم استخفافاً بأوامره.

ولكن ماذا يعقب هذا الاستخفاف، وماذا يتبع ذلك الفسق والتجرُّؤ على حدود الله؟ لا شك أنه يتبعه الهلاك والدمار، قال تعالى:

{فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا}:

{فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ}: أي: أذهب دمهم الذي به حياتهم، وكلمة (**دَمْدَمَ**) مركبة من كلمتين: دمٌ: وهو السائل الذي تسري به الروح، ودَمَ: بمعنى ذهب وانقطع. فقد أرسل الله عليهم صيحة خرجت بها روحهم وجفَّ دمهم.

وكلمة (**فسَوَّاهَا**) يعود فيها الضمير وهو (**الهاء**) على قبيلة ثمود. فقد سوّى الله تلك

---

(١) سورة الشعراء: الآية (١٥٥).

القبيلة كلها بالأرض فأصبحوا أجساداً لا حِراكَ فيهم فهم والأرض سواء.

وبعد أن ساق لنا تعالى تلك القصة التي تبيّن ما حلَّ بثمود وما كانت عليه عاقبة المكذِّبين، أراد تعالى أن ينذرنا بهذه الآية التالية فقال:

{وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا}:

والعقبى: هي عاقبة الأعمال ونتيجتها.

ويكون ما نفهمه من آية **{وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا}**: أي ألا يخاف المجاوز طريق الحق والمنغمس في شهواته الخبيثة عقبى أعماله ونتيجة فسقه! ألا يذكر ما حلَّ بثمود فيعلم أن الفسق والتجرُّؤ على حدود الله مقرون دوماً بالهلاك!

وأخيراً بعد أن قدّمنا ما قدّمنا نُجمل القول فنقول:

من فكَّر في الكون كما أرشدنا إليه بمطلع هذه السورة، وتعرَّف إلى ربه بعد أن شاهد آياته، ثم زكّى نفسه وطهّرها بإقباله على الله، فقد أفلح وفاز بالخيرات، ومن أعرض عن الله ودسَّ نفسه وغمسها في الفسق فنصيبه الشقاء ومآل ذلك عليه بالحسرات والخيبة.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)[1]

---

(١) سورة الجاثية الآية (١٥).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢٠﴾

صدق الله العظيم

تأويل سورة البلد

في هذه السورة الكريمة يريد الله تعالى أن يبيِّن أن الأعمال الصالحة هي طريق الوصول إلى الإيمان، وأن يعرِّفنا بأن الإيمان هو الوسيلة للتحلِّي بالأخلاق الفاضلة والصفات الإنسانية الكريمة، كما أن الكفر والإعراض سبب التدنّي والانحطاط، وطريق السقوط في مهاوي الشؤم والضلال، وقد بدأ تعالى السورة بطائفة من الآيات الدالة على عظمة الكون ودقة صنعه، لأن تعظيم الكون والتطلُّع إلى إحكام صنعه يسوقُنا إلى تعظيم خالق الكون وموجده، وهذا التعظيم للخالق جل جلاله يحملنا إلى الإصغاء لكلامه والإذعان لهداه وعالي دلالته، ولذلك قال تعالى:

{لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ}:

والبلد: هو المقر والمقام وعلى هذا بلد كل إنسان مكان إقامته، وإذا نحن وسَّعنا النظر إلى أبعد من هذا ونظرنا نظرة تتناسب مع شمول كمال الله لما ينطوي عليه الكون من أشياء وما ضمَّه بين أرضه وسمائه من مخلوقات، وإذا نحن نظرنا هذه النظرة الواسعة رأينا الكون كله بلداً واحداً ومقاماً لهذه المخلوقات، فلكل طائفة مقر ولكل فئة منها فيه مسكن.

فسطح الأرض اليابسة: مقام هذا الإنسان، وبطن الأرض مقام النمل والحشرات، والبحار مقام الأسماك، وهذا الفضاء الواسع الذي لا يتناهى موطن النجوم السابحات وهكذا فالكون كله بلد واحد. فإن نحن نظرنا هذه النظرة الواسعة عظَّمنا خالقنا وأكبرْناه وعرفنا جلاله تعالى.

وقد أراد تعالى أن يعرِّفنا بعظمته أكثر فقال سبحانه:

{لاَ أُقْسِمُ}: أي: إذا كنت أيها الإنسان قد شهدت ما شهدت من عظمة الكون فاعلم أن خالقك أعظم وأنه لا حدَّ ولا انتهاء لعظمته. فالله يقول لك: هذا الكون العظيم الذي تحار فيه العقول (**أنا لا أقسم به**) لأن القسم لا يكون إلاَّ بعظيم والكون كله في تدبير شؤونه وتأمين سيره لا بل في إبرازه لهذا الوجود وإحكام صنعه ذلك كله عندي هيِّن ويسير.

وبعد أن ذكر لنا تعالى الآية الأولى التي نتعرَّف منها إلى هذا الكون فنعرف قدر خالقنا، ذكر لنا أنه لم يحدِّثنا عن شيء لا نشهده ولا نراه، وإنما حدّثنا عما هو واقع تحت أعيننا ومشهود لكل إنسان فقال تعالى:

{وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ}:

والحلُّ: هو المقيم الساكن أي: وأنت أيها الإنسان مقيم وساكن بهذا البلد، فأنت ترى ما فيه من آيات وتشهد ما يحيط بك من الكائنات، وتستطيع إذا أنت فكَّرت أن تتعرَّف إلى خالقك الذي أوجد هذا البلد، وجعله موطناً لهذه المخلوقات. ثم لفت تعالى نظرنا إلى ذلك النظام الذي بموجبه تتكاثر المخلوقات في هذا البلد فقال تعالى:

{وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ}:

فالله تعالى لم يخرج الخلق إلى هذا العالم دفعة واحدة بل جعل خروجهم متتابعاً متتالياً، وجعل لذلك قوانين ونُظماً، وجعل ذلك على كيفية تبيِّن معها الحكمة والقدرة والرحمة الإلهية، ليكون لهذا الإنسان من ذلك كله عبرة وآية، فلعله إذا هو فكَّر في ذلك بعض التفكير اهتدى إلى خالقه وعرف موجده ومربِّيه.

وتشير آية: **{وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ}** إلى ناحيتين اثنتين: فكلمة (**ووالد**) تشير إلى الأبوين

اللذين يتولَّد ويخرج منهما ولدهما، وكلمة **(وما ولد)** تشير إلى الولد كما تشير إلى النظام الذي بموجبه خرج من أبويه. وبالحقيقة ما من مخلوق حيّ إلا وله والدان ذكر وأنثى تولَّد منهما وخرج إلى هذا العالم بواسطتهما. فمن الذي خلق من كل شيء زوجين؟ من الذي جعل هذا ذكراً وهذه أنثى ثم جعل بينهما تعاطفاً وتآلفاً ومودّةً وتجاذباً؟ من الذي أوجد فيهما تلك الغرائز والخصائص وأودع فيهما ما أودع من رحمة وحنان وعواطف، فكان من أحدهما الوالدة وكان من الآخر الوالد؟

ذلك بعض ما نستطيع أن نفهمه من كلمة **(ووالد)** فلننتقل إلى كلمة **(وما ولد)**: فنقول:

من الذي أودع الابن في صلب أبيه؟ أم من هذا الذي نقله إلى رحم أمه وجعل يرعاه بعين عنايته ويربِّيه؟

من الذي خلق النطفة علقة، ثم خلق العلقة مضغة، ثم خلق المضغة عظاماً، فكسا العظام لحماً، وجعل لهذا المخلوق الجديد معدة وأمعاء وكبداً وقلباً؟ من الذي جعل له أعصاباً وعروقاً وأجهزة وأعضاء مناسبة؟ من الذي ركَّب الإنسان هذا التركيب البديع؟ أفنطفة من ماء مهين، أفجرثوم صغير يستطيع أن ينقلب بنفسه ويتطوّر فيصبح إنساناً سوياً دون أن يربّيه مربٍّ ويعنى فيه؟ أم هل خلقك أبوك؟ أم خلقتك أمك؟ أم أنّ خالقاً عظيماً خلقك وعُني بك حتى صرت بهذا الحال الذي أنت عليه؟ أفبعد أن بلَغتَ أشدَّك وصرت رجلاً نسيت خالقك وإحسانه إليك؟

أفلا تفكِّر في أصلك ممَّ خُلقت، وقد أتى عليك حينٌ من الدهر لم تكن شيئاً مذكوراً؟

أفلا تذكر ذلك اليوم الذي كنت فيه مخلوقاً ضعيفاً وجرثوماً ضئيلاً!

أفلا تنظر إلى نفسك يوم كنت تسبح في النطفة مع ملايين الملايين من الجراثيم، ولا تستطيع أن تراك يومئذ لِدقَّتك العينُ! أفلا تثوب إلى رشدك فتذكر تلك القدرة التي خلقتك، واليد الرحيمة الحكيمة التي عُنيت بك وربَّتك، فتعلم أن لك خالقاً عظيماً وإلهاً قديراً ومربّياً رحيماً.

وقد أراد تعالى أن يلفت نظر الإنسان إلى ذلك القرار المكين الذي رُبِّي فيه يوم كان نطفة وليس له من عين ترعاه أو تُعنى به سوى عين خالقه وإمداد موجده، فقال تعالى:

{لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ}:

والكبد: هو المجمع، والمراد به (**الرحم**) ذلك الوسط المناسب الجامع للشرائط الضرورية لحياة الجنين.

ففي الرحم يجد الجنين الحرارة المناسبة ويأتيه الغذاء اللازم، كما يأتيه الدم حاملاً الغازات الضرورية. وفي الرحم يعوم الطفل محمولاً على المشيمة محفوظاً من دخول الدم إلى فمه.

فمن الذي أوجد لك هذه الشرائط الضرورية للحياة، وجعل لك الرحم مستودعاً أميناً وقراراً مكيناً حتى أصبحت إنساناً سوياً كامل الخلقة؟

أفتنسى إذا أنت بلغتَ أشُدَّك وصرت ذا قوة وشأن ذلك العطف كله وتلك العناية الإلهية كلها، وتحسب أنه ليس في العالم أشد منك قوة؟ قال تعالى:

{أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ}:

وبالحقيقة لو أن الإنسان نظر إلى نشأته في رحم أمه، وفكَّر في أيام طفولته، ثم تابع

النظر وساءل نفسه عن تلك العناية التي عُنيت به في ماضيه وما تزال تُعنى به في حاضره، لطأطأت نفسه خاشعة لربها خاضعة لخالقها ولعرف أنه ضعيف لولا ما يمدّه به ربه من قوة، فقير لولا ما يهبه تعالى من رزق ومتعة، ذليل لولا ما أعطاه ربه من مكانة فليس له سواه ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

غير أن عدم نظر الإنسان في نفسه وما خلق الله في هذا الكون من الآيات، واشتغاله دوماً بطعامه وشرابه، وانصرافه إلى دنياه وكسب معاشه جعله ينحط هذا الانحطاط ويتدنّ عن تلك المنزلة السامية فصار جحوداً كفوراً لا يقدِّر نعمة المنعم فهو يرى أنه بقوّته وتفكيره وبسعيه وجدِّه جمع من الدنيا ما جمع ونال منها ما نال قال تعالى:

{يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً}:

وأهلكت: بمعنى: صرفتُ، **ومالاً لبداً**: أي كثيراً مجتمعاً بعضه على بعض وهذا حال أكثر الناس. فترى الرجل يقول: صرفت على هذا البناء كذا وكذا مالاً واشتريت هذا الثوب بكذا وكذا.. ولا يقول لولا أن ربي تفضَّل عليَّ لبتُّ جائعاً عرياناً، ولولا أنه وهبني ما وهبني من قدرة على الكسب لكنت محروماً أبيت في العراء لا أجد مسكناً ولا مأوى.

فما أبعدَ المعرض عن الله! وما أشدَّ كفره بنعمة من يمدّه دوماً بنعمته ولا ينساه!

وأراد تعالى أن يذكِّر الإنسان بعض التذكير بذلك فقال:

{أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ}:

أي: أيظن هذا الإنسان المترف أنه يعيش بذاته ويكسب ما يكسبه بقوته وسعيه وليس من أحد ينظر إليه بعين عنايته وليس من أحد يمدّه بالقوة والحياة.

ثم وجَّه تعالى نظر الإنسان إلى ما تفضّل به عليه من الأعضاء والحواس التي بها استطاع أن يصل إلى ما وصل إليه ويكسب ما كسب وينال ما ينال فقال تعالى:

{أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۞ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ}:

وبالحقيقة لو أن الإنسان كان أعمى لا يُبصر فكيف يسعى ويشتغل؟ ولو أنه كان محروماً من الشفتين واللسان فكيف ينطق ويتكلَّم؟ فبانضمام الشفتين تخرج الحروف المختلفة ويخرج الصوت بمعونة اللسان لهما فيتكلم الإنسان بما يتكلم. ولولا هذه الأعضاء لكان الإنسان أشبه بالحيوان الأعجم يعوي عواءً، ويموء مواءً، لكن مرونة الشفتين في الإنسان وقدرتهما على الانقباض والانبساط، وحركات اللسان المختلفة إلى الأعلى والأسفل واليمين والشمال كل ذلك يساعد الإنسان على التكلُّم والتعبير عمَّا يجول في نفسه من الخواطر والأفكار كما يعينه على تناول الطعام ومضغه وابتلاعه والتمتُّع بهذه الصحة والنشاط.

ثم لفت تعالى نظرك إلى التغذية التي كان يغذيك بها أيام طفولتك يوم كنت ترضع الحليب السائغ من ثديَيْ أمك فقال تعالى:

{وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}:

والنجد: هو المكان المرتفع الذي ينجد الإنسان فيعصمه من الغرق بالطوفان بعد هطول الأمطار الغزيرة وسيلان الوديان وهو المرتفع من الأرض، وتأتي في مساق الآية هنا المكان المرتفع من الصدر والذي ينجد الرضيع حين بكائه طلباً للغذاء فيعصمه من الجوع والحرمان، فالمراد به هنا ثدي الأم.

فالله تعالى من فضله عليك أن خلق لك الحليب في ثدي أمك، وجعل ينجدك به

كلما احتجت إلى الطعام والشراب، ثم عرَّفك بالكيفية التي تتوصل بها لتناول هذا الغذاء.

وبعد أن قدّم تعالى لنا ما قدّم من الآيات التي تُعرِّفنا بأنفسنا وتُرينا فضل خالقنا علينا أراد تعالى أن يرشدنا إلى الطريق التي نصل منها إلى الإيمان فنكون ممن اتَّصف بالصفات التي تجعلنا حقاً من بني الإنسان فقال تعالى:

{فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ}:

والعقبة: هي ممرٌّ وَعْر في الجبل يعترض الإنسان في طريقه فإذا جازه أعقبه اليسر والراحة. والمراد بكلمة: (**فَلاَ اقْتَحَمَ**) الحثّ والحض على الفعل.

والمراد بكلمة: (**العقبة**): هنا العمل الصالح ففيه في بادئ الأمر صعوبة على النفس. فالنفس بطبيعتها تحب المال ولا تفرِّط في إنفاقه غير أنها إذا رأت أنه بإنفاقها مبلغاً من المال تربحُ من وراء ذلك ربحاً عظيماً فهنالك تستهين بما تبذله ولا تتأخر عن الإنفاق.

وكذلك النفس تحب الراحة ولا تميل إلى ما فيه صرف الجهد والمشقة، غير أنها إذا رأت أنَّ مشقَّتها وجهدها يعودان عليها بالراحة الدائمة فهنالك تُضحِّي براحتها العاجلة لقاءِ ما ستناله من الراحة الآجلة.

وهكذا جميع أعمال الخير تستصعبها النفس بادئ ذي بدء، غير أنها إذا قامت بها طاعة لله الذي لم يأمرها بما أمرها به إلاّ حُبّاً بها ونفعاً لها فهنالك يعود عليها عملها بالخير واليسر وتعقبه الراحة والسعادة الدائمة.

فالله تعالى الذي خلقك وأحلَّك في هذا البلد من بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، هذا الرب الرحيم الذي عُني بك وأنت جنين في بطن أمك ووالاك بإحسانه يوم كنت

طفلاً صغيراً وما زال يمدّك بعنايته إلى أن صرت رجلاً... هذا الخالق الكريم الذي جعل لك عينين ولساناً وشفتين وهداك النجدين ينصحك ويحثك على فعل الخير ويدعوك إليه حبّاً بك وعطفاً عليك فلعلك إن أطعته تكون من السعداء وتُحشر مع الصدّيقين والشهداء والصالحين، فإنه تعالى ربّ عادل لا يستوي عندهُ المحسن والمسيء، ولا يعطي أحداً إلاّ بما استحق من عمل وبما قدَّم لنفسه من الخيرات، ذلك كله نستطيع أن نفهمه من آية: **{فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ}**.

وقد أراد تعالى أن يعرِّفك بشأن هذه الكلمة فقال تعالى:

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ}:

ثم فصَّل لك تعالى المعنى بقوله:

{فَكُّ رَقَبَةٍ}:

والمراد **بالرقبة**: الإنسان لا بل كل مخلوق ذي روح.

والمراد **بالفك**: هو الإنقاذ وبذل المعونة.

ويكون ما نفهمه من آية **{فَكُّ رَقَبَةٍ}**: هو أن يبذل الإنسان المعونة لكل مخلوق واقع في شدة، وأن يمدَّ يد المساعدة لكل من أحاطت به محنة أو وقع في مصيبة، فكأن الشدة حبل أحاط برقبة الواقع في المصيبة، فإذا أنت أنقذته فقد فككت رقبته من ذلك الحبل وخلَّصته من الغلِّ والقيد.

فإذا وجدت مهموماً وخلَّصته من همّه، وذا حاجة وسرت معه في حاجته، وأسيراً وأطلقته من ربقة أسره، ومديوناً وحططت عنه من دَيْنه، وغريقاً فأنقذته من غرقه، وعطشاناً فسقيته ودفعت عنه ألم عطشه، فتكون قد اقتحمت العقبة وفككت رقبة.

وهكذا كلمة: (**فَكُّ رَقَبَةٍ**) مجالها واسع تتناول كل عمل فيه إنقاذ ونجدة ومروءة، وتشمل كل مخلوق حيّ حتى ولو كان هرَّة صغيرة، لا بل نملة حقيرة، أو نبتة ذاوية.

غير أن أعلى عمل من هذه الأعمال هو أن تجد رجلاً ضالاًّ عن طريق الإيمان واقعاً في الضلال الذي يجرّ إلى الشقاء والنار فتسعى جهدك وتبذل وسعك فتخلِّصه من الكفر، وتنقله إلى الإيمان بمعاملتك الحسنة وبدلالتك الرشيدة التي تبيِّن له فيها خيره من شره، فإن هو آمن واهتدى إلى طريق سعادته فقد فككت رقبته من حبائل الشيطان والشهوات الخبيثة، وجعلته ينطلق حُرّاً في طريق الإيمان، وتكون والحالة هذه قد فككت رقبته أيضاً، وخلَّصته من عذاب النار وجعلته ممن يرتع في مراتع الجنة والسعادة.

وذلك العمل إن وُفِّقت إليه هو من أعظم الأعمال عند الله، وذلك هو عمل الأنبياء والمرسلين.

ثم ذكر لك تعالى عملاً آخر من الأعمال التي تقتحم بها العقبة وتنتقل من بعدها إلى الخير والسعادة، وإن كان أدنى من الأول منزلة فقال تعالى:

{أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ}:

والمسغبة: هي المجاعة، و (**يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ**)، أي: ذو مجاعة شديدة، وإطعام الطعام في أيام الحروب والمجاعات هو بعد فكِّ الرقبة من أفضل القُربات، إذْ به إحياءِ الناس وإنقاذها من الهلاك.

وقد عدَّد لك تعالى من تطعمهم على وجه الترتيب فقال تعالى:

{يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ}:

وقد بدأ تعالى باليتيم لأنه ضعيف لا حول له، فلا أب يعطف عليه وهو أَوْلى بالإحسان من الكبير. وأما تخصيصه بأن يكون ذا مقربة فذلك بأن الإنسان أعلم بحاجة أقاربه من غيره، وليس يعرف حاجة المحتاجين مثل أقاربهم المقرَّبين الأقربين.

على أن كلمة: (**يتيماً**) الواردة في الآية لا يقتصر معناها على الطفل الصغير الذي مات أبوه، بل تشمل كما رأينا كل امرئ منقطع، وعلى هذا يكون الإطعام شاملاً كل منقطع لا ناصر له ولا معين.

وكلمة (**ذا مقربة**): لا يقتصر معناها على الأرحام، بل تشمل المؤمنين فهم كلهم ذووا قرابتك ومن أقرب الناس إليك، وبعد أن تبدأ بهؤلاء المذكورين تستطيع أن تنتقل بالإحسان إلى كل الناس والعطف على كل المحتاجين فقال تعالى:

{أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ}:

والمسكين: هو المحتاج الذي لا حول له ولا قوة يستعين بها على دفع الفقر عنه والتخلُّص مما هو فيه. فهي تشمل المريض والفقير ذا العيال والعاجز والمسن الضعيف.

وتعني كلمة (**ذا متْربة**) كل من ليس لديه شيء من مال، تقول: أترب الرجل، أي: لصقت يده في التراب وأصبح ليس لديه شيء. والآية هنا لا تُخصِّص العطف على المسكين بقريب أو بعيد، بل تشمل كل مسكين حتى ولو كان ليس بمسلم، إذ:

« **الخلقُ كلّهم عيالُ الله وأحبُّهم إليه أنفعهم لعيالِه** »[١].

الله تعالى كتب الإحسان على كل شيء. ولكن ماذا يعقب فعل الخير؟ وماذا يكون عليه حال الإنسان بعد اقتحام العقبة؟ لقد بيَّن الله تعالى ذلك بقوله:

---

(١) رواه الديلمي عن أبي هريرة رضي الله عنه. انظر كنز العمال ٢٣٨٤/٦/الحديث رقم ١٦١٧٠.

{ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا...}:

فالإيمان على حسب ما تُشير إليه هذه الآية الكريمة هو ثمرة العمل الصالح. والوصول إلى الإيمان متوقِّف على الخيرات. وأنه لا بدّ لنا هنا من كلمةٍ نفصِّل فيها هذا المعنى فنقول:

إذا نظر الإنسان في هذا الكون نظرات المتأمِّل المستبصر قادَتْهُ نظراته وهداه تفكيره إلى شهود عظمة هذا الكون ورؤية ما فيه من إحكام الصنع ودقة التكوين، وهنالك تهديه فكرته وتصل به نظراته إلى أن لهذا الكون خالقاً عظيماً وربّاً حكيماً وإلهاً قديراً.

وهذا النوع من الإيمان الذي يتوصَّل إليه الإنسان عن طريق النظر والتأمُّل ويهتدي إليه بواسطة الفكر نستطيع أن نسمِّيه (**إيماناً فكرياً**).

غير أن هذا النوع من الإيمان لا يخلِّص صاحبه من النار ولا يصل به إلى الجنان ما لم يعقبه العمل الصالح من ترك المنكرات وفعل المأمورات والإحسان إلى الخلق جهد المستطاع، فإذا تلا ذلك الإيمان الفكري العمل الصالح الذي بيَّناه والذي يرضى به الله فهنالك تحصل للنفس الثقة بذاتها وتغدو مطمئنة من رضاء الله عنها، وبهذه الثقة والطمأنينة تقبل النفس على الله ويكون ذلك العمل الصالح جناحاً لها يصل بها إلى الدخول في حضرة الله... فإذا هي أقبلت هذا الإقبال فهنالك ترى بذاتها حنان الله وعطفه وتشهد رحمته تعالى وإحسانه. وهذه الرؤية النفسية وذلك الشهود المعنوي الذي يحصل للنفس في هذه المرحلة يورث صاحبه الإيمان النفسي الذي تعنيه الآية الكريمة التي نحن بصددها آية:

{ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا}.

وهذا النوع من الإيمان هو المعوّل عليه والمطلوب وهو وحده الإيمان الذي يخْلُص به

صاحبه من النار ويكون سبباً في دخول الجنان.

وينتج هذا الإيمان لصاحبه حُبّاً وشغفاً بربه، وبحبه هذا ينطبع في النفس الكمالات الإلهيّة وتصطبغ النفس بصبغة من الصفات العالية، فتشتق من الله الرحمة والحنان والعدل والإحسان، فلا يعود لسان الإنسان ينطق إلاّ بما فيه الخير والإصلاح ولذلك قال تعالى:

{وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ}:

فهو يوصي الناس بالصبر، إذ يعرِّفهم بحنان الله وعطفه عليهم وأن ما يسوقه للإنسان من شدائد ومصائب إن هو إلاّ علاجات نفسية وأدوية معنوية تنتزع من النفس شوائبها وتخلِّصها من عللها وأمراضها لتصبح خليقةً وأهلاً للتمتُّع بما أعدَّه لها ربها من الإكرام والإنعام. وتراه يوصيهم بالمرحمة فيبيِّن لهم أن الله تعالى إنما يحب الرحماء ويجزيهم إحساناً بإحسان.

وبعد أن بيَّن لنا تعالى أن اقتحام العقبة هو طريق الإيمان، ذلك الإيمان الذي يسمو بصاحبه ويجعله إنساناً كاملاً كريماً بالصفات، أراد تعالى أن يبيِّن لنا نتيجة هذا الإنسان الكريم وما يلقاه عند ربه من الجزاء على ما قدَّم من الأعمال فقال تعالى:

{أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ}:

والميمنة: مأخوذة من اليُمن: واليمن هو الخير والبركة والمراد بذلك الفضل الإلهي المتواصل الذي يجزيهم به ربهم على ما قدَّموه في دنياهم من الأعمال الصالحة.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ}:

والمشئمة: هي ضدّ الميمنة. فالذين أعرضوا عن ربهم فعموا ووقعوا في الشرور في الدنيا

ستعود عليهم أعمالهم الخبيثة في آخرتهم وهنالك يتشاءمون منها لما تسبِّبه لهم من الشقاء وما تجرُّه عليهم من العذاب والتعاسة.

وعلى وجه المثال نقول:

التلميذ الذي يجدُّ ويكدُّ نراه يوم يرى النتيجة في فحصه متيمِّناً مسروراً إذ أن سعيه طوال السنة عاد عليه بالفوز والرفعة.

والكسول المتهاون نجده يوم إعلان النتائج متشائماً إذ أن تهاونه رجع عليه بالسقوط والخيبة.

فالأوَّل فرحٌ متيمِّن بما سينال، والثاني مُتكدِّر متشائم مما سيلقى.. وذلك ما نستطيع أن نفهمه من الآية الأولى والثانية.

ثم بيَّن لنا تعالى ذلك العذاب الذي سيلقاه الذين كفروا في الآخرة فقال تعالى:

{عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ}:

والنار المؤصدة: هي كما مرَّ معنا في (سورة الهمزة) النار المطبقة المحيطة بهم من كل جهة. نقول: أوصد الباب: أغلقه. فهؤلاء ستحيط بهم النار من كل الجهات وتوصد عليهم فلا يستطيعون منها خروجاً بل يظلُّون خالدين فيها أبداً. ولبيان سبب خلود الكافرين في النار وبشيء من التفصيل نقول:

الناس في هذه الدنيا أربعة أقسام:

١. فأناس: نظروا في آيات الكون منذ طفولتهم فاهتدوا إلى خالقهم وأقبلوا على ربهم منذ نشأتهم ولم ينقطعوا عنه طرفة عين طوال حياتهم، فهؤلاء بإقبالهم الدائم على خالقهم ظلَّت نفوسهم طاهرة لم يلوِّثوها بجرثوم الشهوات الخبيثة بل حُفظوا وعُصِموا،

وتلك هي حال الأنبياء الذين نشؤوا على الإيمان وترعرعوا في الإقبال المتواصل ولم ينقطعوا لحظةً من اللحظات، فكان النور الإلهي متوارداً على قلوبهم وسبباً في طهارة نفوسهم قبل بعثتهم وبعد رسالتهم.

وهذا هو المراد بالعصمة كما وصف تعالى أنبياءه المعصومين بآية:

(... **بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ۞ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**)[1].

وآية: (**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ۞ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**)[1].

أي بإقبالك العالي على ربِّك منذ نشأتك، تجلّى عليك ربك بنوره، فكان ذلك النور مبيّناً حقائق الأشياء، وبذلك غفر لك الله أي: شفاك فلم تقع في ذنب قبل البعثة ولا بعدها بل كنت بهذا طاهراً معصوماً.

ولهذا فالأنبياء والمرسلون لا تحتاج نفوسهم الطاهرة إلى مداواة، بل تجدهم محفوظين من العذاب في الدنيا والآخرة. وكل ما يعرض لهم من المصائب في الدنيا وكل ما يلقونه من أذى أقوامهم ومعارضتهم إن هو إلا سبب لظهور شرف نفوسهم وكمال حنانهم ورحمتهم ورفيع صفاتهم وإنسانيتهم.

٢. وأما القسم الثاني: فهم الذين آمنوا بربهم وكان لهم إقبال عليه تعالى وصلة، غير أنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه أصحاب القسم الأول من دوام الإقبال والصلة، بل كان إقبالهم متقطِّعاً ساعة وساعة.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٢٦-٢٧).

(١) سورة الفتح: الآية (١-٢).

فهؤلاء ما داموا مُقبلين داموا محفوظين من المعاصي والوقوع في الشهوات، فإن هم انقطعوا عثروا ووقعوا، وهنالك يجازيهم الله على أعمالهم، ويسوق لهم من المصائب والشدائد ما يتناسب مع عملهم، وما يكون سبباً في رجوعهم إلى خالقهم واتجاههم إليه وجهة صادقة، وبهذه الوجهة تطهر نفوسهم مما علق بها وتُشفى من عللها.

فإذا ماتوا ماتوا طيِّبين، ويكون ما أصابهم من الشدائد في الدنيا فضلاً من الله ورحمة، وتكون أمراضهم الجسمية سبباً في شفاء نفوسهم من عللها المعنوية وجراثيمهم المهلكة ليكونوا أهلاً لدخول الجنّة والتمتُّع بما أعدَّه لهم ربهم من فضل ونعمة.

٣. **أما القسم الثالث**: وهم الذين آمنوا وكانت لهم بربهم صلة وكانت لهم وجهة، غير أن صلتهم كانت ضعيفة، وكانت ساعات انقطاعهم أكثر من ساعات إقبالهم، وبذلك لم تنمحِ من نفوسهم جراثيم الشهوة، ولم تطهر نفوسهم الطهارة التامة، بل ماتوا ودَرنُ المعاصي عالق في نفوسهم، ولم يتوبوا إلى الله التوبة الصحيحة. فهؤلاء وهذا حالهم لا يمكن أن يدخلوا الجنّة ما لم يخلصوا من عللهم، وتطهر نفوسهم من شهواتهم الخبيثة، وأنه لا بدّ لهم من النار، فهي خير علاج ودواء، فإذا أُلقوا فيها واشتدَّ عليهم حريقها فهنالك يستجيرون بخالقهم، ويكون لهم من إيمانهم وصِلَتهم السابقة التي اكتسبوها في دنياهم طريقٌ للإقبال على الله. وبهذا الإقبال تُشفى نفوسهم وتزكو، ويخلصون من خبثهم الذي كان سبباً في عذابهم وحريقهم، وعندها يساقون إلى الجنة، وفي الحديث الشريف:

« **يخرجُ منَ النارِ منْ كان في قلبِه مثقالُ ذرَّةٍ من إيمان** »[1].

٤. **أما أصحاب القسم الرابع**: فهم الكافرون، الذين أعرضوا عن ربهم في دنياهم

---

(١) مسند الإمام أحمد ج٣ ص١١٦.

إعراضاً كلِّياً، فهؤلاء إذا ماتوا ولم تحصل لهم صلة بربهم طوال حياتهم يخرجون من قبورهم وقد اشتدت عليهم آلامهم النفسية ويصيحون مستجيرين بربِّهم، وهناك يساقون إلى النار فيصطلون بحريقها ويسلون ما يجدونه من الآلام النفسية التي لا تطاق، ويغيبون بعذاب الحريق عن ألمهم النفسي الشديد.

وحيث إن هؤلاء لم تكن لهم سابقة إيمان في دنياهم تجدهم لا يعرفون طريق الإقبال على الله، ولذلك فهذه الاستجارة المجرّدة من الإقبال لا تستطيع أن تشفي نفوسهم ممَّا بها، ولذلك يظلُّون خالدين في النار أبداً.

وهنا لا بدّ لنا من بيان معنى الإقبال الذي يكون به شفاء النفس مما فيها من علل وأمراض فنقول:

يتطلّب الإقبال على الله علماً برحمة الله، أي: شهوداً لتلك الرحمة الإلهية والعطف والحنان، أو ذَوْقاً نفسياً.

فالمؤمن الذي صار له في دنياه علمٌ، أي: شهود لتلك الرحمة الإلهية أو ذوق نفسي تراه لا يحجبه في الآخرة خجل من ذنب أو معصية، بل تتعاظم تلك الرحمة الإلهية يومئذ لديه ويزداد بها شهوداً، فيرى كل ذنب مهما عظم حقيراً صغيراً أمامها. وبهذه الرؤية لتلك الرحمة التي لا تتناهى تغلب على العبد الثقة بعطف الله وحنانه، ويحصل له الإقبال على الله. وهنالك وبهذا الإقبال على الله تطهر النفس وتخلص ممَّا بها.

أما الكافر فلم يحصل له في دنياه ذوق نفسي ولا علم ـ أي شهود ـ برحمة ربه، وكل ما يحصل له في الآخرة إن هو إلاَّ مجرَّد عُرْفٍ، إذ تعرِّفه وقائع الأحوال والسوْق إلى المداواة في النار برحمة ربه.

لكن ذلك العرف الذي لم يشهد الإنسان معه الرحمة الإلهية شهوداً نفسياً ولم يذقها

ذوقاً، ذلك العرف المجرَّد عن الشهود والذوق لا يستطيع أن يحول بين خجل النفس من ذنوبها وبين إقبالها على ربها. وحيث إنه ليس لهذا الكافر في دنياه سابقة عمل صالح يستند إليه فيكون سبباً في إقبال نفسه يومئذ على خالقها تجده محبوساً في خجله مشغولاً بألمه، ولهذا لا يستطيع الإقبال على ربه ذلك الإقبال الذي يشفي نفسه ممَّا بها من أمراض بل يبقى خالداً في ذلك العذاب أبد الآباد.

وإذاً فالوجهة الصادقة إلى الله وإن شئت فقل الصلاة الطيبة التي يُصلِّيها المؤمن في دنياه، تُورث النفس ذوقاً أو علماً، أي شهوداً لرحمة الله وأسمائه الحسنى وبذلك تكون سبباً في شفاء النفس من عللها.

وكلما كان الإنسان أحسن صلاة وأتقى كان أكثر طهارة وأنقى، ومن استطاع أن يحصل له ذلك العلم أو الذوق لرحمة ربه وكماله في دنياه فقد أفلح وفاز، ومن أخذ بيدك إلى الله وعرَّفك بهذا فأنت مدين له مدى الحياة ولست تستطيع أن تجزيه على إحسانه بإحسان، ولكن سل الله أن يجزيه عنك خيراً فهو خير من يجزي وخير من يكافئ على الإحسان بإحسان.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلۡفَجۡرِ ١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤
هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ
ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ
ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ
١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ
رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ
وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ
فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧ وَلَا
تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا
لَّمّٗا ١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ٢٠ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ
دَكّٗا دَكّٗا ٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ
بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي

قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ

وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ

رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

صدق الله العظيم

تأويل سورة الفجر

في هذه السورة الكريمة يُريد الله تعالى أن ينبِّه الإنسان إلى عواقب سيره ونتائج أعماله، وأن يبيِّن له أنه إن لم يثب إلى رشده ولم ينته عن غيِّه فنصيبه الهلاك والشقاء، كما حلَّ بمن ضرب الله تعالى بهم الأمثال. وإن هو استفاق من غفلته وتلافى أمره قبل موته عاش في راحة واطمئنان، ورجعت نفسه عند فراقها هذه الحياة إلى ربها فرحة مغتبطة بما قدَّمت من أعمال.

وحيث إن الاعتبار بما حلَّ بمن هلك من الأقوام لا يكون إلا بعد الإيمان وبما أن الإيمان بيوم الحساب مرتبط ومتوقِّف على الإيمان بالله لذلك بدأ تعالى هذه السورة بآيات تُعرِّف الإنسان بخالقه وموجده موجد هذا الكون كله ومسيِّره، فلعلّه إذا فكَّر فيما يراه من الآيات الكونية توصَّل منها إلى الإيمان بربِّه، وهنالك يستقيم على أمره وينتهي عن طغيانه وضلاله، ويخلع هذا الثوب الحيواني الذي تلبَّس به، فينقلب إنساناً إنسانياً في صفاته وأعماله، وبذلك يجرُّ الخير لنفسه ويدفع الخسارة التي كانت لاحقة به، ولذلك وحُبّاً بك أيها الإنسان خاطبك ربّك بقوله:

{وَالْفَجْرِ ۞ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۞ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۞ وَاللَيْلِ إِذَا يَسْرِ}:

ونبدأ بالآية الأولى فنقول:

الْفَجْر: هو الظهور بصورة متلاحقة تدريجية، وهو أيضاً كل شيء يظهر من الخفاء إلى العيان متلاحقاً متتالياً، وعلى هذا فليست كلمة (**الْفَجْرِ**) قاصرة على الضياء الذي يظهر آخر الليل، بل تشمل كل ما يظهره الله تعالى لك ومن أجل حياتك من ظلمة الغيب والخفاء إلى حيِّز الوجود والعيان.

فالبراعم التي تظهر على الأشجار والأزهار والأثمار والنبات المنبعث عن الحبِّ المدفون تحت طيّات التراب، وكل ما يظهر منه من أوراق وسنابل وخيرات وإن شئت فقل:

كل ما فيه حياتك ودوام بقائك مما يظهر بصورة تدريجية شيئاً فشيئاً وآناً بعد آن متنقّلاً من عالم الغيب إلى عالم الشهود والعيَان ينطوي تحت كلمة (**الْفَجْرِ**).

أما (**الواو**) التي تجدها في كلمة (**وَالْفَجْرِ**) فإنما تلفت نظرك إلى عظمة هذا الشيء، إلى دقَّة تكوينه، إلى حسن تنظيمه، إلى حكمة خالقه، إلى كل ما يتبدَّى فيه من الآيات الدالة على خالقه وموجده، فهذه الآية تقول:

انظر أيها الإنسان إلى كل ما يظهر ويخرج بصورة متتالية من المواد والأثمار التي بها حياتك وبقاؤك، ثم فكِّر ودقِّق وتعمَّق في التفكير في ذلك، فكِّر في هذه الحركة الدائمة والنظام القائم الذي بموجبه تخرج النباتات وتتولَّد الثمرات فترة ففترة وآناً بعد آن، إنه لو لم يكن خالق يخلق ومُوجِد يُوجِد لما استمر السير ولانقطع الظهور والخلق، بل لصار العالم كله إلى الاضمحلال، فكِّر في ذلك كله تهتدِ منه إلى خالقه!

وبعد أن لفت تعالى نظرنا إلى تلك الخيرات التي يفجِّرها لنا، أراد تعالى أن يعرِّفنا أن ذلك إنما هو مبني على نظام يستحق أيضاً النظر ويستدعي التأمُّل ويعرِّف بالبارئ الذي أبدع الأشياء حتى جاءت على هذا الكمال، ولذلك قال تعالى:

{وَلَيَالٍ عَشْرٍ}:

أي: إن ظهور الخيرات والثمرات إنما هو مرتبطٌ وقائم على نظام الليالي العشر، ومن دون هذه الليالي العشر لا ينبت نبت، ولا يفجَّر زرع، ولا يفوح عطر، ولا ينضج ثمر.

فكلمة (**وَلَيَالٍ عَشْرٍ**) تقول: إنه بواسطة هذه الليالي العشر يتمُّ الإظهار، ويطَّرد ذلك

السيْر والخلْق على أكمل وجه وأبدع حال. ولتوضيح معنى الليالي العشر نقول:

من المشاهد أن الليل لا يثبت على حال، بل أنه يختلف في السنة الواحدة من زيادة إلى نقصان. فتجد الليل ينتقل مختلفاً يوماً عن يوم، وفي يوم واحد من أيام الربيع تجد الليل مساوياً للنهار **. ٢٢ آذار .** أي أن كل واحد منهما اثنتا عشر ساعة.

ثم إن الليل يأخذ بالتناقص دقيقة أو دقيقتين أو أكثر أو أقل وهكذا حتى يصل في يوم من أيام الصيف إلى حد أصغري من النقصان **. ٢٢ حزيران .** فترى ليل الصيف قصيراً جداً.

فإذا بلغ هذا الحد الأصغري أخذ يتزايد شيئاً فشيئاً حتى يعود مرة ثانية في يوم من أيام الخريف إلى الاعتدال فيتساوى الليل مع النهار **. ٢٢ أيلول.**

ثم إنه يتصاعد في الزيادة حتى يصل في الشتاء إلى حدٍّ أعظمي من الطول **.٢٢ كانون أول .** فترى ليل الشتاء طويلاً جداً ثم ينحدر متناقصاً حتى يصل في الربيع إلى نقطة الاعتدال التي كان فيها من قبل متساوياً مع النهار وهكذا...

إذا أنت جمعت هذه الدقائق والثواني التي يتزايد فيها الليل، إلى جانب الدقائق التي يتناقص فيها خلال سيره في العام الواحد، وجدتَ مجموع دقائق النقصان مع دقائق الزيادة مئة وعشرين ساعة أي عشر ليالٍ، وبهذا التبدُّل في الليل تتمتع النباتات نهاراً بنور الشمس، كل ثمرة ونبات بما يناسب طبيعته، وبذلك تتولَّد وتظهر ظهوراً منظَّماً بالغاً في الكمال وتنتظم الحياة على وجه الكرة. ولولا ذلك النظام المحكم الذي بموجبه تتولَّد الفصول لاختلفت المناطق ولاضطربت الحياة ولما أمكنت.

فمن الذي جعل للأرض هذا السير وأوجدها على هذا النظام؟

أليس ذلك دليلاً على خالق حكيم ورب قدير؟

وبما أن ظهور هذه الأشياء التي بها حياة الإنسان والتي تنطوي تحت كلمة (**وَالْفَجْرِ**) يتوقف على عوامل أُخرى غير الفصول الأربعة التي عبَّرت عنها كلمة (**وَلَيَالٍ عَشْرٍ**) لذلك أراد تعالى أن يُلفت نظرنا إلى هذه العوامل، لنفكِّر وندقِّق فيها أيضاً فقال تعالى:

{**وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ**}:

والشفع: في الأصل: هو المزدوج من الأشياء، **والوتر**: هو المنفرد، وتشير كلمة (**الشفع**) هنا إلى الكرة الأرضية مقترنة بالقمر، فالقمر مرتبط بالأرض يسير معها أينما سارت، وهو أبداً ملازم لها طائف حولها لا يفارقها ولذلك سمَّاه الله تعالى شفعاً، أما كلمة (**الوتر**) فهي تشير هنا إلى الشمس هذه الكتلة الملتهبة التي تمد الأرض مع قمرها بالضياء، وترسل عليها من نورها الوهَّاج. فهذه الآية تقول:

انظر أيها الإنسان إلى القمر في ارتباطه مع الأرض! من الذي قرنه إليها وجعله ملازماً لها لا يفارقها. انظر إلى دورانه حولها! انظر إلى منازله التي يمرُّ بها في شهر كامل! انظر إلى تأثيراته في البحر وأمواجه، وارتفاعه وانخفاضه في مدِّه وجزره، انظر إلى أثره في نمو النبات والزرع.

ابحث ودقق في فائدة هذا الكوكب، وفي هذه القوة الحاملة له في الفضاء! وانظر إلى تلك القدرة العظيمة التي ربطته وقرنته بالأرض، ثم انظر إلى الشمس في إمدادها الكون بالضياء والحرارة، وما تقوم به من تأثيرات في تبخير مياه البحار وهطول الأمطار ونمو المزروعات، أليس ذلك دليلاً واضحاً على وجود منظِّم نظَّم، وخالق أبدع وأوجد. ثم إن الله تعالى أراد أن يعرِّفنا بدورة الأرض التي ينشأ عنها الليل، لنعلم

أن للَّيل أيضاً أثره في تولُّد هذه الخيرات، فلعلنا إذا نحن فكَّرنا بها أيضاً ازداد إيماننا، وسلَّمنا لخالقنا تسليماً ولذلك قال تعالى:

{وَاللَيْلِ إِذَا يَسْرِ}:

ويسر: مأخوذة من سرى بمعنى جرى برفق، فالليل إنما يطوف حول الكرة الأرضية دائراً حولها في /**٢٤**/ ساعة متنقِّلاً بلطف وهدوء تنقُّلاً غير منقطع.

فمن الذي خلق هذا الظلام وجعله دائب الدوران وأرفقه بما أرفقه من مؤثرات؟

ماذا يكون عليه حال الإنسان لو أن دورة الأرض كانت بطيئة جداً وكان ظلام الليل مثلاً يُخيّم علينا مئات الساعات؟ أم ماذا يكون عليه حال الإنسان لا بل حال الحيوان والنبات لو أن دوران الأرض كان سريعاً جداً فكان الليل لا يدوم سوى ساعتين أو ثلاث ساعات؟؟؟

ترى هل كان ينبت زرع أو يعيش إنسان أو حيوان؟

أليس هذا النظام الذي نشهده قائماً الآن على هذا الكمال بدليل ساطع على إله قدير وخبير حكيم؟

وبعد أن لفت تعالى نظرنا إلى هذه الآيات الكونية التي لا يختلف في نظامها وعظيم ترتيبها اثنان قال تعالى:

{هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ}:

والقسم: مأخوذة من أقسم بمعنى: حَلَفَ وقضى في الأمر قضاءً لا شك معه.

والحجر: مأخوذة من حَجَرَ بمعنى: مَنَعَ، لأن الإنسان إذا هو استفاد من تفكيره فإنه

يحجره ويمنعه من الوقوع في الخطأ والزيغ والضلال فهذه الآية تقول:

أبعد أن قدَّمتُ ما قدَّمتُ من الآيات الدالة على هذا الكون العظيم، هل تستطيع أيها الإنسان إذا كان عندك ذرَّة من فكر أن تُقسم وتقول: إن هذا الكون ليس له خالق منظِّم وربّ قدير خبير؟

وإذاً، فالفكر هذه الجوهرة الثمينة التي زيَّن الله تعالى بها الإنسان، هو أساس المعرفة، وهو وحده الموصل إلى الإيمان، ومن ترك تفكيره جامداً خامداً، ومن لحق شهوته وألقى بتفكيره جانباً، ظلّ كالحيوان الأعجم لا يعرف إلا الطعام والشراب وهو عن المرتبة الإنسانية في معزل، وبينه وبينها حجاب، ففكِّر أيُّها الإنسان وتعمَّق بالتفكير فيما تراه حولك فلعلك تهتدي إلى خالقك وعندئذٍ تستنير بنوره تعالى في ظلماء حياتك فترى سبيل سعادتك وتميِّز خيرك من شرك.

أما إذا أنت ألْقيت بتفكيرك جانباً، وركنتَ إلى هذه الدنيا ولم تتعرَّف إلى خالقك الذي أوجدك على هذه الأرض، واستعمرك فيها، فانظر إلى ما حلَّ بمن طغوْا في البلاد!

لقد أبادهم الله تعالى، ولم يُبقِ لهم أثراً إلاَّ بعض الخراب من الأطلال، وكانوا أشد منك قوة وآثاراً. ولذلك قال محذِّراً.

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ}:

وليس المراد من قوله تعالى: **{أَلَمْ تَرَ}** الاستفهام إنما المراد التذكير بهذه الحادثة وتقريرها في ذهن الإنسان وتحذيره من متابعة مسير أولئك القوم.

وعاد: هم قوم من العرب الأوَّلين سكنوا شمالي الجزيرة العربية في بلاد الشام، وعَمَروا

الأرض وبذلوا في عمارتها كل ما أوتوه من قوة، فلمَّا جاءهم سيدنا هود عليه السلام رسولاً إليهم من ربهم، عارضوه:

﴿قَالُواْ يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[١]. فأرسل الله عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات ذهبت بأرواحهم وتركتهم صرعى على الأرض كأنهم أعجاز نخل منقعر.

وقد أراد تعالى أن يعرِّفك بما كانوا عليه من القوة والمهارة في البناء فقال تعالى:

{إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ}:

أي: إذا أردت أن تعرف موقع إقامتهم وما كانوا عليه من القوة فانظر إلى إرمَ ذات العماد.

وإرمَ: هي مدينة دمشق سُمِّيت إرم لأنها كانت مركز هؤلاء وعاصمة مُلكهم مأخوذة من الأرومة، وهي: أصل الشيء ومنبته، فمن دمشق كان ينبعث سلطانهم وسيطرتهم على سائر البلدان التي تحت نفوذهم. أقول:

وقد سمَّاها الله تعالى بإرمَ أيضاً لأن المسلمين سيؤمُّونها، وستكون لهم مركزاً في يوم المعركة الكبرى التي أخبر عنها ﷺ بقوله:

« فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى بأرض يُقال لها: الغوطة، فيها مدينة يُقال لها دمشق هي خير منازل المسلمين يومئذٍ »[١].

---

(١) سورة هود: الآية (٥٣).

(١) الجامع الصغير /٥٨٧٥/ (حم) عن أبي الدرداء. وفي رواية « فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى بأرض يُقال لها الغوطة، فيها مدينة يُقال لها دمشق هي خير بلاد المسلمين للمسلمين يومئذٍ، طوبى لمن له فيها مربط شاة ».

وذَاتِ الْعِمَادِ: أي: ذات الأعمدة الضخمة الشاهقة. وإنك إذا نظرت إلى الأعمدة الضخمة التي تظهرها الحفريات بين الحين والحين في دمشق عرفت ما كانت عليه هذه المدينة من الشأن العظيم في البناء والضخامة، وعرفتَ ما كان عليه هؤلاء من القوة. وقد أراد تعالى أن يعرّفِك بما كانوا فيه من النعيم قال تعالى:

{الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ}:

فدمشق في هوائها اللطيف، ومياهها الغزيرة، وإقليمها المعتدل، وفصولها المتنوعة، وهي في أرضها الطيبة ومنابتها الخصبة وأشجارها المنوَّعة تُعدُّ جنة العالم، إذ ليس في الكرة الأرضية موضع جمعَ المحاسن التي جمعتها دمشق من كلِّ الأوجه. فمهما كنت أيها الإنسان في نعيم وبسطة من العيش، فقد سبقك أقوام فرحوا بالحياة كما فرحت، وتمتعوا أكثر مما تمتعت، فلمَّا عصوا رسول ربهم وعتوْا عما نُهُوا عنه، لم تُغْنِ عنهم عماراتهم ومدينتهم ولا حدائقهم وقصورهم من شيء بل تركوا ذلك كله وأورثه الله تعالى قوماً آخرين.

وبعد أن ذكَّرنا تعالى بما حلَّ بهؤلاء، ذكَّرنا بقوم ثمود فقال تعالى:

{وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ}:

وَثَمُودَ: هم أيضاً قوم من العرب الأقدمين الذين سكنوا شمالي الجزيرة العربية بين الحجاز والشام، وقد أرسل الله تعالى إليهم سيدنا صالحاً رسولاً يُنذرهم ويدعوهم لعبادة الله وطاعته، فطلبوا منه أن يُخرج لهم ناقة من جبل تكون آية على رسالته، فما كان منهم تجاه هذه المعجزة إلاَّ أن عقروا الناقة كما رأينا في (سورة الشمس) وعَتوْا عن أمر ربهم ثم ائتمروا برسول الله ليقتلوه، فأنجاه الله تعالى والذين آمنوا معه، وأخذت الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

وقد جاءت هذه الآية لتذكِّر الإنسان بما حلَّ بأولئك القوم، فكلمة (**وَثَمُودَ**) تقول: وانظر أيها الإنسان إلى ما حلَّ بقوم ثمود.

وأما كلمة (**الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ**): فهي بمعنى قطعوه وجاؤوا به. **والصخر**: جمع صخرة وهي الحجر العظيم الصلب.

والواد: هو منفرج بين جبال أو آكام يكون مسيلاً للماء ومجرى للأنهار. وكلمة (**جَابُوا الصَّخْرَ**) إنَّما أوردها الله تعالى ليبيِّن لك قوة أولئك القوم وشدَّتهم: وكلمة (**الصَّخْرَ**) إنما تُشير إلى عظمة أبنيتهم وضخامتها. أما (**الباء**) المتصلة بكلمة (**بِالْوَادِ**) فإنما تُشير لك إلى الموضع الذي بنوا فيه أبنيتهم العظيمة إنما كان بِالْوَادِ، أي: بالمكان ذي الهواء اللطيف والشجر الكثير والماء الجاري الغزير، فهؤلاء مع ما كانوا عليه من القوة وشدة البأس لما عصوا رسول ربهم وحقَّ عليهم الهلاك لم تُغنِ عنهم قوَّتهم، ولم تُفِدْهم أبنيتهم الرائعة ولا قصورهم الشامخة. ثمّ ضرب لنا تعالى مثلاً آخر فقال:

{وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ}:

والأوتاد: جمع وتد، وهو كل ما غُرز في الأرض فكان سبباً في تثبيت شيء آخر وتمكينه. والذي نفهمه من كلمة (**الأوتاد**) الواردة في هذه الآية:

أُصول تلك الأبنية العظيمة التي كان يقيمها فرعون في مصر، والتي يسمُّونها بالأهرامات، فهذه الأهرامات الشامخة الذاهبة في السماء، هذه الأهرامات ذات الصخور العظيمة التي يبلغ حجم كل منها تقريباً حجم غرفة من الغرف التي تسكنها الآن، لا بدّ لها حتى تقوم ثابتة من أصول راسخة في الأرض تكون لها بمثابة الأوتاد.

فهذا الملك العظيم المتمكّن في الأرض وصاحب هذه الأبنية لما حقَّ عليه العذاب

جذَبه الموت إليه جذبةً لم تُبقِ له أثراً ولم يجد له منها ناصراً، فإذا ذكرتَ أيها الإنسان ما أصاب عاداً وثمود فاذكر إلى جانبهم ما حلَّ بفرعون فلعلَّك تتَّخذ من هؤلاء عبرة، ولعل ما حلَّ بهم يكون لك موعظة وذكراً.

وقد أراد تعالى أن يبيِّن لك أعمالهم التي جرَّت لهم الهلاك فقال تعالى:

{الَّذِينَ طَغَواْ فِي الْبِلادِ ۞ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ}:

وطغوا: أي: جاوزوا الحدود الإنسانية في سيرهم.

{فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ}: فأكثروا، أي: جعلوه كثيراً.

والفساد: مأخوذة من فسد، وهو ضد صَلُحَ، يُقال: فسد الطعام وفسد الماء، أي: أصبح غير صالح. ولا بدّ لفهم معنى كلمة (**الْفَسَادَ**) الواردة في هذه الآية من التفريق بينها وبين كلمة (**الأذى**) فنقول:

الأذى: هو أن يضر الإنسان بعمله الآخرين، فالجار الذي يدَع الماء ينصبُّ من ميزابه على جدار جاره إنما يؤذي بعمله هذا جاره، والذي يبني بناءً عالياً يكشف أرباب البيوت المجاورة ويحجب الشمس والنور والهواء عنهم إنما يضرُّ بعمله جيرانه، وهكذا كل عمل من شأنه الإضرار بالنفس أو بالآخرين هو أذى.

أما **الفساد:** فهو كل عمل يقوم به الإنسان فيكون من ورائه جرُّ الناس إلى القيام بالأعمال التي تضرُّهم وتؤذيهم، وبالوقت نفسه تضرُّ الآخرين. وعلى وجه المثال نقول:

الرجل الذي يسمح لامرأته أن تخرج سافرة متزيِّنة كاشفة عن وجهها فعمله هذا فساد لأنه إنما يجرُّ بعمله هذا الناس إلى الوقوع في الزنى وفي الزنى ما فيه من إيذاء المرأة

والرجل والأولاد، بل المجتمع الإنساني بأسره من الوجهة الاجتماعية والصحية والخُلقية.

فالمرأة مثلاً لا تلبث حيناً حتى تقع في شباك الانحطاط الأخلاقي كما تغدو مصيبة لا يرغب أن يقترن بها إنسان، وفي ذلك ما فيه من إضرار بها وإلقائها في أحضان البؤس والفَاقة، وتركها في أيام كبرها فريدة لا تجد إلى جانبها ابناً يرحمها أو بنتاً تعطف عليها وكذلك حال الرجل.

ولا تسأل عن حال الأولاد ـ إنْ قُدِّرتْ لهم الحياة ـ ناهيك عمَّا في كشف الحجاب من تقطيع لروابط أسرٍ كانت آمنة مطمئنة وإلقاء بذور البغضاء بين الزوج وزوجته وتفكيك وهدم العلائق الزوجية القائمة، وكذلك لبس الذهب والحرير وإشادة القصور والأبنية الفخمة إنما هو فساد، لأن الغني بعمله هذا إنما يستثير رغبة الفقراء إلى تقليده، وحيث إنهم ليس لديهم المال الكافي للقيام بمثل هذه المشاريع ينطلقون في إيذاء الخلق بالغش والتلاعب والكذب والخداع في المعاملة، ويسلكون السبل غير المشروعة في كسب المال، وكثيراً ما يقعون في الشح والبخل وحرمان ذوي القُربى وأصحاب الحقوق حقوقهم وما جرَّهم لهذا كله إلاّ الغني المفسِد.

ونعود الآن إلى الآية التي نحن بصددها فنقول: هذه الأمم التي ضرب الله تعالى بها الأمثال، ما جرَّ لها الهلاك والعذاب إلاَّ سيرها في طريق الفساد، لقد انطلق المترفون في الحياة الدنيا يقومون بالأعمال التي من شأنها إثارة سائر الطبقات، فأخرجوا النساء متزيِّنات مُتبرِّجات، وأشادوا القصور الشامخات، وبنوا الملاهي والمنتزهات، وقاموا بكل ما من شأنه أن يُثير الناس، وبذلك نشروا الفساد في البلاد، وذلك بعض ما نفهمه من كلمة:

{فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ} أي: جعلوه كثيراً، ولذلك أهلكهم الله تعالى قَطْعاً لأذاهم

وتطهيراً للأرض منهم. قال تعالى:

{فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ}:

وصب الشيء، أي: أنزله من أعلى إلى أسفل بقوة. يُقال: صبَّ فلان الماء، ويُقال: صبَّ الصقر على العصفور، أي: انقضَّ عليه من أعالي الجو انقضاضاً قوياً. وكذلك هؤلاء لما صبَّ الله تعالى عليهم العذاب لم يجدوا للخلاص طريقاً ولا إلى النجاة سبيلاً.

أما **السَوْط**: فهو المِقْرَعَة، أي: آلة الضرب، يُقال: ضرب فلانٌ الدابة بالسوط، والمراد بكلمة (**السَّوْط**) في هذه الآية الإشارة إلى ضعف الإنسان، وعدم احتماله ولو قليلاً من العذاب، فهؤلاء صبَّ الله عليهم سوطاً واحداً وشيئاً بسيطاً من العذاب، ومع ذلك فقد هلكوا عن آخرهم ولم يستطيعوا تحمُّل ما نزل بهم.

(**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**)[1].

أفتظن بعد ذلك أيها الإنسان المعرض أنك إذا طغيت وأفسدت في الأرض أنَّك تُعجز الله هرباً، أو أنك تجد إلى الخلاص سبيلاً؟

ثم بيَّن لنا تعالى أنه دوماً في مراقبة هذا الإنسان فقال تعالى:

{إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}:

والمرصاد: مصدر من فعل رَصَدَ، بمعنى راقب. فهذه الآية تقول:

إن مربّيك أيها الإنسان ومُمِدُّك بالحياة هو دوماً معك بصير بك، مراقب أحوالك

---

(١) سورة هود: الآية (١٠٢).

المراقبة التامة، فهو يسوق لك في كلِّ لحظة ما يناسب حالك، فإذا انتهى بك الأمر بأن وصلتَ إلى درجة لا تُفيدك معها الإنذارات ولم يبقَ لك طريق للشفاء، فعند ذلك يحلُّ بك الهلاك ويحيق بك سوء العذاب.

وقد أراد تعالى أن يبيِّن لنا سبب إعراض هذا الإنسان عن خالقه، وعدم معرفته بربه تلك المعرفة التي تخلع عنه هذه الصفة الحيوانية، وتجعله إنساناً حقاً، مُصلحاً غير مفسد، سعيداً غير شقي، ولذلك قال تعالى:

{فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ}:

ولفهم هذه الآية لا بدَّ من شرح مفرداتها فنقول:

ابتلاه: مأخوذة من الابتلاء، وهو الاختبار وإظهار حقيقة الشيء، نقول: ابتلى الله فلاناً بهذا المال، أي: أعطاه إيَّاه ليُظهر حاله وما انطوى في نفسه من بخل وشحّ وحرص على الدنيا، أو سخاء وحب للبذل والمعروف والإحسان، ونقول: ابتلى الله هذا الرجل بهذه الوظيفة، أي: ولاَّه إيّاها ليُظهر ما في نفسه من حبٍّ للجاه والسيطرة والشهوات الكمينة أو ما استقر فيها من عواطف الرحمة والإنسانية والغيرة على مصالح الخلق، واغتنامها فرصة لنصرة من لا ناصر له ولا معين، وهكذا فالله تعالى إنما يبتلي الإنسان بهذه الدنيا، وكل امرئ مهما أخفى وأبطنَ لا بدّ له من ساعة تظهر فيها حقيقته وتبدو كوامن نفسه.

أما كلمة (**أكرمه**): الواردة في هذه الآية فهي مأخوذة من الإكرام، وهو العطاء الكامل الخالي من الشوائب من صحة ومال وطعام وشراب ومسكن إلى غير ذلك من أنواع العطاء.

وكلمة (**نعَّمه**): أي جعل فيه قابلية التذوُّق والتلذُّذ بما أكرمه به ربُّه.

فالله تعالى خلقَ الفواكه اللذيذة، وأعطى الإنسان لساناً يتنعَّمُ به بطعوم تلك الفواكه، وخلق الأزهار العطرة وأعطاه شمّاً يتعرَّف به إلى هذه النعمة، وهكذا أكرم الله تعالى الإنسان بأشياء لا تعدُّ ولا تحصى، وجعل فيه ذوقاً ليتمتَّع ويتنعَّم بها، وقد أراد تعالى بهذه الآية الكريمة أن يلوم الإنسان المعرض على عدم تقديره ذلك الإكرام وتلك العناية الإلهية، فأورد الآية في صيغة الاستفهام ليتساءل الإنسان بنفسه ويختبر ذاته بذاته فيعرف حاله ودرجته من تقديره لإحسان ربه، فهذه الآية تقول: انظر أيها الإنسان لنفسك إذا ما ابتلاك ربك بأن ساق لك الإكرام والنعمة فهل أنت ممَّن يقدِّر نعمة هذا الرب الكريم! وهل تعرف أن مصدر هذا العطاء كله من الله؟ وهل أنت حين تشرب الماء، هل أنت حين تتناول الفاكهة والغذاء، هل أنت حين تدخل الدار وتأوي إلى الفراش. هل أنت حين ترى حولك الأهل والأصحاب، هل أنت حين تسير بالطريق وترى العاجزين والفقراء ومن هم دونك منزلة في هذه الحياة. هل أنت حين تدخل عملك وتجلس وراء منصَّتك. هل أنت في جميع هذه الأحوال وما شاكلها ممَّن يذكرُ نعمة الله عليه ويقدِّر إكرام ربه وإحسانه إليه، هل تقول:

ربي أكرَمني بهذا! وما ذلك إلاَّ من رحمته بي وفضله عليَّ. وبعد أن بيَّن لنا تعالى أنه إنما يبتلي الإنسان في الدنيا وما فيها من المتعة والنعيم، أراد أن يبيّن لنا أنّه إنما يبتليه أيضاً بما يسوقه له من الشدائد التي تكون سبباً في طهارة نفسه، فقال تعالى:

{وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ}:

وقَدَرَ عَلَيْهِ: أي: ضيَّق عليه. **ورِزْقَهُ**: أي ما تفضَّل به عليه من العطاء: فالصحة والمال والجاه والسلطان كل ذلك رزق من الله، فهذه الآية تقول: فإذا ما ابتلاك الله

بأن زوى عنك شيئاً من عطائه فأنزل بك المرض أو الفقر أو الذل أو سلب السلطان أو غير ذلك من صنوف التضييق والبلاء، الذي يكون سبباً في رجوعك إلى الحق وخروج ما استقر في نفسك من الخبث والشهوة المهلِكة، هل أنت ممَّن يتعرَّف إلى المصدر الذي جاءت منه هذه الشدة ويستيقظ من غفلته؟ هل أنت في هذا الحال ممّن يرجع إلى ربه فيقول: ربي أهانني ليبعدني عن هذا الضلال الذي أنا فيه، ويردَّني عن ذلك الطريق المنحرف الذي يعود عليَّ بالشرِّ والهلاك؟

وهكذا، فالله تعالى إنما يبتلي الإنسان بالعطاء والإكرام تارة، كما يبتليه بالتضييق والمنع تارة أخرى، فإذا أنت اختبرت نفسك وطبَّقت هاتين الآيتين السابقتين عليها فوجدتها في حالة النعمة ممّن لا تقول: ربي أكرمني، وفي حال الشدة والتضييق ممّن لا تقول ربي أهانني، أي: إذا كنت لا تعرف المعطي والمانع ولم تُشارف نفسك بعد منازل الإيمان الصحيح، ذلك الإيمان الذي يرى معه المؤمن أن السير كله بيد الله، وأن لا إله إلا الله، فاعلم أن السبب في عدم وصولك لهذا الإيمان إنما هو قصور همَّتك وتقاعسك عن فعل الخير. وقد أراد تعالى أن يبيِّن لك ذلك فقال:

{كَلاَّ بَل لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ}:

وكلمة (**كلا**) هنا تفيد النفي، أي: أنكم لا تقولون ذلك، ثم بيَّن لنا تعالى السبب الباعث إلى عدم الإيمان فقال تعالى: **{بَل لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ}**.

واليتيم: كل منقطع لا ناصر له ولا مُعين، أي: أنكم لا تفعلون الخير فلا تساعدون ولا تعطفون على اليتيم.

{وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}:

أي: لا تُحمِّلون أنفسكم ولا تحثُّونها على طعام المسكين، **والمسكين:** هو الفقير العاجز الذي أقعده عن الكسب المرض أو الشيخوخة، فهذه الآية والتي قبلها تُبيِّنان لنا أن عدم فعل الخير هو السبب في عدم الوصول إلى الإيمان الذي يتعرَّف به الإنسان إلى المانع المعطي المتصرِّف في هذا الكون، فالنفس إذا عُرِض لها عمل من أعمال الخير، وأحجمت عنه، ولم تُضحِّ بالمال الذي هو في نظرها غالٍ وثمين، لا تستطيع التوجُّه إليه تعالى، بل تجدها خجلى من ربها، محجمة عن الإقبال عليه. ثم بيَّن لنا تعالى أن عدم التضحية بالمال وعدم فعل الخير لا يقف بالإنسان عند هذا الحد من الشح والبخل، بل ينتقل به إلى حدٍّ أدنى وأحطّ، إذ يصبح متهالكاً على الدنيا، أكبر همّه جمعها ومنعها، ولذلك قال تعالى:

{وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً}:

والتراث: هو ما نراه من الثروة المتبادلة التي يتداولها الناس جيلاً عن جيل. وأما كلمة (**لمّاً**) فبمعنى: الجمع، تقول: لمَّ الله شعثَ بني فلان، أي: جمعهم، ويكون ما نفهمه من كلمة (**لمّاً**) الواردة في هذه الآية أنها تُفيد وصف الحالة النفسية لذلك الشخص المعرض الذي لم يطوِّع نفسه في عمل الخير، فقد أصبح في حرصه على الدنيا يودُّ جمع المال كله، والثروة المتبادلة بين أيدي الناس، وضمّها إليه، فلو استطاع وأمكنته الظروف لانتزع ما في أيدي الناس جميعاً، ولما أبقى في يد أحد منهم شيئاً. أقول: وهذا الحال أصبح من المشاهد المألوف في أيامنا الحاضرة، فالبائع يُريد أكل مال المشتري كله، والوارث القوي يسعى لأكل مال شركائه القاصرين، وكل امرئ يبذل جهده في أن يبتز من أموال الناس أكبر حدٍّ ممكن، سواء أكان ذلك من حلالٍ أم من حرام، وقد أراد تعالى أن يبيِّن لنا أن ذلك المعرض عن ربه المتهالك على جمع الدنيا لا يُشبع نهمه شيء، فمهما لمَّ ومهما جمع فهو يريد أن يجمع مثله، وفي نفسه

لو يستطيع لما أبقى في يد أحد شيئاً ولذلك قال تعالى:

{وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً}:

والجمّ: هو أخذ الشيء بكلّيته أخذاً لا يدع منه للآخرين قليلاً ولا كثيراً، فهذه الآية تقول: وقد أصبحتم بسبب إعراضكم عن الله في حال تُحِبُّون معها المال حبّاً يجعلكم تجمعون ما بأيدي الناس، وتتمنّون ألاَّ تبقوا في يد أحد منهم شيئاً، وإذاً فعدم فعل الخير يصل بأصحابه إلى الإعراض عن الله، ويجعلهم بمعزل عن الإيمان وهذا الإعراض يُشرِّب قلوبهم حب الدنيا والتهالك عليها. ثمّ إن الله تعالى أراد أن ينكر على هذا الإنسان عمله، وأن يردعه عن ذلك السير الدنيء الذي ينحطّ به ويصرفه عن تلك المنزلة التي هو جدير بها، وتلك المرتبة العالية التي خُلق من أجلها، ولذلك قال تعالى:

{كَلاَّ}: **وكلا**: كلمة ردع يُراد بها زجر المخاطب وردعه عن خطئه، فهذه الكلمة تقول: تجنَّب أيها الإنسان هذا السير المنحرف، وعُدْ عن خطئك فما خُلقت لتكون كالحيوان لا يهمُّك إلاّ أمر نفسك والاستئثار بما في أيدي الناس. فالإنسان الصحيح ليس هذا سيره، وما خُلق الإنسان في هذه الدنيا إلا ليفعل الخير ويكتسب حياته في خدمة أخيه الإنسان، ليكون في الآخرة من السعداء، فإذا أنت الآن لم تُصغِ إلى نصيحة ربِّك وأمره، وإذا أنت لم تسلك الطريق التي رسمها لك، وبيَّنها على لسان رسوله، وإن أنت لم تصدِّق ولم تؤمن بذلك كله، فستندم حين لا ينفعك الندم وسترى عظيم خسارتك في ذلك اليوم الذي ستقف فيه للحساب بين يدي ربك، ولذلك قال تعالى:

{إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً ۞ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ۞ وَجِاْئ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ۞ يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي}:

ولفهم معنى {**إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً**} نقول: دكُّ الأرض: هو جمع أجزائها فوق بعضها بعضاً مأخوذة من الدكِّ، وهو تسوية الشيء وخلطه ببعضه، فبعد أن تُزلزل الأرض زلزالها، وبعد أن تبسط وتخرج أثقالها، وبعد أن يتم خروج الناس منها، وتنتهي وظيفتها، تُدكُّ أي: تُجمع على بعضها بعضاً.

دكّاً: أي: جمعاً تامّاً، **دكّاً**: أي لا رجعة لها بعده أبداً. ثم ذكر لنا تعالى ما يعقب ذلك فقال: {**وَجَاءَ رَبُّكَ**}: مجيئاً لا زمانياً ولا مكانياً، فإنه تعالى منزَّه عن المكان والزمان، لكن هذه الكلمة تعني: أنه تعالى شهيد عليك وعلى كل عمل تعمله الآن، فإذا كان ذلك اليوم فعندئذٍ يأتيك ربك بأعمالك ويُطلعك على ما كسبتْ يداك في دنياك، وهي من جهة ثانية تعني أنه يجيئك بما يلزمك من ضروريات المداواة ومن ذلك قولهم: جاءنا الرسول بالهدى، وجاء الطبيب بدواء مفيد. أما كلمة {**وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً**}: فإنما تعني أن الملائكة على أقسام ولكل قسم منهم وظيفة ومهمة فإذا جاء ربك بعملك، وأطلعك عليه، وجاءك بما يكون دواءً لعللك وأمراضك. كانت الملائكة ساعتئذٍ صفوفاً، كل صف مخصّص بأمر من أمور مداواتك وناحية من نواحي معالجتك.

{وَجِاْئ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ}:

وجهنم هي دار المداواة في الآخرة، والمجيء بها كناية عن أن المجرم يومئذٍ يرى نفسه في حال لا مناص له عن الدخول إلى جهنم والتداوي فيها، وحاله في ذلك اليوم كحال المريض إذا رأى المستشفى، علم ما سيكون عليه حاله فيها.

{يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى}:

ويَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ: أي: أنه إذا رأى " الحال المزري الذي وصل إليه والخسران الأبدي

والعار " ورأى النار فعندئذٍ يتذكر ما كان أخبره الرسول الكريم ﷺ عنها، ويتذكر نصيحة الله وما أرسله له من آيات بيِّنات. وأما كلمة (**وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى**): فإنما تعني أنه لا يفيده يومئذٍ تذكُّره شيئاً، فقد خسر هذا المسكين حياته وأضاع عمره الثمين سدى، وانقضت تلك الفترة التي كان يستطيع فيها أن يكتسب الخيرات، فلا فائدة له من هذه الذكرى.

{يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي}: وأنه يومئذٍ ليندم أشد الندم، ويتقطَّع قلبه حسرةً، إذ يرى أن الحياة الحقيقية هي الحياة الآخرة، غير أنه خسرها وما قدَّم لها شيئاً.

{فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ}:

أي: أنه في ذلك اليوم لا يعذِّبه أحد ذلك العذاب الذي يقع عليه، وإنما هو ذاته جرَّ العذاب لنفسه، فحسرته وخجله وأعماله الخبيثة التي تتراءى له تلذعه في قرارة نفسه لذعاً لا يطيقه ولا يستطيع أن يتحمَّله، ولذلك تراه يفرُّ إلى النار لينطرح فيها ليكون له من حريقها وعذابها سِتْرٌ عن آلامه النفسية.

أقول: وما مثل هذا الإنسان في ذلك اليوم إلا كمثل طفل نهاه والده عن مس شفرةٍ حادة مرهفة فعتا عن أمر والده وخالفه فيما نهاه عنه، وجعل يبري بها قلمه ظناً أن تلك الشفرة خير من المبراة التي نصحه والده أن يبري بها، وفيما هو على هذا الحال أخطأت الشفرة القلم على حين غفلة منه وذهب بأصبعه، فجعل يصيح ويستغيث ويستجير بوالده ليضمِّد له جرحه ويسعفه مما حلَّ به. أفتظن أن ذلك العذاب الذي حلَّ به في تلك الساعة أنزله به أحد؟ إنه لم يعذبه أحد ذلك العذاب، إنما هو وحده الذي جرَّ هذا الألم لنفسه، وما الألم الذي يشعر به ساعة التضميد والإسعاف إلاَّ مداواة، أقول: وهذا المثال الذي قدّمناه إنما قرَّبنا به وجه الحقيقة من الأذهان، والواقع

أبلغ من ذلك بكثير، ومن يعصِ الله ورسوله فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً وخسر خسراناً مبيناً.

وقد أراد تعالى أن يفصِّل لنا في وصف حالة ذلك التعيس الشقي فقال تعالى:

{وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ}:

والوثاق: هو ما يُشدُّ به من قيد وحبل ونحوهما، تقول أوثق الشرطي المجرم، وأوثق البيطريُّ الدابَّة ليتمكن من مداواتها، ويكون ما نفهمه من هذه الآية: أنه في ذلك اليوم لا يشد الوثاق على ذلك المسكين في النار أحد بل هو ذاته، يُوثق نفسه بنفسه، إذ يصبر على ألم الحرق، ويُرغم نفسه على تحمُّل العذاب ليتخلَّص مما هو فيه، وبعد أن وصف لنا تعالى حال العاصي يوم القيامة وما سيكون عليه وضْعه في النار، أراد تعالى أنْ يذكِّر الإنسان بالتوبة والرجوع وأن يحثه على اغتنام هذه الفرصة التي هو فيها الآن، فلعلّه يتخلّص مما سيحل به من شقاء، ولذلك قال تعالى:

{يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}:

ولنستطيع أن ندرك المراد من كلمة (**يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ**) نقول:

إذا نظر الإنسان إلى الناس الآن وجدهم منصرفين إلى الدنيا انصرافاً كليّاً، مطمئنين بهذه الحياة طمأنينة لا مثيل لها، يبنون الأبنية الفاخرة والقصور الشامخة، ويجمعون المال الكثير، ويؤسِّسون المصانع الضخمة، ولا يخطر لأحدهم على بال أن الموت واقف بالقرب من دارهم، وسرعان ما يطرق الباب، فهذه الآية **{يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ}** تقول:

يا أيتها النفس المطمئنة بهذه الحياة الدنيا وملذَّاتها المنصرفة إلى شهواتها ومسرَّاتها

اعلمي بعد هذه الدنيا أنك ستلقين يوماً ثقيلاً لا ينفعك فيه مال ولا بنون، وليس لك بعد هذه الدنيا من دار إلا الجنة أو النار فانتبهي من رقدتك، وأفيقي من نومك، وارجعي إلى ربِّك راضية مرضية.

والمراد بكلمة (**ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ**): ارجعي إلى دلالة مُمدّك بالحياة القائم عليك بالتربية، فإذا رجع الإنسان إلى دلالة ربه بأن نظر في نفسه وتركيب أعضائه وفكَّر في الكون ومخلوقاته فعندئذٍ تستعظم نفسه خالقها وموجدها، واستعظامها هذا يحملها على أن تستقيم على أوامره تعالى فلا تعود تفعل سوءاً، وتغدو محسنةً للمخلوقات كلها، وبذلك تصبح راضية عن أعمالها وذلك ما نفهمه من كلمة (**رَاضِيَةً**) كما تحصل لها الثقة بأن الله تعالى راضٍ عنها فتُقبل عليه، وذلك ما نفهمه من كلمة (**مَرْضِيَّةً**).

{فَادْخُلِي فِي عِبَادِي}:

فإذا سلكت النفس هذا السبيل وأقبلت على ربها واثقةً بأنها مرضية لديه اصطبغت منه تعالى بصبغة الكمال، وغدت رفيعة الصفات، وعندئذٍ تجدها تُحب أهل الكمال فتُحبّ مرشدها ودليلها إلى الله حبّاً حقيقياً لما تراه فيه من كمال، وتدخل هذه النفس بتلك النفس، وتشتبك بها اشتباكاً رابطته المحبة والتقدير، وبدخول هذه النفس في نفس مرشدها يحصل لها بالتبعية ارتباطٌ بنفس رسول الله ﷺ، وذلك ما نفهمه من آية: **{فَادْخُلِي فِي عِبَادِي}**.

{وَادْخُلِي جَنَّتِي}:

فإذا وصلت النفس لهذا الحال وارتبطت هذا الارتباط، فعندئذٍ يُوصلها ارتباطها إلى حضرة الله تعالى، وهناك تصبح مغمورة في جنة من النعيم بهذا القرب الإلهي، وذلك ما نفهمه من آية: **{وَادْخُلِي جَنَّتِي}**. ويمتد بها هذا النعيم إلى الدار الآخرة، فتدخل

جنة الخلد، وتخلد في ذلك النعيم الأبدي.

وإذاً فالرجوع إلى دلالة الله يُصلح عمل النفس ويجعلها راضية مرضية، وصلاح العمل وما يتبعه من الإقبال على الله يُوصل إلى الارتباط بأهل الكمال، والارتباط بأهل الكمال يُوصل صاحبه إلى الارتباط برسول الله ﷺ، والارتباط برسول الله يُوصل بصاحبه إلى حضرة الله، ومن دخل في حضرة الله فقد وصل إلى السعادة والنعيم، وذلك هو مراد الله تعالى من خلقه.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ)[١].

---

(١) سورة فصلت: الآية (٤٦).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ
نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ
طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ
يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا
لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ
مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ
إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى
ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ
أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾
فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا
حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَظِيمُ

تأويل سورة الغاشية

هذه السورة الكريمة تُريد أن تُذكِّر الإنسان بيوم القيامة، وأن تُبيِّن ما يكون عليه يومئذٍ حال الناس.

فالإنسان لا شك راجع إلى ربِّه، فإن كان مُسيئاً وقف يومئذٍ ذليلاً خاشعاً لما سيحلُّ به من العذاب، وإن كان مُحسناً وقف فَرِحاً ومستبشراً بما سينال من النعيم والإكرام، قال تعالى:

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ}:

والْغَاشِيَة: مأخوذة من غشى بمعنى: غطَّى. تقول: غشيت المريض بالثوب، أي: غطَّيته به، وهي مأخوذة من غشي، بمعنى حلَّ ونزل، تقول: غشيَنا البرد، وغشيَنا الخوف، أي: حلَّ بنا وأصابنا، ومنه أيضاً: أُغشي عليه، أي: فقدَ صوابه، تقول: أُغشي عليه من الألم فأصبح لا يعي شيئاً.

وعلى هذا **الْغَاشِيَة:** كل ما يحلُّ بالناس من الأمور الهامة العظيمة التي تُغطي النفس وتحيط بها فلا تكاد تفكِّر في شيء سواها، فالعاصفة في البحر تُنذر المسافرين بالغرق غاشية، والطوفان في البر وهجوم الأعداء على البلاد كل ذلك غاشية لأنه إذا حلَّ بالإنسان غطَّى النفس همُّه وشملها كربُه فأصبحت لا تكاد تفكِّر فيما سواه.

والمراد **بالغاشية** هنا: البعث والقيامة فهي غاشية لأنها تغشى الخلائق جميعاً من بدء الخليقة إلى آخر الدنيا فلا تغادر منهم أحداً.

وهي تغشى الناس بهولها فيذهل الإنسان وينسى كل شيء غيرها. وجاءت الآية هنا في صيغة الاستفهام تأكيداً للمعنى وتقريراً للواقع في نفس الإنسان وبياناً لشأن ذلك

اليوم العظيم.

ويكون ما نفهمه من آية: **{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ}**: أما علمت بخبر ذلك اليوم، أما جاءك حديث الغاشية (الواقعة) التي تشمل الخلْق جميعاً فتذهل لها نفوسهم، أفلا تفكِّر في ذلك اليوم الذي لا مفرَّ منه فتستعدّ له منذ الآن.

ثم بيَّن تعالى حال الناس في ذلك اليوم، وذكر لنا أولاً حال أهل الأعمال الرديئة فقال تعالى:

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۞ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۞ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً ۞ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۞ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ ۞ لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ}.

ونبدأ بآية: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ}** فنقول:

الخاشعة: هي الذليلة الخاضعة، تقول: خشع بصر فلان، أي: ذلَّ وانكسر، وخشع صوته أي انخفض.

{عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ}:

والناصبة: مأخوذة من نَصَبَ، أي: رفع وأقام. نقول: نصب الشجرة، ونصب الجدار، أي: أقامه.

فهذه الأنفس عملت أعمالاً في الدنيا، وهي الآن ناصبة أعمالها أمامها لا تغيب عنها، ولكن لماذا تقف خاشعة منكسرة، إنها تقف في هذا الحال لأنها ترى ما سيحلُّ بها وما هو معدّ لها، فهنالك النار تنتظرها والماء الحار الشديد الغليان شرابها، والضريع طعامها، ومن كانت هذه الأشياء أمامه أفلا يقف خاشعاً ذليلاً وخاضعاً منكسراً. فهي إذاً خاشعة لأنها ستصلى ناراً حامية ولذلك قال تعالى:

{تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً}:

وتصلى ناراً: أي: ستُحرق وستُشعل بنار حامية.

{تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ}:

والعين الآنية: هي الحارَّة الشديدة الغليان.

{لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ}:

والضريع: فيها معْنيان اثنان: الضرُّ: وهو التألُّم، والضراعة: وهي الدنو من الشيء والنزول إليه.

فذلك الطعام الذي يتناوله أهل النار مؤلم كريه تعافه الأنفس، لكنهم مع ذلك الألم وتلك الكراهية نازلون بنفوسهم إليه لأنهم مضطرون إلى تناوله ومثلهم في ذلك مثل المريض المضطر إلى تناول العلاج الكريه.

{لاَ يُسْمِنُ}:

إذ السِّمَنُ لا يكون إلا بعد ذهاب العلَّة والتخلُّص منها، وذهاب العلّة والشفاء منها لا يكون إلا بالإقبال على الله، إذ أن نوره تعالى هو وحده الذي يشفي النفوس المريضة من العلل، ولذلك تجد هذا الطعام لا يُسمن لأنه لا شفاء فيه وما هو إلا تسلية يتسلَّى به أهل النار عما يجدونه من الآلام.

{... وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ}:

ولا يغني: أي: لا يدفع ولا يُخلِّص من الجوع ذلك لأنه لا غذاء فيه. ثم بيَّن تعالى حال أهل الجنة في ذلك الموقف العظيم فقال تعالى:

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ}:

أي: مُتنعِّمة. ولكن ما السبب في ذلك! لقد بيَّن لنا تعالى السبب بقوله:

{لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ}:

أي: لما قدَّمته في دنياها من الأعمال الصالحة أصبحت راضية. إذ أن ذلك العمل سيعود عليها بالجنة العالية. قال تعالى:

{فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ}:

وهنا لا بدّ لنا من أن نبيِّن حال أهل الجنة ونعيمهم فيها لنتعرَّف إلى كبير فضل الله تعالى على الإنسان وعظيم نعمته فنقول:

الإنسان كما ذكرنا من قبل مؤلَّف من **نفس وروح وجسد** وقد بيَّنا أن النفس هي العنصر الأساسي في الإنسان وأنها هي التي تتنعَّم وتتألَّم وهي التي تتذوَّق الأشياء وتتمتَّع بما فيها من ملاذّ. لكن النفس في هذه الدنيا محبوسة في الجسد محاطة به فلا تدرك من الأشياء إلاّ صورها ولا تتمتع بلذائذها إلا بواسطة الحواس ومن وراء حجاب بخلاف ما هي عليه الحال في الآخرة.

ففي الآخرة تصبح النفس لابسة الجسد محيطة به من جميع جهاته كما يحيط لهب الشمعة بفتيلها من كل جهة، فإذا تصوَّرنا فتيل الشمعة جسداً كان اللهب والنور نفساً.

والنفس في الدار الآخرة لا تعود تُبصر بواسطة العين، وإنما تصبح كلها عيون، وهي لا تعود تسمع بواسطة الأذن، بل كلها آذان، وكلها ذوق، وكلها شمّ، وكلها نطق، ذلك هو حال النفس يومئذ، وهي في مثل هذا الحال أكبر نعيماً مما هي عليه في الدنيا،

فإدراكها الآن جزئي ومن وراء حجاب، وإدراكها يومئذ بصورة مباشرة.

فإذا أرادت النفس أن تنظر إلى شيء فلا تحتاج إذ ذاك إلى عين، وإذا أرادت أن تتناول طعاماً فلا تحتاج إلى فم ومضغ وأسنان، بل تسري أشعتها إلى الشيء، فتتذوَّق ما فيه، وتتمتَّع بما يحويه من اللذائذ، وتتوصل إلى ما انطوى عليه من ذوق من غير ما حاجة إلى مضغه وتقطيعه بالأسنان، ونعيمُها والحالة هذه أوسع من نعيم الدنيا ولا يماثله.

ففي الدنيا سرعان ما يشبع الإنسان، أما في الآخرة فليس يمنع النفس مانع من التمتُّع والتلذذ بالشيء بصورة مستمرة قال تعالى:

(**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا..**)(١)

(**وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۞ لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ**) (٢).

وكذلك تمتُّع الإنسان بزوجته في الجنة إنما هو تمتُّع نفسي، فنفس الإنسان تسري إلى نفس زوجته وتتمتع بها تمتُّعاً دائمياً في شهود وهي دوماً في لقاء.

وبناءً على ما قدَّمنا لا يحتاج الإنسان في الجنة إلى سرير ينام عليه إذ أن جسمه لا يتعب ولا يحتاج إلى نوم، وهو لا يحتاج إلى كوب يشرب فيه، إذ الجسم لا يشرب، ولا إلى وسادة يتكئ عليها، وكل ما في القرآن من آيات وردت بهذا المعنى إنما تدلُّك على خصائص الأشياء وحقائقها وما يتوصَّل الإنسان إليه من النعيم بواسطتها.

ونعود الآن إلى قوله تعالى: **{فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ}** فنقول:

---

(١) سورة الرعد: الآية (٣٥).

(٢) سورة الواقعة: الآية (٣٢-٣٣).

الجنة: تعني ذلك الموضع الذي ينعم فيه الإنسان نعيماً نفسياً مستوراً عن الآخرين، فلكل امرئ في الجنة نعيم خاص به ـ على حسب ما قدَّم في دنياه من أعمال ـ مستور عن غيره فلا يطَّلع عليه أحد.

والعالية: هي الرفيعة الشأن التي ليس لها نهاية.

{لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً}:

أي: لا تسمع فيها كلاماً باطلاً.

{فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ}:

والمراد **بالعين** هنا: النفس. فالنفس في الجنة كلها كما ذكرنا عين وهي دوماً جارية متنقلة في النعيم لا تتوقف لحظة، بل تنتقل من حسن إلى أحسن ومن جميل إلى أجمل.

{فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ}:

والسرر: جمع سرير وهو ما يستلقي عليه الإنسان ابتغاء الراحة. وليس المراد بالسرير هنا ذلك السرير المعروف الآن، إنما المراد به الأشياء السارَّة التي تتكئ عليها الأنفس في الوصول إلى النعيم.

والمرفوعة: هي العالية الشأن التي ترفع النفس من حسن إلى أحسن.

{وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ}:

والكوب: هو الإناء فيه الشراب اللذيذ يشربه الإنسان، والمراد به هنا الأشياء التي تنكب عليها النفس لما فيها من لذة.

وكلمة **موضوعة:** تعني: الاشتهاء الدائم. **فالكوب الموضوع** يعني: أن الإنسان في الجنة متمتع بصحته يستطيع التمتُّع الدائم بما يوضع بين يديه من الأشياء السارَّة.

{وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ}:

والنمارق: مأخوذة من النَّمِرة، وهي الرداء والشملة المخططة الجميلة، ومن النمير أيضاً وهو الماء الطيب. والمراد **بالنمارق** هنا: الأشياء الحسنة الطيبة المشتهاة.

والمصفوفة تعني: المتتالية واحدة بعد واحدة، فالنفس تمر إليها وتسير متنقلة من واحدة إلى واحدة أحسن.

{وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ}:

وزرابي: مأخوذة من زَرَبَ، أي: جمع، ومنه زريبة الغنم، ولكن المراد بها هنا الأشياء الجامعة للملذات والسرور.

والمبثوثة: هي المنتشرة. فسرور هذه الأشياء يسري في جميع النفس، وينبثُّ فيها فلا يفارقها، وبكلمة موجزة نقول:

نعيم الإنسان في الجنة كله حقائق، فالرمَّان الذي يُقدَّم لأهل الجنة يشمله الوصف المذكور في الآيات السابقة كلها: السرور والأكواب والنمارق والزرابي. ففيه **سرر**، أي: سرور، **وأكواب**، أي: تنكب النفس عليه، ونمارق، أي: هو طيب حسن تمرُّ إليه النفس، **وزرابي**، أي: جامع للذائذ وتجتمع لذائذه في النفس وتنبث.

وكذلك التمتُّع بالنساء وغير ذلك حقائق، والتمتُّع فيها دائم لا ينقطع فسبحان الكريم المتفضل وما أسعد حال أهل الجنة في الجنة.

وبعد أن ذكر لنا تعالى حديث الغاشية وعرَّفنا بما يكون عليه حال أهل الشقاوة وحال

أهل الخير والسعادة. أراد تعالى أن يقرِّر ذلك في نفوسنا وأن يثبت هذه الحقائق في قلوبنا، فساق لنا طائفة من الآيات الدالّة على عظمته وبديع خلقه فلعلنا إذا نحن فكَّرنا بها ونظرنا فيها نظرة تدقيق وإمعان اهتدينا منها إلى خالقنا فعظَّمناه وقدَّرناه وأذْعنَّا لكلامه فسِرْنا في الطريق التي نصِلُ منها إلى السعادة، وذلك كل ما يريده الله لنا وفي ذلك وحده رضاه ولذلك قال تعالى:

{أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}.

ونبدأ بآية: **{أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}** فنقول:

الإبل: هي الجمال، والمراد بالنظر إلى الإبل النظر المقْرون بالتفكير والتقدير وبهذا النظر يتميَّز الإنسان عن الحيوان.

فالحيوان ينظر، والإنسان ينظر، لكن نظرة الحيوان لا تعدو ظاهر الشيء، ولا تنفذ إلى معرفة خصائصه ولا تنتقل إلى كيفية خلْقه. فإذا نظر الدب لعنقود العنب نظر إليه نظرة سطحية فهو لا يفكِّر في كيفية خروجه من جذع أمه الخشبي الصلب ولا في نمائه التدريجي، وهو لا ينظر إلى تلك الكيفية التي تمَّ بها تلقيح أزهاره ولا إلى تحوُّل طعمه من حامض إلى حلو ولا إلى ذلك التلوين الذي يدل على استوائه ونضجه، وهو لا يفكِّر في ترتيب حياته ولا في ذلك الورق الذي يحيط به ليساعد على نضجه ولا في غير ذلك من العوامل التي تعمل كلها على تهيئته وتحضيره، وكل ما في الأمر أنه ينقضُّ على كروم العنب ويفتك بها ولا ينظر إلى العنقود إلا أنه مادة تُؤكل.

ذلك هو الفرق بين نظر الإنسان ونظر الحيوان، ولذلك تجد الحيوان بعدم تفكيره لا يستطيع أن يتوسَّع في معرفة ربه ولا أن يُدرك من جلاله وعظمته ما يدركه الإنسان،

ولذا تجده ثابتاً على طور واحد لا يتعدَّاه، وهو لا يخرج عن أنه حيوان.

وإذاً، فالنظرة إلى الأشياء تختلف من شخص إلى شخص، وكلما كان الإنسان أكثر تفكيراً كان أكثر تعظيماً لخالقه وتقديراً.

وإذا نظر الإنسان إلى الأشياء نظرة سطحية كنظرة الحيوان الأعجم فهو أشبه به لا بل أحطّ منه، قال تعالى:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾(١).

وقد جلب الله نظر أولئك المعارضين لرسوله إلى الإبل فلعلَّهم إن فكَّروا قدَّروا وعرفوا.

وبالحقيقة لو نظر الإنسان إلى الجمل لوجد فيه من حكمة الخلْق ودقّة الصنع ما يدلّه على خالقه العظيم وموجده الحكيم.

فالإنسان لا يستطيع أن يحمل متاعه على الجمل وهو واقف لعلوِّ جثة الجمل وقصر الإنسان عنها، ولذلك تجد الجمل يقْعُد على الأرض خلافاً لغيره من حيوانات الحمل. ثم إن الجمل لو لم تكن له تلك الثفنات في صدره وقوائمه لمالَ جسمه ولما توازن على الأرض أثناء قعوده، ولو كان للجمل حوافر كحوافر الخيل بدلاً عن الأخفاف لما استطاع النهوض بحمله الثقيل، ولما تمكَّنت قوائمه من الأرض عند النهوض والقعود.

أما الرقبة الطويلة المنحنية فبها يستطيع النهوض والقعود، وهي له أشبه بذراع القبَّان، ورأسه الثقيل أشبه ببيضة القبَّان يقرِّبه نحو جسمه أو يمدُّه إلى الأمام فيحصل التوازن ويتمّ له النهوض والقعود حسبما يريد.

---

(١) سورة الأنفال: الآية (٢٢).

وإذا نظرتَ إلى أخفاف الجمل الواسعة المستديرة تجلَّت لك حكمة الله في خلقه فهي تساعده على السير في الرمال، وهي خير معين له على حمل جسمه الثقيل، ولو أنها كانت صغيرة كأرجل الخيل لما تمكَّنت قوائمه من حمل جسمه ولتعثَّر في سيره فسقط على الأرض.

أما سنامه ففضلاً عن كونه سبباً لتوازن الحمل على ظهره فهو يخزِّن فيه شحماً يساعده على السير في الصحراء كما تساعد بعض الأجواف التي في بطنه على خزن الماء أياماً عديدة، ولذا تجده صبوراً على الجوع والعطش.

على أن هذه النواحي التي تكلَّمنا عنها ليست إلا طرفاً يسيراً من حكمة الخلق في هذا الحيوان. فإذا نظرت فيها نظرة تفكير وتبصُّر استدللت على خالق عظيم ومدبِّر حكيم وإله قدير.

ثم لفت تعالى نظرنا إلى آية أخرى فقال:

{وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ}:

والسماء: هي ذلك السقف الذي يحيط بالأرض من جميع الجهات وما تشتمل عليه من شمس وقمر ونجوم وجاذبيات.

فانظر أيها الإنسان إلى هذه السماء، ما الذي يحملها وأنت ترى أنه لا يمسكها عمد ولا جدار، ثم انظر إلى النجوم اللامعة فيها والتي يفوق حجم كل واحد منها حجم الأرض بآلاف المرات، كيف هي تسبح في هذا الفضاء وليس يربطها ببعضها سلاسل ولا أسلاك. فكِّر في هذه القوى والجاذبيات التي تربط بعض النجوم ببعض فإذا هي متماسكة مترابطة وبين كل نجم ونجم آلاف السنين الضوئية والأعوام.

فكِّر أيها الإنسان في السماء، هل تستطيع أن تقوم بذاتها؟ أليس لها خالق عظيم أوجدها ورفعها. ثم فكِّر في النجوم أليس لها من إله نظَّمها أليس لها من ممدٍّ يمدُّها بالنور والقوة والحياة، فإذا هي تسطع لا يطفئها مرور السنين ولا يضعف من نورها وقوَّتها كرُّ العصور والأجيال.

{وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ}:

ونصب الشيء: رفعه وأقامه ووضعه وضعاً ثابتاً. فانظر أيها الإنسان إلى الجبال من الذي وضع فيها ما وضع من أتربة ورمال وأحجار. من الذي جمع كتلتها بعضها إلى بعض فإذا هي متماسكة الأجزاء والذرات! من الذي رفعها عن سطح الأرض فإذا هي عالية ذاهبة في الفضاء! من الذي أرساها في الأرض ووضعها هذا الوضع الثابت فلا تتحرك ولا تضطرب ولا يؤثِّر عليها سير الأرض ولا دورانها! أفلا تفكِّر في الجبال وعظَمتها وشموخها وتُعظِّم خالقها الذي أوجدها على هذا الحال ومنحها هذه العظَمة!

{وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}:

وسَطَحَ الشيء: بسطه. يُقال: سَطَحَ الناقة، أي: أناخها، وسَطَحَ التمر أي: بسطه على الأرض. فمن الذي بسط لك الأرض وجعل لها هذا السطح الممهَّد. من الذي نظَّم هذه الطبقات الترابية بعضها إلى جانب بعض فإذا هي قابلة للفلاحة والزراعة.

من الذي خلق لك هذا التراب وجعل فيه ما جعل من مواد. من الذي نظَّم لك ينابيع الماء ووزَّعها بكل قرية وجزيرة وبلدة ومكان فلم ينسَ من فضله أحداً، وجهَّز الأرض بكل ما تحتاج إليه في الحياة. أفليس في الإبل والسماء، أليس في الجبال والأرض آيات دالَّة على خالق عظيم خلقك وتفضَّل عليك! أفلا تفكِّر في قدرته

وعظمته، أفلا تفكِّر وتتذكر شيئاً من فضله وإحسانه فتصغي إلى قوله وتستمع إلى نصحه!!!

وبعد أن ذكر تعالى لنا ما ذكر من الآيات الدالّة على خالق الأرض والسموات خاطب رسوله الكريم ﷺ بقوله:

{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}:

والتذكير: هو أن يرى الإنسان شيئاً أو يسمع قولاً فيتذكر شيئاً آخر كان عرفه من قبل.

فقد ترى الأم شخصاً مشابهاً لولدها الغائب وهنالك تتذكر ولدها. وقد يمر شخص أمام مستشفى كان قد أجرى فيها عملية فتذكِّره رؤيته لهذه المستشفى بالعمليّة التي كان أجراها، أو يَسْمعُ قولَ متحدثٍ يربط نفس الإنسان بمشهد من رؤية كان قد شاهدها أثناء نومه فتكُرُّ سلسلةُ مشاهدةِ الرؤيا التي كان قد طواها النسيان وما كان ليتذكَّرها أبداً، فإذا به قد تسلْسَلت الرؤيا بأكملها بنفسه وانطبعت بذاكرته " والشيء بالشيء يُذكر " ولولا ورود هذه الكلمة المتعلِّقة بجزء من الرؤيا لما تذكرها أبداً.

وهكذا فالله تعالى يأمر رسوله الكريم ﷺ أن يذكِّر الناس، أي: أن يذكِّرهم بما رأوا من المخلوقات كالنظر إلى الإبل كيف خُلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نُصبت وإلى الأرض كيف سطحت فلعلَّهم إذا نظروا إليها نظرة مقرونة بالتفكير الدقيق قادهم ذلك إلى الإيمان بالخالق وعظمته وتقدير نعمته وإحسانه. ولكن ماذا يولِّد هذا الإيمان بالخالق؟

إنه يولِّد الخشية من الله، ويصل بالإنسان إلى الإيمان باليوم الآخر، يوم الجزاء على

الأعمال. وبهذا الإيمان يستسلم الإنسان إلى خالقه، ويُذعن لأوامره، فيصبح مسلماً حقّاً، وبهذا الإسلام تطمئن النفس بعملها وتثق برضاء الله عنها، فتُقبل على الله في صلاتها، وبهذا الإقبال تتذوق الرحمة والعدل الإلهي، كما تتذوق العظمة الإلهية التي كانت آمنت بها إيماناً فكرياً، وهنالك تتذكَّر ما كان انطبع فيها من قبل.

وهكذا تتنقَّل النفس من تذكُّر إلى تذكُّر أعلى والفضل في ذلك كله يعود إلى ذلك الرسول الكريم ﷺ وما يتذكَّر إلا من يُرجع البصر إلى الأشياء بالتفكير والتدقيق، وما يتذكَّر إلا من يُنيب.

{لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ}:

وسيطر: مأخوذة من سَطَرَ، بمعنى قطع، تقول: سطر بالسيف، أي: قطع به، وسطر فلان فلاناً، أي: صرعه وسيطر عليه، أي تسلَّط وقطعه عما هو فيه. فنفس الإنسان مطلقة والله تعالى منحها حرية الاختيار، فلا يستطيع أحد أن يسيطر عليها، أي: أن يقطعها عما هي فيه، فإذا هي لم تفكِّر من تلقاء ذاتها بآيات الكون، وإذا لم تهتدِ بتفكيرها إلى خالقها العظيم، فلا يمكن أن تخشاه ولا أن تخافه، وليس يستطيع أحد أن يسيطر عليها فيمنعها ويقطعها عما هي متعلِّقة به ومنصرفة إليه.

فائدة: وإذاً فما الأنبياء والمرسلون ولا العلماء والمرشدون بقادرين على هداية أحد ما لم يصغِ هو بذاته ويفكِّر فيما يسمعه من آيات الله، ولو ذكَّروه مئات السنين قال تعالى:

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (١)

(١) سورة القصص: الآية (٥٦).

فإذا فكَّرت أيها الإنسان وشِئتَ الهداية توصَّلت إلى الإيمان واهتديت بنور الله، وإن لم تشأ ذلك لنفسك فليس أحد بقادر على هدايتك.

ثم بيَّن الله لرسوله ما يجب أن يقوم به تجاه أولئك المعرضين، فقال تعالى:

{إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ}:

وتولَّى: أي: أعرض عن الله، **وكفر**: أي: أنكر نعمة الله تعالى. فالذي تولَّى وكفر لا بدّ وأن يوقعه عماه وإعراضه في المهالك وسيُسبِّب له كفره الوقوع في الأعمال الخبيثة.

والرسول وإن كان لا يستطيع أن يحوِّل نفس الكافر عن غيِّها لكنه مأمور بأن يمنعه من إيذاءِ غيره، وذلك بأن يضرب على يديه ويقيم الحدَّ عليه. أقول:

وهذه الآية الكريمة تبيِّن لنا مشروعية الجهاد وسبب الاسترقاق وفرضه ﷺ الجزية، إلى غير ذلك من الوسائل التي تحدُّ من أذى الكفّار وفسادهم في الأرض، فالأخ الرشيد العاقل له الولاية على أخيه الجاهل، وله أن يُغلظ عليه حبّاً به ونفعاً له وحرصاً على مصالحه، ثم بيَّن تعالى مصير ذلك الكافر بعد موته إذا هو استمرَّ على كفره فقال تعالى:

{فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ}:

أي: أنه سيلقى بعد دنياه هذه عذاب الآخرة ذلك العذاب الأكبر الذي لا نهاية لشدته.

{إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ}:

والإياب: هو العودة. تقول: آب من السفر، أي: رجع. فالله تعالى وهب الإنسان الاختيار وأرسله إلى الدنيا يختار ما يريد فإذا هو مات عاد إلى ربه فأخذ منه ذلك

الاختيار وساقه إلى ما يناسب حاله النفسي إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

{ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ}:

والحساب: هو إعطاء الحق وتوفية الجزاء والأجر على العمل. فالله تعالى يعطي يوم القيامة كل إنسان حقّه ولا يظلم مثقال ذرة. فاعمل ما شئت فإنك مجزيٌ به.

(**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ**)(١).

---

(١) سورة الزلزلة: الآية (٧-٨).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ
فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴿٥﴾
سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ
﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن
يَخۡشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ
لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ
فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ
هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلعَظِيمُ

تأويل سورة الأعلى

يريد الله تعالى في هذه السورة الكريمة أن يبيِّن للإنسان أنه إذا لم تحصل له الخشية من الله تعالى فلا يتذكَّر ولا تنفعه الذكرى، ثم لا يُفلح ولا ينال ما أعدَّ الله له من الخير، بل تراه يؤثر الحياة الدنيا غير مُبالٍ بما سيحلُّ به بعدها.

ولذلك ومن رأفة هذا الإله الرحيم بنا، العطوف علينا ساق لنا في مطلع هذه السورة بعض الآيات التي تولِّد في نفوسنا الخشية فلعلَّنا إذا نحن فكَّرنا بها خشينا ربنا فتذكَّرنا وأفلحنا ولذلك قال تعالى:

{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۞ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۞ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۞ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى}.

ونبدأ بآية: **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى}** فنقول:

سبِّح: مأخوذة من سَبَحَ بمعنى عام وانبسط وجرى جرياً شديداً، تقول: تسبح النجوم في الفضاء، وتسبح الأسماك في الماء، وسبحت الفرس في الفلاة. وكما يكون السبح جسدياً يكون نفسياً معنوياً. فالإنسان إذا رأى الشمس هذه الكرة الملتهبة ثم عرف أنها لم تزل مشتعلة متوهِّجة منذ آلاف السنين، فهنالك تستعظم نفسه الشمس وتسبح في عظمتها مفكِّرة مُتعجِّبة.

وإذا عرف أن النجوم اللامعة في الفضاء بين كل نجم ونجم منها ملايين السنين، وأنها على كبر حجمها وبعدها العظيم عن بعضها متجاذبة متماسكة، فإنه أيضاً يسْبح في هذه العظمة ويستغرق في التفكير بتلك القوة.

وإذا عرف أن النجم الذي يشغل من السماء نقطة صغيرة لو أمكن واستطاع إنسان

أن يمشي عليه لما كفاه خمسة ملايين سنة من الزمن، فهنالك يسبح في عظمة هذه السماء التي لا تستطيع النفس أن تدرك لها نهاية أو حدّاً وهكذا... فالسبح النفسي يكون عن طريق التأمُّل الدقيق في الأشياء، والله تعالى في هذه الآية إنما يأمر رسوله الكريم ﷺ أن يسبِّح الناس باسم ربه، أي يعرِّفهم بعظمة هذا الخالق وكبير شأنه لتسبح نفوسهم في تلك العظمة التي لا تتناهى، وتستغرق في تلك القدرة التي لا يستطيع الإنسان أن يحيط بها علماً أبداً.

وأما كلمة (**اسم**): فإنما تشير إلى أسمائه تعالى من: عظمة، وقدرة ورحمة ورأفة وحكمة وعلم وغير ذلك من الأسماء الحسنى.

وكلمة (**ربك**): تعني مربِّيك أي: ممدُّك بالحياة والوجود والقوة.

والأعلى: أي العالي الذي مهما أدركت من عظمته فهو أعظم وأعظم، ومهما أدركت من رحمته فهو أرحم وأرحم، ومهما عرفت من قوَّته فهو أقوى وأقوى، وهو في كل ما تدركه من أسمائه تعالى أكبر وأكبر، وأعلى وأعلى، ولا نهاية لكماله تعالى.

ويكون مجمل ما نفهمه من آية: **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى}** أي: عرِّف عبادي بما عرفته أنت من كمالات ربك تعالى ليُقبلوا على ذلك المربي العالي فتسبح نفوسهم في كمالاته التي لا تتناهى.

وقد أراد تعالى أن يبيِّن لنا الطريق إلى معرفة كماله فقال تعالى:

{الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى}:

فإذا أنت أيها الإنسان عرفت كمال الخلق انتقلت منه إلى معرفة كمال الخالق، وكلما ازداد تفكيرك واستعظامك للمخلوقات ازداد على هذه النسبة استعظامك للخالق

وتقديرك لجلاله وكماله. فالمخلوقات تهدي إلى الخالق، والكون يعرِّف بالمكوِّن.

وخلق: بمعنى أخرج إلى الوجود. **وسوَّى**: أي: جعل الشيء مستوياً لا نقص ولا خلل فيه.

وهكذا فكل ما في الكون جاء كاملاً تامّاً خالياً من النقص، وإنك إذا ذهبت تفكِّر في الكون: أرضه وسمائه، شمسه وقمره، جباله وأنهاره، بحاره وبحيراته حيوانه ونباته، وحوشه وحشراته رأيت كل ما فيه كاملاً، ومهما أرجعت البصر ودقَّقت لِتَجِدَ نقصاً، انقلب إليك البصر خاسئاً حسيراً.

ونقرِّب المعنى بمثال فنقول:

لو أن الشمس اقتربت من الأرض ميلاً بحال خروجها عن مدارها لأحرقت زروعها وحيواناتها والإنسان الذي عليها ولما أبقت على سطحها مخلوقاً حياً. وإذاً فالذي وضع الشمس في الفضاء سوّى وضعها فجاءت في مكانها المناسب من مدارها وكذلك القمر والنجوم كلها جاءت بالنسبة لمواضعها وبُعدها ونورها وأشعتها في أكمل وضع وأبدع نظام. ولننتقل الآن إلى الليل والنهار فنقول:

لو أن دوران الأرض حول نفسها كان سريعاً جداً بصورة يتجدد معها الليل ساعة بعد ساعة لما كفتنا ساعة نوم كما لم تكفنا ساعة العمل. ولو كان دورانها بطيئاً بصورة يستمر معها الليل خمسة أيام ثم يأتينا من بعده النهار فيدوم خمسة أيام أيضاً، لو كان ذلك لمللنا النوم والراحة في ليلنا كما مللنا العمل وأدركنا التعب في نهارنا. وإذاً فدوران الأرض جاء منظَّماً والذي خلق الليل والنهار هو الذي سوّى ذلك النظام فجاء كاملاً مناسباً.

وإذا أراد الإنسان أن يسرح فكره في الأشياء كلها وجد كل شيء من حيوان ونبات

أُعطيَ مناسباته، وإن هو فكَّر في نفسه وجد كل عضو في موضعه وبقدره المناسب، فلو زاد إبهام اليد في الطول عما هو عليه لما أمكنتك الأعمال، ولو قصُر عن وضعه الحالي للاقيت في أعمالك صعوبات، ولو لم تكن لك هذه الأصابع والسلاميات لما قمت بما تقوم به من أعمال.

وهكذا كل شيء جاء كاملاً، والذي خلق وأوجد الأشياء هو الذي سوّاها فجاءت كاملة دالة على كماله تعالى. ففكِّر في الأشياء دوماً تُهدَ إلى خالقك وتتعرَّف إلى كمالات ربك.

{وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}:

وقدَّرَ: أي: جعل لكل شيء قدراً مناسباً. تقول: قدَّر التاجر ثمن البضاعة، وقدَّر الرجل ما يلزمه من القمح للمؤونة.

والتقدير كما نرى لا يكون إلا من ذي خبرة ودراية، فالله تعالى الذي خلق المخلوقات المختلفة الأنواع قدَّر لكل نوع رزقه المناسب له وجعله بالقدْر الذي يحتاجه، وبالحقيقة ما من أمطار تهطل ولا نبات ينبت ولا رزق يخرج إلاّ بقدر معلوم، قال تعالى:

(وَإِن مِن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)(١).

ثم إن الله تعالى خلق المخلوقات وخلق لها أرزاقها المناسبة وعرَّف كل مخلوق برزقه وهداه إليه.

فالنحلة بمجرد ما تخرج من الخلية تجدها تسرع إلى الأزهار فتمتص ما هو مودع فيها

---

(١) سورة الحجر: الآية (٢١).

من الرحيق، ونقف الدجاج[1] لا يلبث أن يخرج من البيضة حتى يفتِّش في التراب باحثاً عن غذائه فيه، والمهر منذ خروجه من بطن أمه تراه يقفز إلى ثدييها فيمتص اللبن منها، وقد كان من قبل مغيَّباً عنه ولم يطَّلع عليه. فمن الذي هدى النحلة والنقف؟ أم من هدى المهر، لا بل من الذي علَّم الطفل الصغير الرضاع من ثدي أمه وامتصاص اللبن المودع فيه؟

ذلك هو الله تعالى الذي قدَّر لكل مخلوق رزقه المناسب له ثم أوجده ودلَّه عليه وهداه إليه.

{وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى}:

المرعى: هو كل ما يرعاه الحيوان ويتغذى به من الكلأ والنبات. فالله تعالى الذي قدَّر لك رزقك، والذي خلق الحيوان ليخدمك ويؤمِّن لك ما تحتاجه من غذائك تكفَّل الله لك أيضاً برزق هذا الحيوان عناية منه تعالى بك وتماماً لفضله عليك.

على أن هذه الآية إلى جانب ما تُذكِّرنا به من فضل الله علينا تُلفت نظرنا أيضاً إلى ذلك النظام الذي بموجبه يُخرِجُ الله تعالى المرعى.

فانظر أيها الإنسان إلى الرياح في عصفها وهبوبها، وإلى السحب في سيرها وتلبُّدها، وإلى الأمطار في هطولها، ثم انظر إلى الشمس في أشعتها وحرارتها، كل هذه العوامل إلى غيرها من العوامل الأخرى تكون سبباً في إحياء الأرض بعد موتها وخروج المرعى منها، وذلك بعض ما نفهمه من آيتنا السابقة.

{فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى}:

---

(١) نقف الدجاج: الصوص.

والغثاء: هو الجاف اليابس الذي ذهبت خضرته ونضارته. **والأحوى**: هو الحاوي للمواد اللازمة للتغذية.

فهذا المرعى الذي ينبته الله تعالى للحيوان إذا تمّ نضجه واجتذب المواد اللازمة واحتواها تراه يجفّ وييبس وفي ذلك ما يجعل الحيوان يستفيد منه أيام الصيف ويتغذى به.

{سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى}:

واقرأ: مأخوذة من قرأ، وقرأ بمعنى: ألقى النظر في الكتاب وطالعه. وأقرأه: جعله يرى ويشاهد ما في الشيء أو الكتاب من الحقائق.

والمراد بكلمة (**سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى**): أي: إنك أيها الإنسان إذا نظرت في هذا الكون نظرات المستبصر المتفكِّر وقدَّرت خالقك فهنالك تُقبل نفسك عليه مستعظمة، وبهذا الاستعظام والإقبال يُقرئك ربُّك أي يُشهدك بنوره تلك الآيات الدالّة على عظمته تعالى فترى حقائقها ولا تعود تنساها.

{إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى}:

فأنت لا تنسى ما رأيته ويظل ظاهراً لنفسك ما دامت مقبلة على ربها، فإن أنت انقطعت عنه تعالى عميت نفسك ولم تعد ترى شيئاً، فأنت مفتقر إلى ربك دوماً فلا تنقطعنَّ عنه أبداً.

والمراد بكلمة: (**إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى**): أي: أنه تعالى مطَّلع على علانيتك وسرّك فاجعل سرّك مطابقاً لعلانيتك فإن كنت صادقاً في طلبك أشهدك ربك ما تريد معرفته.

{وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى}:

وَنُيَسِّرُكَ: مأخوذة من يسَّر. تقول: يسَّر الطريق لفلان أي: سهَّله له ووفَّقه له. **واليسرى:** مؤنث الأيسر. والمراد به الأسهل والأهون الذي فيه اليسر. ويكون مجمل ما نفهمه من هذه الآية:

أي أنك بإقبالك على ربك ترى الأعمال الطيبة التي تعود عليك باليسر والخير فتسعى إليها وتطلبها فيوفِّقك الله إليها ويهوِّن عليك فعلها.

وبعد أن بيَّن لنا تعالى ما ينتجه النظر في الكون من الإقبال على الله والمعرفة وطلب النفس من بعد ذلك لصالح الأعمال خاطب رسوله الكريم ﷺ بقوله:

{فَذَكِّرْ إِن نَفَعَتِ الذِّكْرَى}:

فَذَكِّرْ: أي ذكِّر عبادي بفضلي ونِعَمي، وذكِّرهم بعظمتي. والمراد بكلمة (**إِن نَفَعَتِ الذِّكْرَى**) أي: إن نفعت أم لم تنفع لا تنقطع عن تذكيرهم، وقد أراد تعالى أن يبيِّن للإنسان الطريق التي إذا هو سلكها نفعته الذكرى فقال تعالى:

{سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى}:

أي: أن الخشية هي الطريق الوحيد للانتفاع بتذكير الرسول ﷺ، وهذه الخشية لا تكون إلا بالنظر والتفكير.

فإذا نظر الإنسان في الكون وفكَّر في تلك الآيات الدالّة على الله، فهنالك تستعظم نفسه ذلك الخالق وتُقدِّره، وبهذا تحصل لها الخشية فتذعن لأمر الله وتستسلم إليه. فهداية الإنسان كما نرى متوقفة عليه، فإن هو نظر في الكون مفكِّراً، وتأمَّل متدبِّراً، توصَّل إلى التعظيم والخشية، وهنالك تنفعه الذكرى.

{وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى}:

والأشقى: هو الذي أشقى نفسه، أي: لوَّثها وأتعبها بالشهوات الخبيثة.

فالذي لا يفكِّر ولا ينظر بل يظل مندفعاً وراء شهواته تجده معذَّب النفس، وهو دوماً في ضنك وشدة، لا يجد معنى للراحة ولا يذوق طعماً للسعادة، وذلك هو المراد بالأشقى.

فالتذكُّر متوقِّف على التفكُّر، وما دام الإنسان تابعاً لشهوته لا يفكِّر فليس يمكن أن يتذكَّر أو يهتدي. فإذا أردت الهداية والرجوع إلى الله فاكفف عن شهواتك المحرَّمة وآثامك، ثم انظر في آيات الكون فهنالك تخشى ربك وترى قبح الفسق والعصيان، فتتركه وتنفع فيك الذكرى.

ثم بيَّن تعالى عاقبة الأشقى فقال تعالى:

{الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى}:

والنار الكبرى: هي النار الكبيرة في شدَّتها وألم حريقها، الكبيرة في دوامها واستمرارها. **ويصلى**: أي: يحترق بها.

فهذا الأشقى الذي لوَّث نفسه بدرن المعاصي، وعصى ربه الذي تفضَّل عليه، إذا هو مات تبدَّى له خجله من ربه على عصيانه وحسرته على تفريطه في دنياه وعدم اكتسابها في فعل الخير، وحزنه على إيذائه الناس وهم جميعاً إخوانه وبنو جنسه، وتشتد عليه الحسرة والحزن والخجل، فلا يجد مُسلّياً له عن آلامه تلك إلا الدخول في النار ليكون له من حريقها لجسمه سلوة عن آلام نفسه فهو يشتغل بألمه الجسدي عن ألمه النفسي. ومن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فإساءته راجعة عليه وما ظلمه الله

ولكنه هو الظالم لنفسه.

{ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى}:

والموت: هو الانقطاع عن الحسِّ. **والحياة:** هي الشعور باللذائذ وتذوُّق طعم السعادة. فليس هذا المعذَّب بميت فينقطع عنه الشعور بالألم، وليس له في النار ذوق ولذة بشيء من الأشياء، بل كل ما فيها من طعام وشراب وظل وفراش كل ذلك مؤلم لاذع لنفسه.

{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى}:

وأَفْلَحَ: مأخوذة من فلح. تقول: فلح الأرض، أي: شقَّها وهيَّأها للزراعة. **وأَفْلَحَ** أي: هيأ نفسه وجعلها قابلة مستعدة لفعل الخير.

وتَزَكَّى: مأخوذة من زكا بمعنى طاب. تقول: زكت الأرض، أي: طابت وصلحت. ويكون ما نفهمه من هذه الآية الكريمة: أن الذي سعى في إصلاح نفسه حتى طابت وطهُرت وخلُصت من الشر، هذا الرجل أفلح أي: صارت نفسه قابلة مستعدة لفعل الخير طالبة القيام بالعمل الصالح راغبة في بذل المعروف. فالإنسان لا يفلح أي لا تستعد نفسه ولا تطلب فعل الخير إلا إذا تزكَّت وطهُرت وخلت من الشهوات الخبيثة.

ثم بيَّن تعالى طريق التزكية فقال تعالى:

{وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}:

أي: ذكر فضل المربي وإحسانه، وذكر عطفه وحنانه، وذكر قدرته وعظمته، وهنالك أقبلت نفسه مستعظمة، وبهذا الإقبال حصلت له الصلة بخالقه وبهذه الصلة طهرت نفسه.

فإذا أردت أن تُفلح، أي: أن تصبح نفسك مستعدة للعمل الصالح راغبة في الخيرات، فعليك بتزكيتها. فهذه التزكية لا تحصل إلا بالصلاة، والصلاة تكون بعد الخشية، والخشية تحصل بذكر الله وذكر عظمته وقدرته وفضله وحنانه وعالي أسمائه.

{بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}:

وآثر: بمعنى فضَّل، أي: أنكم إذا لم تسلكوا هذا السبيل، ولم تسعوا في طهارة نفوسكم وتزكيتها، فلا بد أنكم تفضِّلون الشهوات الدنيئة والحياة المنحطة على فعل الخيرات وما فيه الفلاح.

{وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}:

أي: أن الدار الآخرة خير من نعيمها، فليس يُقاس نعيم الدنيا بنعيم الآخرة، كما هي خير في دوامها واستمرارها، إذ أنَّ نعيم الدنيا مؤقَّت سريع الزوال، ونعيم الآخرة دائمي ليس له انتهاء.

ثم بيَّن تعالى أن البيان الذي أرسله للبشر جميعاً واحد لا يتغير، وليس للإنسان من طريق تزكو به نفسه سوى الإقبال على ربه، فمتى أقبل وصلَّى طهر وتزكَّى، ومتى أعرض وتولَّى خَبُثَ وتدنَّى، وكل ما جاء من الدلالة في هذه السورة أنزله تعالى في الصحف السابقة المنزَّلة على سيدنا إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام فقال تعالى:

{إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى ۞ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾
إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴿٤﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ
مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ
رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ
﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ
فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا
﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾

صدق الله العظيم

تأويل سورة الطارق

يريد الله تعالى في مطلع هذه السورة الكريمة أن يلفت نظرنا إلى السماء وما ينبعث عنها من الخيرات، ولذلك قال تعالى:

{وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ}:

والسماء: هي كل ما نشاهده فوقنا كقبَّة زرقاء محيطة بالأرض من جميع الجهات. والواو المذكورة في كلمة (**وَالسَّمَاءِ**): إنما تلفت نظرنا وتطلب منا التفكير في السماء لنتعرَّف إلى شأنها من حيث سِعتها التي لا تتناهى، ومن حيث كونها سبباً في نظام وانتظام سير الشمس والقمر فيها، وانتظام الكواكب وارتباطها ببعضها، ومن حيث سير الغيوم وتكاثفها، ونزول الأمطار منها، وهكذا فالسماء أشبه بقشرة البيضة تحفظ ما فيها وتكون سبباً في قيامها، فلولا السماء لتناثرت النجوم هنا وهناك، ولما ترابطت ببعضها بعضاً، ولولا السماء لما حافظت الشمس على موضعها في الفضاء، ولما تمتَّعت الأرض بنورها وحرارتها، ولولا السماء لما دار القمر دورته، ولاضطربت الأرض في جريها فما تشكَّل ليل ولا نهار، ولما حدثت الفصول الأربعة، فلا ربيع ولا صيف ولا خريف ولا شتاء، ولولا السماء لما تشكَّلت أو هطلت الثلوج والأمطار، وهكذا فبالسماء قيام هذه المخلوقات على هذا الوجه الكامل وانتظام الحياة، وبها تأمَّن لك ما تحتاجه وأمكن وجودك على هذه الأرض وأمكنت الحياة.

وهذا بعض ما نستطيع أن نفهمه من كلمة: (**السَّمَاءِ**).. وإن القلم ليعجز عن كتابة ما في السماء من آيات، ففكِّر أيها الإنسان فيها، وراجع التفكير مرة بعد مرة، فلعلك تُقدِّر خالقها وتستعظم **مُمدَّها** ومُربّيها. أما كلمة (**وَالطَّارِقِ**)... فإنما تلفت نظرنا إلى الخيرات المنبعثة عن هذه السماء المتواردة على الإنسان، فكلمة

(**والطَّارِقِ**).. مأخوذة من طرقَ، بمعنى: أصاب وأتى. ونقول: فلان طرق الباب، وطرق الحداد الحديد، أي: هوى عليه بالمطرقة، وطرقت السيارة فلاناً، أي: صدمته وأصابته، ومنه الطارق: أي الآتي ليلاً. ونفهم من كلمة (**الطَّارِقِ**): هنا أي الخير الآتي المتوارد الذي يصيب الناس، ويكون مجمل ما نفهمه من آية: **{وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ}** أي: انظروا عبادي في السماء وما يأتيكم عنها وبسبب وجودها من الخير المتواصل. ثم إن الله تعالى أراد أن يلفت نظرنا إلى سعة ذلك الخير المتوارد فقال تعالى:

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ}:

وتفيد كلمة (**وَمَا أَدْرَاكَ**) تعظيم الشيء وبيان شأنه العالي. ويكون ما نفهمه منها أي: إنك أيها الإنسان لا تدري نهاية لهذا الخير المنبعث عن السماء ولا تستطيع أن تحصي أو تجد حدّاً لهذا الفضل الإلهي المتوارد عليك بواسطتها، ولكن ما هو هذا الخير، لقد عرَّفنا تعالى به بقوله:

{النَّجْمُ الثَّاقِبُ}:

والنجم: مأخوذة من نَجَمَ بمعنى: ظهر وخرج. يُقال: نَجَمَ النبات، ونَجَمَ عن هذه الحادثة كذا وكذا، أي: ظهر ونتج، ويكون ما نفهمه من كلمة (**النَّجْمُ**) هنا ما يظهر ويخرج، وبناءً على هذا: الهواء في خروجه نجم، والبرد نجم، والحرُّ نجم. والغيوم الناشئة نجم، والأمطار نجم، وهكذا فكلمة (**النَّجْمُ**) تشمل كل شيء يخرج ويظهر. وأما (**الثَّاقِبُ**): فهو النافذ المؤثِّر ومنه المثقب، أي: آلة الثقب. تقول: سهمٌ ثاقب، ورأي ثاقب. وعقل ثاقب.

ويكون ما نفهمه من كلمة (**النَّجْمُ الثَّاقِبُ**): أي: الخير النافذ المتوارد بصورة لا خلل فيها ولا نقصان، فالهواء ثاقب فإذا جاء، جاء بنظام وعلى حسب قوانين ثابتة فأهاج

السحب وجمعها، ومطر ثاقب، أي: جامع للخير بحيث إذا نزل على الأرض أثَّر فيها وأخرج الخير منها، وبرد ثاقب أي: مؤثر بحيث إذا أصاب النباتات هيَّج ما فيها من الخصائص والقُوى وجعلها تؤتي أُكُلها وتجود بخيراتها، وهكذا كل ما يُظهره الله تعالى لهذا الوجود إن هو إلاَّ نجم في ظهوره وبروزه، ثاقب في كماله وتمام فائدته.

وبعد أن لفت تعالى نظرنا في الآيات السابقة إلى السماء التي لا تتناهى. وبعد أن ذكر لنا تعالى ما يعرِّفنا بعظيم شأنها وبما ينجم عنها من الخيرات التي لا تُحصى... حذَّر الإنسان من الفسوق والعصيان، وعرَّفه بأن صاحب هذا المقام والشأن الكبير لا يصعب عليه أن يحصي على الإنسان جميع أعماله فقال تعالى:

{إِن كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ}:

أي: أليس يشهد هذا الكون العظيم بأن خالقه قادر على أن يحصي على كل نفس عملها، فما من نفس إلاّ عليها حافظ وإنَّ ذلك عليه تعالى هيِّن ويسير. ثم لفت تعالى نظر الإنسان إلى نفسه وعرَّفه بأصله ممَّ خُلق فلعلّه إذا قايس وقارن عرف نفسه وضعفه وعرف خالقه وعظمته، فقال تعالى:

{فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ}:

أي: انظر أيها الإنسان إلى أصلك وتكوينك من أي شيء خُلقت...

{خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ}:

فمن ذلك الماء المهين خُلقتَ. ومن ذلك الماء خلق الله تعالى ما خلق من الأجهزة والأعضاء، فمنه الدم والعروق والعضلات، ومنه العظام المختلفة الأشكال، ومنه العين والأذن وسائر الحواس، أفلا تفكر في ذلك كله فتهتدي إلى خالقك.

وقد أراد تعالى أن يغضَّ من كبرياء هذا الإنسان فقال تعالى:

{يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}:

والترائب: جمع تريبة، والمراد **بالترائب**: الأنفس الكثيرة التي يكاد عددها لا يُحصى، فهي في كثرة عددها كالترائب، فالإنسان في صلب أبيه كان مجموعاً مع ملايين الملايين من الأنفس التي ستخرج إلى هذا الوجود، ما أضعف شأنك يومئذ وما أصغرك، وما أعظم هذا الخالق الذي خلقك، ثم ما أكبر فضله وحنانه عليك إذْ جعلك على هذه الصورة الكاملة والخلقة الحسنة، أفيصعب عليه بعد أن عرفت قدرته وعظمته أن يُرجعك بعد موتك ويخلقك ثانية، كما بدأك أول مرة! لا شك أنك إذا نظرت مفكِّراً تُوقن بذلك البعث وتراه على الله يسيراً هيِّناً ولذلك قال تعالى:

{إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ}:

أي: الذي خلق السماء وما فيها والذي خلقك أيها الإنسان من ماء دافق وأخرجك من بين الصلب والترائب لا يصعب عليه إذا أنت فنيت وصرت تراباً أن يُعيد خلقك، فهو عليه تعالى يسير وهو على رجعك لقادر، ثم بيَّن تعالى ما يكون عليه حال الناس في ذلك اليوم الذي يرجع الإنسان فيه إلى ربه. فقال تعالى:

{يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}:

وتُبلى: مأخوذة من بلا، بمعنى: اختبر وكشف الحقيقة. تقول: بلا القائد الجنود في الرمي، أي: اختبر معرفتهم وكشف حال كلٍّ منهم، وبلا المعلم التلاميذ، أي: امتحنهم وتعرَّف إلى مَبلغ ما وعاه كل منهم من درسه، ومنه أبلى الرجل في الحرب بلاءً حسناً، أي: أظهر صدقه وإخلاصه في الدفاع فعرف الناس طويَّته وما استكنَّ في نفسه. وأما كلمة (**السَّرَائِرُ**) فهي جمع سريرة، والسريرة: هي السرُّ الذي يكتمه

الإنسان ويُخفيه في نفسه ولا يريد أن يطَّلع عليه أحد، ومنه يُقال: فلان طيِّب السريرة، أي: صافي النية.

ويكون ما نفهمه من هذه الآية الكريمة: إنه في ذلك اليوم الذي يُنشئ الله الإنسان فيه النشأة الآخرة تظهر حقائق الأنفس، ويصبح سر كل امرئ بادياً ظاهراً، وهنالك يرى الناس العدالة الإلهية، ويعلمون أن الله تعالى لا يَظْلم مثقال ذرّة، فلا بدّ إذاً لكل امرئ من أن تظهر نواياه وسريرته، وسيعود على المحسن إحسانه، ولا بد للمسيء من أن يلقى إساءته، وكل امرئ بما كسب رهين.

{فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ}:

أي: أنه ليس يومئذ للمجرم من بعد أن رأى مرضه، وانكشفت له علله وأوجاعه من قوة يدفع بها المداواة التي ستكون دواءً لعلله وأمراضه ولا ناصر ينصره ويخلِّصه منها، إذ أنه يرى ضرورة العذاب ويجد أنه في أشدِّ الحاجة إليه، ومثل الإنسان الذي أساء في دنياه يومئذ كمثل جزّار كان يفري اللحم بسكينه الحادّة وفيما هو على ذلك الحال وقعت منه التفاتة إلى الطريق وغفل عن أنه في أشد ما يكون حاجة للانتباه لنفسه فقطع اصبعه وجعل الدم ينزف ويفيض من جرحه، أفتراه إذا صار بين أيدي الطبيب الذي يسعفه يسعى في التخلُّص من بين يديه أم تظن أن أحداً من أهله يتقدَّم فيشفع له عند الطبيب ويرجوه أن يكفَّ عن مداواته وإنقاذه مما هو فيه ، ذلك هو مثل الإنسان المجرم يوم القيامة بين يدي ربه، فلا قوَّة له ولا ناصر ينصره، إذ الحكمة الإلهية تقضي بمعالجته ومداواته في النار رحمة ورأفة من الله به.

فسبحانك اللهم ما أرحمك وأكرمك، وتعساً لك أيها الإنسان المعرض عن ربه والظالم لنفسه.

ثم أراد تعالى في الآيات التالية أن يُثبت لنا أن البعث حق، وأن الجزاء على الأعمال حق وواقع لا ريب فيه، فقال تعالى:

{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۞ وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۞ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۞ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ}.

ونبدأ بآية: **{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۞ وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ}** فنقول:

الرجع: هو رجوع الشيء ثانية، تقول: تكلَّم فلان في البئر فسمع رجْعَ صوته. ومنه الآية التي مرَّت من قوله تعالى: **{إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ}**.

ورَجْعُ السماء: هو ما ترجع به من الخير عاماً بعد عام وآناً بعد آن، فالأمطار التي تهطل هي من رجع السماء، ورجوع هذه الأمطار في مواسمها وتكرار الفصول والحوادث الجويَّة وعودتها في أوقات مُنظَّمة كل ذلك يدل على وجود إله مسيِّر. وبالحقيقة لو أنك ألْقيت حجراً ونبذته في الفضاء فإنه لا يرجع ثانية وثالثة ورابعة إن لم تكن هناك قوة تعيده وترجعه. فكيف بالفصول والأمطار وغيرها ترجع كل عام متكررة بصورة دورية وفي أوقات منظَّمة لا تتغيّر ولا تتبدل منذ آلاف السنين.

أقول: ومثل ذلك حركة الشمس والقمر لا بل حركة الكرة الأرضية وكل ما يجري في السماء من الحوادث المذكورة تشير هذه الآية إليه. فهل يمكن أن تدور الأرض بذاتها وأن تعود الفصول في أوقاتها وأن ترجع الأمطار في مواسمها دون أن تكون هناك يد عظيمة تُصرِّفها وتُسيِّرها.

وأما **الصدع**: فالمراد به موافقة الأرض للسماء في إخراج النباتات، نقول: صدع فلان بالأمر، أي: طبَّقه، فبهطول الأمطار من السماء حاملة المواد الغذائية تستجيب لها الأرض فتخرج زرعها وتؤتي أُكُلها.

أفليس هذا النظام بدالٍّ على منظِّم حكيم وخالق قدير، فإن أنت نظرت واستعظمت هذا السير وآمنت بهذا الخالق العظيم فاعلم أن البعث حق، ولذلك قال تعالى:

{إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ}:

والقول الفصل: هو القول القطعي الذي ليس فيه موضع خلاف ولا مجال لأخذ وردّ. فالحاكم إذا قضى في الدعوى مثلاً فكلامه فصل، إذ أنه قطع بحكمه الخلاف والنزاع وأثبت الحق لصاحبه، فالله تعالى في هذه السورة الكريمة بعد أن أخبرنا أنه لا بدَّ للإنسان بعد هذه الحياة من يوم يرجع فيه إلى ربه ويومئذ تنكشف سريرته ويُجزى بعمله أراد تعالى أن يثبت لنا هذا الخبر فقال تعالى:

{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۞ وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۞ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ}:

أي: أنك إذا فكَّرت بالسماء ذات الرجع ونظرت في الأرض ذات الصدع فهنالك تثبت لك هذه الحقيقة وتؤمن بالبعث فتعلم أن هذا الخالق العظيم قادر على رجعك وبعثك ولا يعود عندئذٍ في نفسك شك ولا مجال لأخذ وردّ، بل ترى أن قوله تعالى فصل.

{وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ}:

والهزل: هو القول الذي ليس له أصل ثابت، وهو والحالة هذه لا تثبت به حقيقة وليس له قيمة، ولذلك لا نبالي به ولا نحذر مما يُحذِّرنا منه. أما الجد الثابت فإننا نحذره ونعدُّ العدة له.

فأنت بعد أن أثبت لك تعالى أن البعث حق، وبعد أن بيَّن لك أنه على رجعك لقادر، فلا بدَّ لك إن كنت آمنت وأيقنت من التأهُّب لذلك اليوم والاستعداد له، ثم

أراد تعالى أن يبشِّر رسوله بالنصر وقرب ظهور الحق، فقال تعالى:

{إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً ۞ وَأَكِيدُ كَيْداً}:

فنقول **الكيد:** هو التدبير الذي يقوم به الخصم للتغلُّب على خصمه ويكون ما نفهمه من هذه الآية:

أي: إنهم يدبِّرون ما يدبِّرون من خطط ليردُّوا ما جئت به ويحولوا دون نشر الحق.

{وَأَكِيدُ كَيْداً}: أي: وأنا أدبِّر ما يحبط مسعاهم ويبطل كيدهم فلا بدّ من نصرتك وخذلان أعدائك. ثم أمر تعالى رسوله بأن ينذر الكافرين ويحذِّرهم من استعجال العذاب... فقال تعالى:

{فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ}:

ومهَّل فلان فلاناً، أي: طلب منه الرفق بالأمر وعدم العجلة فيه. يُقال: مهَّل الأمير الجند في السير، أي: طلب منهم ألا يستعجلوا وأن يسيروا برفق.

فالكافرون لما سمعوا بإنذار الله لهم من العذاب أخذوا يستعجلون العذاب ويطلبون نزوله في الحال، جهلاً منهم بعظمة الله وعناداً لرسوله ﷺ ومن رحمة الله بهم أن أمر رسوله بأن يمهلهم أي أن يحذِّرهم من هذه المعاندة ويخوِّفهم فلعلّهم بهذا التحذير والتخويف يرجعون عن ضلالهم ويكفُّون عن استعجال العذاب. ثم بيَّن تعالى لرسوله كيفية هذا التحذير والتمهُّل فقال تعالى:

{أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً}:

والرويد: هو الرفق والتؤدة. يُقال: سار فلان رويداً، أي: برفق وتؤدة.

ويكون ما نفهمه من كلمة (**أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً**):

أي ليكن بيانك لهم وتحذيرك مقروناً بالرفق والتؤدة. فإذا نظر الإنسان إلى هذه الدلالة التي بيَّنها الله تعالى لرسوله في كيفية إرشاد خلقه وكيف أنه تعالى يأمر رسوله الكريم بالتلطُّف معهم والرفق بهم فهنالك يدرك مبلغ رحمة الله تعالى بخلقه وعظيم عطفه، ويعرف أن الله تعالى رب العالمين وأنه أرحم الراحمين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ﴿٣﴾
قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ
﴿٦﴾ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن
يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ
ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ
ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ
﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ
﴿١٦﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ
﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾ صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلۡعَظِيمُ

تأويل سورة البروج

في هذه السورة الكريمة يريد الله تعالى أن يحذِّر الإنسان من معارضة الحق وإيذاء الخلق وأن يدعو المعارضين للتوبة والرجوع إليه، فإن هم استمروا على سيرهم المنحرف ولم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق.

وقد ساق لنا تعالى في مطلع هذه السورة ما يدلُّنا على عظمته وجلاله لتذعن نفوسنا إليه وتصغي قلوبنا إلى كلامه فقال تعالى:

{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ}:

والبروج: جمع برج، وهو الحصن المنيع المتين والبناء المرتفع الظاهر، تقول: بَرَجَ الشيء، أي: ظهر وارتفع.. والبرج أيضاً: مجموعة من النجوم ارتبطت ببعضها وتماسكت كما تتماسك حجارة الحصن المنيع. ومن البروج التي في السماء اثنا عشر برجاً، أي: اثنتا عشرة مجموعة من النجوم وقد سمُّوها بحسب شكلها، فهنالك برج الميزان وهو مؤلَّف من نجوم قد أخذت شكل الميزان، وهنالك برج الأسد، وبرج العقرب، إلى غير ذلك... والشمس تحلُّ في مناطق هذه البروج على حسب أشهر السنة الشمسية.

فمن الذي جعل هذا التنظيم وأوجد هذه البروج على هذا الشكل البديع! ثم إن كل نجم من نجوم البروج إنما هو منبع ضوئي متَّقد ساطع وقد يكون في بعض الأحيان أعظم من الشمس لكن شدَّة بعده عن الأرض تجعله يبدو صغيراً للعين.

فقد ذكروا أن النجم المسمَّى بقلب العقرب وهو أحد نجوم برج العقرب وكما ورد في علم الفلك أنه أكبر من الأرض بأكثر من سبعين مليوناً من المرات، ولو أنه حلَّ محل الشمس لملأ الفراغ الكائن بين الشمس والأرض ولكانت الأرض نقطة فيه. فما هذه

القوة التي تمدُّ هذا النجم بالضياء والنور! لا بل ما هذه القوة التي تمدُّ سائر النجوم! ما هذه القوة التي تربط نجوم كل برج، وإن شئت فقل جميع نجوم السماء بعضها ببعض فإذا هي متماسكة متجاذبة لا يتغيَّر وضعها ولا يختلف نظامها ولا تضعف قوَّتها، فإذا السماء كلها بناء واحد تماسكت نجومه ببعضها متجاذبة مترابطة ترابط حجارة البناء، ولو أنَّ نجماً واحداً منها زال وانعدم لاختلفت مواضع النجوم لا بل لاختلّ نظام السماء كلها ولما سارت الأرض سيرها ولأصبح العالم خراباً ولكان بقاؤه على ما نحن عليه مستحيلاً.

فكل نجم والحالة هذه إنما هو مُحافظ على كتلته وقوَّته الجاذبة منذ أن خلقه الله حتى هذه الساعة ولا يزال على ذلك حتى تقوم الساعة. فيا ترى من الذي يمدُّ هذه النجوم كلها بتلك القوة؟ فهي مع اشعاعها الدائم منذ ألوف السنين لم تخبُ جذوتها ولم تنطفئ شعلتها ولم تتناقص قوَّتها، ذلك كله يدلّك على الله صاحب هذه القوة العظيمة اللامتناهية التي تمد هذه النجوم، وتُهيمن على ما في السماء، فإذا هي متماسكة الأجرام مترابطة الأجزاء، وإذا الكون كله جارٍ بنظام لا يغيّره مر العصور وكر الأجيال.

فإذا أنت آمنت بالله المهيمن على السماء ذات البروج، والقائم على هذا الكون فاذكر يوم القيامة ذلك اليوم الذي ستقف فيه بين يدي هذا الخالق العظيم الذي لا يخفى عليه شيء، ولذلك قال تعالى:

{وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ}:

فاليوم الموعود: هو يوم القيامة الذي وعد الله تعالى به الناس بإعادة خلْقهم، كما وعدهم فيه بالجزاء على أعمالهم، يُقال: وعد فلان فلاناً بالأمر، أي: قال له أنه يجريه

له أو ينيله ويعطيه إياه.

{وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ}:

والشاهد: هو الناظر المعاين، تقول: شهد فلان الشيء، أي: عاينه واطَّلع عليه.

والمشهود: هو الشيء الذي نعاينه ونطَّلع عليه. فالشخص الذي يعاين القمر مثلاً ويراه أول الشهر هو شاهد، والقمر مشهود.

ونرجع إلى الآية الكريمة فنقول: **الشاهد** هنا: هو الإنسان الذي قام بالعمل وقدَّمه إلى غيره. **والمشهود**: هو الشخص الذي وقع عليه العمل أو قُدِّم إليه. فالقاتل مثلاً شاهد، والمقتول الذي وقع عليه القتل مشهود، لأن الرجلين يوم القيامة سيقفان بين يدي رب العالمين ويشهد القاتل ما فعله بالمقتول، ويكون ما نفهمه من الآيات السابقة:

{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۞ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۞ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ}:

أي: أنك أيها الإنسان إذا نظرت في السماء ذات البروج وعرفتَ قدرَ خالقها الذي أوجدها وأحكم صنعها فهنالك تؤمن باليوم الآخر، وهو اليوم الموعود فتعلم أنه حق، وأن هذا الخالق العظيم قادر على خلقك ثانية وإعادتك.

كما تحذر عاقبة أعمالك إذ تعلم أن الذي خلق النجوم وجعلها بروجاً وجمعها بقدرته هذا الجمع البديع قادر على أن يجمع الشاهد والمشهود ويوقفهما للحساب بين يديه في ذلك اليوم الموعود الذي لا ريب فيه.

ثم ساق لنا تعالى قصة تبيِّن عاقبة المعرض ونتائج أعماله السيِّئة وما تعود به عليه قال تعالى:

{قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ۞ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۞ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۞ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۞ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۞ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}.

ونبدأ بآية: **{قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ}** فنقول: قُتل: بمعنى هلك وذهبت حياته، **وقُتل** هنا فعل مبني للمجهول لأن فاعله معلوم، فكل واحد من أصحاب الأخدود إنما أهلك نفسه بفعله وما جنى عليه غير عمله.

والأخدود: هو الشق والحفرة المستطيلة في الأرض. وأصحاب الأخدود هم الأشخاص الذين حفروا تلك الحفرة المستطيلة في الأرض، وجعلوا يُلقون فيها من كانوا يقتلونهم من المؤمنين.

فقد ذكروا أن أحد الملوك الحِمْيَريين الذين ملكوا اليمن قبل بعثة الرسول ﷺ وكان اسم ذلك الملك (ذا نواس) لم يرقْ له أن يرى جماعة من أهل نجران يخالفونه في دينه فيؤمنون برسالة سيدنا عيسى عليه السلام ويؤمنون بالله، بل أراد أن يعيدهم إلى دينه وكان يهودياً مُصرّاً على كفره ويهوديته فأمر أعوانه بتعذيب أولئك المؤمنين وتقتيلهم وإلقائهم في الأُخدود أو أن يعودوا إلى الكفر. وقد أراد تعالى أن يبيِّن لنا نوع الجزاء الذي سيحلّ بأولئك المعتدين فقال تعالى:

{النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ}:

أي: أن أصحاب الأخدود أهْلكوا أنفسهم وقتلوها بعملهم لأنهم سيصبحون أصحاب النار ذات الوقود.

والوقود: مأخوذة من وَقَدَ بمعنى اشتعل، **والنار ذات الوقود:** أي: الشديدة

الاشتعال.

ثم بيَّن لنا تعالى كيفية عذابهم فيها فقال تعالى:

{إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ}:

والقعود: جمع قاعد وهو الجالس فبسبب ما فيهم من ألم وعلل تجدهم قعوداً على النار لا يبرحون ولا يتحوَّلون عنها. ثم بيَّن تعالى سبب عذابهم فيها فقال تعالى:

{وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ}:

فهؤلاء حينما تنكشف لهم الحقيقة ويرون عملهم إزاء هؤلاء المؤمنين هنالك يتألَّمون مما فعلوه بهم ويحرق الألم نفوسهم فلا يجدون مخلصاً من ذلك الألم المعنوي سوى النار. وعلى وجه المثال نقول:

لو أن رجلاً غاب عن وعيه ساعة فقام إلى زوجته وأولاده النائمين فذبحهم ذبح النعاج، وإن هي إلا ساعة مضت حتى رجع له وعيه وثاب إلى رشده فرأى أولاده وزوجته جثثاً هامدة ودماؤهم جارية على الأرض فيا ترى حينما يقف هذا الشاهد أمام المشهودين ما يكون عليه حاله؟! هل تراه يطيب له عيش ويكون له نعيم؟ وهل يصرفه عن ألمه النفسي شيء؟ إنه ليس يغيِّبه عن ألمه إلاّ ألم جسدي عظيم وليس من ألم جسدي أعظم من حرقه بالنار.

وهكذا فالنار من رحمة الله بأولئك الذين تتغلب عليهم آلامهم النفسية يوم القيامة، بسبب ما فعلوه مع من قتلوهم وأزهقوا أرواحهم، أو من سلبوا أموالهم، أو اعتدوا على أعراضهم، أو مع من ضلَّلوهم وكانوا سبباً في زيغهم عن الحق، تراهم يومئذ يقفون موقفاً يحزُّ فيه الألم قلوبهم، فبسبب إعراضهم عن الرحيم الرحمن قست قلوبهم وقاموا

بأعمال شريرة عكس ما خُلقوا من أجله من عمل الخير وعمل الإحسان التي بها يرتقون في الجنَّات، فعندما تزول دنياهم وتزول معها شهواتهم الخبيثة التي كانت تحجبهم عن الحقائق ويعودون لفطرة الكمال فيرون فظائع ما اقترفوه وما كان سبباً لخسرانهم الحياة الحقيقية الأبدية، خسرانهم لما أعدَّ لهم الله من الخيرات السرمدية، لقد خسروا جنَّاتهم العُلى وانحطت قيمتهم الإنسانية التي كانت ستعلو بهم فوق كافة الخلائق غير المكلَّفة، بل فقدوا مشاهدة خالق الجمال والمجد والجلال. كانوا لو استجابوا لربِّهم فآمنوا وعملوا الصالحات سيتسنمون أعلى مكانة في العالمين، فبإعراضهم وأمراضهم التي سببت لهم الخزي والعار هووا إلى أسفل سافلين وأصبحوا شر البرية، فهنالك تشتعل بهم نيران الحسرة والخجل، نيران الانحطاط والسفالة والخزي والخسارة، ويستجيرون بالله، يطلبون منه أن يحجبهم عمَّا هم فيه من الألم النفسي المهلك، وهناك يرحمهم الله بالنار، فيرتمون في أحضانها ليغيبوا بحريقها وألم عذابها الجسدي عن ألمهم النفسي لأن أجسادهم التي ارتكبوا فيها هذه الجرائم تكون محاطة بنفوسهم المعرضة عن الله والتي لم تعرف إلاَّ الجسد ومشتهياته في حياتهم الدنيا فبشخوص بصيرتهم إلى أجسادهم يعيشون بذكرى أعمالهم الشريرة والمترعة باللؤم والخبث والمكر فتلتهب نفوسهم بنيران خزيهم وإجرامهم حتى تشوي نفوسهم شيّاً، فتأتي نيران اللظى لتُنسيهم آلامهم النفسية الفظيعة، فنار الله الموقدة ينزع لظاها هذا الشوى النفسي الذي يتحرَّقون به (**كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى ۞ نَزَّاعَةً لِلْشَّوَى**)[1].

هذه النار الموقدة تجدي ولكنها لا تشفي، إذ لا شافي للنفس ولا طهارة لها إلاَّ بالاتجاه إلى وجه الله الكريم الذي إذا اتَّجهوا إليه سرى نوره إلى نفوسهم وطهَّرها من أدرانها الخبيثة وميولها السفلية وشفاها، لكنَّ كبرهم حجبهم فاحتاجوا إلى هذا الدواء

---

[1] سورة المعارج: الآية (١٥-١٦).

المر، وقانا الله من أن تكون لزاماً. وذلك هو يومئذ حال أصحاب الأخدود حينما يَرَونَ ما فعلوه بأولئك المؤمنين الذين لا ذنب لهم إلاّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، وأنهم ما نقموا منهم إلا بسبب إيمانهم، ولذلك قال تعالى:

{وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۞ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}.

ونقم منه: أي: عاقبه عقاباً يخرج من نفسه ما فيها وما انطوت عليه.

وهكذا فالنقمة إنما تكون على حسب حال الناقم، فإن كان ذا صفة عالية كانت نقمته سبباً في خروج الفساد من قلب من نقم منه. فالأب والمعلِّم المخلص ينقمان من الطفل، أي: يعاقبانه عقاباً ينتزع من نفسه ما فيها من الشر.

أما أصحاب الصفة الدنيئة والنفس المنحطة فإنما ينقم من غريمه ظلماً وبغياً، وليست له غاية سوى تجريد من ينقم منه من كل ما يتمتع به من نعمة.

والانتقام والحالة هذه على صورٍ شتَّى، فإما أن يعمد الناقم إلى إخراج من ينقم منه من وظيفته وحرمانه مما كان يناله بسببها من الخير، وإما أن يعمد إلى حبسه وتجريده من حرِّيته، وإما أن يعمد إلى قتله وإخراج روحه، وإما أن يشدد عليه لينتزع إيمانه من قلبه.

وحيث إن أصحاب الأخدود كانوا من ذوي النفوس المنحطة لذلك عمدوا في نقمتهم إلى إخراج أرواح المؤمنين تشديداً عليهم وسعياً في ردِّهم عن إيمانهم، ولذلك تراهم يوم القيامة يتألَّمون كثيراً عندما يرون أن أولئك المؤمنين لم يكن لهم ذنب ولا جُرم، وأنّ نقمتهم منهم لم تكن إلا أن يؤمنوا بالله، أي بالمسيِّر لهذا الكون. **العزيز**: أي: المتفرّد

في الكمال. **الحميد**: أي: الذي يُحمد على كل ما يسوقه لعباده.

{الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}:

أي: المالك المتصرِّف بشؤون كل ما في السموات والأرض، فهو الممدُّ لها بالوجود، المتفضِّل عليها بالحياة. وهو الذي يهبها كل ما تحتاج إليه، ويسيِّرها فيما يعود عليها وعلى الكون بالخير.

{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}:

والشهيد: هو المشاهد الرقيب. فكل ما تفعله أيها الإنسان محفوظ عنده تعالى وهو معك أينما كنت، ناظر إليك ومطَّلع عليك.

وبعد أن ساق لنا تعالى هذه الواقعة التاريخية وذكَّرنا بما سيحل بأولئك المعتدين. أراد تعالى أن يحذِّر الكافرين من أن يفتِنوا المؤمنين فقال تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُواْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ}.

وفتنهُ: أي: بعث فيه الميل والاعجاب بالشيء. تقول: فتن المال الرجل، أي: استماله فاستولى على قلبه وأُعجب به. وفتنت الدنيا فلاناً، أي: أنه رأى زينتها وبهرجها فمال إليها وأصبح معجباً بها، فهي موضع همّه والشغل الشاغل لنفسه.

كما تكون الفتنة أي الإعجاب بالشيء الدنيء المنحط تكون أيضاً بالشيء الطيب الطاهر، ولكل امرئ في هذه الحياة فتنة تتناسب مع حاله، فأهل الإقبال على الله الذين شهدوا بنوره الحقائق وميَّزوا الخير من الشر تجدهم يُفتنون أي: يميلون ويعجبون بالخير والكمال. والذين عميت بصائرهم بإعراضهم عن الله تراهم يفتنون أي: يميلون

ويستهوون الأشياءِ الخبيثة الدنيئة لأنهم حُجبوا عن رؤية حقائقها المنحطة ولم يشهدوا غير صورها الظاهرة. فالكافر المعرض عن الله المفتون بالدنيا لا يروقُ له أن يرى المؤمن مخالفاً له في سيره، لذلك تراه يسعى جهده في أن يجعل المؤمن يُفتن مثله بالأشياء الدنيئة.

وقد هدَّد الله الذين يريدون أن يفتنوا المؤمنين والمؤمنات بعذاب جهنم وعذاب الحريق.

وجهنم: اسم للدار التي يُعالج فيها أرباب العلل والأمراض النفسية في الآخرة وهي أشبه بالمستشفى في هذه الحياة الدنيوية. فللكافر عذاب جهنم، إذ إنه لا يجد في ذلك المستشفى الأخروي شيئاً مما يسرُّه أو يأنس به. فلا جليس ولا طعام ولا شراب ولا فراش يسرُّ، بل كل ذلك مؤلم مكدِّر.

أما المداواة فإنما تكون بالنار فإذا أُحرقوا بها أعقب ذلك الحرق ألم شديد. ولذلك حذَّر الله تعالى الذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات ولا يرجعون عن عملهم تائبين بعذاب جهنم وعذاب الحريق.

ثم بشَّر الله تعالى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بما سيلقونه من الإكرام، فقال تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ}.

وقد ذكر الله تعالى العمل الصالح بعد الإيمان لأن العمل الصالح من لوازم الإيمان ونتائجه... فالإقبال على الله والاستنارة بنوره تجعل الإنسان يرى الخير من الشر ويشهد ما في العمل الصالح من الخيرات وما يعود به على صاحبه من السعادة وهنالك يبادر إليه ويسارع فيه.

والصالحات: كلمة عامة تشمل كل ما فيه إصلاح وإحسان للمخلوقات عامة وذلك مما حضَّ القرآن عليه وأمر به الله: كمساعدة العاجز ونصرة المظلوم والعطف على الفقير البائس والأخذ بيد الضال إلى طريق الهدى والرشاد إلى غير ذلك من الأعمال الإنسانية.

فالذين آمنوا وأنتج لهم إيمانهم العمل الصالح سيجزيهم ربهم في الآخرة بجنات تجري من تحتها الأنهار.

والجنات: جمع جنة مأخوذة من جنَّ، بمعنى: ستر. يُقال أجنَّ الليل فلاناً، أي: ستره وأخفاه. ومنه الجنين: وهو الولد ما دام في بطن أمه.

ويكون معنى الجنة كما مرّ معنا في (**سورة البينة**): كل ما يشعر به الإنسان من السرور المعنوي وما يجده في نفسه من النعيم الخفي حينما يرى شيئاً من الأشياء السارَّة. تقول: هذه الحديقة جنة، أي: أنها بسبب جمال منظرها تبعث في النفس سروراً داخلياً ونعيماً نفسياً. وتقول أيضاً: كنا خلال سماعنا لحديث فلان في جنة. وفي الحديث الشريف: « **مجلسُ العلم روضة من رياضِ الجنة** »[1].

« **الجنةُ تحت ظلال السيوف** »[2].

والمؤمن في الآخرة عندما يشهد ما يكرمه به ربُّه من الإكرام وما يتفضَّل به عليه تعالى من النعيم يجد سروراً نفسياً ويشعر بنعيم داخلي، فهو مغمور بالتجلِّي الإلهي العالي.

وحيث إن السرور متزايد ينتقل فيه المؤمن من حسن إلى أحسن ومن جميل إلى أجمل

(١) قال ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قيل: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: مجالسة العلماء». الطبراني في الكبير ٩٥/١١.

(٢) رواه مسلم في الجهاد.

لذلك عبَّر الله تعالى عنه بصيغة الجمع فقال تعالى: **{جَنَّاتٌ}**.

ثم بيَّن لنا تعالى أن ذلك النعيم النفسي من دونه نعيم آخر يتذوَّق به المؤمن مادة الأشياء وعبَّر عن ذلك بقوله:

{تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}:

أي: من دون ذلك النعيم النفسي العالي نعيم مادي كثير وذلك ما تشير إليه كلمة: (**الأَنْهَارُ**)... إذ أن النهر هو الشيء الكثير الجاري بصورة مستمرة. فالفواكه والأشربة والأطعمة واللبن والعسل وغير ذلك من صنوف النعيم يُقدَّم للمؤمن في الجنة بصورة متتالية مستمرة.

ثم بيَّن لنا تعالى أن الذي يتوصَّل إلى تلك الجنات وينال ذلك النعيم فقد ظفر بالخير العظيم الذي لا نهاية له وعبَّر عن ذلك بكلمة: **{ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ}**: أي: إن هذه الجنات التي تجري من تحتها الأنهار إذا سعى الإنسان إليها وقدَّم من الأعمال الصالحة ما يجعله أهلاً لها فقد فاز أي: ظفر بما أعدّه الله تعالى من الخير الكبير الذي لا يُحدُّ ولا يتناهى.

ثم حذَّر تعالى الإنسان من الاستمرار في غيِّه وعدم الإصغاء لأمر ربه فقال تعالى:

{إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ}:

والبطش: هو الأخذ بصولة وشدة، تقول: بطش الأسد بالفريسة، أي: ضربها ضربة شديدة مهلكة لم تستطع التفلُّت منها. ونقول أيضاً: بطش الجيش بالعدو، أي: ضربه ضربة شديدة لم تقم له بعدها قائمة.

ويكون ما نفهمه من هذه الآية:

أي أنك أيها الإنسان إن لم ترجع عن الاسترسال في شهواتك، ولم تصغِ إلى أمر ربك فاعلم أن عاقبة ما أنت فيه الهلاك والدمار، وأنه لا بدَّ لك من أن تُصيبك ضربة من الضربات الشديدة تسلب منك ما أنت فيه من جاه عريض أو مال وفير وتذهب بما أوتيته من قوة وصحة وملك وسيطرة. قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1].

ثم بيَّن لك تعالى أن الذي خلقك وبدأك قادر على أن يعيدك فقال تعالى:

{إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ}:

ويُبدئ: مأخوذة من بدأ. تقول: بدأ الله الخلق، أي: خلقهم وأنشأهم وأخرجهم للوجود لأول مرة، فهو تعالى المبدئ أي مُخرج هذه الكائنات كلها لهذا الوجود.

ويُعيد: مأخوذة من أعاد بمعنى: أرجع وكرَّر. تقول: أعاد فلان الجملة، أي: كرَّرها مرة بعد مرة، وأعاد الله الخلق، أي: خلقهم ثانية بعد موتهم. فالله تعالى الذي بدأك أول مرة وأوجدك على هذا الخلْق البديع لا يصعب عليه أن يعيدك بل إن ذلك على الله يسير.

{وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ}:

والغفور: هو الساتر. مأخوذة من غفر بمعنى: ستر. تقول: غفر الدرع الرجل في المعركة، أي: ستره من الطعن والضرب، ومنه المغفر وهو زرد من الحديد يلبسه المحارب على رأسه ليكون ساتراً له وواقياً.

فالله تعالى غفور أي: ساتر، فإذا أقبلت عليه النفس سُترت بنوره من الوقوع في

---

(١) سورة هود: الآية (١٠٢).

السيئات. وهذا يوضِّح لنا الآيات التي ذُكرت فيها المغفرة بحق الأنبياء كقوله تعالى: (**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ۞ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ..**)[1].

أي: بهذه المعرفة التي حصلت لك بربِّك من إقبالك العالي عليه سُترت نفسك بنوره تعالى، فحُفظت من الوقوع في الذنوب فيما تقدَّم الرسالة وما تأخَّر أي: وما بعدها.

وذلك أيضاً هو حال جميع الأنبياء، وكل مؤمن إذا أقبل على الله سُترت نفسه بنور ربه ووُقيت من السيئات.

ويأتي اسم (**الغفور**) أيضاً بمعنى: الشافي الذي يُعيد النفس الملوَّثة بجرثوم المعصية لحالها الأول من الصحة والطهارة المعنوية، إذ أن كلمة (**غفور**) مأخوذة من غفر بمعنى: أصلح. تقول: غفر فلان الدرع، وغفر الثوب بمعنى: أصلحه وأعاده لحاله الأول.

فالله تعالى خلق الأنفس طاهرة طيبة، فإن هي أعرضت عن ربها وحصلت لها الغفلة علق بها جرثوم الشهوات الخبيثة المحرَّمة، وتلوَّثت به، وأصبحت تميل إلى الأشياء المنحطة الدنيئة، فإن هي عادت إلى ربها مقبلة عليه كان نوره تعالى مُطهِّراً لها وسبباً في شفائها مما علق بها، وساتراً لها من أذى ذلك الجرثوم.

وننتقل الآن إلى كلمة (**الودود**): أيضاً من أسمائه تعالى مأخوذة من ودَّ، تقول: ودَّني فلان، أي: قدّم لي من المعروف والمعاملة الحسنة ما يستجلبني نحوه ويجعلني أميل إليه. وكذلك الله رب العالمين (**ودود**)، أي دوماً يسوق لعباده من النِعم وصنوف الخيرات ما يستجلبهم نحوه، ويجعلهم يميلون إليه.

{ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ}:

---

(١) سورة الفتح: الآية (١-٢).

والعرش: لغة سقف البيت، والعرش أيضاً: المظلة والخيمة، ومنه العريش وهو شبه الخيمة يُنصب للقائد في المعركة، فيستظل به ويأوي إليه.

ويكون ما نفهمه من كلمة (**العرش**) الواردة في هذه الآية وأمثالها بمعنى التجلي والإمداد الإلهي الساري في المخلوقات، والذي به قامت الأشياء، فجاءت على هذا الوجه العالي من الكمال. فلو أنه تعالى قطع إمداده عن الشمس لحظة لانطفأت، لا بل انعدمت ولم يعد لها وجود ولا بقاء. وكذلك الأرض وما عليها والسماء وما فيها، وكل ما تشهده وتراه قائم بنوره تعالى وإمداده، وذلك ما نفهمه من كلمة (**ذُو الْعَرْشِ**): أي صاحب التجلي العالي الشامل، الممد بالوجود والحياة.

أما كلمة (**الْمَجِيدُ**): فهي مأخوذة من مَجَدَ بمعنى: علا وارتفع. فإذا أنت رأيت خيره تعالى وفضله الواسع العميم فإنك تمجِّده وتكبِّره لأنك لا تستطيع أن تجد لذلك الخير والفضل نهاية أو حدّاً.

وإذا أنت نظرت أيها الإنسان لهذا الكون نظرات المفكِّر المتأمِّل رجعت من نظراتك مستعظماً هذا الخالق مغمور النفس بجلاله تعالى وعظمته.

فإن أنت استسلمت بالطاعة لأوامر هذا الخالق العظيم وأحسنت لمخلوقاته أورثك استسلامك هذا وإحسانك ثقة بنفسك من أن الله تعالى راضٍ عنك. وثقتك هذه برضاء الله عنك تجعلك تقبل عليه تعالى إقبالاً نفسياً وبإقبالك عليه تشهد أنه تعالى (**ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ**). أي: إنك تشهد تجلِّيه تعالى وإمداده لخلقه البالغ في الكمال وهناك تُمجِّد ربَّك وتكبر فضله وترى ودَّه تعالى لك ولسائر خلقه.

وفي هذه المرحلة التي أنت فيها من رؤية الكمال والودّ الإلهي تحب ربك صاحب الكمال، إذ أن الحب لا يكون إلا بعد الشهود والعيان. وبهذا الحب تستنير نفسك

بنوره تعالى فتشهد الأشياء المنحطة الخبيثة على حقيقتها، فتنفر وتشمئز منها وهنالك تحصل لك المغفرة ويشملك اسم الغفور. إذ يكون نوره تعالى شافياً لنفسك مما علق بها من قبل وساتراً لها من الميل إلى تلك الأشياء المحرَّمة من بعد أن رأيت ما فيها.

وبعد أن عرَّفك تعالى بعظمته وقوته، وبعد أن ساق لك من الأمثلة والآيات ما يعرّفك بفضله وعالي إحسانه، بيَّن لك أن هذا الرب العظيم لا يصعب عليه أن يسوق لك ما وعدك به من الخير، فقال تعالى:

{فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}.

ثم إن الله تعالى أراد أن يُلفت نظرنا إلى ما حلَّ بالذين خَلوْا من قبل ممن لم يعبؤوا بما جاءهم به الرسل من الإنذارات والدلالة ليكون لنا من هذه الذكرى موعظة وعبرة، وأورد تعالى ذلك بصيغة الاستفهام ليكون أوقع أثراً في نفوسنا وأدعى لانتباهنا فقال تعالى:

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ}:

أي: أما علمت... أما بلغك حديث الجنود، أي خبر هلاك أصحاب الجيوش القوية وما كانت عليه عاقبتهم! ألا تحذر أن يصيبك ما أصابهم من بعد أن عارضوا وكذَّبوا رسلهم.

وقد عبَّر تعالى عن قوَّتهم وكثرتهم بكلمة (**الْجُنُودِ**). إذ الجنود جمع جندي، وهو رمز القوة والشدة، ومنه الجنْد، أي: الأرض الغليظة.

ثم بيَّن تعالى المقصودين بكلمة (**الْجُنُودِ**) فقال تعالى:

{فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ}:

أي: جنود فرعون وقوم ثمود.

ثم بيَّن تعالى أن الكافر ما دام مُصرّاً على كفره وإعراضه فلا يمكن أن يرجع إلى الحق ولا أن يهتدي إليه فقال تعالى:

{بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ}:

والتكذيب: هو إنكار الأمر وجحوده. والمراد بالتكذيب هنا عدم الاعتبار بما جرى بهؤلاء.

فالكفر أي الإعراض عن الله، وإن شئت فقل ترك الصلاة وانقطاع الصلة بالله يجعل النفس عمياء لا ترى ما في شهواتها من الأذى، ولذلك تراها لا تحذر عواقبها ولا تحس ما ستجرُّه لها، فمهما ذكَّرتها لا تتذكر ومهما وعظتها لا توعظ.

(... **وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**)[1].

(... **وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ**)[1].

فإذا أنت أيها الإنسان لم تفكِّر في الكون، ولم تتعرَّف إلى خالقك، وإن أنت لم تُصلِّ الصلاة الحقيقية وتجعل لنفسك صلة بالله، فلا يمكن لك أن تتعظ بما يُساق لك من مواعظ وعبر، لأن شهوتك المنصوبة أمام عينك تحجبك عن العواقب فلا تعود تنتبه لشيء، وفي الحديث الشريف:

« **حبُّكَ الشيء يعمي ويصمّ** »[2].

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٧).

(١) سورة غافر: الآية (١٣). (٣) سورة البقرة: الآية (١٤٧).

(٢) انظر كنز العمال ١١٥/١٦ برقم ٤٤١٠٤.

فارجع إلى الله لتتعرّف إلى الحق وتهتدي إليه، إذ بإقبالك عليه ينطبع الكمال في نفسك، فتعرف الحق وتعتبر. قال تعالى:

﴿الْحَقُّ مِن رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[٣].

أما الكافر فما دام لا يلتفت إلى ربه فهو دوماً غارق في شهواته فمن سيِّءٍ إلى أسوأ ، وقد بيَّن تعالى عن استمرار الكافر في تكذيبه بكلمة: **﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾** أي: أنه يكذِّب على استمرار بكل شيء ولا يتَّعظ بشيء. ثم بيَّن تعالى أن الكافر في فعله ومباشرته الأعمال لا يستطيع أن يخرج عن إرادة الله تعالى فقال تعالى:

{وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ}:

أي: أنهم وإن كانوا مطلقين في إرادتهم واختيارهم، إلاَّ أن مباشرتهم الأعمال متوقِّفة على إمداد الله تعالى لهم بالقوة. فخُبثهم المستقر في نفوسهم لا يمكن أن يخرج ويبرز إلى حيِّز الفعل إلا ضمن إرادته تعالى، فالسير إنما هو به تعالى. والإمداد بالقوة على الفعل من الله وحده، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ونجمل القول فنقول:

إن الكافر بإعراضه عن الله تمتلئ نفسه بالخبث والشر لكنه لا يستطيع أن ينفِّذ اختياره على أي شخص كان لأن الله تعالى مُحيط به فلا يسوقه إلا إلى شخص استحق التأديب.

وقد أراد الله تعالى أن يبيِّن لنا أن الإعراض يجعل صاحبه محجوباً عن الحقائق، ولو أنه أقبل لرأى سُمُوَّ ما يُتلى عليه من آيات ربه فقال تعالى:

{بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ}:

وبل: كلمة تفيد الإضراب. والإضراب: هو نفي كلام سبق مذكور قبلها وإثبات كلام وارد بعدها. نقول مثلاً: ما جاء خالد بل سعيد.

ويكون ما نفهمه من هذه الآية الكريمة: أي ليس الأمر كما يزعمون. فتكذيبهم لا أصل له ولا يستند إلى حجة وبرهان ، فالقرآن الذي يتلوه رسول الله ﷺ إنما هو قرآن مجيد، أي بيان عالٍ إذا نظر إليه العاقل مجَّده أي استعظمه ورأى سموَّه وعلوَّ شأنه لما فيه من الخير العظيم والدلالة العالية.

وقد أراد تعالى أن يبيِّن لنا ما انطوى عليه هذا القرآن المجيد من الحقائق التي طُبعت في نفس الرسول ﷺ أولاً بإقباله العالي على ربه، وإنَّ ما يدل عليه من الألفاظ التي نزل بها جبريل وحياً من الله كل ذلك إنما هو مُثبت ومحفوظ في نفس رسول الله ﷺ.

وعبَّر تعالى عن نفس الرسول ﷺ التي بدا فيها القرآن في حقائقه وألفاظه، ثم أخذ يلوح منها ويظهر للناس بكلمة (لوح) فقال تعالى:

{فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ}:

إذ اللوح: كل صفحة عريضة خشباً كانت أو عظماً أو غيرها مما ينتقش فيه الشيء ثم يلوح ويظهر للناظر.

فصفحة نفس رسول الله ﷺ المستقرة في صدره إنما هي لوح لأنه لاح منها للناس ما كان بدا فيها أولاً من حقائق القرآن ومن ألفاظه المنزَّلة...

وهي **لوح محفوظ**، أي: لا يمكن لما كُتِبَ فيها أن ينمحي أو يزول لأنه ﷺ دائم الوجهة والإقبال على ربِّه، ومن كان هذا حاله فلا ينمحي ولا يزول الحق من نفسه

بل هو أبداً باقٍ ومحفوظ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ﴿٣﴾ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾

صدق الله العظيم

تأويل سورة الإنشقاق

يريد الله تعالى في هذه السورة الكريمة أن يُنبِّهنا إلى نتائج أعمالنا وأن يبيِّن لنا أن كل ما نعمله في هذه الحياة الدنيا محفوظ عنده تعالى. فإذا كان يوم القيامة وجد كل امرئ ما قدَّم، فأمَّا من كان مُحسناً وأُوتي كتابه بيمينه فسوف يُحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً، وأما من كان مُسيئاً وأُوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ويصلى سعيراً.

وقد بدأ تعالى هذه السورة ببعض الآيات الدالة على ما سيقع من الحوادث الهامَّة عند انتهاء الحياة على وجه الأرض والانتقال من هذه الدار الدنيا إلى الدار الآخرة فقال تعالى:

{إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۞ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۞ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ۞ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۞ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ}.

ونبدأ بالآية الأولى فنقول:

السَّماء: هذه السماء التي نجم واحد من نجومها أكبر من الأرض ـ كما ذُكر ـ بسبعين مليون من المرات، هذه السماء التي لا نستطيع أن ندرك لها نهاية أو حدّاً، ولا يعلم بعظمتها غير خالقها وموجدها سامية عالية لا تتناهى سيأتيها يوم تنشق فيه بأمرٍ واحد من خالقها.

وأراد تعالى أن يُلفت نظرنا إلى ذلك اليوم العظيم الذي سيقع فيه هذا الحادث الهام فقال تعالى: **{إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ}**:

وكلمة (**انشَقَّتْ**) مأخوذة من شقَّ، وشقَّ الشيء بمعنى صدَّعه وفرَّقه وفصل بعضه عن

بعض.. نقول: شق الثوب.. وشق الورقة وشق عصا القوم، أي: فرَّق جمعهم وكلمتهم.

أما **انشق** فبمعنى: انفصل عن غيره، فنقول: انشق فلان عن الجماعة. وإذاً فليس المراد بانشقاق السماء هنا تصدّعها وانفصال بعضها عن بعض، إنما المراد بذلك انفصالها وانكشافها عن الأرض. فالسماء والأرض الآن شيئان متلازمان مرتبطان ببعضهما بعضاً، وما السماء بالنسبة إلى الأرض إلاّ وعاءٌ لها محيطٌ بها من جميع جهاتها، كما تحيط قشرة البيضة بما تحتويه في باطنها. فإذا كان يوم القيامة وأراد ربك انشقت السماء أي انفصلت وزالت عن الأرض نظراً لانتهاء الحياة الدنيا وعدم حاجة هذه الأرض لسمائها. وأما كلمة (**إِذَا**) فإنها تشير إلى عظمة ذلك اليوم.

ويكون ما نفهمه من كلمة (**إِذَا**) أي: انظر أيها الإنسان إلى ما يكون عليه حالك في ذلك اليوم الذي تنشق فيه هذه السماء العظيمة عن الأرض منفصلة زائلة عنها، قدِّر عظمة ربك الذي بأمر واحد منه تنشق له هذه السماء، واذكر ذلك اليوم الذي ستقف فيه للحساب بين يدي ذلك الرب القدير والخالق العظيم.

ثم بيَّن تعالى أن انشقاق السماء وزوالها عن الأرض هذه الحادثة الهامة إنما هي يسيرة عليه تعالى وهيِّنة فقال تعالى:

{وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ}:

وأذنت: بمعنى استمعت وطبَّقت الأمر. يُقال: حدَّثته فأذن لي أحسن الأُذُن، أي: استمع أحسن الاستماع.

وحُقَّت: بمعنى كان لازماً وحقاً عليها ذلك، مأخوذة من حقَّ. تقول: حق الأمر أي ثبت ووجب. ومنه حقاً تقول: حقٌ لك أن تحسن لوالديك أي كان الإحسان إليهما

حقيقاً بك، لازماً عليك وكنت حقيقاً بالإحسان. ويكون ما نفهمه من آية: **{وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ}**:

أي: إن السماء حينما يأمرها خالقها بالانشقاق والانفصال عن هذه الأرض تستمع أمر خالقها وتُطبِّقه، ويكون تطبيق ذلك الأمر حقيقاً بها لأنه صادر عن خالقها العظيم وممدّها بالحياة ومربِّيها.

ثم بيَّن تعالى لنا ما يتلو انشقاق السماء عن الأرض من الحوادث فقال تعالى:

{وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ}:

ولفهم هذه الآية لا بدَّ لنا من كلمة نقدِّمها فنقول:

خلق الله المخلوقات وجعل لكل مخلوق منها سواءً كان إنساناً أو حيواناً أوجماداً نفساً وإن شئت فقل ذاتاً معنوية عاقلة، لها وعيها وإدراكها على حسب حالها، قال تعالى:

(**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ**...)[1].

(... **وَإِنْ مِن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**...)[2].

والأنفس جميعها في الأصل متماثلة لكن أجسادها التي هي بمثابة الثوب لها مختلفة الأشكال متباينة الصور. فنفس الجمل كنفس النملة، وإن اختلفت أجسادهما حجماً وصورة.. ونفس السماء الواسعة اللامتناهية ليست بأكبر من نفس الكرة الأرضية ولا أكبر من نفس الرملة الصغيرة. لكن الله تعالى ألْبس كل نفس جسداً مناسباً ذا هيئة

---

(١) سورة الحج: الآية (١٨).

(٢) سورة الإسراء: الآية (٤٤).

متلائمة مع وظيفتها ومهمَّتها، وأعطاها من الطاقة والقدرة ما يساعدها على القيام بالعمل المنوط بها على حسب ما تقتضيها الحكمة الإلهية.

وحيث إن الأرض قدّمت نفسها يوم أن خلقها الله لأن تكون خادمة لهذا الإنسان يطؤها ويسير على ظهرها ويستوطنها مستفيداً من خيراتها، لذلك سُمِّيت أرضاً لأنها أرضت الله بعملها.

وقد أعطاها الله تعالى هذه الهيئة الكروية والحجم المناسب، وجعل فيها ما جعل من خصائص، فكان منها خلقُ الإنسان ونشأته ومن خيراتها معاشه وإليها مردّه ومنها خروجه تارة أخرى.

وقد حملت الأرض ما ألقاه الله تعالى فيها من جبال وأنهار وما بثَّ فيها من دواب ونباتات ومعادن وأحجار فكانت مجمَعاً لأنفس عديدة لا يعلم بعددها إلا الله، وقامت بذلك كله بأمر ربها لتتقرَّب إلى خالقها بخدمة هذا الإنسان ذلك المخلوق السامي الذي واثَقَ ربَّه بأنه إذا أعطاه حرية الإرادة والاختيار ليكوننّ دائم الإقبال على ربه، فلا يتطلب شيئاً في حياته الدنيا إلا ويكون مستنيراً بنور ربه، مستعيناً به تعالى، مستلهماً منه الرشد والصواب، وليتعرفنَّ إلى كماله تعالى وأسمائه المعرفة اللائقة التي تجعله حقيقاً بالجنة وما فيها من فضل وإكرام.

وإذاً فما السماء والأرض إلاّ نفسان كسائر الأنفس، لكن الله تعالى جعلهما على هذه الهيئة وذاك الحال. فإذا كان يوم القيامة وجاءهما أمر خالقهما انشقت السماء طائعة مذعنة ثم مُدَّت الأرض.

ومدُّ الأرض: هو زوال التكوُّر عنها. فالأرض التي بتكوُّرِها هذا حَوَتْ ما حَوَتْ من أنفس عديدة وجمعت ما جمعت من إنسان وحيوان ونبات وغير ذلك من الأشياء تُمدُّ

يوم القيامة أي يزول عنها هذا التكوُّر فتغدو سطحاً مستوياً وصفحة رقيقة كصفحة من الورق لا بل أرق ما يمكن أن يتصوَّره إنسان ذلك لأنها انتهت مهمتها ووظيفتها التي كانت تقوم بها في الحياة الدنيا.

{وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ}:

وألْقت: بمعنى طرحت. فالإنسان والحيوان، لا بل جميع هذه النفوس المشحونة في الأرض تُلقيها الأرض وتطرحها عنها، أي تتركها إذا مُدَّتْ فيزول هذا الارتباط الذي بين أنفسنا وبين نفس الأرض وتعود كل نفس إلى خالقها من بعد أن أدَّت وظيفتها.

ثم بيَّن تعالى أن ما تقوم به الأرض إن هو إلاّ بأمر خالقها ولذلك تُذعن للأمر طائعة قال تعالى:

{وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ}:

وَأَذِنَتْ: بمعنى استمعت الأمر وطبَّقته كما ذكرنا. **وَحُقَّتْ**: أي حُقَّ لها أن تسمع وتطيع الأمر، وهي لا تستطيع الخروج عنه لأنه أمر خالقها ومربِّيها.

وبعد أن عرّفنا تعالى بعظمته مبيّناً لنا أن السماء والأرض على عظيم شأنهما تأذنان لربهما فلا تُخالفان أمره ولا تتأخران عن تطبيقه ، حوَّل الخطاب إلينا لعلنا بعد ذلك البيان نصغي إليه تعالى ، فذكر لنا أن حياتنا متوقفة على دوام إمداده لنا وإننا مفتقرون دوماً إلى ربنا فقال تعالى:

{يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ}:

والكادح: مأخوذة من كدح بمعنى سعى وجهد. تقول: كدح فلان في العمل، أي: جهد نفسه فيه وكدّ. وكدح لعياله، أي: سعى وكسب الرزق. فإذا كان الكادح في

العمل هو الذي يجهد نفسه ويكد فيه، والكادح لعياله هو الساعي في كسب الرزق، فما معنى الكادح إلى ربه؟ . أقول: الكادح إلى ربه هو الساعي بنفسه إلى ربه جاهداً في دوام صلته بالله ملتجئاً إليه لا يستطيع أن ينفكَّ عنه لحظة واحدة ولتوضيح ذلك نقول:

قيام الأشياء كلها ودوام وجودها إنما هو مفتقر لدوام تجلِّيه تعالى عليها وإمداده المتواصل لها.

ولو أن إمداد الله تعالى انقطع لحظةً واحدةً عن الشمس لانطفأت الشمس ولم يعد لها جرم ولا إشعاع ولا نور.

ولو أن إمداده تعالى انقطع عن الإنسان لحظة واحدة لانعدم الإنسان وفني ولما كان شيئاً مذكوراً. فإمداده تعالى دائم وتجلِّيه سبحانه مستمر يتجلَّى على كل شيء بما يناسبه فيبعث الحياة فيه ويحفظه من الزوال.

وهكذا فالإمداد الإلهي متواصل على هذا الإنسان، والإنسان لا يستطيع في نفسه ولا جسده أن ينفك عن ربه طرفة عين، وعلى وجه المثال نقول:

هب أن رجلاً غاص في قعر البحر وقد مدُّوا له أنبوباً من المطاط مُتَّصلاً بفيه وممتداً إلى خارج الماء. يستنشق بواسطته الهواء فتراه مُقبلاً بفمه دوماً على الأنبوب لا يستطيع أن ينفك عنه أو يرفعه عن فمه لحظة، لأن حياته متوقفة على صلة فمه الدائمة بالأنبوب، وكذلك حال الإنسان في افتقاره الدائم لربه فتجده على غير شعور منه مُقبلاً دوماً بنفسه وجسده على الله لا يستطيع أن ينفك طرفة عين، ولو أنه انفك طرفة عين لزال وانعدم وذلك ما نفهمه من كلمة: (**إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً**). وأما كلمة (**فَمُلاَقِيهِ**): فإنها تفيد أن ذلك اللقاء والصلة بين العبد وربه حاصلة وواقعة

سواء شعر بها الإنسان أم لم يشعر وإنما أورد الله تعالى هذه الكلمة ليبعث في نفوسنا الإيمان بذلك، فلعلّنا ننتبه إلى هذا اللقاء ونوقن بهذا الإمداد ونتعرَّف إلى أننا دوماً في افتقار إلى هذا الخالق العظيم والرب الممدّ الكريم، فإذا كان هذا شأنك أيها الإنسان مع ربك أفلا يليق بك طاعته والسير ضمن أوامره وما بيَّنه لك!

وقد أراد تعالى أن يبيِّن لنا عاقبة الطائع في طاعته والعاصي في عصيانه ومخالفته فقال تعالى:

{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ۞ وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ۞ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۞ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً ۞ وَيَصْلَى سَعِيراً}.

ونبدأ بالآيات التي تتكلم عن أحوال الطائعين المحسنين وهي قوله تعالى:

{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً} فنقول:

(**أمَّا**) أداة شرط وتوكيد، والمراد من قولنا أداة شرط أي: أن الحساب اليسير متوقف على شرط واحد وهو أن يؤتى الإنسان كتابه بيمينه.

وإذاً فليست المسائل جزافاً، وليس المحسن كالمسيء، ولا يمكن أن يُعامل المذنب المجرم معاملة الطائع المحسن.

فإن شئت أن تُحاسب حساباً يسيراً فذلك متوقِّف على أن تُؤتى كتابك بيمينك، فإنه لا يُخلِّصك يومئذٍ غير طاعتك لربك وتأديتك لما أمرك به خالقك، وإذا أردت التفصيل في معنى الكلمات التي انطوت عليها هذه الآية الكريمة فنقول:

الكتاب: هو ما كُتب على الإنسان أي: ما حُفظ من أعماله التي قدَّمتها يداه في

الحياة الدنيا فما من عمل يعمله الإنسان صغيراً أو كبيراً إلا ويُكتب عليه فهو يكتب في نفسه ويكتب عند الله.

فأعمالك أيها الإنسان جميعها تسطر على صفحات نفسك، وإنك لتستطيع الآن في خلال برهة وجيزة أن تمر بخاطرك على صفحات حياتك وما قدّمت فيها من أعمال.

وما هذا إلا لأن أعمالك مثبتة صورتها على صفحة نفسك، فإذا أنت عُدْت لماضيك ونظرت نظرة داخلية إلى صفحة النفس رأيت ما فيها.

وكذلك يوم القيامة يُطلعك الله على ما قدَّمت فتجد حقائق أعمالك قائمة في نفسك ولا يفوتك منها شيء.

وأما **اليمين**: فهي مأخوذة من يمن بمعنى: كثر خيره، ومنه اليُمْن وهو الخير الكثير. وإذاً فليس المراد من ذلك أخذ الكتاب باليد اليمنى، إنما المراد أن تكون الأعمال التي قدَّمها الإنسان في دنياه صالحة عالية يتيمَّن بها، أي: تعود على صاحبها بالخير الكثير واليُمن.

أما كلمة (**يُحَاسَبُ**): فإنها لا تعني جمع الحسنات بعضها إلى بعض كعملية حسابية من جمع وطرح، إنما المراد: استيفاء الحق ونيل الجزاء. تقول: حاسبت البائع، أي: أدَّيت له حقه.

واليسير: هو ضد العسير، أي: أنه الذي يقارنه اليسر، فإذا كان الشيء الذي يقدّم للإنسان طيّباً سارّاً فهنالك يتناوله بيسر وسهولة لا سيَّما إذا كان مُقدَّماً من يد مُحب.

وهكذا الجزاء على الأعمال الطيبة كله خير وباعث للسرور.

ويكون مُجمل ما نفهمه من هاتين الآيتين:

أن من كانت أعماله التي قدّمها في دنياه خيراً يتيمَّن بها فسوف ينال على ذلك جزاءً طيباً، وأنه حينما يُقدَّم له ذلك الجزاء الطيب من هذا الرب الرحيم يتناوله بكل سرور ويُسْر لما ينطوي عليه من المتعة الطيبة.

{وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً}:

وأهله: هم الذين كانوا يسيرون على مسراه فتأهَّلوا معه لنيل الخير.

ثم بيَّن تعالى حال أهل المعصية فقال:

{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۞ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً ۞ وَيَصْلَى سَعِيراً}:

كلمة (**وَرَاءَ ظَهْرِهِ**): إنما تشير إلى انحطاط العمل. فإذا كان أحدُنا يحمل حزمةً من ورد تنبعث منها رائحة عطرية زكيةً فإنه يحملها بيمناه غير خجل منها، وكذلك حال أهل الأعمال الطيبة تراهم في دنياهم فخورين بما يقومون به من الأعمال، وهم في الآخرة أيضاً فخورون بها.

وإذا كان أحدنا يحمل بيده ثوباً نجساً تنتشر منه الروائح الكريهة، أو هرَّة ميتة يريد أن يلقيها بعيداً بشماله وراء ظهره، وهو يفعل ذلك ليباعد ما يحمله عن نظره فإنه لا يحب أن تقع عليه عينه كما لا يحب أن يشم رائحته النتنة، وتراه يخفيه وراء ظهره لأنه يخجل أن يراه الناس على ذلك الحال. وكذلك حال الذين كانت أعمالهم في دنياهم خبيثة منحطة فإنهم كانوا يخفونها عن الناس، ويوم القيامة يُؤتى أحدهم كتابه فإنما يؤتاه وراء ظهره ليباعد نفسه عن النظر إلى أعماله الوحشية الساقطة كما يخجل من ظهورها وانكشافها للناس.

ولكن ماذا يفعل هذا الشقي بعد أن أُوتي كتابه وراء ظهره؟ لقد بيَّن لنا تعالى ذلك بقوله:

{فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً}:

ويدعو: أي: يتطلَّب ويبتغي. **والثبور**: مأخوذة من ثبر بمعنى حبس ومنع. ومنه المثابرة أي: استمرار الحال وعدم تبدّله. تقول: ثابر فلان على الاجتهاد، أي: حبس نفسه عليه واستمر، **والثبور** هو ملازمة النفس للحال التي هي فيه.

فالذي يُؤتى كتابه وراء ظهره سوف يدعو ثبوراً، أي: حينما يُزج في النار للمداواة يتطلَّب ألاَّ تُزاد له شدَّتها، وأن يبقى في درجة واحدة مستجيراً طالباً عدم التشديد.

{وَيَصْلَى سَعِيراً}:

وَيَصْلَى: أي يذوق حرَّ النار التي تسري فيه وتُسلَّط عليه.

والسعير: هي النار التي تُماثل شدَّتها مع حال كل عاصٍ مذنب، ومنه سعَّر أي: قوَّم السلعة أو المتاع فجعل له قيمة معيَّنة تُماثل الثمن بالبضاعة.

فالعاصي في النار إنما يكون عذابه وشدة النار عليه مماثلة ومعادلة لجرمه ثم بيَّن لنا تعالى سبب هذا الحرق والعذاب، فقال تعالى:

{إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً}:

وأهله: هم الذين كان يسير معهم في الدنيا على مسرى واحد حتى تأهَّلوا لدخول النار. **ومسروراً**: أي موافقاً لهم على عملهم، ومتواطئاً معهم على الشر.

{إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَنْ يَحُورَ}:

وحار: بمعنى عاد ورجع، أي: أن الذي جعله يوافق أهل الخبث على خبثهم، والذي أغراه في مشاركته بأعمالهم إنما هو ظنُّه أنه سوف لا يرجع بعد موته إلى ربه، وأنه لن يحور ثانية ويُخلق خلقاً جديداً.

وإذاً فالتكذيب بيوم القيامة يسبِّب انحطاط الإنسان في أعماله ودناءته، وهذا الإيمان باليوم الآخر لا يكون إلا بالإيمان بالله.

ثم إن الله تعالى نفى ذلك الظن بعدم الرجوع بقوله:

{بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً}:

وبلى: حرف جواب وهي تختص بالنفي وتُفيد إبطاله. ولتوضيح ذلك نقول: لقد جاءت الآية السابقة مبيِّنة أنَّ الذي أُوتي كتابه بشماله كان ينفي في دنياه أمر البعث، وأنه ظنّ أن لن يحور أي: أنه سوف لا يرجع، فجاءت كلمة (**بلى**) في هذه الآية مبطلة هذا الظن. ويكون ما نفهمه من كلمة (**بلى**): أي: ليس الأمر كما يظن ذلك العاصي المجرم الذي لا يؤمن بالرجوع والبعث.

وأما كلمة (**إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً**): فإنما تعني أنه تعالى بصيرٌ بأحوال هذا الإنسان شهيد على كل ما يصدر منه في دنياه من الأعمال، فإذا كان يوم القيامة وفَّاه حسابه وأعاد إليه أعماله. وأما كلمة (**رَبَّهُ**) فمعناها ـ كما مرّ معنا من قبل ـ المربي: الممد بالحياة. وجاءت كلمة (**رَبَّهُ**) هنا لتثبت لك أن الذي يمدّك بالحياة بصورة متواصلة لحظة فلحظة وآناً بعد آنٍ لا يغيب عنه من أعمالك شيء ولا يخفى عليه شيء. وبعد أن بيَّن لنا تعالى أن البعث حق، وأنه تعالى بصير بهذا الإنسان شهيد على كل ما يصدر منه من أعمال، ساق لنا طائفة من الآيات الدالة على عظيم رحمته وكبير فضله وحنانه، لتعلم أيها الإنسان أن الذي أكرمك بهذا الإكرام حريص عليك ومحب لك،

ولا يريد فيما بيَّنه لك إلا تحذيرك وتنبيهك فلعلّك تنتبه لكلامه وتصغي إلى إرشاده وتسعى فيما يجعلك أهلاً لما أعدَّه تعالى لك من النعيم المقيم قال تعالى:

{فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۞ وَالَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۞ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۞ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ}.

ونبدأ بآية. **{فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ}**: فنقول **لا أُقسم**: إنما تعني بيان شأن المذكور بعدها أي إنه عظيم جداً وأنك إذا فكَّرت فيه استعظمته واستكبرته لكنه عليه تعالى يسير وهيّن.

والشفق: مأخوذة من شفق بمعنى عطف وحنَّ، تقول: شفق فلان وأشفق على الصغير أي عطف وحنَّ عليه: وشفق على فلان أي: حرص على خيره وإصلاحه.

والشفق: بقية ضوء الشمس وحمرتها عند الغروب. سُمّي شفقاً لأنه دليل على شفقة الله تعالى وحنانه على خلقه. ولو أن الشمس كانت تغيب وهي على أشد ما تكون حرارة وتلاها الليل فجأة بجوِّه البارد وظلمته الشديدة لكان ذلك سبباً في تأثُّر النبات والأزهار والأثمار. وكذلك الإنسان والحيوان وإن تعمَّقتَ في النظر ودققت في الأمر وجدتَ أن ذلك يكون سبباً في موت النبات وهلاك الإنسان والحيوان، ولكن من رحمة الله أن جعل الشمس تميل إلى مغربها كما جعل الليل يغشى الأرض من بعدها بصورة تدريجية شفقة على الخلق وحناناً عليهم.

ويكون ما نفهمه من آية: **{فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ}** أي: لا أقسم بما في الشفق من الخير والإحسان والعطف والحنان.

{وَالَّيْلِ وَمَا وَسَقَ}:

وهذه **الواو** التي في أول هذه الآية إنما تبيّن أيضاً شأن الليل فإنها تقول: ولا أقسم بالليل فهو في خيره عليكم عظيم جداً وذو شأن جدير بالإكبار والإعجاب لكنه عليه تعالى هيِّن ويسير.

وما وسق: أي: وما حمل وجمع. تقول: وسق المزارع سنابل القمح، أي: جمعها وحملها وأوسق الدابة، أي: حمَّلها ومنه الوسْق أي: الحمل. تقول: اشتريت وسقاً من تمر أو بطيخ. وإذا دقَّقت في كلمة (**وَمَا وَسَقَ**) وجدتها تحوي أشياء كثيرة مجموعة منطوية في هذا الليل محمولة فيه فإذا جاء الليل جاءت معه رطوبة الجو وبرودته ورافقه الظلام وخيَّم فيه الهدوء والسكون فكان ذلك سبباً في انتعاش النبات وإنماء الثمار وراحة الإنسان والحيوان.

وإنك إذا أخذت تبحث عن فوائد الليل لم تنتهِ عند حدّ ولم تحصِ ما فيه من الخير، ولو أن النهار كان يدوم لهلَكَت الأحياء ولما صلحت هذه الأرض للحياة.

{وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ}:

واتسق: اجتمع بغيره منتظماً في سيره. تقول: اتَّسقت الإبل، أي: اجتمعت إلى بعضها فلم يشرد بعضها عن بعض، وتقول: اتَّسقت أمور الدولة، أي: اجتمعت على نظام فليس في سيرها شذوذ أو خلل. واتّسقت أمور المدرسة، أي: سارت الأمور فيها سيراً حسناً، فعرف كل تلميذ صفَّه وموضعه، وعرف كل معلم تلاميذه والمادة المكلَّف بإلقائها وسارت الأمور فيها مجتمعة على نظام واحد.

وأما ما نفهمه من آية: **{وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ}** أي: لا أقسم بالقمر إذا اتّسق أي إذا اجتمع بما وسق الليل من الخيرات، فكان القمر آلة منظِّمة يتوقَّف عليها سير ما في الليل من الخيرات وانتظام كل منها في وظيفته المخصّصة به، فإذا اتسق القمر أي: إذا

اجتمع بها سارت تلك الأشياء مؤدِّية وظائفها على أتم وجه وأكمل نظام. ولتوضيح ذلك نقول:

هب أن معملاً فيه عمال كثيرون، ولكل منهم وظيفته المخصَّصة به، ومن تضافر أعماله بعضها إلى بعض يُنتج ذلك المعمل المصنوعات التي اختصَّ بها، فهذا المعمل لا بد له من رئيس يُشرف على العمال ويسيّر العمل فيه، فإذا ما جاء رئيس المعمل انتظم كل عامل في موضعه، وجرت الآلات في أعمالها، وأنتج المعمل ما ينتجه.

وكذلك التلاميذ في الصف إذا جاء المعلم انتظموا في الدرس، وساروا في أعمالهم ودروسهم على أكمل وجه، فإذا قلت اتّسق رئيس المعمل واتّسق المعلم فهمت المراد.

ويكون ما نفهمه من آية: **{وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ}**:

أي: لا أقسم لكم أيضاً بالقمر إذا اجتمع ما في الليل من العوامل القائمة على سعادتكم وراحتكم كيف أنه يكون جامعاً لها وسبباً في انتظامها في أعمالها.

وبعد أن بيَّن لنا تعالى في الآيات الثلاث الأخيرة ما يذكِّرنا بشفقته وحنانه، أراد تعالى أن يبيِّن لنا أن حالنا في الآخرة إنما هو متطابق مع حالنا في الدنيا سواءً بسواء. فللمحسن الإحسان، وليس للمسيء سوى الشقاء والعذاب قال تعالى:

{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ}:

وتفصيلاً لذلك نقول: **تَرْكَبُنَّ** مأخوذة من ركب، تقول: ركب الدابة، أي: علاها وامتطى ظهرها، وركب السفينة، أي: سافر فيها، وركب الخوف والمرض، أي: حلَّ به الخوف والمرض ولازمه.

والطبق: مأخوذة من فعل طَبَقَ. وطبق الشيء على الشيء، أي: أصابه من جميع

جهاته، تقول: طبقت اليد اليمنى على اليسرى... والفك على الفك. والطبق هو المطابق أو الحال المماثل. تقول: هذا الكتاب طبق هذا الكتاب، وهذا الدواء طبق هذا المرض، ومنه قولهم: الدهر أطباق، أي: أحوال تصيب الإنسان بصورة مطابقة ومماثلة لما يناسبه.

ويكون ما نفهمه من هذه الآية الكريمة:

أن حال الإنسان في الآخرة مطابق تمام المطابقة لحاله في دنياه، فإن كان محسناً فبقدر إحسانه يكون نعيمه ورقيُّه، وإن كان مسيئاً فبقدر إساءته وإجرامه يكون عذابه وتدنّيه. قال تعالى:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَئُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِالْحُسْنَى)[1].

وبعد أن أرانا الله تعالى عظمته وقدرته، وبعد أن عرَّفنا بفضله وحنانه، أثار تعالى العجب لحال هذا الإنسان المعرض عن خالقه الرؤوف به والعطوف عليه فقال تعالى:

{فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}:

أي: ما بالهم بعد أن أريتهم ما أريتهم من الدلائل الدالة على عظمتي وقدرتي وفضلي وإحساني ورحمتي وحناني! ما بالهم بعد أن ذكّرتهم به لا يؤمنون أي: لا يُقبلون عليَّ فيشهدون حقائق ما تبيّنه لهم وتدعوهم إليه.

{وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ}:

---

(١) سورة النجم: الآية (٣١).

أي: وما لهم إذا سمعوا بياني وكلامي لا يسجدون: أي لا يتطلَّبون من فضلي وإحساني.

ثم بيَّن تعالى أن الكافر مهما ذكَّرته لا يذكر، ومهما أريته من الدلائل الدالَّة على عطف ربه وحنانه لا يقدِّر ولا يشكر، فشهوته غالبة عليه، ساترة له عن رؤية الحق وتقدير ربه المحسن إليه، قال تعالى:

{بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ}:

أي: أن المعرض المائل بنفسه إلى الدنيا يُعارض الحق مهما كان ظاهراً بيِّناً ويراه ولا يذعن إليه مهما كان نيِّراً واضحاً. ثم بيَّن لنا تعالى أن تكذيبهم إنما هو ناشئ عما وضعوه في نفوسهم من الخبث فقال تعالى:

{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ}:

وأَعْلَمُ: مأخوذة من علِم. تقول: علم الشيء، أي: اطّلع عليه، وقد جاءت كلمة (**أَعْلَمُ**) هنا في هذه الصيغة لتبيِّن لنا أنَّ الله تعالى أعلم بما في نفس الإنسان من الإنسان بذاته، فكم من شخص لا يشعر بما يوعيه في نفسه من الخبث بإعراضه عن ربِّه، والله تعالى أعلم به منه.

ويُوعُونَ: مأخوذة من أوعى، تقول: أوعى الشيء، أي: حفظه وجمعه، ومنه أوعى الطعام، أي: جعله في وعاء.

فالنفس بمثابة وعاء يمكن أن يُوضع فيه الخير أو الشر، فإن أقبلت على خالقها اكتسبت منه تعالى الكمال فصارت وعاءً للكمال والأخلاق العالية، وإن أعرضت عن خالقها نبت فيها الشر والشهوات الخبيثة فكانت وعاءً للشر والخبث، ويكون ما

نفهمه من آية: **{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ}**:

أي: إن الله تعالى مطّلع على ما يضعه ويوعيه أولئك الكفار في نفوسهم من الشهوات الخبيثة، ولذلك يسوق لهم ما يناسبهم.

ثم بيَّن تعالى أنه لا يدعهم يوم القيامة يتألمون مما أوعوه في نفوسهم، بل إنه تعالى رحيم بهم وسيعالجهم المعالجة المناسبة لهم فقال تعالى:

{فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}:

وبشِّرهم: مأخوذة من بَشَّرَ. تقول: بشَّرني فلان بالأمر أي: بلَّغني خبراً سارّاً وفرَّحني به.

والعذاب الأليم: هو الموجع وجعاً شديداً، وقد ذكر لنا تعالى كلمة (**بَشِّرْهُمْ**) بهذه الآية ليبيِّن لنا أن لؤم الكافر وحزنه على تفريطه في دنياه ، والشر الذي أوعاه في نفسه سيجرّ له نغصاً وحسرة عظيمة وسيسبِّب له شقاءً وألماً نفسياً لا يطاق، فإذا عرف أن الله تعالى سيدخله النار فسيكون ذلك بشرى له، لأنه لا يصرفه عما هو فيه من الألم النفسي الذي لا يطاق إلاَّ ألم جسمي وهو عذاب النار.

ومثل الكافرين ذوي العلل النفسية عندما يُبشَّرون بدخول النار كمثل فقير مريض، فإذا أنت سعيت له بالدخول في المستشفى ووفقت في سعيك ثم بيَّنت له ذلك فيكون بيانك بشرى سارّة له، لأن دخوله المستشفى سيباعد عنه ما هو فيه.

ثم بيَّن تعالى أن المؤمن الذي عمل الصالحات مُبعد عن كل ذلك وإنه ليس له في الآخرة إلا النعيم المقيم. فقال تعالى:

{إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}:

وكلمة (**إلاَّ**) أداة استثناء أي: إنها تجعل المذكورين بعدها في هذه الآية في نجوة من ذلك العذاب الأليم.

أما كلمة (**آمَنُواْ**): فمأخوذة من آمن إيماناً، والإيمان هو التصديق والثقة الحاصلة بعد الرؤية والمشاهدة.

أما طريق الوصول إلى الإيمان فإنما يكون بالتفكير في الكون وما فيه من المخلوقات الناطقة بعظمة الخالق وحكمته، الشاهدة على عدله تعالى ورحمته. فهؤلاء الذين سلكوا طريق التفكير في الكون ورأت نفوسهم ما فيه من العظمة والآيات الدالة على الحكمة الإلهية والرأفة والرحمة تكسبهم رؤيتهم هذه تصديقاً وثقة بخالقهم العظيم لأن ذلك لا يكون إلا بعد الشهود والرؤية.

فإذا رأى الإنسان عظمة خالقه وشاهد عدل ربه ورحمته به فهناك يخضع له ويخشع ويرى أن أوامره تعالى كلها خير، وعند ذلك ينطلق في طريق العمل الصالح. ولذلك ذكر تعالى العمل الصالح بعد الإيمان.

وإذاً فالإيمان أصل كل مكرُمة وفضيلة، ومن دونه يكون الإنسان أشبه بالميِّت لا يعمل خيراً بل إنما يصدر عنه كل شر وأذى.

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يصيبهم ذلك العذاب الأليم، لأن عملهم كله خير، ثم إن لهم على عملهم الصالح أجر غير ممنون.

غَيْرُ مَمْنُونٍ: أي غير مقطوع. تقول: منَّ الحبل أي قطعه وغير ممنون أي غير ممتنٍ عليهم به، لأنهم خُيِّروا وأُعطوا الحرية في الاختيار فاختاروا طريق الإيمان وقدَّموا من العمل الصالح ما جعلهم أهلاً لذلك العطاء. قال تعالى:

(... وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)[1].

---

(1) سورة البقرة: الآية (١٤٣).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا
كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤
لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ
ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ٧ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٩
وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ١١ وَمَا يُكَذِّبُ
بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ
١٣ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ
يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا
ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ١٧ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨
وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١ إِنَّ
ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ
نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي

ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنًا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾

صَدَقَ اللهُ العَظِيمُ

تأويل سورة المطففين

بعد أن ساق لنا تعالى في سورة الانشقاق من الآيات الدالّة على عظمته وإحسانه ما يجعلنا نُقْبلُ عليه تعالى فيكون إقبالنا سبباً في طهارة نفوسنا، وبعد أن عرَّفنا أن الكافر المكذِّب إنما يجرُّ لنفسه بما يوعيه فيها من الخبث والشر عذاباً أليماً. أراد تعالى في هذه السورة أن يبيِّن لنا أن الشهوات الخبيثة التي يكسبها الإنسان بإعراضه عن ربه، هذه الشهوات تجعل راناً على القلب، أي: تُشكِّل حجاباً ساتراً يستر النفس عن رؤية الحقائق، فيصبح هذا الإنسان في عمىً وضلالٍ لا يحسب حساباً لما يعقب أعماله السيّئة من الشرور والآلام، ولا يعود يرى ما ستجرُّه له شهواته في الآخرة من أليم العذاب، ولذلك تراه يكذِّب بيوم الحساب.

وقد أراد تعالى أن يحذِّر الإنسان من ذلك الإعراض وما يولِّده في النفس من انحراف عن الحق وميل للعدوان فقال تعالى:

{وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ}:

والويل: هو حلول الشر ونزول الهلاك، وتُقال هذه الكلمة لمن قام بعمل أبعدَ به عن نفسه خيراً عظيماً، وجرّ لها هلكة وشقاء. فالله تعالى إنما أعطى الإنسان (**الكوثر**) أي: أنه أعدَّ له خيراً لا يتناهى ولكن المعرض عن ربه إنما يجعل ذلك الخير المعدّ له يولِّي عنه.

إن كلمة (**وَيْلٌ**) مأخوذة من ولَّى أي: ولَّى عن أولئك المطففين بعملهم السيِّء ما كان أعدَّه الله تعالى لهم من الخير العظيم. وإن كلمة (**وَيْلٌ**) مأخوذة أيضاً من (**ويْ**)، وهي كلمة تعجُّب أي: ما أعجب أمر هؤلاء وما أجهلهم فكم حرموا أنفسهم من خيرات مهيَّأةٍ لهم!

والمطففين: جمع مطفِّف، **والمطفِّف**: هو الذي يسعى دوماً في جرِّ المغنم لنفسه سواءٌ كان بائعاً أم مشترياً أو دائناً أو مديناً، معلِّماً أو أجيراً، فليس يهمّه في هذه الدنيا إلا أن يكون رابحاً.

وقد أراد تعالى أن يفصّل لنا ذلك المعنى فقال تعالى:

{الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ}:

واكتال: أي: طلب من غيره أن يكيل له، وهي مأخوذة من فعل كالَ، كما أن ابتاع مأخوذة من فعل باع.

و (**عَلَى النَّاسِ**): إنما تُفيد الاستعلاء والسيطرة. وكلمة (**يَسْتَوْفُونَ**): أي يأخذون حقهم كاملاً وافياً. ويكون ما نفهمه من هذه الآية:

أن المطفِّف رجل إذا كانت له السيطرة والاستعلاء على غيره استوفى منه حقه على الوجه الأتم.

ثم بيَّن لنا تعالى صفة ثانية من صفات المطفِّفين فقال تعالى:

{وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ}:

وكالوا: أي إذا كالوا للناس أو وزنوا لهم فإنهم يُخسرون أي: يظلمونهم، ولا يؤدُّون لهم حقّهم تامّاً كاملاً. وإذا أردت التوسُّع في معنى الآية فنقول:

التطفيف يتناول سائر نواحي البيع مما فيه غمط الناس وتخسيرهم، فالذي ينقص المكيال ولا يعطيه حقه مطفِّف، والذي ينقص الميزان مطفِّف، والذي يبيع البضاعة الرديئة بسعر البضاعة الجيدة مطفِّف، والذي يأخذ من الثمن قدراً زائداً عن السعر الحقيقي الذي يقتضي أن يأخذه مطفِّف. وبصورة عامة كل امرئ يسعى في جرِّ المغنم

لنفسه غامطاً حقوق غيره إنما هو مطفِّف.

والتطفيف يدخل مع الإنسان في البيع والشراء، وفي الشركة والقسمة والديْن، وفي معاملة الزوجة والجيران وفي كل حال من الأحوال، حتى في معاملة الحيوان، فالذي يحمِّل دابة ويستخدمها في حاجته ثم لا يؤتيها حقها من الطعام والشراب إنما هو أيضاً مطفِّف. وهكذا كل إنسان لا يسير في معاملته بالعدل ولا يعامل الناس بمثل ما يحب أن يعاملوه، بل يستوفي حقه منهم كاملاً فإذا كان عليه الحق لم يؤدِّه لهم على الوجه الأكمل يُسمّى مطفِّفاً. ثم إن الله تعالى أراد أن يذكِّر المطففين بذلك اليوم العظيم الذي سيقفون فيه بين يديه فقال تعالى:

{أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۞ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ}:

ويظن: مأخوذة من الظن: وهو الاعتقاد الراجح. ومنه قوله تعالى:

(... **وَظَنُّواْ أَن لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ**)(١). أي: ثبت ذلك لديهم وتقرر في نفوسهم.

ومبعوثون: مأخوذة من البعث وهو الإيقاظ بعد رقدة. فبعث الناس بعد موتهم إنما هو إعادتهم إلى الحياة من بعد رقدتهم في قبورهم.

واليوم العظيم: هو يوم القيامة فهو عظيم لما يتبعه من الخير الواسع الأبدي الذي لا يتناهى للمحسنين. وهو أيضاً عظيم لما يتبعه من الشقاء والعذاب الأليم للمسيئين. وأما كلمة (**ألاَ**): فهي هنا كلمة تحضيض، والتحضيض هو الحث على القيام بالفعل، كأن تقول للمسرف على نفسه ألا تتوب وقد بلغت المشيب.

---

(١) سورة التوبة: الآية (١١٨).

ويكون ما نفهمه من هذه الآية الكريمة: **{أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ}**:

أي: ألا يجب عليهم أن يفكِّروا وينظروا أن الذي خلق السموات والأرض وأوجدهما على هذا النظام البديع هل يمكن أن يترك الإنسان سدىً!

إن العدالة الإلهية تقضي أن لا يُعامل المحسن كالمسيء، وأنه لا بدّ من يوم تقف فيه الخلائق جميعاً للسؤال بين يدي رب العالمين.. قال تعالى:

{يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}:

والربّ: هو المربي الممدّ بالحياة. **والعالمين**: جمع عالم وهي تشمل سائر أنواع المخلوقات كما تمَّ شرحها في سورة الفاتحة[١].

ويكون ما نفهمه من هذه الآية: أي: أن الممد بالحياة لهذه العوالم كلها هذا المربي الذي لا يعجزه شيء سيدعو الناس للوقوف بين يديه وأنه سائلهم عن أعمالهم يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء.

وحيث إن المعرض عن ربه يحسب أن الحياة هي الحياة الدنيا، وأنه ليس من حياة بعدها ولا مسؤولية عليه أراد تعالى أن يقتلع هذه الفكرة الخاطئة من نفسه فقال تعالى:

{كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ}:

وكلا: كلمة ردع وزجر، **والكتاب**: ما يُكتب على الإنسان من أعماله، فلكل امرئ كتاب جامع تسطر فيه أعماله كلها صغيرها وكبيرها منذ أن أصبح مكلَّفاً حتى فراقه

---

(١) انظر كتاب تأويل القرآن العظيم. المجلد الأول للعلامة محمد أمين شيخو.

لهذه الدنيا. **والفجّار**: جمع فاجر، والفاجر هو الذي فجر، أي: خرج بعمله السيِّء عن السير الإنساني والطريق القويم.

والسجّين: مأخوذة من سَجَنَ، بمعنى قيَّد وحَبَسَ، ومنه: السجن وهو الحبس، والسجِّين: هو الشديد، فما كُتِبَ على الفجار من عملهم يجعلهم في سجِّين أي محبوسين في حال شديد عليهم لا يستطيعون الخروج منه. وبشيء من التفصيل نقول:

خلق الله تعالى الإنسان وجعل له من الأهليّة للترقي إلى طريق الكمال ما يجعله يعلو ويسمو على سائر المخلوقات، لكن الفاسق تحبسُه أعماله المنحطَّة عن الإقبال على الله، وتمنعه من العروج في طريق القُرْب، فكلّ ما يجده من الملاذ الجسدية لا يخلِّص نفسه مما هي واقعة فيه من الهم ولا يجعلها تخرج من سجن الكدر والأحزان، فهو دوماً في سجِّين، أي: في حال نفسي شديد أشد عليه من السجن الجسدي.

وإذا أردت أن تدرك ذلك فانظر إلى حال الفاجر السائر في طريق الفسق والأذى تجده مكدَّر القلب، منغَّصاً مهما جلب من المال ومهما بلغ من العز والسلطان، ومهما أعطى نفسه من الملاذ والشهوات فهو دوماً في ضيق وضنك لا يفارقه الهم والكدر. وقد بيَّن لنا الله تعالى ذلك بقوله:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً...﴾[1].

﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

---

(١) سورة طه: الآية (١٢٤).

(١) سورة آل عمران: الآية (١٨٨).

ذلك حالهم في الدنيا فإذا جاء أحدهم الموت وجد تفريطه وخسارته ولؤمه في نفسه فأصبح في سجّين، أي أن نفسه تصبح محبوسة في حال شديد من الحزن والألم النفسي والخجل بين يدي هذا الخالق الكريم وهنالك لا تجد مكاناً أوفق لها من النار فهو دوماً منطوٍ على نفسه محاطة بسجن من الخجل والحزن وهو خالد في نار جهنم لا يستطيع أن يخرج منها لأن حريق هذه النار وعذابها يجعله في سلوة عما يحيط به من الآلام النفسية.

ثم بيَّن لنا تعالى شأن ذلك الحال المذكور وعظيم أثره على النفس فقال تعالى:

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ}:

أي: أنك مهما تصوَّرت من حال ذلك الفاجر وهمّه وضيقه فهو أعظم، ومهما تخيَّلت من هموم السجناء وضيقهم في سجنهم فحال ذلك الفاجر في سجنه أشد وأكبر!!!

ثم بيَّن لنا تعالى دقة إحصائه على المجرمين أعمالهم التي فعلوها في دنياهم فقال تعالى:

{كِتَابٌ مَرْقُومٌ}:

والمرقوم: أي ذو أرقام متتالية، فأعمال المسيئين جميعاً مسطرة فيه عملاً إثر عمل منذ سن الرشد حتى نهاية الحياة، قال تعالى:

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)[١].

---

(١) سورة الكهف: الآية (٤٩).

ثم بيَّن تعالى أن المكذِّب إنما يحرم نفسه يومئذ من ذلك الخير الذي أعدّه الله تعالى له وأنه يجرُّ لنفسه بعمله السيِّء الشقاء والهلاك. فقال تعالى:

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ}:

أي ما أعظم ما ولَّى عنهم من الخير وما أعظم الشقاء والهلاك الذي أوقعوا أنفسهم فيه.

{الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ}:

ويوم الدين: هو اليوم الذي تدين فيه الأنفس، أي: تقرُّ كلها بالحق، فهي تدين وتقر لأن الشهوة التي كانت تحجبها عن رؤية الحق في دنياها تظهر لها يومئذٍ حقيقتها، وهناك تخجل من عملها وإساءتها فتندم وتتحسَّر على تفريطها وتقصيرها، فترى أن كل ما جاءت به الرسل عن ربها حقّاً، وترى أن الله هو الرحمن الرحيم، وأن الله عادل ورب متفضِّل، فتخضع مستسلمة إليه وترى أن النار التي سيصير إليها العصاة هي لهم خير علاج، وأن الجنَّة التي سيصير إليها الطائعون المحسنون هي لهم خير مستقر ومقام.

ومثل الخلق جميعاً يومئذ كمثل إنسان بين يدي طبيب حاذق، فتراه يدين له أي يستسلم لأمره من بعد أن عاين مقدرته وعرف كماله وعلمه، فإن كان هذا الإنسان صحيحاً ووصف له ذلك الطبيب طعاماً مغذِّياً أخذ ذلك عنه بقبول وتسليم، وإن كان مريضاً عليلاً وأمره بالحمية ووصف له بعض العلاجات المرَّة الكريهة تراه يدين لكلامه ويذعن مستسلماً لحكمته.

وكذلك يوم القيامة يدين الخلق جميعاً لرب العالمين، فيحمد المحسنون ربهم عما يسوقه إليهم من النعيم، ويحمده العُصاة المجرمون ويستسلمون له على ما سيحلُّه بهم من

العذاب في الجحيم، قال تعالى:

(... وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[1].

ثم بيَّن لنا تعالى السبب الذي يجعل الإنسان مكذِّباً بيوم الدين فقال تعالى:

{وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ}:

أي: أن الإنسان إذا جعل يعتدي ويتجاوز الحدود، ولم يسلك طريق الإنسانية كان من خصائصه التكذيب بذلك اليوم، فإذا رأيت مكذِّباً بيوم القيامة فاعلم أنه رجل مجرم، وإذا أردت أن تفهم معنى كلمة (**مُعْتَدٍ**) وكلمة (**أَثِيمٍ**) فنقول:

كلمة (**مُعْتَدٍ**): مأخوذة من اعتدى بمعنى جاوز الحد، وهي هنا تعني الذي يجاوز الحدود الإنسانية في معاملته للناس، فإذا باع غشّ، وإذا وعد أخلف، وإذا سار في الطريق أطلق بصره في الحرام، وإذا تكلَّم آذى بلسانه الناس، وهكذا كل امرئ يقوم بعمل لا يرضاه لنفسه ولا يحب أن يعامله به الناس فهو معتدٍ.

أما **الأثيم**: فهو الذي اكتسب باعتدائه تلك الصفة المنحطة التي لا تليق بالإنسان، والتي تجعله مُستحقاً للعقوبة والتأديب، فهو عند قيامه بالفعل الخبيث يُسمَّى معتدياً، فإذا صدر منه ولبس ثوب الإجرام، واكتسب اسم المجرم الذي جرم نفسه أي: أبعد عنها الخير وجرَّ لها العقاب والتأديب سُمِّيَ أثيماً.

ثم بيَّن لنا تعالى كيفية تكذيب المعتدي بيوم الدين فقال تعالى:

{إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}:

---

(١) سورة يونس: الآية (١٠).

أي: أنه بسبب انغماسه بالعمل الخبيث لا يعود يميِّز الشر من الخير، فإذا تَلَوْتَ عليه الآيات الدالة على عظمة الله، وإذا أنت لفتَّ نظره إلى الكون وما فيه من الدلائل الناطقة بعظمة الخالق، وإن بيَّنت ما جاء به الرسل عن الله من الهدى والحق، عارضك فيما تقول وزعم أن ما تُبيِّنه له غير متلائم مع عصره، بل هو من الأساطير، أي: الأحاديث المسطرة المروية عن الأقدمين والتي لا تصلح لزمانه. وفي الحقيقة، كل معتدٍ أثيم، في أي عصر كان إذا هو لم يرجع عن غيِّه وشهواته لا يذعن للحق بل يكذِّب به لأنه يراه معارضاً له في سيره وغير متلائم مع ما تشتهيه نفسه الخبيثة من الرذيلة، وما هي مصطبغة به من الدناءة، ولو أنه تاب واستقام لشاهد الحق بمجرد رجوعه إلى الله وتوبته إليه.

ثم إن الله تعالى ردَّ على ذلك المعتدي الأثيم:

{كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ}:

وكلمة (**كلا**): كما رأينا من قبل كلمة ردع ونفي لذلك الزعم الباطل.

أي ليس الأمر كما يزعم ذلك المعتدي وليست تلك الآيات البيِّنة بأساطير الأولين، لكن تلك الأعمال التي كسبها وقام بها ذلك المجرم رانت على قلبه أي حجبته وسترته فأصبح أعمى البصيرة لا يستطيع أن يميِّز الخير من الشر ولا يتمكن أن يرى ما في أوامر الله من الهدى والخير وبشيء من التفصيل نقول:

رَانَ عليه: بمعنى حجبه وغلب عليه. **والقلوب**: جمع قلب وهي تعني قلب النفس التي تعقل وترى به الخير من الشر.

مَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ: أي ما كانوا يقومون به من الأعمال. فالأعمال السيِّئة التي يكسبها الإنسان تقف حجاباً على القلب فتستره وتغلب عليه كما تستر الغشاوة

العين عن النظر، أو كما تستر الأوساخ المتراكمة على زجاجة المصباح شُعلته وهناك يختفي نوره ولا يكاد يُبين. ولكن عن أي شيء يستر ذلك العمل السيِّء ذلك المجرم؟ إنه يستره عن الاستنارة بنور الله الذي به يرى الخير من الشر ، وقد بيَّن لنا تعالى ذلك بقوله:

{كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ}:

وكلا: معناها كما رأينا كلمة ردع ونفي، أي: ليست آياتنا بأساطير الأولين، لكن عمل أولئك المعتدين وقف حجاباً بين قلوبهم وبين ربّهم فحجبهم عن الاستنارة بنوره تعالى، ذلك النور الذي يكشف للنفس حقائق الأشياء. وإذاً بالإجرام ومقارفة المعاصي والذنوب تُحجب النفس عن نور خالقها، فتصبح عمياء لا تُبصر.

فإذا أراد الإنسان أن يتخلَّص من عمى البصيرة فما عليه إلا أن ينظر في الكون متأمِّلاً مهتدياً إلى خالقه، مُستقيماً على أمره، وهناك تنقشع الحجب عن النفس، وتُقبل على الله تعالى فترى بنوره الخير خيراً والشر شراً.

ثم بيَّن لنا تعالى نتائج أولئك المجرمين فقال تعالى:

{ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ الْجَحِيمِ}:

والمراد بكلمة **{لَصَالُوا الْجَحِيمِ}**: أن ما فيهم من الآلام والعلل النفسية هو الذي يجعل النار تشتعل بهم. وبشيء من التفصيل نقول:

صالوا: مأخوذة من صليَ. تقول: صلى النار، أي: قاسى شدتها واحترق بها. **والجحيم**: هي النار المتأجِّجة المهوَّاة. فهؤلاء بما خالط نفوسهم من الخبث يحترقون في النار وتلتهب بهم، وما مثلهم إلا كمثل قطعة من التراب غمست في الزيت وتشرَّبت

به فأصبح مخالطاً لذراتها، فإذا ما أدنيتها من النار التهبت بما فيها، وكذلك المجرم يوم القيامة تشتعل النار فيه بما خالط نفسه من العلل والأمراض النفسية.

ولو أنه كان طاهر النفس لما ضرَّته بشيء. فهو يرتمي فيها وتلتهب به ليتخلَّص مما فيه من الآلام والعلل.

{ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ}:

ويقال: أي يقول بعضهم لبعض وهم يحترقون فيها هذه النار إنما جررناها لأنفسنا بعملنا، فهم يعترفون ويقرُّون على أنفسهم أن عذابهم فيها منبعث عن أعمالهم الخبيثة التي قدَّموها في الدنيا، كما يعترف المفرط في الطعام أن ما أصابه من التخمة إنما نشأ عن إفراطه. ومن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ولا يظلم ربُّك أحداً.

وبعد أن بيَّن لنا تعالى أن عمل الفجَّار يجعلهم في سجِّين، وأنه ليس يضيع من أعمالهم شيء، أراد تعالى أن يرد على الفجار زعمهم الذي يزعمونه بأن المؤمنين في تورّعهم عن إعطاء النفس هواها ومتابعة شهواتها إنما يحرمون أنفسهم من السرور والنعيم فقال تعالى رادّاً عليهم قولهم:

{كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ}:

وكلا: كلمة ردع ونفي، أي ليس الأمر كما تزعمون أيها الفجَّار بأن المؤمنين في امتناعهم عن شهواتهم محرومون من السرور، فالمؤمنون أولوا بصيرة وأصحاب نفوس سامية، رأوا دناءة الدنيا وأنها جيفة فنفروا منها، وعافوا التطلُّع إليها، ولذلك لم يغترُّوا بها، كما رأوا الأعمال العالية التي تعود عليهم بالسعادة الأبدية والخير الدائم فمالوا إليها وقاموا بها.

وأما **الكتاب**: فهو ما كُتِبَ عليهم من أعمالهم. وقد سمَّاهم تعالى بالأبرار، **والأبرار**: مأخوذة من برَّ. بمعنى أحسن، فهم أبرار محسنون لأنفسهم ولسائر المخلوقات وليس يصدر عنهم إلا كل خير وإحسان كما أن برَّ أيضاً بمعنى وفَّى بوعده.

فالإنسان لما كان في عالم الأزل نفساً مجرَّدة عاهد ربه على السير في دنياه ضمن أوامره تعالى والاستنارة دوماً بنوره، إذ بنوره تعالى تنكشف للنفس حقائق الأشياء فلا يضل الإنسان طريقه، ولا يجتذب لنفسه إلا كل شيء طيب يعود عليه بالسرور والسعادة.

هكذا عاهد الإنسان ربه. فالأبرار هم الذين جاؤوا لهذه الدنيا فبرُّوا بوعدهم وأقبلوا على خالقهم فلم ينقطعوا عنه، ولذلك كانت معاملتهم مع الخلق جميعاً كلها خيراً وبرّاً وإحساناً.

ولكن بِمَ تعود عليهم أعمالهم الإنسانية التي كلها برٌّ وإحسان؟ إنها تجعلهم في علِيّين. أي أنها تجعلهم يتنقَّلون في النعيم العالي لحظة فلحظة وحيناً بعد حين، فمن نعيم عالٍ إلى نعيم أعلى، وهكذا دوماً يرقون في درجات القرب والتجلِّي الإلهي رقيّاً متتالياً ليس له انتهاء أبد الآباد وذلك ما نفهمه من كلمة (**لَفِي عِلِّيِّينَ**). وإذا أردت أن تدرك كيفية هذا الرقيّ المتتالي فنقول:

الإنسان في الدار الآخرة إنما يتنعم بسبب عمله. فالأبرار الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه وكانوا من أهل المعروف والإحسان إذا هم قدموا بعد هذه الحياة الدنيا على الله تعالى تنكشف لهم أعمالهم العالية التي قدَّموها من قبل، فيكون لهم من إحسانهم سبب للإقبال على خالقهم، وهناك تتنزَّل التجلِّيات الإلهية على نفوسهم ولا تزال أعمالهم تمرُّ أمامهم واحداً فواحداً بصورة متسلسلة، وهم يرقون بها ويزدادون عروجاً ونعيماً حتى يعود لهم العمل الأول فيرقون به من جديد ولا يذكرون أنه مرَّ من قبل.

ومثلهم كمثل رجل وضع عينيه أمام صندوق ذي مناظر تدور بصورة متسلسلة الواحدة تِلْوَ الواحدة، فإذا انتهت الصور وعادت الصورة الأولى عاد لها بشوق وكأنه لم يرها من قبل فيعود يتنعَّم بها من جديد.

وكذلك الإنسان في الآخرة لا يلبث أن تمر عليه أعماله كلها حتى يعود له الأول فيقبل بواسطته على الله تعالى، وهو لا يذكر أنه مرَّ به، بل يراه جديداً، وهكذا تراه يعرج في مدارج الإقبال والنعيم عروجاً لاحدَّ له ولا انتهاء.

وقد أراد تعالى أن يبيِّن لنا شأن ذلك النعيم الذي يلقاه الأبرار في الدار الآخرة فقال تعالى:

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ}:

أي: وما أعظم ذلك النعيم العالي، وما أكثر سرور صاحبه به، إنك مهما تصوَّرت من علوّه وسموّه فلست تستطيع أن تدرك له نهاية أو حدّاً.

ثم بيَّن لنا تعالى أن نعيمهم إنما ينشأ عن عملهم المسجّل ضمن أرقام متتالية فقال تعالى:

{كِتَابٌ مَرْقُومٌ}:

والمرقوم: هو ذو الأرقام المتتالية: فأعمالهم المكتوبة عليهم إنما هي محفوظة بأرقام متسلسلة واحد بعد واحد فليس يضيع منه شيء.

{يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ}:

والمقرَّبون: جمع مقرَّب والمقرَّب: هو الذي سار في طريق الحق فقرَّبته طاعته إلى خالقه وأوصله سيره العالي إلى مقام القرب من ربِّه. فهو يشهد أي يرى ويعاين في الدنيا سمو

عمله فيزداد إقبالاً على ربِّه وبذلك يزداد معروفاً وإحساناً. وهو يشهد عمله العالي أيضاً عند موته فيموت راضياً مطمئناً ثم إنه يشهده في الدار الآخرة فيرقى به رقيّاً متتالياً.

وبعد أن ذكر لنا تعالى أن كل إنسان إنما يجعله كتابه في المنزلة التي تناسبه وتليق به فكتاب الفجَّار يجعلهم في سجِّين وكتاب الأبرار يجعلهم في عليّين، أراد تعالى أن يبيِّن لنا حال الأبرار فقال تعالى:

{إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ}:

والنعيم: مأخوذة من نَعِمَ، تقول: نَعِمَ فلان، أي: رَفِهَ عيشه ولان وطاب واتَّسع.

فالأبرار الذين برُّوا بوعدهم وصدقوا ما عاهدوا الله عليه. أي أقبلوا على ربهم مستنيرين بنوره غير منقطعين عنه، فكان كل عملهم مع الخلق برّاً وإحساناً، هؤلاء الأبرار إنما يحيون في الدنيا حياة طيبة لا يُنغِّص صفوها منغِّص، ولا يكدِّرها مُكدِّر، ذلك لأنهم يرون أعمالهم العالية فيقبلون على الله، ومن كانت نفسه مقبلة على خالقها فهي دوماً في نعيم، فإذا هم فارقوا هذه الدنيا إلى الدار الآخرة انتقلوا من نعيم إلى نعيم أرقى وأبقى، ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين.

ثم بيَّن لنا تعالى أن سرور الأبرار إنما ينشأ عمَّا قدَّموه من أعمال فقال تعالى:

{عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ}:

والأرائك: جمع أريكة، والأريكة: هي السرير المزيَّن الفاخر، حيث إن الأرائك إنما هي السرر التي يتَّكئ عليها الإنسان فيتوصَّل بها للإقبال على الله، وهناك ينظر أي ينعم بمشاهدة ذلك التجلِّي الإلهي الذي يزيل عن النفس جميع ما بها من هموم وأتعاب.

وبالحق إن الإنسان في دنياه وآخرته لا يستطيع الإقبال على ربه ما لم يكن له عمل صالح يستند عليه، فإذا جاء الإنسان بالأعمال الصالحة كانت لنفسه مستنداً ومتّكأً فتقبل بها على خالقها في الدنيا وتقبل بها عند الموت، وكذلك حالها في الدار الآخرة ورقيّها دوماً مبني على أعمالها وذلك قانون من قوانين النفس لا يتغير ولا يتبدَّل. فالنفس تجدها خجلة منقبضة، ومدبرة غير مقبلة إذا لم يكن لها مع من تواجهه معاملة حسنة، فإن هي قدّمت إحساناً التفتت مقبلة فخورة وكان عملها الطيب لها بمثابة مستند وأريكة. وإذاً فرقيّ الإنسان وسعادته إنما يكون بأعماله، فمن كان أكثر إحساناً كان أكثر إقبالاً على ربه، وبالتالي أكثر سعادة ونعيماً، وإنما يتفاوت الناس بحسب أعمالهم.

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ) [١].

ثم بيَّن لنا تعالى أن ذلك النعيم الذي يجده الأبرار المحسنون لا يخفى أمرهم على غيرهم، وإنما يظهر لك إذا نظرت إلى وجوههم... فقال تعالى:

{تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ}:

والنضرة: هي الجمال والحسن. فهؤلاء المحسنون ليسوا بمكدَّرين من أعمالهم، بل هم فرحون بها مسرورون منها، فإذا أنت نظرت إلى وجوههم عرَّفك حسنها وجمالها وبريقها بما انطوت عليه نفوسهم من السرور والنعيم.

وبعد أن بيَّن لنا تعالى أنّ الأبرار على الأرائك ينظرون، وأنها تظهر على وجوههم نضرة النعيم. أراد تعالى أن يبيِّن لنا نوع العمل الذي قدَّموه في دنياهم، فكان لهم

---

(١) سورة الزلزلة: الآية (٧-٨).

أريكة ومستنداً يستندون عليه فيرقون ذلك الرقي المتتالي فقال تعالى:

{يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ}:

والسقي: هو تقديم الماء وسوقه لمن يريد أن يشرب، تقول: سقى فلان الدابة، أي: وضع بين يديها الماء، وسقى الزرع، أي: ساق إليه الماء ليشرب ويروى به.

والرحيق: الخالص والصافي: تقول: مسك رحيق، وعسل رحيق، أي: خالص لا غشّ فيه، ومنه رحيق الزهر وهو مادة سكرية أودعها الله في الأزهار يمتصها النحل فتكون عسلاً.

والمختوم: مأخوذة من ختم زجاجة الدواء، أي: سدَّها سدّاً مُحكماً بالشمع أو غيره حفظاً لها من الفساد وتسرُّب الجرثوم.

ويكون ما نفهمه من هذه الآية: إن الأبرار إنما تُساق لهم في الدنيا بسبب إقبالهم على ربهم طيبات الأعمال ورحيقها الخالص من كل شائبة. فإذا أرادوا كسب المال مثلاً جعل الله تعالى كسبهم له من أطيب وجه، وإذا أرادوا التزوُّج بالنساء جعل الله تعالى نصيبهم في الزواج أطهر النساء وأشرفهن، وإذا أرادوا إنفاق المال كان صرفهم له في مساعدة ذوي الحاجات ومعونة البائسين، وفي كل وجه طيب مفيد، وإذا أرادوا أن يتكلَّموا أجرى الله الحق على لسانهم، فكان كلامهم أمراً بالمعروف أو إصلاحاً بين الناس ودعوة إلى الهدى والخير، وهكذا دائماً يُسقَوْنَ أي يُساق لهم أصفى الأشياء وأنقاها وأخلصها.

وأما ما نفهمه من كلمة: **المختوم:** هنا فهو المحفوظ من تسرُّب الأذى والفساد إليه فلا يمكن لهؤلاء الأبرار يوماً ما أن تفسد أخلاق زوجاتهم، فهن دوماً طاهرات

محفوظات، ولا يمكن لكسبهم أن يتسرَّب إليه درهم من حرام، ولا يمكن لهم أن ينطقوا بالباطل وعملهم دوماً طيب محفوظ من تسرُّب الأذى إليه. وبشيء من التفصيل نقول:

نفس الإنسان مثلُها كمثل الإناء فإذا أقبل الإنسان على ربه أصبحت نفسه بهذا الإقبال طيبة طاهرة، فلا تتطلّب إلاّ الطيب الطاهر، وهناك يعطيها الله طلبها فتُسقى الرحيق، أي: يُساق لها طيب الأعمال وأطهرها المختوم الذي لا يمكن أن يخالطه فساد أو يمازجه مكروه.

وإن هو أعرض عن ذكر ربه امتلأت نفسه بسبب إعراضها بالخبث، ونبت فيها الشر، وصارت تتطلَّب الأشياء الخبيثة فيُساق لها طلبها وتُعطى شهواتها وبذلك يخرج منها جرثومها وخبثها ولا يعود كامناً فيها، ولو أنها لم تطلق للفعل لظلَّت شهوتها فيها، بل لتوسَّعت تلك الشهوة فطغت على النفس كلها فأهلكها خبثها، وإذا أردت أن تدرك هذه الحقائق فأقْبل على ربك في صلاتك كما أمرك تظهر لك الحكمة الإلهية في ما يسوقه الله للناس، وهناك تقرُّ بالعدالة الإلهية وتزداد إقبالاً على الله فلا تتطلَّب نفسك إلاَّ الطيِّب ولا تُسقى إلا من الرحيق المختوم.

ثم بيَّن لنا تعالى سرور الأبرار في النهاية بذلك فقال تعالى:

{خِتَامُهُ مِسْكٌ...}:

والختام: هو كل ما يختم به على الشيء، والختام أيضاً: هو نهاية وآخر الشيء.

والمسك: نوع من أفخر أنواع الطيب سمّي مسكاً لأن الإنسان يتمسّك به لما يفوح منه من الرائحة المنعشة للنفس.

فهؤلاء الأبرار دوماً تفوح عليهم أعمالهم في النهاية بروائح طيبة، فهم مسرورون دوماً من عملهم لا يخجلون منه أمام الناس، كما لا يخجلون منه بين يدي الله، بل إنهم فخورون مُتمسِّكون به لما يرون من سموِّه وشرفه.

والواقع أن الإنسان إذا قام بعمل من أعمال المروءة والشرف تجده فخوراً مُتمسِّكاً به بين الناس، فلا يجلس في مجلس إلا جلسة سموّ وشرف، لما يفوح عليه من عمله الطيب الذي قام به. ذلك هو حاله في الدنيا، وكذلك الأمر عند الموت، وفي الآخرة ختام عمله عليه مسك.

{وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ}:

والتنافس: هو التسابق للشيء العالي الطيب بحيث يريد كلُّ امرئ أن يجرّه لنفسه، فمن محبة الله تعالى أنه يحثُّنا على التنافس في تلك الأعمال الطيبة، ومن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها.

ولكن ما الذي كان يخالط عملهم حتى كان سبباً في نعيمهم وسرورهم؟ .

لقد كان يخالطه النيَّة العالية، وهذا ما بيَّنه الله تعالى لنا بقوله:

{وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ}:

والمزاج: مأخوذة من مَزَجَ بمعنى خَلَطَ، تقول: مزج فلان اللبن بالماء، ومزج عصير الفواكه بماء الزهر، وعلى هذا المزاج هو ما يُصبُّ فوق شيء آخر ويمزج به فالماء مزاج وماء الزهر مزاج.

أما **التسنيم**: مأخوذة من سَنَمَ، يُقال: سنم القمح، أي: ارتفع وخرجت سنابله التي تعلو رأسه، ومنه السَّنام وهو الحدبة التي تعلو ظهر الجمل.

والتسنيم: هو تبوُّؤ المنزلة العالية، تقول: تسنَّم فلان منصب الوزارة. وبناءً على ما قدَّمناه نقول: إن الرحيق المختوم الذي يُسقاهُ الأبرار أي أن الأعمال الطيبة التي كانوا يقومون بها في الدنيا إنما كان يمازجها ويخالطها التسنيم أي النية العالية التي ترفع من شأنها وبذلك تتسنَّم نفوسهم منازل القرب الإلهي. وبشيء من التفصيل نقول:

قد يقوم شخصان اثنان بعمل متماثل فيتصدَّق أحدهما بمبلغ من المال على أحد الفقراء، وليست له غاية من عمله إلا التقرُّب إلى الله تعالى بمساعدة ذلك الفقير. وقد يتصدَّق الآخر بنفس المبلغ، لكنه إنما يريد بعمله أن يشتهر بين الناس بحب الخير، وبذلك تروج تجارته مثلاً إن كان تاجراً ويُقبل الناس عليه، وهكذا بين الأول والثاني بَوْنٌ شاسع وفرق عظيم.

فمزاج عمل الأول النيَّة العالية، وبذلك تقبل نفسه على ربها فتتسنَّم مواطن القرب الإلهي. وأما الآخر فليس له من عمله شيء، وهكذا مزاج عمل المؤمن دوماً من تسنيم، أي: نية طيبة تسمو به إلى المنازل الرفيعة.

ثم بيَّن لنا تعالى أن تلك النية العالية التي تمازج عمل الأبرار إنما تلازم كل عمل من أعمالهم فقال تعالى:

{عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ}:

والعين: هو ينبوع الماء. ويَشْرَبُ بِهَا: أي بواسطتها. فتلك النية العالية إنما هي ينبوع لا ينضب لدى الأبرار فما من عمل يعملونه إلاَّ وتقارنه النيّة العالية.

وأما كلمة (**يَشْرَبُ**): فإنما تعني الشرب من التجلِّي الإلهي. تقول: شرب الماء، أي: جرعه ورويَ منه وأما كلمة (**بِهَا**) أي: بسببها وبواسطتها. ويكون ما نفهمه من هذه الآية الكريمة: **{عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ}**: أن النية العالية لدى الأبرار إنما تقارن كل

عمل من أعمالهم، فهي بمثابة عين دائمة الجريان، وبواسطة هذه النية العالية يشربون من التجلي الإلهي.

فإذا أردت أن ترقى بعملك فلتكن غايتك من أعمالك رضاء الله تعالى، وليكن مزاج عملك من تسنيم، وهنالك تشرب من التجلي العالي الإلهي، ومن كان أعلى نية كان أكثر نعيماً، وأرقى منزلة، والله تعالى عليم بذات الصدور.

قال رسول الله ﷺ: « **إنما الأعمال بالنيَّات، وإنما لكلِّ امرئٍ ما نوى** »[1].

ثم بيَّن لنا تعالى ضلال المجرم في دنياه، وعمى بصيرته عن رؤية السلوك العالي الذي كان يسلكه الأبرار فقال تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ يَضْحَكُونَ}:

أَجْرَمُواْ: مأخوذة من جَرَمَ وهي بمعنى: رفع الخير عن نفسه وحرمها منه بعمله السيِّء. تقول: جرم الناقة، أي: جزَّ صوفها. وجرم النخلة، أي: قطف ثمرها، وأجرم الرجل، أي: أنه بإعراضه عن ربِّه وقع في الشر وآذى غيره، وبذلك رفع الخير وأبعده عن نفسه.

وكانوا: أي كانوا في دنياهم. **وضحك منه**: أي عجب منه واستخف بعمله. فالذين أجرموا أي: الذين أعرضوا عن ربهم، فوقعوا في الشرور، وحرموا أنفسهم من الخير، هؤلاء كانوا في دنياهم يعجبون ويسخرون من المؤمنين ظانّين أنَّ المؤمنين بترفُّعهم عن الدنايا إنما يضيِّعون على أنفسهم لذائذ الحياة.

{وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ}:

---

(١) متفق على صحته.

ويتغامزون: مأخوذة من غَمَزَ، تقول: غَمَزَ بعينه، أي: أشار بها، وتغامز القوم، أي: أشار بعضهم إلى بعض بأعينهم. ويكون ما نفهمه من هذه الآية: أن المجرمين كانوا إذا مرَّ بهم المؤمنون يشيرون بأعينهم إلى بعضهم بعضاً استخفافاً واحتقاراً لشأنهم.

{وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ}:

وانقلبوا: بمعنى رجعوا وانصرفوا مأخوذة من قلب بمعنى صرف، تقول: قَلَبَ المعلم الطلاب أي: صرفهم إلى بيوتهم، وقلب القائد الجند أي: أعادهم إلى أوطانهم، وانقلب القوم، أي: عادوا ورجعوا.

وأهلهم: أي أصحابهم وعشيرتهم، مأخوذة من أَهِلَ بمعنى: أَنِسَ وسُرَّ بصحبته.

وفكهين: مأخوذة من فَكِهَ، أي: كان طيب النفس ضحوكاً، يُقال: تفكَّه فلان بالشيء، أي: تلذذ به وتمتَّع. وتفكَّه بعرض فلان، أي: تلذَّذ باغتيابه. فهؤلاء المجرمون كانوا إذا رجعوا إلى أهلهم وصحبهم رجعوا متلذِّذين باغتياب المؤمنين.

{وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُواْ إِنَّ هَؤُلاَءِ لَضَالُّونَ}:

والضالون: مأخوذة من ضلَّ ضد اهتدى، تقول: ضلّ الطريق، أي: لم يهتد إليه وضاع عنه.

فهؤلاء الذين أجرموا كانوا إذا رأوا المؤمنين من بعيد قالوا فيما بينهم إن هؤلاء المؤمنين بتورُّعهم عن الشهوات وحرمانهم أنفسهم منها إنما أضاعوا سبل السعادة، وأبعدوا عن أنفسهم السرور والخير.

{وَمَا أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ}:

وأرسله: أي وجَّهه وبعثه، **وحافظين**: مأخوذة من حفظ، بمعنى: صان وراقب،

والحافظ: هو الموكَّل بالشيء المراقب له.

فهذه الآية إنما ذكرها الله تعالى لتبيِّن لنا لسان حال المجرمين في انتقادهم على المؤمنين سيرهم واعتقادهم.

فالمؤمنون إنما يحفظون جوارحهم من المعاصي طاعة لربهم، لأنهم يعلمون أن الله تعالى أرسل الإنسان إلى هذه الدنيا وأمره أن يكون حافظاً لجوارحه من المعاصي.

أما المجرمون فإنهم يُطلقون لأنفسهم العنان مدَّعين أن البشر ما أُرسلوا لهذه الدنيا ليكونوا كما يعتقد المؤمنون حافظين على أنفسهم من الوقوع في الشهوات الدنيئة، وأنه لا قيد يقيِّدهم، ولا رقيب يُراقبهم، فلْيطلقوا لأنفسهم عنانها، وليتمتعوا بملاذ الدنيا وشهواتها ذلك هو مذهبهم وتلك هي سيرتهم ومسراهم.

{فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ}:

والمراد بكلمة (**الْيَوْمَ**): أي يوم القيامة، ويضحكون منهم: أي يستخفُّون بعقلهم حينما يرونهم قد أضاعوا الآخرة ونعيمها بعرضٍ قليل من الدنيا.

وعلى هذا فليس ضحك المؤمنين من الكافرين شماتة بهم، بل عجباً منهم واستصغاراً لهمَّتهم وعقلهم ، وما ضحكهم منهم إلا كضحك رجل من طفل أراد أن يشتري بدينار ذهبي لعبة بخسة الثمن لا يساوي ثمنها قرشاً واحداً.

وقد عرَّفنا تعالى بسبب ضحك المؤمنين من الكفار فقال تعالى:

{عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ}:

والأَرَائِكِ: جمع أريكة كما رأينا من قبل ـ عمل الإنسان الذي يعتمد عليه فيكون مستنداً له في الوصول إلى بغيته وأمانيه.

وهنا إشارة إلى أعمال المجرمين وأساليبهم الخدَّاعة المموَّهة التي قاموا بها في الدنيا فكانت لهم مُستنداً في الوصول إلى مآربهم وغاياتهم الدنيوية.

فالمؤمنون في الدار الآخرة حينما ينظرون إلى أرائك المجرمين وأساليبهم الخدَّاعة التي قاموا بها في الدنيا سعياً وراء عرَضها الزائل يضحكون منهم ويستخفُّون بهمَّتهم الدنيئة.

ثم حذَّرنا تعالى من نتيجة عملهم، ومما يعود به الفعل الخبيث على صاحبه من الشرِّ في دنياه قبل آخرته، فقال تعالى:

{هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}:

وثوّب: مأخوذة من ثاب، بمعنى: رجع، تقول: ثاب فلان إلى رشده، أي: رجع إلى وعيه. وثُوِّب ـ بضم أوله ـ أي: أُعيد عليهم عملهم.

ويكون ما نفهمه من آية: **{هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}**: أي: أما أُعيد عليهم عملهم، أما أُلبسوه فكان لهم بمثابة ثوب وكانوا به عبرة للناس.

والواقع أنّك لو تتبَّعت أهل الفسق والعصيان، ونظرت إلى عواقبهم لرأيت كلاًّ منهم قد أُلبس فعله، وثُوِّب ما يتناسب مع جرمه.

فما من زانٍ إلا رجع زناه عليه بالأمراض والفقر، وما من قاتل إلاّ وكان نصيبه القتل، وما من بائع يغشُّ الناس إلاّ وذاق وبال غشّه وكانت عاقبة أمره خسراً. وفي الحديث الشريف:

« **إنَّ لكلِّ حسنةٍ ثواباً ولكلِّ سيئةٍ عقاباً** ».

قال تعالى: (... وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ)[1].

---

(١) سورة الشعراء: الآية (٢٢٧).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٌ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ صدق الله العظيم

تأويل سورة الإنفطار

في هذه السورة الكريمة يريد الله تعالى أن يبيِّن للناس أنه لا بدّ لهم من يوم ترى فيه كل نفس ما قدَّمت من الأعمال، وأنه في ذلك اليوم لا تنفع الإنسان شفاعة الشافعين، فلا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمر يومئذٍ لله، ومثل الناس يومئذ بين يدي الله كطفل نصحه والده بألاَّ يلعب بالسكِّين الحادَّة فما ألقى لكلام والده بالاً بل ذهب يلعب بها حتى قُطعت يده، وجُرحت جرحاً بليغاً، فوقف ينظر إلى ما كسبت يداه أفَتراه إذا صار بين يدي الطبيب ليداويه هل يتقدَّم من هذا الطبيب أحدٌ من أهله وذويه فيطلب منه أن يتركه وشأنه؟ ذلك هو حال الخلْق يوم القيامة بين يديْ رب العالمين! فهو يسوق لكل امرئ ما يناسبه وهو الحكيم العليم.

وقد بدأ تعالى السورة بآيات تبيّن لنا ما يقع من الحوادث قبل أن يقوم الناس لرب العالمين. فقال تعالى:

{إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۞ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۞ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۞ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ}.

ونبدأ بالآية الأولى: **{إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ}** فنقول:

انفطرت: أي رجعت إلى فطرتها التي خلقها الله تعالى عليها، وعادت إلى حالها الأول إذ أن كلمة (**انفَطَرَتْ**) مأخوذة من فطر، نقول: فطر الأمر، أي: اخترعه، ومنه الفطرة، أي: الصفة التي يتّصف بها كل موجود منذ الخلْق الأول (عالم الأزل). ويكون ما نفهمه من كلمة (**انفَطَرَتْ**): أي: رجعت إلى فطرتها الأولى يوم أن خلقها الله، وقبل أن تكون محيطة بهذا الكون جامعةً لما فيه من الموجودات، وبشيء من التفصيل

نقول:

خلق الله تعالى المخلوقات، وألبس كل شيء ثوب الوظيفة المناسبة له، فجعل السماء كما ذكرنا من قبل، محيطة جامعة لهذا الكون، وهي أشبه والحالة هذه بقشرة البطيخة التي تجمع ما فيها من لب وعروق وبذور، فإذا كان يوم القيامة انفطرت السماء، أي: عادت لفطرتها من قبل أن تلبس ثوب وظيفتها، فعادت نفساً مجرّدة، ولكن ماذا يتلو هذه الحادثة؟ لقد بيَّن لنا تعالى ذلك بقوله:

{وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ}:

والكواكب: جمع كوكب مأخوذة من كوكبَ، بمعنى: توقَّدَ وبرق، وهي أيضاً بمعنى اجتمع والتفَّ حول غيره.

فهذه النجوم كلها إنما هي كواكب في توقُّدها وبريقها، وإنما هي أيضاً كواكب في اجتماعها حول الأرض عاملة على تأمين سيرها المنتظم وتنقُّلها.

وانتثرت: مأخوذة من نثر، بمعنى: رمى وفرَّق. تقول: نثر المزارع الحب، أي: ألقاه متفرِّقاً على غير نظام وترتيب، ومنه انتثر الشيء أي وقع وتساقط متفرِّقاً. ويكون ما نفهمه من هذه الآية:

أي أنه إذا انكشفت السماء المحيطة بهذه الكواكب والجامعة لها على هذا النظام البديع، فعند ذلك تنتثر الكواكب متفرقة متشتتة، وتخرج عن هذا النظام البديع، كما تنتثر الحبّات المنظومة في عقد اللؤلؤ إذا انقطع خيطها الناظم لها.

{وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ}:

وفُجِّرت: مأخوذة من فجر، بمعنى: خرج عن موضعه المخصص به، ومنه: انفجر،

نقول: انفجرت أنابيب المياه، أي: تصدّعت وخرج الماء منها مندفعاً. فهذه البحار الملأى بالماء لو نظرت إلى سطحها الواسع الممتد لوجدته منحنياً محدّباً إذ الأرض كرة سابحة في الفضاء! والعلم البشري لا يشك أن هذه الكواكب المحاطة بالسماء إنما تقوم بقوة ضاغطة تؤثِّر على سطح الأرض تأثيراً متجهاً من السطح إلى المركز وبذلك تجد المياه ملازمة مواضعها من البحار.

فإذا انفطرت السماء. وانتثرت الكواكب وزالت تلك القوة الضاغطة فهنالك تتفجّر البحار ويذهب ماؤها وترجع لحالها الأول يوم خلق الله الأرض. وتُمَدُّ الأرض فيغدو سطحها ممتداً امتداداً واسعاً لا يكاد يُدْرَك له حدّ أو نهاية، وساعتئذٍ تبعثر القبور ويخرج منها الناس، ولذلك قال تعالى:

{وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ}:

والقبور: جمع قبر، وهو المكان والموضع الذي يدفن فيه الإنسان، يُقال: قَبَرَ الميت، أي: دفنه. **وبعثرت**: مأخوذة من بعثر، بمعنى: بدَّدَ وفرَّق، تقول: بعثر الهواء الأوراق، أي: فرَّقها عن بعضها على غير نظام، وجعلها مبدَّدة هنا وهناك.

ويكون ما نفهمه من هذه الآية: أي: عندما تزول السماء وتنتثر الكواكب ويزول الضغط عن الأرض تُبَدَّدُ ذرات التراب المتماسكة التي شدَّها إلى بعضها ذلك الضغط وتلك القوة فتتفرَّق متبددة، ويتبع ذلك خروج الناس من قبورهم للوقوف بين يدي ربهم وحينئذٍ ترى كل نفس ما عملت قال تعالى:

{عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ}:

وعَلِمَتْ: أي شاهدت واطّلعت ومن ذلك قوله تعالى:

{... **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**}[1]. أي: مُطَّلع ومشاهد.

وقدَّم الشيء: أي: جعله أمامه وحاضر بين يديه. **وأخَّر**: ضد قدّم، أي: جعله لوقت آخر. ويكون ما نفهمه من هذه الآية:

أي أنه إذا كان يوم القيامة، وحدثت تلك الحوادث التي أوردها الله تعالى في مطلع هذه السورة، ووقف الناس بين يدي ربهم، فهنالك تشاهد كل نفس وترى ما قدَّمت في دنياها من خير أو شر. كما تشاهد وترى ما أخَّرت أي: ما ستُكافأ به من الإحسان لقاء ما قدَّمته من عملها الطيب أو ما ستصير إليه من العذاب لقاء ما قدَّمته من السوء، فعملها الذي قدَّمته وكل ما صدر منها في الدنيا، تجده يومئذٍ حاضراً ماثلاً بين عينيها، وجزاؤها على أعمالها تشاهده أيضاً وتطَّلع عليه.

فهي بين عمل صدر منها لا يغيب عنها، وبين جزاء ستناله ماثل أمامها، ذلك ما نفهمه من آية: {**عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ**}.

وما مثل الإنسان المسيء يومئذٍ إلا كرجل اقترف جريمة ووقف بين يدي الحاكم، فهو ساعتئذٍ يرى ما قدَّم من العمل عند اقتراف الجريمة، كما يرى العقوبة التي أخَّرها لنفسه والتي ستُطبَّق عليه بسبب جرمه، وكذلك حال المحسن المطيع يرى الماضي والمستقبل أي: يرى العمل والنتيجة والجزاء.

وبعد أن بيَّن لنا تعالى ذلك البيان وحذَّرنا هذا التحذير أراد تعالى أن يذكِّرنا بفضله وإحسانه فقال تعالى:

{يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ}:

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١١٩).

وغرَّ: بمعنى خدع وأطمع بشيء باطل، تقول: غرَّ البائع المشتري، أي: أوهمه أن البضاعة من نوع جيد وذات ثمن غالٍ، والحقيقة أنها رديئة النوع بخسة الثمن، فتقول: غرّ الطعم السمكة، أي: حسبته لذيذاً حسناً فإذا بالموت الزؤام مستقرٌ كامن فيه.

وربك: أي مربيك الممدّ لك بالحياة والإمداد الدائم الذي لا ينقطع طرفة عين. **والكريم**: هو الذي لا شائبة فيه، تقول: رزق كريم وقول كريم ووجه كريم، أي: حسن كريم لا عيب فيه. **وربك**: أي: صاحب الأسماء التي كلها كمال، الذي لا يصدر عنه إلا كل فضل وإحسان وخير.

ويكون ما نفهمه من هذه الآية:

{يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ}: أي: ما هو الشيء الذي خُدعت به من هذه الدنيا فتوهَّمت أنه خير وانصرفت عن الإقبال على مربيك الممد لك بالحياة، والذي لا يصدر عنه إلا كل إحسان وفضل وخير. ما الذي صرفك عن الإقبال على ربك وأنت ترى فضله الذي لا ينقطع وخيراته التي ساقها ويسوقها دوماً إليك!؟

ثم بيَّن لنا تعالى طرفاً من فضله علينا في أدوار ثلاثة مرَّرنا بها حتى صار أحدنا بشراً سوياً وإنساناً كاملاً فقال تعالى:

{الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ}:

وخلق: أي أوجد وأبدع على غير مثال سبق، وكلمة (**خَلَقَكَ**).. هنا إنما تشير إلى الدور الأول الذي أظهر الله تعالى فيه الإنسان للوجود يوم بدأ خلقه من نطفة، فانعقد جنيناً في بطن أمه، **وسوَّى الشيء**: أي جعله مستوياً لا خلل فيه ولا نقص، وكلمة (**سوَّاك**) هنا تشير إلى الدور الثاني الذي مرّ به الإنسان في بطن أمه إذ حوّل

الله تعالى هذه النطفة المنعقدة فجعل منها إنساناً تام الخلقة كامل الترتيب.

فإن أنت نظرتَ إلى وجهك وما فيه من الأعضاء وجوفك وما فيه من أجهزة، وعظامك وما هي عليه من دقّة في التركيب، وعروقك وأعصابك وما قامت عليه من نظام بديع، ودماغك وما فيه من مراكز... أدركت معنى هذه التسوية، وعرفتَ أنها تشير إلى جعْل تلك النطفة إنساناً سوياً.

أما **عدل**: فبمعنى: قَوَّم، تقول: عدَّل فلان الرمح، أي: قوَّمه، وعدَّل الشِعر، أي: جعله موزوناً مستقيماً.

وعدلك هنا تشير إلى الدور الثالث الذي يصل إليه الإنسان في الحياة، إذ يتقلَّب من طفل إلى إنسان رشيد ذي جسم كامل وفكر ناضج.

ويكون ما نفهمه من هذه الآية الكريمة والآية التي قبلها:

أي: يا أيها الإنسان ما الذي صرفك عن الإقبال على ربك ذلك المربي الذي خلقك في بطن أمك أول ما خلقك من نطفة، ثم سوّاك، فجعل هذه النطفة إنساناً سوياً، فإذا ما خرجتَ لهذا العالم أدام عنايته بك حتى تبلغَ أشدَّك وتنقلب واعياً راشداً!

ثم بيَّن لك تعالى أن الذي خلقك هذه الخلقة التامة وسوَّاك هذه التسوية كان قادراً أن يجعلك في صورة مخالفة لهذه الصورة الكاملة وأن يركِّبك تركيباً آخر فيجعلك على صورة حيوان من الحيوانات. أو على تركيب غير ما أنت عليه الآن فقال تعالى:

{فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}:

فالله تعالى تفضَّل عليك بأن جعلك على هذه الصورة الكاملة التي أنت عليها الآن. أفلا يليق بك وقد عرفتَ فضله أن تشكر نعمته فلا تميل عنه إلى زينة الدنيا ومتاعها،

أفلا يجدر بك أن تُقبل عليه ولا تنصرف عنه إلى سواه! ثم إن الله تعالى شجب على المعرضين سيرهم وأنكر عليهم عملهم فقال تعالى: **{كَلاَّ}**:

وكلاَّ: كلمة ردع وهي تفيد هنا معنى الاستفهام الإنكاري أي: إنها تقول: أليس ما بيَّنته لك حقاً؟ أتستطيع أن تنكر أيها الإنسان فضلي عليك في الخلق والإمداد؟ ألستُ الذي خلقتُك في بطن أمك؟ ألستُ الذي جعلتك إنساناً سوياً؟ ألستُ الذي وهبتُك القوة والنماء وزيَّنتُكَ بالفكر حتى صرت إنساناً كاملاً وشخصاً واعياً راشداً؟

{بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ}:

وهذه الآية إنما تفيد هنا أيضاً تقبيح عمل المعرضين في تكذيبهم لما جاء به الرسول الكريم ﷺ عن رب العالمين. ويكون ما نفهمه منها أي:

أفتبدِّلون هذه النِّعم وذلك الإحسان بالتكذيب فيما شرعته لكم من الأوامر التي هي كلها حق وخير والتي يدلُّك عليها كل ذي نفسٍ فاضلة وعقل صحيح.

{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ}:

وحافظين: أي ملائكة يحفظون أعمالكم فلا يغيب منها شيء.

{كِرَاماً كَاتِبِينَ}:

والكرام: جمع كريم، وهو كما رأينا من قبل الكامل الخالي من الشوائب ومن كل نقصٍ وعيبٍ. وقد جاءت صيغة الجمع هنا على وزن كرام لتبيِّن لنا أن الملائكة إنما كمُلت صفاتهم وكرُمت بإقبالهم على خالقهم. لأن الكريم هو الله سبحانه وتعالى وحده. وكل من أقبل عليه كرمت صفاته واشتق منه الكمال. وقد أورد تعالى كلمة

(**كراماً**) في هذه الآية ليبيِّن أن الملائكة إنما يكتبون بالحق دون زيادة أو نقصان غير مقصِّرين في تأدية ما أمرهم به الله.

وكاتبين: أي يكتبون عليكم جميع ما يصدر عنكم من أعمال. ثم بيَّن لنا تعالى أن كتابة هؤلاء الملائكة إنما بُنيت على المشاهدة والعيان فقال تعالى:

{يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}:

ويَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ: مأخوذة من علم، وهي كما مرَّ بنا بمعنى: شاهد أو اطَّلع، فالملائكة دوماً مشاهدون لأعمال الإنسان، يرون كل حركة من حركاته ولا يفارقونه في الليل ولا في النهار.

وقد أورد تعالى كلمة (**يَعْلَمُونَ**) في صيغة المضارع ولم يقل عالمين لأن كلمة (**عالم**) تفيد ثبوت العلم قبل صدور الفعل ووقوعه، أما (**يَعْلَمُونَ**) فتفيد حصول هذه المشاهدة عند صدور الفعل من صاحبه.

وليس للملائكة أدنى اطلاع على ما في نفسك، وكل ما يجري في النفس ليس يعلمه ولا يطَّلع عليه إلاّ الله، فإن أنت تبت منه ورجعت عنه لم تؤاخذ عليه. أما إذا باشرت الفعل فهنالك يطلع عليه الملائكة فيكتبون ويكونون شهوداً عليك.

ثم إن الله تعالى بيَّن عاقبة عمل الإنسان المحسن ومعاده عليه بالخير، فقال تعالى:

{إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ}:

والأبرار: جمع بار، وهو الذي وفَّى وبرَّ بما عاهد الله عليه، فالناس جميعاً عاهدوا ربهم في الأزل على السير في طريق الكمال الإنساني، ووعدوه بعدم الانقطاع ودوام الإقبال عليه.

فالذين جاؤوا لهذه الدنيا ووفُّوا بعهدهم فأقبلوا على ربهم مرافقة نفوسهم نفس الرسول الكريم ﷺ وأحسنوا في معاملتهم فكانوا أصحاب برٍّ بالخلق أجمعين، يحيون حياة طيبة كلها سرور ونعيم.

وإذا كانت النعمة هي المسرة والحالة التي يستلذُّها الإنسان، فالنعيم أعظم وأكبر، إذ أن النعمة تدل على حالة واحدة ونوع واحد، وتعني استمتاعاً بشيء مؤقت، والنعيم يفيد دوام المسرة وتنوُّعها وكمالها من كل ناحية.

فالأبرار في نعيم، وهذا النعيم يشمل حياتهم في الدنيا والآخرة، فهم مسرورون في دنياهم مما قدَّموه من الإحسان، ولذلك تجدهم منعمين بلذة الإقبال على ربهم، مغمورين بما يفيضه من نوره وتجلِّيه على قلوبهم.

وترى الأبرار في الآخرة مسرورين أيضاً، فهم ناظرون إلى أعمالهم، مقبلون بها على ربهم، متدرِّجون في النعيم الأبدي المقيم.

ثم بيَّن لنا تعالى حال الفجَّار فقال:

{وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ}:

والفجَّار: جمع فاجر، وهو الذي خرج بأعماله عن طريق الإنسانية التي يجب على الإنسان سلوكها في الحياة.

والجحيم: هو المكان الشديد الحر والجو الملتهب المشحون بالنار المتأجِّجة، فجو المدفأة الملتهبة ذات الجمر المتأجِّج جحيم مثلاً، وجو جهنم كله جحيم لما فيه من حر شديد.

ويكون ما نفهمه من آية: **{وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ}** أي: أن الفجَّار صائرون لذلك

الجو الملتهب ذي النار المتأججة المشتعلة.

{يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ}:

يصلونها: أي يشتعلون بها وتلتهب بهم.

والدين: هو الحق الذي تدين أي تخضع له النفوس الكاملة وتقرّ بسموِّه. وسمِّي يوم القيامة، بيوم الدين لأن النفس في ذلك اليوم تدين أي: تخضع كلها للحق معترفة به.

{وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ}:

وغائبين: مأخوذة من غاب بمعنى احتجب واستتر. **وعنها:** أي عن الجحيم وشدته. ويكون ما نفهمه من هذه الآية:

إن الفجَّار في النار لا يغيبون فيها عن شعورهم لأن السيطرة في هذه الحياة للجسم، والنفس إنما تتألم عن طريق الجسم، فإذا تخدرت الأعصاب لم تعد الإحساسات تنتقل للنفس. وإذا نام الإنسان توقفت الأعصاب أيضاً عن نقل الحس للنفس المستقرة داخلاً. أما في الدار الآخرة فتصبح الغلَبة للنفس، وهي يومئذ محيطة بالجسم، ولذلك تأتيها النار مباشرة، لذا تجد أهل النار لا يغيبون عن ألم الحريق.

ثم بيَّن لنا تعالى عظيم شأن ذلك اليوم فقال:

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ}:

وأدرى: مأخوذة من درى الشيء، أي: توصَّل إلى علمه، وأدراه بالأمر، أي: أعلمه به. ويكون ما نفهمه من هذه الآية: أي وما أعظم ذلك اليوم! إنك مهما تصوَّرت من هوله وشدته فلا تستطيع أن تدري وترى ما فيه من عسر وشدة تحل بأولئك الفجّار المعرضين، ثم بيَّن لنا تعالى ما يعقب تلك الشدة والعسر من الألم العظيم

الذي يلقاه المعذَّبون بالنار، والذي لا يمكن أن يتصوره إنسان فقال تعالى:

{ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ}:

ثم بيَّن لنا تعالى أن الناس يومئذٍ مجزيُّون بأعمالهم فلا شفاعة ولا وساطة ولا تزر وازرة وزر أخرى، بل الخلق جميعاً في العدالة سواء، قال تعالى:

{يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً}:

ثم بيَّن لنا تعالى أن الأمر يومئذٍ بيده سبحانه وحده فهو يسوق لكل امرئ ما يلائم حاله وما يناسبه، فقال تعالى:

{وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ}.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴿١٣﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلۡعَظِيمُ

تأويل سورة التكوير

بعد أن عرَّفنا تعالى في سورة الانفطار أن الإنسان يوم القيامة سيرى ويشهد ما قدَّم في دنياه من الأعمال، وما أخَّر لنفسه من الجزاء، أراد تعالى في هذه السورة الكريمة أن يُبرهن لنا ما بيَّنه لنا في السورة السابقة وأن يثبت في نفوسنا تلك الحقيقة الراهنة، كما وأراد أن يبيِّن لنا أن الإيمان باليوم الآخر وما فيه من الجزاء على الأعمال، وأن التصديق بما جاء به الرسول ﷺ كل ذلك موقوف عليك أيها الإنسان.

فإذا أنت أقبلت على الله ذلك الإقبال الذي يملأ النفس كمالاً فهنالك تطلب نفسك الحق وتسعى إليه، فيكرمها ربُّها برؤيته ومشاهدته.

وقد بدأ تعالى هذه السورة بطائفة من الآيات التي تُعرِّفك بما سيقع من الحوادث في ذلك اليوم العظيم لتتعرَّف بذلك إلى بالغ قدرته، ولتطّلع على عظمته، ولتعلم أنه إنما خلق لك ما خلق في هذا الكون من الموجودات رحمة بك وتأميناً لحياتك! فإذا كان يوم القيامة ذهب بذلك كله إذْ لم تبقَ لك حاجة به ولذلك قال تعالى:

{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ}:

وكوِّرت: مأخوذة من كوَّر بمعنى جمع الشيء على بعضه ولفَّه. تقول: كوَّر فلان العمامة على رأسه وكوَّر الثوب.

وتكوير الشمس إنما هو جمع أشعتها المنتشرة في الفضاء وتوقيفها عن وظيفتها في الاشعاع ونشر الحرارة والضياء. ففي يوم القيامة تُكوَّر الشمس وتُلف فيُمحى نورها وتعود إلى ربِّها من بعد أن أدَّت وظيفتها وقامت بمهمَّتها. ولكن ماذا يرافق تكوير الشمس من الحوادث؟ يرافقها أيضاً انطفاء الكواكب، ولذلك قال تعالى:

{وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ}:

وانكدرت: مأخوذة من كَدَرَ، ومنه كدَّر، تقول: كدَّر فلان الماء، أي: عكَّره وأذهب صفاءه وكدَّرني الأمر أي: أذهب صفاء نفسي. **وانكدرت** أي: انطفأ لمعانها وزال صفاؤها فصارت مكدَّرة اللون. فالله تعالى إنما يمدُّ النجوم كما يمدُّ الشمس بالنور والاشعاع، فإذا هي ذات اشعاع ولمعان وصفاء. فإذا كان يوم القيامة وانقطع عنها الإمداد الإلهي فحينئذٍ يزول لمعانها وتنطفئ شعلتها.

{وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ}:

وسُيِّرت: مأخوذة من سيَّر، تقول: سيَّر الأمير فلاناً من بلده، أي: أخرجه منه وأجلاه عنه. وقد سُمِّيت القافلة سيَّارة لأنها تخرج من بلد إلى بلد... فالله تعالى إنما خلق الجبال لتثبيت الأرض وتنظيم دورانها وحركتها، ولتثبيت قشرتها الأرضية لئلا تنساح بقارّاتها، وفي يوم القيامة تُسيَّر الجبال فتزول من مكانها وتعود ذراتها نفوساً مجرّدة فلا ترى لها أثراً.

ثم إن الله تعالى أراد أن يبيِّن لنا ما يتبع تكوير الشمس وانكدار النجوم وتسيير الجبال من الحوادث، فقال تعالى:

{وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ}:

ولتوضيح معنى (**العشار**) نقول:

بيَّنا من قبل في سورة الفجر أن الفروق التي تنشأ من تحوُّلات الليل من قصر وطول خلال الفصول الأربعة في السنة الواحدة إذا جمعت دقائقها إلى بعضها بعضاً كان حاصل جمعها ليالٍ عشر، وبيَّنا أيضاً في تلك السورة أن هذه الليالي العشر يتوقَّف

عليها نظام الكون، إذ من دونه لا ينبت نبات ولا يتم نضج الحبوب والثمار. وإذا نحن تعمَّقنا في النظر والتدقيق وجدنا أنه من دونها لا تمكن الحياة على وجه الأرض.

والآن بعد أن قدَّمنا هذه المقدمة البسيطة نرجع إلى تأويل الآية الكريمة التي نحن بصددها فنقول:

ليس المراد من كلمة (**الْعِشَارُ**) هنا ما يزعمه بعضهم من إناث النوق التي من عادتها أن تحمل جنينها في بطنها عشرة أشهر فإن سياق الآيات هنا لا يمت إلى هذا المعنى بصلة إذ أن الآيات السابقة إنما جاءت في مورد ذكر الحوادث الكونية التي تحصل يوم القيامة، وبناءً على هذا واستناداً على ترابط الآيات القرآنية بعضها ببعض وإحكام نسجها، يكون ما نفهمه من هذه الآية:

{وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ}:

أن العشار إنما تعني السنين التي حوت كل واحدة منها ليالٍ عشراً.

فإذا كان يوم القيامة لم تعد للإنسان حاجة بالليالي العشر ولا بهذا النظام القائم الآن، إذ إن الحياة يومئذٍ إنما هي من نوع جديد تختلف كل الاختلاف عن حياتنا الآن، ولذلك تُعطَّل العشار.

وبعد أن بيَّن لنا تعالى ما يقع من تغيير على سطح البر بتعطيل العشار أراد أن يبيِّن لنا التغيرات التي تنشأ في البحر كتعطيل وظائف الحيوانات البحرية فقال تعالى:

{وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ}:

والوحوش: جمع وحش، وهو البعيد النافر المنفرد في طراز حياته عن غيره، مأخوذة من فعل وَحَشَ، ومنه استوحش، تقول: استوحش فلان أي: وجد نفسه وحيداً منفرداً.

والمراد بكلمة (**وحوش**) هنا: الأسماك والحيوانات البحرية سمِّيت وحوشاً لانفرادها في طراز حياتها عن سائر المخلوقات. **وحُشرت**: أي: جُمعت، تقول: حشْر الناس، أي: جمْعهم، وحشر الحاكم الرجل عن وطنه، أي: أخرجه منه.

فالحيوانات البحرية التي تعمل على تنقية ماء البحر واجتذاب ما فيه وجرثومه والمواد الضارة وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله لو أنها زالت الآن من البحر لتغيَّر ماؤه، وبالتالي لفسد الهواء وانتشرت الأوبئة. فإذا كان يوم القيامة وانتهت وظيفة هذه الأسماك والحيوانات المائية جُمعت وعادت إلى خالقها.

وبعد أن تُجمع هذه الحيوانات وتُحشر نفوسها إلى ربها تسجر البحار ولذلك قال تعالى:

{وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ}:

وسُجِّرت: أي: فاضت مياهها وتجاوزت مواضعها تقول: سَجَرَ الإناء، أي: ملأه. فالبحار الآن مياهها محبوسة في مواضعها، فإذا كان يوم القيامة، سُجِّرَت البحار أي: فاضت مياهها وذهبت ذراتها متناثرة، وعادت نفوس تلك الذرَّات أيضاً إلى خالقها.

أقول: وفي هذه الآيات السابقة كلها إشارة إلى قدرته تعالى الواسعة، إذ به تعالى قامت الآن هذه الكائنات كلها، وبه دوام حياتها وانتظام وجودها، فإذا شاء ربُّك وأراد زالت تلك الكائنات، وعاد كل منها إلى خالقه نفساً مجرَّدة عن الثوب الذي يلبسه الآن.

كما أن هذه الآيات تشير أيضاً إلى فضله تعالى الواسع علينا، إذ أنه سبحانه هو الذي سخَّر لنا هذه المخلوقات لتتم لنا الحياة الآن.

وبعد أن بيَّن لنا ما سيقع بأمره تعالى من الحوادث الكونية يوم القيامة، أراد أن يلفت نظرنا إلى المسؤوليات التي تترتب على الخلق في ذلك اليوم العظيم فقال تعالى:

{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ}:

وزُوِّجَت: مأخوذة من زوَّج بمعنى: قرن، قال تعالى: (**احْشُرُواْ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ..**)[1]. أي: قرناءهم الذين شاركوهم في الظلم.

ويكون ما نفهمه من آية: **{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ}**:

أي أنه إذا قامت القيامة وحدثت تلك الحوادث المبيَّنة في مطلع السورة عند ذلك تُزوَّج النفوس أي: تقرن وتتجمع إلى بعضها بعضاً. فأنفس المحسنين تُجمع في زمر، وأنفس أهل السوء تجمع في زمر.

{وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ}:

والْمَوْءُدَةُ: هي البنت التي دُفنت حيَّة. وكان من عادة بعض قبائل العرب أنهم يخجلون بالبنت مخافة أن يصدر منها في كبرها ما يجر العار لأهلها، فإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى توارى من القوم من سوء ما بُشِّر به، وعمد إليها فقتلها دفناً في التراب من غير ذنب جنته.

فإذا كان يوم القيامة أوقف الله تعالى هذه البنت بين يديه وسألها عن السبب الذي قُتلت به، ولذلك قال تعالى:

{بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ}:

---

(١) سورة الصافات: الآية (٢٢).

أي ما هو الذنب الذي جَنَتهُ حتى أزهق أبوها روحها وقتلها به؟

وإذاً فليست البنت مُلْكاً لأبيها يفعل بها ما يشاء، وإنما هي نفس كنفسه، وليس له عليها سوى ولاية التربية، فإن هو أحسن تربيتها تقرَّب بذلك إلى ربِّه، وإن هو قتلها أو لم يقم بما عليه من واجب التربية فلا بدّ من الوقوف بين يدي الله تعالى والسؤال عن تقصيره.

وقد بيَّن لنا تعالى أن الأعمال التي يعملها الإنسان إنما هي كلّها مثبتة عند الله تعالى ولذلك قال سبحانه:

{وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ}:

والصحف: جمع صحيفة، **ونشر**: بمعنى أذاع، وعكس طوى، ولكل إنسان صحيفة جامعة لسائر أعماله، فإذا كان يوم القيامة ووقف الخلق بين يدي ربهم نُشرت لهم جميعاً صحائف أعمالهم فغدت بيّنة ظاهرة.

{وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ}:

وكشط الشيء: أزاله ورفعه، تقول: كشط الجزَّار جلد الذبيحة، وكشط الغطاء عن الشيء، أي: رفعه عنه.

فإذا كان يوم القيامة ونشرت صحف الخلائق رُفعت السماء وزالت، وأصبح الخلق بين يدي الله لا يحجبهم عنه حجاب، وهنالك وفي ذلك الوقت تظهر النار لأهل الشقاء والعلل، قال تعالى:

{وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ}.

وتدنو الجنة بزينتها من أهل الطاعة والإحسان، قال تعالى:

{وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ}:

وأزلفت: مأخوذة من أزلف بمعنى: أدنى وقرَّب. ولكن، لماذا تُسعَّر الجحيم وتُزلف الجنة؟

يكون ذلك لأن أهل المعاصي والذنوب حينما تظهر لهم أعمالهم وتؤلمهم عللهم يرون النار ضرورية لهم لمداواة ما فيهم من علل.

كما أن أهل الجنة الأصحاء حينما تظهر لهم أعمالهم العالية تتسامى نفوسهم وتشتهي الخلود إلى النعيم، ولذلك قال تعالى:

{عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ}:

أي تُسعَّر النار وتُزلف الجنة لأن كل نفس علمت أي: شاهدت ورأت ما أحضرت.

وبعد أن بيَّن لنا تعالى ما بيَّن أراد أن يعرِّفنا بعظمة صاحب هذا الكلام وجليل شأنه، فلعلنا إن عرفنا عظمته، أصغينا لقوله، وعندئذٍ تشهد نفوسنا الحقائق وتؤمن به تعالى، ولذلك قال تعالى:

{فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۞ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۞ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ}.

ولتفصيل معنى هذه الآيات نبدأ بآية:

{فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ}:

فنقول: **الخنس**: جمع خانس، وهي: هنا إنما تعني النجوم التي تخنس، أي: لا تعود أجرامها ونورها يظهر لأعيننا إذا طلع النور وأضاءت شمس النهار.

{الْجَوَارِ الْكُنَّسِ}:

الجوار: جمع جارية وهي السارحة المتنقِّلة.

والْكُنَّس: مأخوذة من كَنَسَ، بمعنى: لازم موضعه، تقول: كنس الظبي في الغابة وكنس النجم في مجراه أي: لازمه. **والكنَّس** جمع كانس، وهي هنا إنما تعني النجوم الجارية في مداراتها المخصّصة بها، لا تخرج عنها، السابحة في أفلاكها ومجاريها فلا تتجاوزها ولا تتعداها.

وقد بيَّن لنا تعالى عن عظمة هذه النجوم، لا بل عن عظمته تعالى بكلمة (**فَلاَ أُقْسِمُ**) لننظر إلى عظمة هذه النجوم، ثم ننتقل منها إلى تعظيم خالقها وموجدها.

فهذه النجوم العظيمة التي تراها أيها الإنسان في السماء هذه النجوم السابحة في الفضاء والتي كثير منها أكبر من الأرض بملايين المرات! هذه الشعل المضيئة التي ما زالت تتوقد دون أن تنطفئ شعلتها وقد مضى عليها آلاف السنين والأعوام! هذه الجوار التي لا يكاد يحصيها العدد والتي تلازم مجاريها وأفلاكها دون أن يصطدم منها نجمٌ بنجم أو يخرج عن مداره ومجراه، إذا أنت نظرت إليها أيها الإنسان نظرات ملؤها التفكير والإمعان هالَكَ أمرها وقدَّرت عظمتها! ولكن إذا أنت رجعت إلى كلمة (**فَلاَ أُقْسِمُ**) استطعت أن تنتقل منها إلى عظمة خالقها تلك العظمة التي لا تتناهى! وخشعت نفسك لجلاله تعالى.

فما خلْق هذه النجوم كلها وإمدادها وتسييرها وتدبير شؤونها إلا بأمر واحد منه تعالى وبكلمة (**كنْ**) وذلك لفظ يقرِّب لك الحقيقة التي هي أعظم من أن يدركها إدراك أو يصل إلى كنهها عقل أي مخلوق من المخلوقات.

وبعد أن ذكَّرنا تعالى بهاتين الآيتين لفت نظرنا إلى آية الليل فقال تعالى:

{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ}:

وعَسْعَسَ: أي جاء بظلامه شيئاً فشيئاً، وأقبل رويداً رويداً. وفي الواقع لو أن الليل جاء فجأة لوقعت مخاطر وحوادث، ولتضررت المخلوقات من ذلك الانتقال المفاجئ.

ولو أنك تتبعت ما ينشأ عن الانتقال من النور والحرارة إلى الظلام والبرودة طفرة واحدة لوجدت أن الحياة على وجه الأرض تكون متعذّرة وغير ممكنة.

{وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ}:

وتَنَفَّسَ: أي تبلَّج وأضاء بصورة تدريجية، والضياء كالظلام لو أنه لم يأتِ على هذه الصورة لنشأ عنه ما ينشأ عن الليل إذا غشي الأرض بصورة مفاجئة. فمن الذي جعل الصبح يتنفَّس حتى يعمَّ النور وينكشف الظلام؟

أليس هناك من قدرة حكيمة وقوة عظيمة مسيِّرة؟ أليس ذلك هو الله ربُّ العالمين؟ أليس هذا النظام القائم بهادٍ إليه تعالى، ودالٍّ على جلاله وعظمته ورحمته بالخلق أجمعين؟

وبعد أن ذكَّرنا تعالى بما ذكَّرنا من الآيات الدالة على عظمة صاحب هذا البيان أراد سبحانه أن يعرِّفك بقدر رسوله الكريم الذي اصطفاه ليكون مبلِّغاً وللعالمين نذيراً فقال تعالى:

{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ}:

وكلمة (**رسول**): إنما تعني رسول الله ﷺ. وكلمة (**كريم**): هي كما مرّ معنا من قبل بمعنى: الخالي من الشوائب والنقصان والمتحلِّي بالكمال. والهاء بكلمة (**إنه**): إنما تشير إلى القرآن الكريم الذي جاء به الرسول ﷺ عن الله.

ويكون ما نفهمه من هذه الآية مرتبطة بما سبقها:

أي أنّ خالق هذا الكون العظيم يشهد لك أن الوسيط الذي جاءك ليبلِّغك كلامه وبيانه إنما هو رسول كريم لا تستطيع أن تجد فيه شائبة أو نقصاً، ولذلك اجتباه ربه ليكون رسولاً للعالمين ﷺ.

ثم بيّن لنا تعالى صفة ثانية من صفات رسوله ﷺ فقال تعالى:

{ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ}:

وذي قوة: أي صاحب قوة على التحمُّل، تحمُّل التجلي الإلهي.

والمكين: أي الثابت الذي لا يتزعزع.

فرسول الله ﷺ من إقباله العالي على ربِّه أضحى مكيناً، أي ثابت النفس فهو عند الوحي لا يتزعزع، وهذا ما جعله أهلاً لتحمُّل رسالة ربّه، وذلك كله يشير إلى أن ما جاء به الرسول كله حق، إذ أن المكين إنما يكون واعياً لكل ما يتلقاه فلا يضيّع منه شيء.

{مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ}:

والمطاع: مأخوذة من أطاع بمعنى: انقاد للأمر واتَّبعه. ولكن لماذا وصف الله تعالى رسوله ﷺ هنا بكلمة (**مُطَاعٍ**)؟ لقد وصفه بهذا الوصف ليبيِّن لنا نفسية رسوله الكريم تجاه ما تلقَّاه عن الله من الأوامر.

فرسول الله بإقباله العالي على ربِّه أصبحت نفسه في حالٍ من الكمال لا تحب ولا تهوى معه غير متابعة الأمر الإلهي. فهو ﷺ **مُطَاعٍ** أي: ذو نفس سامية مطيعة له في متابعة الأوامر الإلهية الداعية إلى التمسُّك بالحق والكمال، وفي الحديث الشريف: «

لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1].

وأما كلمة (**ثَمَّ**) الواردة ـ بفتح الثاء ـ في هذه الآية فقد وُضعت بصيغة المدح أي: ما أَعْظم أمانة هذا الرسول المطاع على بلاغات ربّه، وأعْظم به فوق العالمين، فهي إنما ترتبط بما قبلها وبما بعدها ولتوضيح معناها نقدِّم بمثال فنقول:

لو أن رجلاً اصطبغت نفسه بصبغة المروءة وشغفت بنجدة الضعيف ثم إنك أمرته بعمل من أعمال المروءة والنجدة، فهذا الرجل عندما يسمع هذا الأمر تجده مطاعاً أي أن نفسه تطيعه في ذلك كل الإطاعة، لأنها شغوفة وتتطلَّب مثل هذه الأعمال، كما تراه أميناً على ما سمعه، أي حريصاً عليه فلا ينساه، لأنه مشغوف به متطلِّب إياه. ونعود الآن إلى الآية الكريمة فنقول:

إنما جاءت كلمة (**ثَمَّ**) لتبيِّن لنا حال رسول الله ﷺ عند تلقِّيه الوحي من ربه، فهو **مُطاع** أي: أن نفسه مطيعة له بمتابعة أوامر الوحي الإلهية كما أنه أيضاً **ثَمَّ أمين**: أي حريص عليه فلا ينساه بل يعيه ويبلِّغه بتمامه.

{وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ}:

والصاحب: هنا إنما تعني رسول الله ﷺ.

ومجنون: مأخوذة من جَنَّ، بمعنى: ستر، تقول: جنّ الليل الشيء، أي: ستره. والمجنون: هو الذي سُتِر عليه الحق وخفي عليه.

فهذه الآية الكريمة تبيِّن لنا أن الرسول الكريم ﷺ الذي بيَّن للخلق عن الله طريق الحق والإنسانية، والذي ظهر لجميع الخلق كماله وسيره في طريق الحق والإنسانية، لا يمكن

---

(١) قال الإمام النووي: حديث حسن صحيح.

أن يُقال فيه أنه مجنون، أي: سُتِرَ عنه الحق وخفي عليه، وأن ذلك الكمال الذي اصطبغ به، وذلك التمسّك بالحق الذي ظهر منه، وتلك الإنسانية التي تحلَّى بها، بل ذلك البيان الذي جاء به، والشرع الذي حمل رسالته عن ربِّه، كل هذا ينفي عنه ذلك القول ويجعلنا نرد أيدينا في أفواه من يقول به.

{وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ}:

والهاء: من كلمة (**رَءَاهُ**)، إنما تشير إلى ما أوحي إلى رسول الله ﷺ من القرآن الكريم الدال على كمال الله والهادي إلى طريق السعادة.

والأُفق: في الأصل أبعد ناحية يمكن أن يراها الرائي من الأرض حيث تظهر له السماء ماسة الأرض متصلة بها.

وهي هنا إنما تشير إلى الحد النهائي في الإقبال على الله، ذلك الحد الذي وصل إليه رسول الله ﷺ فكان مبيِّناً أي: مظهراً وكاشفاً الحقائق.

ويكون ما نفهمه من هذه الآية الكريمة: أن رسول الله ﷺ إنما بلغ في الإقبال على ربه حدّاً نهائياً لا يمكن أن يدانيه فيه إنسان. وبذلك الإقبال النهائي كُشِفَت له الحقائق، فشهدت نفسه ما شهدت من عدل الله، ورحمته، وعظمته، وقدرته، وسائر كمالاته، كما شهدت طريق الحق والسعادة.

فلما جاء الوحي بالأوامر الإلهية كانت كلها معروفة عنده، إذ أنه شاهد حقائقها من قبل بذلك الإقبال الذي تقدم نزولها عليه.

{وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ}:

والغيب: هو كل ما غاب عنك واستتر.

والضنين: في الأصل بمعنى البخيل.

ويكون ما نفهمه من هذه الآية: أن رسول الله ﷺ لا يبخل على الناس ببيان ما غاب واستتر عنهم من حقائق الأوامر المنزلة عليه، بل إن حنانه وعطفه وما انطبع في نفسه من الصفة الكاملة يدعوه لبيان كل ما فيه من الخير والسعادة لهذا الإنسان.

{وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ}:

والشيطان: هو البعيد عن الله، مأخوذة من شطن بمعنى: بَعُدَ، ومن شاط، بمعنى: فسد واحترق، فببعده عن الله فسدت نفسه وخبثت.

والرجيم: هو المطرود. ويكون ما نفهمه من هذه الآية:

إن هذا القول الذي جاء به رسول الله ﷺ لا يمكن أن يكون ـ كما زعم الكفار البعيدون عن الله ـ وحياً وإلقاء من الجن في نفس الرسول ﷺ، لأن الشيطان البعيد عن الله لا يدرك الحق ولا يتأتى له أن يأتي بالحق أو يدلّ على الخير. والشيطان مؤذٍ ولا يدلّ إلاَّ على ما فيه الشر والشقاء، وهذا القرآن الذي جاء به رسول الله ﷺ كله حق وكله خير، وجميع أوامره إنسانية ونافعة للإنسان، وذلك كله يردّ قول الكافرين، ويشهد بأن ما جاء به رسول الله ﷺ كله من عند الله قال تعالى:

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنِدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾[(١)].

{فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ}:

أي: ألكم بعد هذا البيان من ردٍّ تردُّون به؟ وهل لكم من حجة تناقضه فتحتجُّون

---

(١) سورة النساء: الآية (٨٢).

بها؟

{إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ}:

والذكر: هو أن تتحدَّث لآخر عن شيء رآه أو سمع به من قبل. فحديثك عن البحر لرجل كان سمع بالبحر ورآه إنما هو ذكر، لأنك حينما تتكلَّم له عنه يتذكَّر ما كان شهد ورأى من قبل، ولتفصيل معنى الآية نقول:

هذا البيان الذي بيَّنه الله تعالى لعباده في القرآن الكريم إنما هو ذكر لأنه يذكِّر الإنسان بما رآه من خلق السموات والأرض وما فيهما من الآيات الدالة على عظمة الخالق كالجوار الكنَّس، وآية الليل والصبح، كما يذكِّره بأصله ممّ خُلق، وكيف نشأ وتطوَّر، حتى صار إنساناً سويّاً!

ثم إنه يذكِّره أيضاً بما حلَّ بالأقوام الذين مضوا من قبل، وكيف أنهم هلكوا بمعارضتهم الحق وتكذيبهم رُسلَ الله، وأخيراً يذكِّر الإنسان بما سيكون عليه حاله في الآخرة إن محسناً ففي النعيم وإن مُسيئاً ففي الحميم وإلى الجحيم.. إلى غير ذلك من الآيات التي توقظ الإنسان من غفلته وترشده إلى خالقه. وكما يذكِّر القرآن الإنسان في بادئ الأمر بما رآه بعينه من صور الأشياء كذلك يذكِّر الإنسان المقبل بما انطبع في نفسه من الكمال في ساعات إقباله على ربِّه.

أما كلمة (**العالمين**) الواردة في هذه الآية: فهي إنما تعني البشر جميعاً في كل عصر من العصور، وفي كل قطر من الأقطار على اختلاف أجناسهم وعناصرهم فهم كافة مقصودون ومعنيون بهذا الخطاب، لأنهم جميعاً عباد هذا الخالق الكريم والرب الرحيم. ولكن من الذي يستفيد من هذا الذكر؟ ومن هو الذي يقع في نفسه موقعاً حسناً فيكون سبباً في جعله مقدِّراً عظمة ربّه وخالق هذا الكون كله، وداعياً له إلى سلوك

السبيل الإنساني الذي يجعله أهلاً لفضل خالقه جديراً بإحسانه ونعيمه؟

إنه لا يستفيد من هذا الذكر إلاّ الذي تطلَّبت نفسه السلوك الإنساني القويم، وشاء أن يسير به ويستقيم عليه، ولذلك قال تعالى:

{لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ}:

أي: أن هذا البيان الذي أورده الله تعالى ذكر للعالمين لا يستفيد منه ولا يتَّعظ به إلاَّ من تطلَّبت نفسه سلوك طريق الحق وشاء أن يستقيم. أقول:

وهذه الآية تبيِّن لنا عدل الله تعالى في خلقه ورحمته بجميع عباده فهو سبحانه لم يخصَّ بفضله أناساً دون آخرين، بل جعل نيل الفضل الإلهي متوقفاً على مشيئة الإنسان واختياره. فكل من شاء وأراد الاستقامة إذا تُلي عليه هذا البيان كان ذِكْراً له وأثَّر في نفسه.

ثم إن الله تعالى بيَّن لنا أن مشيئة الإنسان في الاستقامة متوقفة على شيء واحد، فهذا الإنسان الحرُّ في إرادته، المطلق في اختياره، لا يشاء أن يستقيم إلاَّ إذا وجد ربُّه منه صدقاً في طلب الحق وعزماً صحيحاً على الوصول إليه.

أما مجرَّد طلب الاستقامة خالياً من الصدق فلا يغني صاحبه شيئاً، ولا يريه حقيقة، ولذلك قال تعالى:

{وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}:

أي: إن مشيئتك أيها الإنسان بالاستقامة لا تصح ولا تتولد في نفسك إلاَّ إذا رأى ربُّك منك صدقاً في طلب الحق. فإذا وجد فيك هذا الصدق رزقك تلك المشيئة مشيئة الاستقامة.

وإذاً فالأمر بيدك أيها الإنسان، فما دمت مستسلماً لشهواتك غارقاً في أوحالها غير طالب بصدق الوصول إلى الحق، فلا بدَّ أن شهوتك تظل حجاباً بينك وبين رؤية الحق، ولست تستطيع أن تتطلَّب ذلك الطلب العالي في الاستقامة، وبالتالي لا تستطيع أن تتذكَّر ما جاءك به القرآن من العبر والآيات، لأنك مريض ونفسك ملأى بشهواتها الخبيثة، ومن الخير لها أن تُفرَّغ مما خالطها من الخبث.

أما إذا أنت قمعت شهوتك بإقناع نفسك، وصدقت في طلب الوصول إلى الحق، فهنالك يتجلَّى عليك ربُّك بنوره فيريك الحق ويرزقك ذلك المطلب العالي وتلك المشيئة الطيبة في الاستقامة. فإذا ذُكِّرت بما في القرآن ذكرت واتَّعظت:

(... **وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ**)[1].

---

(1) سورة غافر: الآية (١٣).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾

لِكُلِّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾
ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ
﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

صدق الله العظيم

تأويل سورة عبس

يريد الله تعالى في مطلع هذه السورة الكريمة أن يُصوِّر لنا مجلساً من مجالس رسول الله ﷺ التي جلس فيها يدعو الناس إلى الله وقد تبدَّت من خلال ذلك نفسية الرسول الكريم ﷺ العطوف على الخلق الحريص على هدايتهم، وأنه ﷺ يُحدِّث في مجلسه هذا نفراً من زعماء قريش ويدعوهم إلى الله، وإنه لمنصرف إلى هؤلاء الزعماء الذين يرغب في إيمانهم كل الرغبة رجاء أن ينقذهم من الظلمة إلى النور وأن يَلْحَقَ بهم إن هم آمنوا خَلْق كثير، إذ جاءه ابن أم مكتوم وكان هذا الرجل أعمى ضريراً، فلمَّا رأى رسول الله ﷺ ذلك الأعمى مقبلاً نحوه عَبَسَ لا عبسة المحتقر المعرض عنه، وإنما عبسة المهتم بأمر خطير، وما ذاك إلا لشدة حرصه على أولئك الزعماء، ثم ولّى ﷺ وجهه إليهم ومع ذلك فلم ينكسر خاطر ابن أم مكتوم لأنه لا يرى التفاته " **لكونه أعمى البصر** " وهو يتصدى لدلالتهم لذلك قال تعالى:

{عَبَسَ وَتَوَلَّى ۞ أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى}:

أي انظر أيها الإنسان إلى حرص الرسول ﷺ على هداية الخلق! وتصوَّر حال رسول الله ﷺ مع أولئك النفر واهتمامه بهم لما جاءه ذلك الأعمى!

ثم أردف تعالى هذه الآية بقوله:

{وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ۞ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى}:

وتفيد كلمة (**لعلّه**) حصول الزكاة أي الطهارة والذكرى إن كان المريد أي عبد الله بن أم مكتوم مهيِّئاً نفسه ومُحسناً قبل حضور مجلس رسول الله ﷺ، وقد لا تحصل الزكاة والذكرى إن لم يهيِّء نفسه قبل الحضور، فإن كان مُقبلاً واثقاً من إحسانه فهنالك

وبما يسمعه منك يصبح من أهل المعروف.

أَوْ يَذَّكَّرُ: فيصبح ذا معرفة عالية.

فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى: فيقوم بإرشاد غيره ودلالتهم، وقد لا يذكَّر ولا يزكَّى وذلك ما تفيده كلمة (**لعلَّه**)، وهذا الأمر أنت لا تدريه، (**وَمَا يُدْرِيكَ**)؟ "وحتماً ولو كان عبد الله بن أم مكتوم مُهيَّأ النفس إذ ذاك لهيَّأ له تعالى الأسباب ليذكَّر أو يخشى ولجمعه تعالى برسوله الكريم قبل مجيئهم أو بعد انصرافهم من المجلس، ولكنه تعالى جمعه مع هذا الجمع ليُرينا كمال حكمة رسوله ﷺ وحُسن تصرّفه ليكون لنا قدوة وأسوةً نقتدي به إن أصبحنا مرشدين وحدث معنا مثلما حدث معه ﷺ "، لذا فإنك انصرفت إلى أولئك الزعماء الذين هم في خطر عظيم لكفرهم رجاء أن يؤمنوا فيهتدوا ويسعدوا فاهتممت بأولئك النفر وأجَّلت الالتفات إلى ذلك المؤمن الذي لا خطر عليه.

(**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ**)[1]:

"أيها المشركون ويا زعماء قريش" (**بِالْمُؤْمِنِينَ**): كعبد الله بن أم مكتوم (**رَءُوفٌ رَحِيمٌ**).

وتفصيلاً لموقف رسول الله ﷺ وبياناً إلى أن عمله مُطابق للحكمة نضرب المثال الآتي فنقول:

لنتصور طبيباً كان يُجري عملية جراحية خطيرة لأحد الأشخاص ابتغاء تخليصه من الموت، وفيما هو في عمله ذلك جاء رجل أبلَّ من مرضه وهو يطلب دواءً مقوياً، فهل من المعقول أن يترك الطبيب ذلك المريض صاحب العملية الجراحية الخطرة

---

(١) سورة التوبة: الآية (١٢٨).

يستسلم للموت وينصرف إلى غيره؟

وهل من المعقول أن يُعاقب رئيس المستشفى هذا الطبيب على تولّيه وانصرافه عمّن يتطلّب الدواء المقوي؟ أم أنه يشكره على عمله ويُثني عليه؟ لا ريب أن هذا المثال ينطبق على هذه الواقعة تمام الانطباق.

وإذاً فليس المراد من كلمة (**عَبَسَ وَتَوَلَّى**) ذلك العتاب الذي صاغوه على ذلك الشكل وصبُّوه في قالب تلك القصة المموَّهة، وليس في هذه الآيات أدنى أثر للعتاب، فما أخطأ رسول الله ﷺ حتى يُعاقبه ربُّه وليس عمله ﷺ بمستحق اللوم. ولا عصمة إلاَّ لنبي، والرسول محمد ﷺ سيِّد الأنبياء قاطبة وهو المعصوم عن الأخطاء صغيرها وكبيرها، إذ لم ينقطع عن الله فالله عاصمه ومؤيده وحافظه من الخطأ والزلل وإِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى.

{**أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى**}:

معرضاً عنك وعن سماع كلام الله ولكنه حضر للمناقشة والتحاور " ففي حضوره فرصة نادرة المثال لرسول الله ﷺ ".

{**فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى**}:

أي تعرَّضْ بالدلالة طمعاً في إنقاذه. وهذا أمر من الله تعالى لإخراجهم من الظلمات إلى النور، لأن تبليغات حضرة الله لرسوله كلها أوامر (**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ**...)[1] كالقائد العام الذي يُصدر أوامره لقادة الجبهات بقوله: " أنت تتقدَّم بالجبهة الغربية "، وللقائد الثاني: " أنت تصدُّ العدو فقط دون أي تقدُّم " وأنت تباشر الهجوم

---

(١) سورة الحجر: الآية (٩٤). (٢) سورة النحل: الآية (٩٠).

الجبهي وذاك يُباشر الهجوم الجانبي وهلمَّ جره، فهذه التعليمات كلها أوامر، وجملة (**فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى**) آمرية دونما شك، فما يبلغه تعالى لرسوله يُعتبر أمراً لا مردَّ له، كذلك كل ما يبلغه الرسول الكريم للمؤمنين فهو أيضاً أمر (**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ**...)[٢] لأنه أيضاً ﷺ الآمر الناهي.

والله تعالى يخاطبنا أيضاً على لسان رسوله بصيغة الأمر (**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدلِ وَالإِحْسَانِ وإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى**...)[٣]. نحن نطلب من حضرة الله طلباً أدباً مع العلّي الأعلى، وهو تعالى يأمرنا نحن المؤمنين أمراً (**كَلاَّ لَمَّا يَقضِ مَا أَمَرَه**)، كذا يأمرنا رسول الله أمراً بإذن الله (... **وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**)[٤]. فالأعلى يأمر الأدنى والتنزيل من الأعلى جلَّ وعلا وعلى رسوله لأنه تعالى هو الأعلى والرسول يصبُّ في قلوبنا القرآن من سمو علوه علينا لنسمو " أمراً "، ومن تواضع لله ولرسوله رفعه.

{وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى}:

فلا عليك الآن به فقد قمت بواجبك نحوه وأدَّيت ما أنت مكلَّف به.

{وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى}:

أي طالباً الهدى.

{وَهُوَ يَخْشَى}:

وقد حصلت له الخشية من الله.

{فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى}:

---

(٢) سورة النساء: الآية (٦٤). (٤) سورة الأعراف: الآية (١٩٩).

" جاءت بصيغة الأمر "، إذ أوصلت قلبه للهدى فهو مؤمن فالتفتْ عنه إليهم ليؤمنوا وحرصاً عليهم. وفي قوله تعالى السابق الذكر لرسوله ﷺ موافقة على تصرفه ﷺ الحكيم، وتثبيت وتشجيع له على الاستمرار بهذا النهج بإعطاء الأولية لذوي الخطر الجسيم، وإرجاء من بلغ مبلغ الإيمان حيث دخل بإيمانه في حصن الأمان، لوقت آخر.

وممَّا يؤكِّد ما ذكرناه أمره تعالى لرسوله الكريم ﷺ بقوله:

{فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى} أي آمرك يا حبيبي بالتلهِّي عنه بغية إنقاذ عبادي الضالين ولأنه اهتدى.

فهؤلاء النفر من صناديد قريش وزعمائها عميان، (... **فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**)[1]، فهؤلاء الزعماء عمي البصيرة وعبد الله بن أم مكتوم بصير، مفتِّح البصيرة فلا يصح أن يهتمَّ بالمبصر ويُهمل العميان الذين إذا التفتوا إلى رسول الله ﷺ كما التفت السحرة إلى سراجهم المنير سيدنا موسى عليه السلام فرأوا كمالات الله وهو سراجهم المنير لهم سُبل الحقائق، تفتَّحت بصيرتهم بعد عمى فاهتدوا وسعدوا، كما سبق أن تفتَّحت بصيرة سيدنا عبد الله بن أم مكتوم واهتدى وسعد فهو قد أخذ استحقاقه، أما هم فمحرومون حرموا أنفسهم، والآن حضروا فهل يجوز إهمالهم وتركهم عمياناً والالتفات إلى الناجي المفتِّح الذي نال استحقاقه؟ حاشا لرسول الله أن يظلم فهو العادل، لذا قام بواجبه على خير ما يرام وأثنى عليه تعالى وأقرَّه على تصرُّفه وشجعه على المثابرة على السعي لإخراج العميِ البصائر من الظلمات إلى النور، والالتفات والتولي وإرجاء من يجب إرجاءه ممّا تقتضيه الحكمة نحو

---

(١) سورة الحج: الآية (٤٦).

الأفضل، وذلك ما يقتضيه المنطق السليم والرأي الراجح.

كما لا يخفى علينا ثناء الله تعالى على رسوله محمد ﷺ بسورة القلم بقوله: **(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)**[١] ما يتنافى مع انتقاصهم لقدره ﷺ لقولهم أنه أخطأ وعاتبه الله على خطئه وحاشاه ﷺ من الخطأ والعتاب، ولو كان في قولهم أدنى صحّة، لوجدنا القرآن متناقضاً ولكان فيه اختلاف كثير (.. **وَلَو كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيرِ الله لَوجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً)**[٢].. ألا إنهم هم أخطؤوا ولكن رسول الله ﷺ لم يخطئ.

{كَلاَّ}:

أي ليس الأمر بشديد عنايتك وعظيم اهتمامك بهم وبه.

{إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ}:

أي إنما أنت مكلَّف بالبيان والتذكير، وإنما عليك البيان وعلينا الحساب.

{فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ}:

أي إنني أعطيت الخلق الإطلاق، ومنحتهم حرية الاختيار فمن شاء وأقبل ذكر ما تتلوه عليه من البيان وعرف قدر خالقه وموجده وأنه لا فرق عندي بين فقير وغني وضعيف وقوي.. الخلْق كلهم عبادي وقد أعطيتهم مشيئة الاختيار، ولعل الضعيف المقبل يأتي منه خير كثير، فيكون هادياً ومرشداً، ولعل القوي المدبر إن تولى وكفر ولم يصغِ إلى نصحك لا ينتفع منه أحد ولا ينتج عنه خير بسبب إعراضه وكفره وما عليك أيها الرسول سوى التذكرة والبيان وابدأ بالأهم فالمهم، فكل امرئ إنما هو

---

(١) سورة القلم: الآية (٤).

(٢) سورة النساء: الآية (٨٢).

مسؤول عن نفسه وما أنت إلاّ نذير مبين، وبعد بيانك فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

وإذاً فليس في هذه الآيات كما نرى شيء من لوم ولا عتاب وإنما بيان لحرص رسول الله ﷺ على الخلق وشديد اهتمامه بهم كما هي تشريع وبيان، بيان من الله لرسوله ﷺ ولكل مرشد من بعده بما أُعطيه الإنسان من حرية الاختيار، وأن هذه الإرادة المطلقة التي مُنحها الإنسان من حرية الاختيار لا يستطيع أحد أن يوجِّهها إلى جهة ما مهما جَهِدَ وتَعِبَ ما لم تتَّجه هي بذاتها "أي النفس المخيَّرة" فتتعرَّف إلى خيرها من شرِّها.. وما الأنبياء المرسلون ولا الهداة والمرشدون إلا أدلاَّء مذكِّرون. قال تعالى:

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا...﴾[1].

﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[2].

أي: من يريد الهداية لنفسه. فإن شئت أيها الإنسان الهدى وأقبلت على خالقك هداك بنوره وإن أنت أعرضت عن الله فما لك من هادٍ.

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[1].

أقول: وقد ساق الله تعالى هذا الأعمى إلى مجلس رسول الله ﷺ في مثل هذا الظرف الذي كان يحدِّث به أولئك الزعماء ليُظهر تعالى لنا هذه الحقيقة، وليعرِّفنا بما أُعطيه

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٤٨).

(٢) سورة القصص: الآية (٥٦).

(١) سورة النساء: الآية (١١٥).

الإنسان من حرية الاختيار، وليجعل من رسول الله ﷺ مبيّناً لشريعته كما في قصة زواجه ﷺ بزينب زوجة متبناه، إذ أمره الله تعالى بذلك ليُبطل ما كان شائعاً في الجاهلية من سبل الضلال والفساد الناشئ عن التبنّي.

وبعد أن بيَّن لنا تعالى في الآيات السابقة ما تحلَّى به قلب رسوله الكريم ﷺ من الرأفة، وما اصطبغت به نفسه ﷺ من الكمال الإنساني في رحمته بالخلْق عامة أراد تعالى أن يبيِّن لرسوله ﷺ أن هداية الإنسان أمر منوط بالإنسان ذاته ومتروك إليه وحده وما على الرسول ﷺ سوى التذكير والبيان ولذلك قال تعالى:

{كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ}:

وتريد كلمة (**كلا**) في هذه الآية أن تخفِّف عن الرسول ﷺ بعض ما يجده من الحزن على الخلْق، وأن تسرِّي عن نفسه ما بها من الضيق بسبب عدم موافقة قومه له في الخروج من الظلمات إلى النور والسير في طريق الإيمان.. كما تريد من جهة ثانية أن تبيِّن لرسول الله ﷺ ما منحه الله للإنسان من حرية الاختيار.

ويكون مجمل ما نفهمه منها:

أي ليس الأمر بتودُّدك ومداراتك وليست هداية الخلق بمتيسِّرة لك ما لم يُقبلوا هم بأنفسهم على خالقهم ويتطلّبوا الهدى بذاتهم.

وبعد أن بيَّنا ما بيَّناه صار من السهل علينا أن ندرك معنى كلمة (**إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ**) أي أن الرسول الكريم ﷺ وكل من سار على هديه من المرشدين إنما يذكِّر بكلام الله تعالى تذكرة.

ولكن كيف تكون هذه التذكرة؟ أقول:

لقد بيَّنا طرفاً من ذلك في السورة السابقة (التكوير) ونعود هنا فنفصِّل بعض التفصيل فنقول:

هذه الآيات التي جاء بها رسول الله في القرآن الكريم إنما تذكِّرك أيها الإنسان بما شهدت، وما رأيت من آيات الكون وتلفت نظرك إلى التأمُّل والنظر فيه. فهي تذكِّرك بالشمس وبالقمر، وبالليل والنهار، بالسماء والأرض، بالجبال والأنهار، تذكِّرك بنفسك ممَّ خُلقت؟ وكيف تكوَّنت من بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً؟ تذكِّرك بما جرى للذين خلوا من قبل، وما حلَّ بالكافرين من الهلاك، تذكِّرك بالموت وبساعة خروج الروح عند فراق هذه الحياة؟

وإنك إذا نظرت إلى السور المكّية وجدتها جميعاً من هذا النوع، فهي تُلحُّ عليك كثيراً بالنظر والتأمُّل، وتجتذب نفسك إلى التدقيق في نظام الكون وتذكِّرك بما تراه من المشاهدات التي تقع دوماً تحت عينيك، والتي يستوي في رؤيتها جميع الناس على السواء.

فالقرآن والحالة هذه إنما هو تذكرة لك، ونستطيع أن نسمِّي هذا النوع من التذكرة بالتذكرة الحسية، أي التذكرة التي تلفت النظر إلى المشاهدات التي تدركها النفس عن طريق الحواس.

فإذا نظر الإنسان مثلاً في نفسه، ودقَّق في خلْقه منذ أن انعقد جنيناً في بطن أمه، ثم تدرَّج في التأمُّل والتدقيق إلى أن أصبح بشراً سوياً جعلته هذه النظرات يُعجب بتركيب جسمه ويستعظم ما هو عليه من دقّة التكوين!

ولا ريب أن استعظام الإنسان لخلْقه يجعله يقرُّ نفسياً بأن له خالقاً عظيماً مربّياً حكيماً، إذ ليس يتصوَّر أن تتحول نُطفة من ماء مهين فتصبح بذاتها بشراً سوياً قائماً

على هذا التكوين العجيب والخلْق البديع.

وباستعظام الإنسان لخالقه يخشع له ويخشاه، وبذلك تجده يستقيم على أمره تعالى، وباستقامته على أمر الله تطمئن النفس وتثق من رضائه تعالى عنها، فتقبل بوجهها. وبإقبال النفس على الله تحصل على صفحاتها انطباعات سامية من الرأفة والرحمة وغير ذلك من الصفات الكاملة، كما ينطبع على لوحة آلة التصوير صور ما تواجهه من الأشياء.

على أن هذه الانطباعات إنما تحصل في النفس بصورة لا شعورية، فإذا رجع الإنسان من بعد ذلك إلى تلاوة آيات الله كانت له تذكرة، إذ يتذكَّر ما في نفسه من الصفة الكاملة، وهناك يقرُّ وتطمئن نفسه لما يتلوه من كلام الله.

لقد اصطبغت النفس بإقبالها بصبغة الكمال، وأصبحت تنفر من الرذائل فإذا سمعت بالنهي عن الربا (أكل الربا) والزنا، وإن تُليت عليها آيات الحجاب وتحريم الخمر والميسر أقرَّت بذلك وصدَّقت به، وإذا مرَّت بها الآيات التي تبيِّن عدل الله ورحمته بالخلق فاضت أعينها بالدمع تصديقاً لما عرفته من كمال الله.

وهكذا تكون الآيات لها تذكرة، تذكِّرها بما هو منطبع فيها، ونستطيع أن نسمِّي هذا النوع من التذكرة بالتذكرة **الخلقية**.

وبعد أن بيَّن لنا تعالى أن الرسول ﷺ إنما يذكِّر تذكرة، أراد أن يبيِّن لنا أن حصول هذه التذكرة متوقِّف على الإنسان ومنوط به وحده، ولذلك قال تعالى:

{فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ}:

أي: فمن شاء أن تحصل له هذه التذكرة فعليه أن يذكر الله تعالى، وهذا الذكر كما

رأينا إنما يكون بعد التفكير والنظر في آيات الكون الدالة عليه تعالى. فالمشيئة إذاً موقوفة عليك أيها الإنسان وحدك ولعمري ذلك منتهى العدالة الإلهية.

فالله تعالى لم يخصِّص بالإيمان فريقاً من الخلق دون فريق، ولم يهدِ أُناساً دون آخرين، إذ أن الخلق جميعاً عباده ولا فرق لديه بين إنسان وإنسان، غير أنه تعالى وَهَبَ الناس جميعاً تلك الجوهرة الثمينة، وأعني بها الفكر، فكل من شاء الهداية وأطلق لتفكيره عنانه وسلك السبيل التي بيَّناها آنفاً هداه الله، والله ذو الفضل العظيم، (... **فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً**)[1].

وبعد أن بيَّن لنا تعالى أن هذه التذكرة إنما تحصل إذا ذُكِرَ الله، أراد أن يبيِّن لنا المرجع الذي نرجع إليه في هذه التذكرة.. فقال تعالى:

{فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ}:

والمراد **بالصحف المكرَّمة** هنا: القرآن العظيم. **والمكرَّمة:** هي الكاملة الخالية من كل نقص وشائبة. فالقوانين والأنظمة التي يضعها الإنسان لا يلبث واضعها أن يغيِّر فيها ويبدِّل لما يظهر له فيها من شوائب النقص أو عدم الوفاء بحاجات العصر، أما دلالة الله تعالى فكاملة صالحة لكل زمان ومكان لا يمكن أن تعتريها شائبة مهما كرَّت العصور وتقادم الزمان لأن الذي خَلَقَ الكون كله وأوجده على هذا الحال من الكمال ليس يُعجزه أن يضع لهذا الإنسان قانوناً ليس فيه أدنى خلل أو نقصان.

ثم بيَّن لك تعالى صفة ثانية من صفات هذه الصحف فقال:

{مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ}:

---

(١) سورة النبأ: الآية (٣٩).

والمرفوعة: هي العالية الشأن والمنْزلة لما فيها من الدلالة العالية التي تعود على الإنسان بالسعادة التامة الدائمة وعلى المجتمع البشري كله بالخير والحياة الطيبة.

والمطهَّرة: هي التي كلها نفع وخير، فهي مرفوعة وعالية لأنها مطهرة. ثم بيَّن لنا تعالى أنه أرسل لنا هذه الصحف بأيدي رسله يبيِّنون للخلْق حقائقها ويكشفون لهم عن معانيها فقال تعالى:

{بِأَيْدِي سَفَرَةٍ}:

والسفرة: جمع سفير، والسفير مأخوذة من سَفَرَ بمعنى: كشف وأظهر. فالرسل إنما هم في الحقيقة وسطاء بين الله وعباده ومبلِّغون لرسالاته فهم لا يأتون بشيء من عندهم مطلقاً، وإنما يبلِّغون شريعة ربِّهم ويكشفون للخلق عمَّا شهدوه من معانيها، وقد شهد لنا تعالى بطهارة نفوس أولئك الرسل فقال:

{كِرَامٍ بَرَرَةٍ}:

والكرام: جمع كريم، والكريم: هو الذي صفت نفسه بإقبالها على خالقها وخلصت من كل شائبة.

أما كلمة (**بررة**): فهي تبيِّن لنا صفة ثانية من صفات هؤلاء الرسل، فهم بررة، أي: أصحاب بر وإحسان بالخلق عامة، وهم بررة لأنهم برُّوا ووفُّوا بعهدهم الذي عاهدوا الله عليه في الأزل بألاّ ينقطعوا عنه تعالى إذا هم جاؤوا لهذه الدنيا طرفة عين.

ومن هنا تتبيَّن لنا أيضاً عدالة الله تعالى في خلقه، فهو لم يختر لتأدية رسالاته إلاّ أناساً كراماً بررة، طهُرت نفوسهم من كل شائبة، وتحلَّت قلوبهم بالإحسان والرحمة، فاستحقوا أن يكونوا رسلاً وسفرة، أقول:

وهذه الآية إنما تنفي عن الرسل الخطأ والذنوب فالله تعالى يشهد لك بطهارة الرسل ونقاوة نفوسهم، وكل ما يخالف ذلك فاعلم أنما كتبته أيدي أهل الضلال والالحاد ثم نسبوه إلى جماعة من أجلّة العلماء لينطلي على ذوي الأفكار البسيطة، وليقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض: إذا كان الأنبياء فعلوا ما فعلوا فكيف نحن نصبر عن الشهوات!

ولو أنهم تدبّروا هذه الآية وحدها لعلموا أن الرسل الكرام الذين شهد الله لهم بالكمال، لا يمكن أن يصدر عنهم خطأ أو ذنب أو عصيان.

وبعد أن بيَّن لنا تعالى أن هذه التذكرة إنما تكون بذكر الله، وبعد أن عرّفنا بأن الرسل الكرام إنما هم مبلِّغون ومبيِّنون لكلامه تعالى، أظهر عجيب أمر الإنسان كيف يُعرض عن ربِّه ويُنكر نعم خالقه فقال تعالى:

{قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ}:

وقتل الإنسان: أي أهلك نفسه وأضاع حياته، إذ بإعراضه عن ربِّه حرم نفسه من الخير والسعادة وأوقعها في الشقاء والتعاسة.

وقد جاء فعل قُتِل مبنياً للمجهول ولم يُذكر معه فاعله للعلم به، إذ أن الإنسان ذاته هو الذي قتل نفسه بإعراضه.

فالله تعالى خلق الإنسان وتفضَّل عليه بما لا يُحصى من نعمه، وجعل فيه من الاستعداد والأهلية ما يجعله أسعد المخلوقات جميعاً وأحظاها بذلك النعيم النفسي الناشئ عن معرفته بخالقه، غير أن المعرض بإنكاره نِعَمَ ربّه وكفرانه بإحسان الله إليه ينطمس نور بصيرته، فلا يعود يرى خيره من شره ولا يهتدي إلى طريق سعادته.

وقد أنكر تعالى على هذا الإنسان إعراضه وعجيب كفره الذي لا داعي ولا مبرر له، فقال تعالى:

{مَا أَكْفَرَهُ}:

أي: ما الذي جعله يكفر؟ وبشيء من التفصيل نقول:

ليست كلمة (**ما**) الواردة هنا تفيد الاستفهام فقط، بل الإنكار على الإنسان عمله، إذ كل عاقل مفكِّر يعجب من أمره.

وأكفره: أي جعله يكفر. يُقال: أكفر فلان فلاناً أي: ألجأه إلى الكفر، فالآية تقول: ما أعجب أمر هذا الإنسان! ما الذي حمله على الكفر وكل ما في الكون ينطق بعظمة خالقه وموجده! وأي شيء جعله يُعرض عن ربِّه وكل ما في الكون يشهد بفضل الله وإحسانه!

ثم إنه تعالى لفت نظر الإنسان إلى نفسه وعرَّفه بأصله ونشأته، فلعله إن فكَّر في هذه النقطة الصغيرة توصَّل منها إلى معرفة ربِّه واهتدى إلى خالقه فقال تعالى:

{مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}:

أي إذا أنت لم تنظر في هذا الكون كلّه، ولم تفكِّر في ما يحيط بك من آيات، فانظر إلى نفسك ودقِّق في مبدأ نشأتك يوم انعقدت جنيناً في بطن أمك من أي شيء خُلقت؟ وكيف تكوَّنت؟ ثم بيَّن تعالى ذلك للإنسان وذكَّره به فقال:

{مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ}:

والنطفة: هي الماء الذي ينصبُّ في رحم الأم فيكون منه خلْق الإنسان وتكوينه.

أما **خلقه**: فتشير إلى تحويل الله تعالى تلك النطفة إنساناً وجعله على هذه الصورة

الكاملة. وكلمة (**قدَّره**): تُشير إلى إعطاء كل عضو الموضع والقدر المناسب لوظيفته من غير نقص أو زيادة أقول:

وهذه الآية إذا فكَّر فيها الإنسان مليّاً استطاع من وراء ذلك أن يتوصَّل إلى الإيمان بتلك القدرة العظيمة التي حوَّلت تلك النطفة فجعلت منها بشراً سويّاً ذا عينين وأُذنين، ولساناً وشفتين وقلب ورئتين، ومعدة وأمعاء، إلى غير ذلك من الحواس والأعضاء والأجهزة التي ألَّف المؤلِّفون في دراسة دقائقها وأجزائها آلاف المجلَّدات وقضى الباحثون في معرفة بعض وظائفها مئات الأعوام، ومع ذلك فمهما جَهِدوا وبحثوا فلن يستطيعوا أن يُحيطوا بها علماً أو يبلغوا نهاية.

ولو نظر الإنسان في اليد وعظامها ودقَّق في الأطوال المختلفة التي أُعطيها كل أصبع من أصابعها، لأدرك شيئاً من معنى كلمة (**فقدّره**) فلو لم يكن الإبهام مائلاً هذا الميل، ولو أنه كان مماثلاً لغيره من الأصابع الأخرى في الطول لما استطاع الإنسان أن يقوم بأعماله كما يقوم بها الآن، بل لعجز عن القيام بكثير من الأعمال.

ولو أنه دقَّق في الأسنان وأشكالها ووظيفة كل زمرة منها وموضعها، وكيف أنها على الرغم من كثرة عددها تنطبق جميعها على بعضها بعضاً دون أن يزيد سنٌّ عن المقدار المناسب مليمتراً واحداً لازداد إدراكاً لمعنى كلمة (**فقدّره**)، ولو أنه تابع هذه النظرات ووالى هذه التأمُّلات لانتهى به الأمر إلى الإيمان بأن له خالقاً عظيماً وموجداً حكيماً وربّاً قديراً!

وبعد أن عرَّف تعالى الإنسان بأصله لفت نظره إلى نقطة ثانية من النقاط التي تستحق التفكير وتستدعي التأمُّل والتدقيق فقال تعالى:

{ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ}:

والسبيل: هو الطريق والمراد بها هنا الطريق التي مرَّ بها الإنسان في خروجه من رحم أمه إلى هذه الدنيا. وقد جاءت كلمة (**السبيل**) هنا مُعرَّفة بالألف واللام إشارة لك إلى أن الطريق التي دخلتَ منها إلى رحم أمك وأنت نطفة هي نفسها التي خرجتَ منها إنساناً سوياً. فمن الذي خلقك وقدَّرك في هذا الرحم؟ ومن الذي يسَّر لك سبيل الخروج إلى الدنيا؟

{ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ}:

وأماته: أي قطع الحياة عنه وأبطل حركته.

وأقبره: أي جعله يوارى في قبره فلا يستطيع أحد أن يردَّ إليه روحه.

وبعد أن بيَّن لك تعالى من الآيات الموضِّحة لكيفية خلْقك وتركيب جسمك، وبعد أن بيَّن لك أن روحك وحياتك بيده وحده، ذكَرَ لك أن هذا الخالق العظيم قادر على أن يُعيدك للحياة ثانية ويُخرجك من قبرك، فقال تعالى:

{ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ}:

وأنشره: بمعنى أخرجه وأظهره، مأخوذة من نشر، تقول: سقى المطر الأرض فنشرت، أي: أنبتت، وأنشر الله الناس، أي: أخرجهم من قبورهم وأعادهم للحياة ثانية من بعد موتهم.

{كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ}:

وقد جاءت كلمة (**كلاَّ**): هنا مقرِّرة لما مرَّ في الآيات السابقة فهي تقول:

أتستطيع أيها الإنسان أن تردَّ وتُنكر ما بيَّنته لك؟ هل تستطيع أن تقول كلا؟ ألستُ الذي خلقتك من نطفة؟ ألستُ الذي قدَّرتك وأعطيت كلَّ عضو من

أعضائك ما يساعده على القيام بعمله وما يناسب وظيفته؟ ألستُ الذي يسَّرت خروجك إلى الدنيا وسهَّلتُ لك سبيل الولادة؟ ألستُ الذي أقطع الحياة عنك عند انتهاء أجلك فلا يستطيع أحد أن يردَّ إليك روحك؟ ألستُ بقادر من بعد ذلك كله على أن أُعيدك للحياة ثانية وأنشرك؟

وإذاً فليست كلمة (**كلاَّ**) هنا للردع ولا للنفي، وإنما لتقرير ما مرَّ من البيان في ذهن الإنسان.

أما كلمة (**لمّا**): فهي في الأصل تفيد نفي الفعل في الماضي مستمراً إلى الحال مع توقُّع حدوثه، تقول: أقبل الشتاء ولما يهطل المطر هذا العام، أي: أنه حتى الآن لم يهطل، ومع ذلك فمن المتوقَّع هطوله.

أما ما نفهمه منها في هذه الآية فإنها بمعنى الحث على الطاعة التي لم تصدر بعد من هذا الإنسان. فكلمة (**كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ**) تقول: أيظل هذا الإنسان بعد أن أريته ما أريته مستمراً على إعراضه وكفره؟ ألا يجب عليه أن يقضي ما أمره به ربُّه؟ ألا يجب عليه أن يُذعن ويُطيع؟ أما هو الجدير به أن يسير في السبيل التي بيَّنها له خالقه وموجده؟

ثم إن الله تعالى أراد أن يبيِّن للإنسان آية أخرى من الآيات الدالّة على قدرته تعالى وكبير عنايته بهذا الإنسان، فلعله إن فكّر أيضاً استعظم خالقه وقدَّره وسَلَكَ السبيل التي شرعها تعالى فظفر بالسعادة في الدنيا والآخرة، ولذلك قال تعالى:

{فَلْيَنْظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ}:

ونظر: بمعنى أبصر مُتأمِّلاً ودقَّق مُفكِّراً، فالآية تقول:

إذا أنت لم تنظر أيها الإنسان إلى نشأتك، ولم تفكِّر في خلْقك، ففكِّر في طعامك وانظر إلى الكيفية التي بها يكون إيجاد غذائك!

ثم ذكر لك تعالى الكيفية فقال:

{أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً}:

وصبّ: بمعنى: سكب، وبمعنى انحدر من مكان مرتفع، تقول: صبّ فلان الماء في الإناء، أي: سكب، وصُبَّ النسر من السماء، أي: انقضَّ. وتُشير كلمة (**أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ**) أي: إلى تلك الكيفية وذلك النظام الذي ينصبُّ به الماء من السماء من حيث: تبخير الشمس لمياه البحر وسوْق الرياح لقطع الغمام، وتلبُّد الغيوم في السماء، ثم تكاثفها وسقوط الأمطار... فذلك كلّه إنما يجري وفق قوانين ثابتة. فمن الذي وضع هذه القوانين لتكون سبباً في نزول الأمطار؟

أما كلمة (**صبّاً**): فقد جاءت مُطلقة غير مقيدة بوصف، لما تُشير إليه من أوصاف لا يتَّسع لها لفظ واحد، فهي تشمل: صبّاً رفيقاً، إذ ينصبُّ الماء من السماء على شكل قطرات لطيفة، لا تزعج الحبّة الدفينة في الأرض ولا تؤثِّر على الزرع كما لا تُسبِّب أضراراً في المنازل.

وهي تشمل أيضاً صبّاً منظَّماً متوافقاً مع الفصول، وهي تشمل صبّاً متناوباً في فترات متلائمة لسقاية الزرع، وتشمل صبّاً كافياً يفي بحاجة الأرض، وصبّاً شاملاً غير منحصر في بقعة صغيرة في الأرض بل شاملاً لكل منطقة من المناطق، وهكذا ينطوي تحت كلمة (**صبّاً**) معانٍ شتى.

{ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً}:

وشقّ الشيء بمعنى: صدَّعه وفرَّقه. فالرياح الشديدة التي تهب عقب نزول الأمطار لها أثر في هذا التشقق، فهي تشقِّق الطبقة السطحية من التربة بتجفيفها للقشرة السطحية فتنفصل عن الطبقة الرطبة تحتها وبذلك تجعلها تتشقق تسهيلاً لخروج النبات، كما أنها من جهة ثانية تفصل هذه الطبقة السطحية عن الطبقة التي تحتها حيث الحبَّة المدفونة في الأرض وبهذه الصورة تظل الحبّة في وسط رطب وفير الماء دافئ منعزل عن طبقات الجو البارد، ثم أن هذا التشقق يسمح بدخول أشعة الشمس وتسرُّب الهواء وبذلك تتوفَّر للحبَّة شرائط الإنتاش من حيث وجود الرطوبة والدفء ومن حيث تمتُّعها بالهواء المساعد على التنفس وأشعة الشمس المعينة على النمو.

وإنك إذا ذهبت تفكِّر في كلمة (**شقّاً**) أدركت السبب في ورودها غير مقيدة بوصف من الأوصاف، فهي تشمل: شقّاً فاصلاً طبقة عن طبقة، وشقّاً سامحاً بتسرُّب الهواء الضروري لتنفس النبات، وشقّاً مُعيناً على نفوذ أشعة الشمس مساعداً على توفير الشرائط الحيوية للنبات، وهكذا ينطوي تحت كلمة (**شقّاً**) معانٍ لا يتَّسع لها لفظ واحد.

{فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً}:

فبانصباب الماء النازل من السماء المحتوي على المواد الحيوية تسري الحياة في البزرة، فتصبح نبتة حية من بعد أن كانت خامدة ساكنة لا فعل لها ولا حركة.

أما كلمة (**حبّاً**): فهي تُشير إلى ما تنبته الأرض من صنوف الحبوب المختلفة كالقمح والشعير وغيرهما فهو كله يُسقى بماء واحد وينبت في تربة واحدة، غير أنه يختلف عن بعضه بعضاً من حيث شكله وحجمه ولونه وطعمه وتركيبه الكيميائي وفائدته في التغذية. فمن الذي جعل للحبوب أشكالاً وحجوماً وألواناً وطعوماً وتراكيب مختلفة؟

وهل هذه النباتات ذوات عاقلة تجرُّ لنفسها ما تجرّ وتدع ما تكره وتأخذ ما تحبّ، أم أن هناك قدرةً تصوغ وتُركِّب وتُجري تفاعلات وتضع معايير، وتسوق ما تسوق من مواد، وتثبت ما تثبت من حيويات؟

لا ريب أن هناك قدرة عظيمة تقوم بذلك كله وتمد الكون كله بما تمدّه به من قوة ونماء، وتبعث في كل شيء ما يناسبه وما يساعده على البقاء واستمرار الحياة.

ثم بيَّن لنا تعالى ما ينبته من صنوف أخرى فقال:

{وَعِنَباً وَقَضْباً}:

والعنب: ثمر الكرم، وهي تشمل بصورة عامة كل ثمر منتفخ ذي قشر رقيق ولب غزير الماء، ومنه العنب والخوخ والكرز وما يشابهه من الثمار.

والقضب: جمع مفرده قضبة: وهو المتماسك، وقد سمّوا غصن الشجرة قضيباً لتماسك أليافه. ويكون ما نفهمه من كلمة (**قضباً**) الواردة في هذه الآية: كل ما سوى العنب من الثمار مما هو صلب متماسك الأجزاء كالتفاح والسفرجل وما شابههما من الأنواع.

أقول: وهذه الآية الكريمة إنما جمعت تحت كلمتي...(**وَعِنَباً وَقَضْباً**) صنوف الثمار ليّنها ومتماسكها، لتفكِّر أيها الإنسان في هذا التباين بين هذين النوعين، فلعلك تهتدي إلى خالقك وتتعرَّف إلى قدرته وحكمته وتشكره على سابغ فضله ونعمته.

ثم ذكر لنا تعالى نوعين آخرين مما يُنبته لنا فقال تعالى:

{وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً}:

وقد خصَّ تعالى الزيتون والنخل بالذكر لما في ثمرهما من مواد غذائية وافرة: فالزيتون بما

فيه من مادة دهنية دسمة وبما فيه من حيويات مختلفة وبما اشتمل عليه من مركَّبات غذائية شتَّى يستطيع الإنسان أن يقتصر عليه في التغذية حيناً دون أن يجد في ذلك انحطاطاً في قوَّته أو ضعفاً.

وكالزيتون النخل الغني ثمره بالمواد السكرية وغيرها من المواد الغذائية المقوية، ومن جهة ثانية خصَّهما تعالى بالذكر لما فيهما من النواحي التي تستحق النظر والتأمُّل.

فالزيتون والنخل إذا أنت نظرت للتربة التي ينبتان فيها لم تجد أثراً لتلك المواد التي احتواها ثمرهما. فمن الذي جعل الشجرة الأولى تُنبت الدهن، وجعل ثمر الثانية سكرياً ورزقاً حسناً وليس في تربتهما شيء من ذلك أصلاً؟ أليس هذا دليلاً على خالق كبير ورب قدير ذي فضل عظيم؟

{وَحَدَائِقَ غُلْباً}:

والحدائق: جمع حديقة، وهي البستان عليه حائط مأخوذة من حَدَقَ بمعنى: أحاط، نقول: حدق القوم بفلان، أي: أحاطوا به. وقد جاءت كلمة (**حَدَائِقَ**) هنا في صيغة الجمع لتلفت نظرنا إلى تلك الحدائق المختلفة التي جعلها الله تعالى على وجه الأرض في شتى الأماكن.

فإذا دقَّقت في كلمة (**حدائق**) تبدَّى لك سطح الكرة الأرضية في حدائقها المنتشرة هنا وهناك، فهو تعالى لم يجعل الأشجار تنبت في منطقة واحدة، بل بثَّها ونشرها في بقاع الأرض، وبذلك استطاع الإنسان أن يعمر الأرض وينتشر في الآفاق، ومن هنا تشكَّلت القرى وكانت المدن، ولولا ذلك لتكاثف الناس في منطقة واحدة بل لتعذَّر العيش واستحال لعدم كفاية المزروعات ووفائها بحاجات الكثيرين من السكان.

أما كلمة (**غُلباً**): فمأخوذة من غلب، بمعنى: قوي وقهر، تقول: غلبني فلان وغلب العشب على الزرع. وغلباً جمع غلباء، وهي: مؤنث الأغلب بمعنى الأقوى، ويكون ما نفهمه من هذه الكلمة: أنّ هذه الحدائق التي بثَّها الله تعالى على وجه الأرض خصَّها بخصائص، إذ جعل لكل نبات إقليماً خاصاً به، فلا النباتات التي تنبت في المناطق الحارة بصالحة للزراعة في المناطق المعتدلة أو الباردة، ولا النباتات والأشجار التي تنبت في الأرض الكلسية مثلاً بمؤتية أُكُلها في أراضٍ أخرى مختلفة التربة، فلكل إقليم ولكل نوع من الأراضي أشجاره ومزروعاته، وبذلك يستطيع الإنسان في منطقته أن يتبادل مع أخيه الإنسان ما هو بحاجة إليه ليعيش الناس جميعاً أمة واحدة لا غنى لقوم عن قوم، ولو أن أهل بلد أرادوا أن يكتفوا ويعيشوا منعزلين عن الآخرين وسعوا في أن يغرسوا في منطقتهم سائر الأشجار والنباتات لما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، بل لغلبتهم هذه الأشجار على أمرهم، فما تنبت في منطقتهم، وذلك بعض ما نفهمه من آية: **{وَحَدَائِقَ غُلْباً}**.

{وَفَاكِهَةً وَأَبّاً}:

وقد بيَّن لنا تعالى في هذه الآية الكريمة أنّ الحب والعنب والقضب والزيتون والنخل وكل ما ينطوي تحت هذه الأسماء من ثمرات إنما يشتمل على شيئين متلازمين يفيد منها الإنسان، وذلك إنما هو تمام لفضل الله على الإنسان وزيادة في إحسانه تعالى ورحمته، ففي كل نوع مما ذُكر بآن واحد لذة وغذاء، وبشيء من التفصيل نقول: **الفاكهة**: مأخوذة من فكه، تقول: فكه فلان بكذا، أي: طابت نفسه به وأعجبه، وتفكَّه بالشيء: تلذذ وتنعَّم به.

فهذه الحبوب وسائر الثمار والخضار إنما تُشير إلى كلمة (**فاكهة**) من حيث تنعُّم

الإنسان وما يجده في تناولها من اللذة والسرور.

أما كلمة (**أبّاً**): فهي تشير إلى ما تشتمل عليه الثمرة من المادة، تلك المادة التي هي الأصل في نماء جسم الإنسان والتي منها كان خلق هذا الجسم وتكوينه ولتوضيح معنى كلمة (**أبّاً**) نقول: هذه الكلمة مأخوذة من فعل أبَّ، بمعنى: تجهَّز وتهيَّأ. ويكون ما نفهمه من معنى الأبّ، أي المجهَّز، فهذه الأطعمة كلها سمِّيت المادة فيها (**أبّاً**) لأن منها كان تكوين الإنسان نطفة في ظهر أبيه، ومنها أيضاً كان خلق جسمه في بطن أمه لأنها بما اشتملت عليه من حيويات مختلفة يتكوَّن منها اللحم والعظم والأعصاب والدم وسائر أعضاء الجسم وأنسجته.

ثم من هذه المادة يكون نماؤه جنيناً قبل ولادته وخروجه لهذه الدنيا، فإذا ما ولد كانت المادة الموجودة في الثمرات التي تتناولها الأم أبّاً له أيضاً، إذ أنها تتحول إلى اللبن الذي منه غذاء الطفل في أيام الرضاع، فإذا كبر وتناول الأطعمة كانت هذه المادة أبّاً له، أي مجهّزة جسمه وممدة له بما يلزمه حتى ينمو ويصير رجلاً، فإذا تم له النماء وأصبح رجلاً كانت تلك المادة سبباً في إمداد جسمه بما يحتاجه للحفاظ على حيويته ودوام وجوده ونشاطه. أقول:

ومن هذا المعنى سُمِّي والد الإنسان (**أباً**) لأنه بالنطفة المتولِّدة منه يكون خلق أولاده، فمنه أصل تكوينهم وخلقهم، وإنك إذا تركت لنفسك العنان في البحث عما تنطوي عليه كلمة (**الأب**) من معانٍ، لوجدتها واسعة يعجز عن التعبير عنها قلم الكاتب، ولا تتَّسع لها بطون الكتب والمجلدات.

ونوجز القول فنقول:

هذه الآية الكريمة إنما تُعرِّف الإنسان بفضل الله وسابغ نعمته فهو تعالى لم يجعل طعام

الإنسان مادة مجرَّدة من كل لذة، بل تمَّم فضله إذ جعل في الغذاء لذة ينعم بها الإنسان. كما جعل منه بناءِ هذا الجسم وتكوينه، فللنفس حظها في التنعُّم وللجسم حظّه في البناء والتكوين، والله ذو الفضل العظيم.

ثم نقل تعالى نظر الإنسان إلى نقطة أوسع يتطلَّع منها إلى رؤية الفضل الإلهي فقال تعالى:

{مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ}:

أي: إنما خلقت ذلك كله لكم كي تتمتَّعوا به كما جعلت منه متاعاً لأنعامكم التي خلقتها لتعينكم على أعمالكم في دنياكم، ولتزيد في هنائكم وسعادتكم. أفلا تنظرون يا عبادي بعد هذا كله إلى عنايتي بكم وعطفي عليكم! أفلا تفكِّرون في فضلي وإحساني إليكم! أفيعرض عني الإنسان ولا يفكِّر بنعمتي! أفلا يشكرني على جميل عنايتي به ولطيف رعايتي! أفلا يطيعني في ما أمرت به وأنا غني عنه وعن طاعته، ولست أبغي له في أوامري سوى سعادته وفوزه بالنعيم الأبدي الخالد!

ذلك كله ما يريده تعالى لك أيها الإنسان، فإن ظللت تاركاً تفكيرك جانباً مُصرّاً على إعراضك عن ربِّك وكفرانك بنعم خالقك منغمساً في شهواتك ورذائل أعمالك فاذكر ذلك اليوم الذي سيدعوك فيه لتقف بين يديه فيحاسبك ويُريك ما كسبت يداك، ولذلك قال تعالى:

{فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ}:

والصاخة: مأخوذة من الصخِّ، **والصخُّ**: هو ضرب الحديد بشيءِ صلب، وهو أيضاً الصوت الذي يُقابلك به الحديد عند ضربه. والمراد **بالصاخَّة** هنا: الصيحة التي يُنادى بها الخلق يوم القيامة فيقابلونها بالخضوع والاستسلام، كلمة (**الصاخَّة**) إذاً: مزيج من

كلمتين اثنتين:

تدلُّ **الصاد** على الصيحة، **والخاء** على الخضوع.

فالناس في هذه الدنيا مطلقون في الإرادة، فإذا كان يوم القيامة فلا إرادة ولا اختيار، وليس يسع الناس إذا سمعوا النداء والصيحة إلاّ أن يخرُّوا خاضعين جميعاً للأمر الإلهي. ثم بيَّن لنا تعالى ما يتلو الصيحة فقال:

{يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ}:

والفرار: هو الهرب والتباعد. وقد عبَّر تعالى عن الإنسان في هذه الآية بكلمة (**المرء**) لأن كل إنسان في ذلك اليوم يرى أعماله، وكل عمل يغدو مرئياً لصاحبه وللآخرين خيراً أو شرّاً.

وقد بدأ تعالى بذكر الأخ بياناً لأول درجة من درجات الروابط النسبية، فالولد دمه مزيج من نوعين مختلفين دم الأب ودم الأم، وبهذا لا يُماثل دم الولد دم أبيه أو أمه تمام المماثلة، أما الإخوة فدمهم من نفس الأب ونفس الأم فهو متماثل، وبناءً على هذا فالأخ أقرب إلى أخيه من كل شخص حتى من أمه وأبيه.

وكما يفرُّ المرء من أخيه، فكذلك يفرّ من أمه وأبيه، ولذلك قال تعالى:

{وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ}.

ثم ذكر لنا تعالى طائفة ثالثة ممَّن يتباعد الإنسان عنهم يومئذٍ فقال تعالى:

{وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ}:

فإذا كان يوم القيامة زالت هذه الروابط النَسَبية بين الإنسان وأقاربه، وغدا الناس

جميعهم أفراداً لا أنساب بينهم، فكل امرئ مشغول بحاله محسناً كان أو مسيئاً ولكل امرئ يومئذٍ مقصد ومطلب يسعى إليه، ولذلك قال تعالى:

{لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}:

فالمسيء الذي أرهقته الذنوب والسيئات مشغول بعلله عن كل شيء وكل شخص، ومثله كالمريض الذي نزل به داء عضال فإذا أنت نظرت إليه وجدته مشغولاً بمرضه وألمه عن الالتفات لك أو لأيِّ شخص، ولو كان من أقرب الأقربين إليه.

والمحسن الذي ظهرت له أعماله العالية مشغول عن غيره بما سيلقى من الإكرام والنعيم، ومثله كمثل موظف صدر أمر تعيينه في وظيفة عالية فهو مشغول بذلك عن الآخرين، وقد أراد تعالى أن يبيِّن لنا حال الناس يومئذ على التفصيل فقال تعالى:

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ}:

والمسفرة: مأخوذة من أسفر بمعنى كشف وأظهر.. تقول: أسفر الصبح، أي: أضاء وأشرق، وأسفر فلان عن الأمر، أي: كشفه وأظهره.

فوجه المحسن يومئذ مسفر عمّا انطوت عليه نفسه من الفرح والسرور ولذلك تراه ضاحكاً مستبشراً قال تعالى:

{ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ}:

والضاحكة: هي التي بدا عليها السرور بما ظهر لها من أعمالها العالية. وهي **مستبشرة** بما ستنال وتلقى من النعيم.

ثم بيَّن لنا تعالى حال المسيئين بقوله:

{وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ}:

والغبرة: هي الكمودة التي تظهر على وجه الإنسان إذا وقع في شدة أو بلاء، والسبب في كمودة تلك الوجوه يومئذ رؤيتها لأعمالها السيِّئة وانتظارها ما سيحلُّ بها من العذاب.

{تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ}:

وترهقها: أي تحلُّ بها وتدركها موجة بعد موجة.

والقترة: هي انكماش النفس مأخوذة من قتر الشيء، أي: ضمَّ بعضه إلى بعض.

فهذه النفس كلَّما رأت مصيرها السيّئِ وعملها المنحط هاج هائجها وانكمشت على بعضها فعلَتْ وجهها الغبرة والكمودة.

ثم بيَّن لنا تعالى السبب الذي أوقع هؤلاء في ذلك الحال فقال تعالى:

{أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ}:

فبكفر هؤلاء وإعراضهم عن خالقهم امتلأت نفوسهم بالخبث فكان ذلك سبباً في فجورهم أي ظهور عملهم الخبيث وخروجهم عن الحق وبذلك وصلوا إلى ما وصلوا إليه في ذلك اليوم العصيب... والكفر والإعراض مبعث كل بلاء وشقاء.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ﴿٣﴾
فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴿٥﴾ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾
تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ﴿٩﴾
يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ﴿١١﴾ قَالُواْ
تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم
بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ
ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلۡ هَل لَّكَ
إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ
﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ
أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾
رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾

وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾
وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ
ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن
يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ
ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾
فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾
فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن
يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

صدق الله العظيم

تأويل سورة النازعات

يريد الله تعالى في هذه السورة الكريمة أن يحذِّر الإنسان من عواقب الطغيان، وأن يبيِّن له أن مجاوزة الحد الإنساني في هذه الحياة تعود على صاحبها بالشقاء والهلاك، وقد بدأ تعالى السورة بطائفة من الآيات الكونية التي تنطق بعظمة الله تعالى وجليل قدرته، ليجتذب انتباه الإنسان إلى ما سيُتلى عليه بعدها من آيات، لأن طبيعة النفس البشرية أنها لا تصغي لقول قائل إلاَّ إذا قدَّرته وعظَّمته وعرفتْ أنه ذو سمو ورفعة، فإن هي عرفت جلال المتكلِّم وعظيم شأنه أصغت بأُذنها إلى نصيحته، وأذعنت لأمره، ولذلك قال تعالى:

{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً ۞ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً ۞ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً۞ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً ۞ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً}.

فالله تعالى في هذه الآيات يريد أن يعرِّف الإنسان بذلك النظام الذي بموجبه تنزل الأمطار التي تتوقَّف عليها حياة الإنسان، وأن يعرِّفه بتلك الإرادة الحكيمة الساهرة على هذا الكون، وتلك اليد القديرة القائمة على تسيير ما فيه دون أن تسهو عنه لحظة أو تنام، فقال تعالى:

{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً}:

(**الواو**): التي في أول هذه الآية، والتي يسمُّونها بواو القسم إنما تشير إلى عظمة الشيء المذكور بعدها، فإذا فكَّر الإنسان فيه وتعمَّق في التفكير، امتلأ قلبه بعظمته، وبالتالي فإنه ينتقل منه إلى تعظيم خالقه وموجده.

وبمثل هذا التفكير المبني على المشاهدة والتأمُّل يحصل الإيمان.

أما كلمة (**النَّازِعَاتِ**): فهي جمع نازعة، مأخوذة من نزع، بمعنى: جذب وقلع، تقول: نزع فلان المسمار من الخشب، ونزعتُ الدلو من البئر.

والمراد (**بالنازعات**) هنا أشعة الشمس التي تنصبُّ بحرارتها على البحار تلك المستودعات العظيمة التي ملأها الله تعالى بالماء، فتنتزع قسماً من مياهها وتجعلها أبخرة صالحة لأن تتصاعد في السماء.

أما كلمة (**غرقاً**): فمأخوذة من غَرِقَ بمعنى: غاب وخفي، ومن غَرَقَ بفتح الراء: أي أخذ من اللبن شربة.

ويكون ما نفهمه من هذه الكلمة الواردة في هذه الآية أنها تبيّن كيفية النزع، فهذه الأشعة (**النَّازِعَاتِ**) إنما تنتزع الماء من البحر غرقاً، أي: في خفاء ولطف حتى لا تكاد تدركه العين، ومن جهة ثانية فإنها تنتزعه شيئاً بعد شيء كما يمتصّ الإنسان اللبن بصورة تدريجية جرعة بعد جرعة.

وبعد أن ذكر لنا تعالى أثر أشعة الشمس في نزول الأمطار بتبخيرها الماء وانتزاعها إيّاه بصورة تدريجية وخفاء، أراد تعالى أن يبيّن لنا فعل الرياح ودورها فقال:

{وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً}:

وَالنَّاشِطَات: جمع ناشطة مأخوذة من نَشِطَ بكسر الشين، بمعنى: خفَّ وأسرع، ومن نَشَطَ بفتح الشين، أي: خرج من بلد إلى بلد، أو من مكان إلى مكان. ويكون ما نفهمه من كلمة (**وَالنَّاشِطَاتِ**) الواردة في هذه الآية: أنها بمعنى الرياح التي تحمل تلك الأبخرة من سطح البحر مارَّة بها في طبقات الجو بخفّة ونشاط حتى تصل بها إلى الطبقة المعيَّنة لها في السماء، أما كلمة (**نَشْطاً**): فإنما تشير إلى أن عمل هذه الرياح إنما هو مبني على أنظمة، وفي أوقات محدودة، وبسرعة معينة، وبصورة لطيفة، إلى غير

ذلك مما تتَّسع له كلمة (**نَشْطاً**) التي جاءت مطلقة غير مقيَّدة بوصف من الأوصاف، ثم لفت تعالى نظرنا إلى السحب فقال تعالى:

{وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً}:

والسابحات: جمع سابحة، مأخوذة من سبح بمعنى: عامَ وانبسطَ وتنقَّل تقول: سبح الرجل في الماء. والطير في الهواء.

والمراد بالسابحات هنا قِطَعُ السحاب التي تسبح في السماء عائمة على متن الهواء ، وكلمة (**وَالسَّابِحَاتِ**) إنما تُلفت نظرنا إلى التدقيق في الكيفية التي تجمَّعت بها ذرَّات الأبخرة المتفرِّقة فأصبحت سحابةً ذات كتلة مؤتلفة متجاذبة. لنتساءل من الذي ألَّف بين هذه الذرَّات فجعل منها غيوماً سابحات. أما كلمة (**سبحاً**): فإنما تشير إلى أنواع هذا السبح من حيث كونه لطيفاً، إذ القطعة الواحدة من السحاب قد تحمل بين طياتها قناطير مقنطرة من الماء، ومع ذلك فهي تجري بيسر وخفة، فلا يُسمع لها صوت، ولا تزعج في سيرها أحداً ، ومن حيث كونه مترابطاً فترى السحابة تأتي ومن ورائها سحابة وسحابة كأنها قطعات من جيش ارتبطت كل وحدة من وحداته ببعضها بعضاً تمام الارتباط، وهكذا إذا أنت تتبَّعت هذه الكلمة وجدتها جامعة لمعانٍ عديدة لا يعلمها إلا الله. ثم ذكر لنا تعالى أن السحب إنما تسير في وجهة معيَّنة لا تجاوزها ولا تعدوها، فقال:

{فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً}:

والفاء الواردة في أول كلمة (**السَّابِقَات**) في هذه الآية إنما تبيِّن لنا أن هذه السحب في سبحها وضمن هذا السبح يجري السباق بينها إلى أمكنتها.

والسَّابِقَات: جمع سابقة مأخوذة من سبق بمعنى: تقدَّم غيره، تقول: سبق فلان فلاناً،

أي: تقدَّمه وخلَّفه وراءه. والمراد بـ (**السَّابِقَاتِ**) هنا قطع السحاب من حيث جريها بنظام وفي اتجاهات معيَّنة، فترى طلائعها تجري متقدِّمة، وتتبعها السحابات الأخرى متلاحقة متسارعة، حتى تبلغ هدفها وتصل إلى البلدة المعيَّنة لها، فإذا هي بلَغَتْها خيَّمتْ في سمائها واتصلت ببعضها. أما كلمة (**سبقاً**): فإنما تبيِّن نوع السبق من حيث كونه متتالياً ومبنياً على نظام. وبعد أن بيَّن لنا تعالى ما بيَّن، وبعد أن عرَّفنا بذلك النظام الذي بموجبه تنزل الأمطار، والتي تتوقف عليها حياة الكون أراد تعالى أن يعرِّفنا بأن هناك يداً عظيمة هي التي تدير الحركة وتؤمِّن السير وتقوم بهذه الأعمال التي تتوقف عليها الحياة، فقال تعالى:

{فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً}:

والْمُدَبِّرَات: جمع مدبِّرة وهي مأخوذة من دبَّر، تقول: دبَّر القائد الخطة، أي: حضَّرها وهيأها. والمراد **بالْمُدَبِّرَات** هنا: الإشارة إلى ما تقدَّم في الآيات السابقة. فالنازعات والناشطات والسابحات والسابقات وإن شئت فقل: أشعة الشمس والرياح والسحب هذه كلها إنما هي مدبِّرات تدبِّر لك أمر معاشك، إذ يكون بالماء النازل من السماء نماءُ زرعك وجريان نهرك وإمداد بئرك وقوام حياتك.

أما (**الفاء**) الواردة في أول كلمة (**الْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً**) فهي تشير إلى تلك الإرادة العظيمة الحكيمة التي قيام هذه المدبِّرات بها في وظائفها وأعمالها، فما هذه المدبِّرات في قيامها وسيرها في أعمالها إلا بأمر منه تعالى، فبكلمة (كن) تبخِّر الأشعة الماء، وتنتزعه من البحر غرفاً، وتحمله الرياح، وتنقله إلى أعالي الطبقات الجوية نشطاً، وتجمع الأبخرة المتصاعدة فتكوِّن سحباً سابحة، ثم تسير متلاحقة متسابقة، وهكذا بكلمة (**كن**) التي تصدر عن هذا الخالق العظيم، والإله الحكيم، والرب القدير، يسير هذا الكون،

وتنتظم حياتك، وتتأمَّن أمور معاشك، فأنت مدين له دوماً، وفضله عليك متواصل أبداً.

وبعد أن لفت تعالى نظر الإنسان إلى تلك الآيات التي تعرّفه بعظمة خالقه، وتجتذب سمعه إلى موعظته ونصحه، أراد أن يحذِّر الإنسان من ذلك اليوم العظيم الذي سيُحشر فيه فقال تعالى:

{يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ}:

والمراد بكلمة (**يوم**): أي إذا عرفت أيها الإنسان عظمة خالقك من بعد أن نظرت فيما بيَّنه لك من الآيات الدالة عليه، فاذكر ذلك اليوم الذي ترجف فيه الراجفة.

والراجفة: مأخوذة من رجف، يُقال: رجف الرجل، أي: اهتز ولم يستقر لخوف عرض له بسبب رؤية شيء مفزع، والمراد **بالراجفة** هنا: النفس المجرمة سُمِّيت راجفة لأنها حصلت لها الرجفة الأولى عند موتها، فإذا كان يوم القيامة ونوديت للوقوف بين يدي ربها رجفت من جديد.

{تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ}:

و**تَتْبَعُهَا**: أي تأتي بعدها. **والرَّادِفَةُ**: مأخوذة من ردف، يُقال: ردف فلان فلاناً على الدابة أي: ركب خلفه. والمراد **بالرادفة** هنا: الرجفة التي تجيء بعد سابقتها، والضمير وهو الهاء المتصلة بكلمة (**تتبعها**) إنما يعود على الراجفة، فهذه النفس الراجفة تتبعها موجات الفزع والخوف موجة بعد موجة ورجفة إثر رجفة، وما مثل ذلك المجرم يومئذٍ إلا كمثل شخص سيق للمحاكمة فتراه في اضطراب متواصل، كل رجفة تتبعها رجفة، وكل موجة من الفزع تردفها موجة، ثم بيَّن لنا تعالى سبب الخوف والاضطراب. فقال تعالى:

{قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ}:

والقلوب: جمع قلب والمراد به: قلب النفس، أي ذاتها، **والواجفة**: مأخوذة من وجَفَ، يُقال: وجف قلب المجرم، أي: خفق مضطرباً، فتلك الأنفس المجرمة إنما ترجف لأن قلوبها مضطربة من أعمالها السيِّئة التي تتراءى لها، فكلما شهدت عملها السيِّء خفق قلبها ورجفت لعلمها بما سيؤول إليه مصيرها.

{أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ}:

والأبصار: جمع بصر، وهو حاسة النظر. **والخاشعة**: مأخوذة من خشع بمعنى: ذلّ وانكسر. ويكون ما نفهمه من هذه الآية:

إن تلك النفس الراجفة عندما ترى عملها المنحط تذل منكسرة خوفاً وخجلاً، خجلاً من إساءتها وتقصيرها، وخوفاً مما سيحل بها. ثم أراد الله تعالى أن يبيّن لنا الأسباب التي جرَّت لتلك الأنفس ما جرَّت من قلق واضطراب فقال:

{يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ}:

ومردودون: مأخوذة من ردَّ بمعنى: أعاد ثانية.

والحافرة: هي الأرض المحفورة التي تضم الإنسان بعد موته.

ويكون ما نفهمه من هذه الآية:

أي أنهم الآن في دنياهم يُنكرون البعث، ويقولون هل من المعقول أن نردَّ للحياة ثانية بعد أن نموت ونوضع في الحافرة؟

{أَءِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً}:

والعظام النخرة: هي البالية المتفتتة. أي أنهم يقولون: هل يمكن أن نعود من بعد أن بَلِيتْ وتفتَّتتْ عظامنا؟ فيجيب بعضهم بعضاً منكرين:

{قَالُواْ تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ}:

والكرة: هي العودة، تقول: كرَّ الشيء أي: عاد مرة بعد أخرى.

والخاسرة: مأخوذة من خسر وهي ضد ربح، ويكون ما نفهمه من هذه الآية: أي أنهم أجابوا بعضهم بعضاً لما سمعوا ذلك بقولهم:

إذا نحن صدَّقنا وآمنا بالبعث فإيماننا هذا يجعلنا نخسر ونضيع لذائذ الدنيا وما فيها من المتعة والسرور.

ثم إن الله تعالى أراد أن يبيِّن خطأ أولئك وضلالهم، فردّ عليهم بقوله:

{فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ}:

والزجرة: إنما هي الصيحة، ويكون ما نفهمه من هذه الآية: أي كيف تستبعدون ذلك! فبصيحة واحدة يُصبح الخلق جميعاً بين يدي ربهم!

{فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ}:

والساهرة: مأخوذة من سهر أي: لم ينم، يُقال: ليلة ساهرة، وحياة ساهرة أي: لا نوم فيها. فحياة هؤلاء المجرمين يومئذٍ كلها سهرٌ، فلا راحة ولا اطمئنان لما في نفوسهم من علل وأمراض، وحينئذٍ يسكِّن الله تعالى عليهم آلامهم النفسية التي لا تطاق بالنار وأليم العذاب، فيغيبون بحريقها عمَّا في نفوسهم من علل، وقد جاء في الحديث الشريف قوله ﷺ:

« إنَّ العارَ ليلزمُ المرءَ يومَ القيامةِ حتى يقول: يا ربِّ لإرسالُكَ بي إلى النارِ أيسرُ عليَّ ممَّا ألقى وإنه ليعْلَمُ ما فيها من شدَّةِ العذابِ »(١).

وبعد أن أورد لنا تعالى من الآيات الكونية ما ينطق بعظمته وقدرته، وبعد أن حذَّرنا من ذلك اليوم الذي ترجف فيه الراجفة مُبيِّناً ما يكون عليه حال المنكرين أراد تعالى أن يبيِّن لنا أن عاقبة المكذِّبين في الدنيا أيضاً وخيمة وأن خُسرانهم فيها ظاهر بيِّن، ولذلك ساق لنا العبرة والموعظة بقصة واقعية فقال تعالى:

{هَلْ أتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۞ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً ۞ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۞ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ۞ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبّكَ فَتَخْشَى۞ فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى ۞ فَكَذَّبَ وَعَصَى ۞ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ۞ فَحَشَرَ فَنَادَى ۞ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ۞ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى ۞ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى}.

ونبدأ بالآية الأولى آية: **{هَلْ أتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى}** فنقول: إن هذه الآية تقول: إذا أنت أيها الإنسان لم تنظر في الكون مفكِّراً، ولم تحسب ليوم القيامة حساباً فانظر إلى ما حلَّ بمن عارضوا رسل ربِّهم وما صاروا إليه في دنياهم قبل آخرتهم، وبشيء من التفصيل نقول:

ليست كلمة (**هل**) الواردة في هذه الآية للاستفهام، وإنما تريد أن تقرِّر الواقع في نفس الإنسان، وتُلفت نظره إلى ما حلَّ بأولئك المعارضين من الخسران، فكلمة (**هَلْ أتَاكَ**) تقول: أما سمعت، أما بلغك أيها الإنسان حديث موسى؟

(١) الجامع الصغير /٢٠٥٩/ (ك) عن جابر (ح).

والحديث: هو الخبر عن أمر وقع، مأخوذة من حَدَثَ بمعنى جرى ووقع، ثم إن الله تعالى أراد أن يبيِّن لنا أنه لم يختر رسله إلا بالحق، وبناءً على ما ظهر منهم من سير رفيع وكمال، فقال تعالى:

{إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً}:

والوادي: هو في الأصل مسيل الماء بين الجبال والآكام، وهو أيضاً المسرى والمذهب، يُقال: فلان وفلان في وادٍ واحد، أي: على مسرى ومذهب واحد. **والمقدَّس**: هو المطهَّر والنقي.

وأما كلمة (**طوى**) فمأخوذة من طوى بمعنى: جمع، يُقال: طوت الفرس الأرض طيّاً، أي: جمعت ما تقطعه منها بعضه إلى بعض. وتكون كلمة (**طوى**) الواردة هنا مبيِّنة حال سيدنا موسى عليه السلام في تنقُّله بالكمال من حال إلى حال. ويكون ما نفهمه من آية: **{إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً}**:

أي: إن الله تعالى لم ينادِ رسوله إلا لأن نفسه كانت في مسرى مطهَّر تجمع ما تصل إليه من الكمال بعضه إلى بعض، مترقِّية فيه من حسن إلى أحسن ومن حال رفيع إلى حال أعلى وأكمل. وهذه الآية تقول:

كما أنّ سيدنا موسى عليه السلام أوحى إليه ربه وناداه لأنه كان بتلك الصفة العالية، فكذلك سيدنا محمد ﷺ ناديناه لأن نفسه عالية، فنحن لا نعطي رسالاتنا إلاّ لشخص كامل الأوصاف، ونفسه دوماً تطوي معارج الكمال طيّاً.

{اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}:

وطغى: بمعنى جاوز الحد، يُقال: طغى النهر على الأرض، أي: خرج عن مجراه المعيَّن

وجاوزه، فأغرق الأرض بالماء. وكذلك فرعون طغى أي: جاوز الحد الإنساني في سيره ومعاملته، فكان من المفسدين بالأرض:

{فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى}:

وهل لك: أي هل تحب؟ وهل لك رغبة؟

وتزكّى: مأخوذة من زكا بمعنى: طاب وصلح، ويكون ما نفهمه من آية: **{هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى}**.

أي: هل تحب أن تصبح ذا نفس طيبة تعمل صالحاً فتُشكر عليه، وتصبح محموداً بفعلك عند الله وعند الخلق؟

أقول: **وهل لك**: الواردة في هذه الآية تبيِّن لنا أن الإنسان مُطلق في اختياره. فإن هو اختار وكانت له رغبة في معرفة طريق الهدى استطاع الرسول والمرشد أن يرشده ويهديه. ومن لم تكن له هذه الرغبة فما له من هادٍ وليس له إلى الهداية سبيل. ثم بيَّن لنا تعالى الطريق التي إن سلكها الإنسان زكت نفسه وصارت تفعل المعروف، ولذلك قال تعالى:

{وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى}:

أي: أنك إذا كنت تريد أن تتزكى فلا يكون ذلك إلا إذا اهتديت إلى ربِّك وخشيته، وبشيء من التفصيل نقول: إذا نظر الإنسان مفكِّراً في نفسه وما قام عليه جسمه من نظام بديع عرف أن ذلك الجسم وما فيه من أعضاء وأجهزة إنما كانت في الأصل نطفة من ماء مهين، ثم نظر فيما بثَّ الله في الأرض من دابة، وما أوجد في هذا الكون من مخلوقات فلا بدّ له ـ إن كان طالباً الحق ـ من أن تتبدى له عظمة خالقه

ويحكم بفكره أن له ربّاً حكيماً وخالقاً قديراً، وهنالك تخشع نفسه بين يدي هذا الخالق العظيم وتخشاه، وخشيته هذه تحمله على السير ضمن أوامره تعالى والاستقامة على طاعته، وهذه الاستقامة تجعلها واثقة من رضائه تعالى عنها، فتقبل على الله في صلاتها إقبالاً حقيقياً وبهذا الإقبال تطهر ممَّا بها من خبث وشهوات، ويصبح عملها مع الخلق طيّباً عالياً، وتلك هي طريق التزكية.

أقول: هذه الآية تبيِّن لنا أن الإنسان لا يمكن أن يكون إنساناً إنسانياً مُحسناً وذا أعمال نبيلة إلا إذا عرف خالقه وخشيه، ومن لم تحصل له هذه المعرفة والخشية فلا خير فيه، ولا يُؤتمن على شيء، وكل ما يتظاهر به من الإنسانية والخير فمجرَّد ادِّعاء وخداع، والله عليم بالظالمين ، ونعود الآن إلى الآية التي نحن بصددها فنقول:

لم يلتفت فرعون إلى ما أرشده إليه رسول ربِّه من آيات، ولم ينظر في خلقه ولا فيما حوله من كائنات، بل طلب من سيدنا موسى عليه السلام معجزة تثبت له رسالته، وقد أيَّد الله رسوله بذلك فقال تعالى:

{فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى}:

والآية: هي الدليل والبرهان. والمراد **بالآية** هنا: المعجزة التي أرسل الله تعالى بها سيدنا موسى عليه السلام إلى فرعون، وهي انقلاب العصا حيّة تسعى. وقد وصفها الله تعالى بأنها الآية الكبرى لأن البشر بذاتهم عاجزين عن الإتيان بمثلها أما فرعون فبدلاً من أن يستسلم ويؤمن برسول ربِّه قابله بالتكذيب والعصيان، قال تعالى:

{فَكَذَّبَ وَعَصَى}:

والمراد بكلمة (**عصى**) هنا أي: عصى رسول ربه إذ لم يسر بدلالته.

ثم إن فرعون لم يكتف بالتكذيب، بل أتبع ذلك العصيان بالسعي لردِّ الحق، ولذلك قال تعالى:

{ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى}:

وأدبر: أي تولَّى منصرفاً. **ويسعى**: أي: يبذل الجهود والمساعي المختلفة لردِّ الحق ومعارضته.

{فَحَشَرَ فَنَادَى}:

وحشر: بمعنى: جمع، **ونادى**: أي أعلن وأذاع:

{فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى}:

وربُّكم: أي مُمدكم بالخير والرزق، فكنوز الأرض وأرزاقها كلها تحت يدي، فإن شئت أعطيت وإن شئت منعت، وموسى رجل فقير لا ملك له ولا سيطرة فاحذروا أن تنفكوا عني وتُطيعوه.

وبما أن فرعون كذَّب وعصى من بعد أن رأى ما رأى من معجزات، وحيث إنه لم يسلك طريق التفكير الذي به شفاءِ النفس من مرضها وشهواتها الخبيثة، لذلك لم يبقَ طريق إلى رجوعه وإذعانه للحق، فبقاؤه في هذه الحياة يزيد في أذاه وشرّه، ولذلك أهلكه الله فقال تعالى:

{فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى}:

وأخذه: أي انتزعه من موضعه، وهي هنا بمعنى: أماته وردَّه إليه من بعد أن متَّعه في هذه الحياة.

والنكال: هي العقوبة التي تنزل بشخص فتجعله عبرة لغيره وتحذِّر الناس من مجاراته

في فعله، وقد جعل الله تعالى هذا النكال عقوبة لفرعون على أعماله الأخيرة التي قام بها بعد أن جاءه رسول ربّه، وذلك ما نفهمه من كلمة (**الآخرة**) كما جعله عقوبة له على أعماله الأولى التي سبقت التحذير الذي حذَّره منه.

ثم بيَّن لنا تعالى أن كل هذا البيان وهذه القصة لا يستفيد منها ولا يعتبر بها إلاَّ من فكَّر في آيات الكون وحصلت له الخشية من ربِّه، فقال تعالى:

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى}:

والعبرة: هي القصة أو الواقعة التي تُذكر أو تجري أمام شخص فتجعله يعبر إلى الحق ويسير في طريق الاستقامة. وبعد أن ذكر لنا تعالى مثلاً من الذين خلوا من قبل ممَّن عارضوا رسول ربِّهم فكان نصيبهم الهلاك والخسران، لفت تعالى نظرنا إلى الكون ثانية وما فيه من آيات دالَّة على عظمة صانعها وقدرة موجدها، فلعل هذا الإنسان المنغمس في شهواته والضال عن طريق سعادته شارداً في آفاق هذه الحياة الدنيا إذا هو نظر في هذه الآيات مُفكِّراً تعرَّف منها إلى عظمة الخالق، فعاد عن غيِّه وأذعن لربِّه فاهتدى بهديه وسَلَكَ السبيل التي تصل به إلى شاطئ السلامة والنجاة، ولذلك قال تعالى:

{ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا}:

أي: أيها الإنسان المعرض عن ربِّك الغارق في أوحال دنياك وشهواتها، المستنكر أمر إحيائك بعد موتك وفنائك، إذا أنت نظرت إلى السماء المحيطة بالكون من جميع جهاته، هذه السماء الواسعة المدى والتي كثيراً من نجومها التي تبدو لك رأي العين صغيرة، إنما هي في الحقيقة أكبر من الأرض التي أنت عليها بملايين الملايين المرات، هذه السماء المنظَّمة على هذا الوضع المتناهي في الكمال، فلكل نجم فيها فلك

ومدار ولكل نجم سير ونظام، ولكل نجم جاذبية وتأثير في غيره من الأجرام، فهي جميعاً متماسكة فيما بينها على غاية من الترابط والإحكام، وأنه ليس يصدم نجم نجماً، وليس يتقدَّم أو يتأخَّر نجم في سيره ثانية، ولو أن نجماً واحداً منها خرج عن مجراه أو ضعفت قواه الجاذبة لاضطرب نظام جميع السماء، ولأصاب هذا الاضطراب الشمس والقمر، بل لأصاب الكرة الأرضية التي نحن على ظهرها.

فمن الذي بنى السماء هذا البناء، وربط أجرامها ببعضها بعضاً على هذا النظام، وأوجد فيها قمرها المنير وسراجها الوهَّاج، أقول: إذا أنت نظرت في السماء هذه النظرات استطعت أن تنفذ منها إلى معرفة الخالق الذي بناها على هذا الكمال، وعرفت أنه تعالى قادر أن يُعيدك للحياة مرة أخرى ولو أصاب جسمك البلى والفناء، ثم إن الله تعالى أراد أن يوسِّع تفكير الإنسان فلفت نظره إلى نقطة ثانية من النقاط التي تتجلَّى فيها عظمة الخالق وجلاله، فقال تعالى:

{رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا}:

والسمْك: هو سقف البيت، وهو أيضاً المسافة التي تمتد ما بين أعلى البيت وأسفله.

وسوَّى الشيء: أي جعله مستوي الخلق لا عيب فيه ولا علّة ولا اعوجاج، وإذا أردت أن تفهم هذه الآية بعض الفهم وتعرف بُعد سمك السماء عن الأرض، فاذكر أن بعض النجوم العائمة في الفضاء إنما يأتيك ضوؤها عن بعد يفوق مليون سنة ضوئية، فلو أن الله تعالى أعطاك عُمراً مديداً تعيش به، وقدرة على السبح في هذا الفضاء لما وصلت إلى تلك النجوم ولو عشت مليارات المليارات من السنين.

فما أبعد السماء عن الأرض! وما أوسع مداها الذي لا يستطيع أن يتصوَّره إنسان! أليس هذا بدالٍّ على خالق عظيم! أليس الذي رفع سمك السماء ونظَّمها بربٍّ

قدير؟! أفيعجز بعد هذا كله عن خلقك؟ وهل خلْقك أشد عليه من السماء؟

وقد أراد تعالى أن يُلفت نظرنا إلى بعض الأنظمة الكونية التي جعلها لتكون سبباً في انتظام الحياة على وجه الأرض فقال:

{وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا}:

وأغطش: بمعنى جعله يمشي رويداً رويداً.

وأخرج: بمعنى أبرز الشيء وجعله بادياً للعيان.

والضحى: هو البيان والظهور والشيء الكاشف لغيره.

ويكون ما نفهمه من هذه الآية: أي إن الذي بنى السماء ورفع سمكها فسوَّاها، إنما جعل ظلام السماء وليلها ينسحب عن الأرض انسحاباً رفيقاً، فكلمة (**أَغْطَشَ**): مأخوذة من غطَّى شيئاً فشيئاً، فهذا الظلام الذي يغمر وجه الأرض لا يزول ولا ينقشع فجأة، بل يتبدد رويداً رويداً وفي ذلك ما فيه من انتظام الحياة والدلالة على المنظِّم الحكيم، ولكن ما الذي يغطي هذا الظلام شيئاً فشيئاً؟ لقد بيَّن تعالى ذلك بقوله:

{وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا}:

أي: بإخراجه تعالى الضياء الذي تنكشف به الأشياء وتظهر للعيان أغطش ليل السماء وغطَّى ظُلمتها.

{وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}:

ودحا: بمعنى ساق، يُقال: دحا الراعي الإبل، أي: ساقها، وهو بمعنى وضع الحياة في الشيء.

ويكون ما نفهمه من هذه الآية:

إن الله تعالى بعد أن جعل للأرض الليل والنهار يأتيان بنظامهما المناسب: دحا الأرض، أي: ألقى فيها الحياة، فقامت الأرض بوظيفتها المعدَّة لها بعد أن كانت خامدة لا عمل لها. وبشيء من التفصيل نقول:

خلق تعالى الأرض وجعل فيها كل ما يحتاجه الإنسان من معادن وأحجار وأتربة ومياه وبذور شتَّى النباتات. غير أن هذه الأشياء كلّها كانت في الأصل خالية من جوهر الحياة التي تعينها على الخروج من التراب والإنتاش. وكذلك الماء والتراب وسائر الأشياء، كانت صورة مجسَّدة خالية من ذلك الجوهر الذي يكون به الإنماء وظهور الخيرات، فلمَّا شاء ربك وأراد، دحا الأرض، وبثَّ في الأشياء الحياة، فسالت المياه التي أودعها الله تعالى في مستودعاتها، وخرجت بهذه المياه النباتات المدفونة بذورها، وباشرت الأرض عملها، فجعلت تؤتي خيراتها، ولذلك قال تعالى:

{أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا}:

أي: ببثِّه الحياة في الأرض أخرج منها ما فيها من ماء، وأنبت بهذا ما في الأرض من مزروعات. ثم لفت تعالى نظرنا إلى الجبال، فقال:

{وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا}:

وأرسى بمعنى: ثبَّت، يُقال: أرسى الرجل السفينة، أي: ثبَّتها بالمرساة وهي حديدة ثقيلة تغوص في البحر فتحول دون ميل السفينة واضطرابها، وكذلك الجبال جعلها الله تعالى مكينة ثابتة لا يؤثِّر عليها دوران الكرة الأرضية وسيرها في الفضاء، لأن أصول هذه الجبال راسخةً ثابتةً في الأرض. ثم بيَّن تعالى أن الذي نظَّم هذا التنظيم وخلق هذا الخلق الكامل البديع، إنما جعل ذلك كله من أجلك أيها الإنسان، ومن أجل

أنعامك التي تساعدك في حياتك فقال تعالى:

{مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ}:

والمتاع: هو ما يُنتفع به من عروض الدنيا انتفاعاً قليلاً ينقضي عن قريب، فالله تعالى يريد أن ينبِّه الإنسان ويحذِّره من الركون إلى الدنيا والاطمئنان بها، ونبَّهه إلى أن هذه الخيرات وما فيها من لذائذ ومسرَّات إنما تنقضي وشيكاً، ولا تبقى إلا قليلاً والعاقل المفكِّر لا يركن إلى هذه الدنيا، ولا يطمئن بها بل تراه ناظراً إلى ما وراءها ساعياً إلى ما هو خير وأبقى، ثم إن هذا الربّ القدير وصاحب هذا الخلْق العظيم أراد أن يذكِّرنا بتلك الساعة التي نفارق فيها الحياة وبذلك اليوم الذي سنعود فيه إليه تعالى فقال:

{فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى}:

والطامَّة: هي الداهية العظيمة تفوق ما سواها، مأخوذة من طمَّ، بمعنى: غمر وستر، تقول طمَّ الماء الأرض أي: غمرها، والمراد **بالطامَّة** هنا: الموت لأن الإنسان بسببه يُستر عن الأعين ويدفن تحت التراب، وقد وصفه تعالى بالطامّة الكبرى، لأن بعض المصائب أو الحوادث إذا حلَّت بالإنسان تغمر بهمومها ما سواها وتجعل الإنسان يزهد بعض الزهد فيما لديه من نعم الدنيا ومتعها، أما الموت فإذا خيَّم على المجرم فإن شدته تستر عنه كل شيء، وينسيه هوله كل شيء، فلا يعود ينظر إلى شيء من هذه الدنيا، ولا يعود يرى شيئاً، وكذلك التقي المحسن عندما تبدو له أعماله لا تعود للدنيا كلّها في نظره قيمة، لشدة فرحه وغبطته بما قدَّم في حياته من العمل الصالح، ولذلك قال تعالى:

{يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى}:

فأعمال كل مخلوق ساعتئذٍ تنكشف له منذ أن أصبح راشداً مكلَّفاً حتى انتهاء أجله

وحلول الموت به، وهنالك يذكر ما قام به من أعمال وما صدر عنه من خير أو شر.

{وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى}:

وبُرِّزت: أظهرت وبدت، ففي ساعة الموت تبرز النار للمجرم، أي إن أعماله المنحطة التي بدت له تجعله يرى مصيره، وما مثله إلاَّ كمثل المجرم القاتل الذي وقع في يد العدالة فعند القبض عليه يرى الإعدام والعقوبة التي ستنزل به.

{فَأَمَّا مَنْ طَغَى ۞ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى}:

وطغى: كما رأينا، جاوز الحد. **وآثر:** بمعنى: فضّل.

والحياة الدنيا: الدنيئة المنحطة مؤنث الدنيّ، بمعنى: المنحط الساقط، وهي أيضاً بمعنى القريبة.

والجحيم: النار الشديدة التأجُّج، والمكان الشديد الحر.

والمأوى: بالنسبة للإنسان هو بيته الذي يأوي إليه. ويكون ما نفهمه من هذه الآيات:

إن الذي جاوز الحد الإنساني في حياته، وفضّل واستعجل الملاذّ الدنيئة، وآثر الحياة الدنيا على الآخرة هذا الشخص إذا هو صار في القبر فإنه يرى الجحيم ويرى أنها هي مأواه عند البعث، وفي الدار الآخرة فهو دوماً شاخص ببصره نحوها، ناظر إلى مصيره فيها وفي تلك الرؤية ـ والعياذ بالله ـ عذاب دائم عليه منذ موته ومواراته في قبره إلى يوم يُنفخ في الصور. أقول: وما مثل هذا الشقي في قبره إلا كمثل مجرم حُكم عليه بالإعدام، وأُودع في السجن ريثما يُنفَّذ الحكم فيه، فنراه شاخصاً ببصره إلى ساحة الإعدام، ناظراً إلى مصيره المحتم، ثم بيَّن تعالى حال المؤمن في قبره فقال تعالى:

{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}:

وخاف: بمعنى: خشي، والمراد **بالمقام** هنا: القدرة التي بها قيام الكون. **والرب**: هو المربي الممد بالحياة.

وهذا الخوف والخشية لا يكونان كما رأينا إلاَّ بالنظر في مخلوقات الله تعالى والتأمُّل في آيات هذا الكون، فإذا نظر الإنسان في هذه الآيات وفكَّر، فعندئذٍ يستعظم خالقه ومربِّيه، وتتولَّد في نفسه الخشية منه. وهذه الخشية المتولِّدة في النفس تحمل صاحبها على طاعة خالقه والسير ضمن أوامره، ولذلك قال تعالى:

{وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى}:

ونهى: بمعنى: زجر وجنَّب بالمنطق والحجَّة، **والهوى**: هو إرادة النفس وميلانها إلى ما تستلذّ، فهذا الإنسان الذي نظر في الكون وتوصَّل منه إلى تعظيم خالقه والخشية من ممدِّه بالحياة ومربِّيه، تراه يزجر نفسه، ويُجنِّبها بالإقناع الجازم عن كل ما تتطلَّبه وتميل إليه، ما دام ذلك الأمر قد نهاه عنه خالقه وحذَّره منه.

فإذا استمر الإنسان على ذلك حتى يموت ويُوارى في قبره، فعندئذ تجده شاخصاً ببصره إلى منزلته، وما سيصير إليه من النعيم ويرى أن الجنة ستكون مأواه، وذلك ما نفهمه من آية: **{فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}**.

أقول: وما مثل هذا التقي الطائع إلا كمثل رجل نزل في ضيافة رجل كريم، فمدَّ له مائدة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين، فتراه من قبل أن يجلس إليها مسروراً مغتبطاً، لعلمه بأنه عمَّا قريب سيتمتع بما أعدَّ له ذلك المضيف الكريم.

ولما بيَّن رسول الله ﷺ، للناس ما سيكون عليه حال ذلك المؤمن المقبل، وذلك الشقي

المعارض، قام المنكرون الذين لم يفكِّروا في خلق السموات والأرض ولم يحصل لهم الخوف والخشية من الله قاموا يسألون رسول الله متى يكون هذا الشيء الذي تخبرنا عنه، وقد ذكر لنا تعالى ذلك عن لسانهم بقوله:

{يَسْئلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا}:

وأيَّان: بمعنى: متى. **ومرساها:** مأخوذة من رسا بمعنى: ثبت.

ويكون ما نفهمه من هذه الآية: أي متى تقع هذه الساعة التي تخبرنا بها عمَّا سنلقى فيها من الجحيم وعذابه أو الجنة ونعيمها؟ فردَّ عليهم بقوله:

{فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا}:

وفِيمَ أَنْتَ: أي ماذا أعددت؟ هل أنت ممَّن خشي ربَّه واستعدَّ لها؟ أم أنك ممن يستهزئ ولا يعبأ بها؟ فهذه الآية تقول:

أيها المُعارض:

قبل أن تسأل عن موعد الساعة اصحَ من غفلتك واستعدّ لها**!** ثم بيَّن لنا تعالى أن موعد وقوع الساعة أمر مغيَّب عن الإنسان فقال تعالى:

{إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا}:

والمنتهى: مأخوذة من انتهى إليّ الخبر، أي: بلغني ووصلني.

فهذه الآية: إنما تبيِّن أن موعد وقوع الساعة ساعة الحساب والجزاء على الأعمال إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده فهو يوقعها سبحانه متى شاء وأراد، وما الرسول إلا مُنذر يحذِّر من حصلت له الخشية، ولذلك قال تعالى مُخاطباً رسوله الكريم:

{إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا}:

والمنذر: مأخوذة من أنذر بمعنى: أعلم بعواقب الأمر وخوَّف منها، تقول: أنذرتك وقوع الجدار وأنذرتك النار.

ثم بيَّن لنا تعالى سرعة زوال هذه الدنيا وانقضائها فقال تعالى:

{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}:

كَأَنَّهُمْ: أي حالهم يومئذٍ. **يَوْمَ يَرَوْنَهَا**: يوم يرون ساعة الحساب والجزاء. **لَمْ يَلْبَثُواْ**: أي لم يمكثوا ويتمتعوا بهذه الدنيا.

والعشية: هي آخر النهار.

والضحى: هو الظهور. والمراد به وقت ظهور الأشياء أول النهار. ويكون ما نفهمه من هذه الآية:

إن أولئك المنكرين يوم القيامة حين يرون العذاب، تمرُّ بهم الدنيا فيرون أن مدة مكثهم فيها قليلة، وأنها لم تكن إلا كساعة من النهار، كعشية أو ضحاها.

وقد ذكر لنا تعالى حال المنافق بكلمة (**عَشِيَّةً**) الذي اهتدى بفكره إلى الله بادئ أمره واستنارت نفسه بصحبة المستنيرين من الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أو من أهل الحق، ثم عصى خالقه وأتبع نفسه هواها وبذلك انتقل من النور إلى الظلمة، فكانت حياته في هذه الدنيا كعشية، أولها ضياء ونور وآخرها ظلام حالك، وهي كلّها فترة وجيزة سرعان ما مرَّت وانقضت، كما مثَّل بكلمة (**ضُحَاهَا**):

حال الكافر الذي ضحكت له الدنيا مدة قليلة كمدة الضحى، فما أن فرح بدنياه وأضاء له ماله وغناه (**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ**) حتى

انقضت تلك المدة وجاء الموت ﴿**ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ**﴾(١).

﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**﴾(٢).

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٧).

(٢) سورة الجاثية: الآية (١٥).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ﴿٣﴾
كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ﴿٦﴾
وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ﴿٧﴾ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴿٨﴾ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ﴿٩﴾
وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ﴿١٠﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ﴿١١﴾ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا
شِدَادٗا ﴿١٢﴾ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ
ثَجَّاجٗا ﴿١٤﴾ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوۡمَ
ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ﴿١٧﴾ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ﴿١٨﴾
وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ﴿٢٠﴾
إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا
﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ﴿٢٥﴾ جَزَآءٗ
وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا
﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا

عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ

أَتۡرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأۡسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾

جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا

ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ

لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ

ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابًا قَرِيبًا

يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾

صدق الله العظيم

تأويل سورة النبأ

بعد أن عرَّفتِ السورة السابقة الإنسان بخالقه مبيِّنة أنه لا بد من الجزاء على الأعمال مذكِّرة بيوم الحساب، جاءت هذه السورة الكريمة تقرِّر في نفس الإنسان صحة ذلك الخبر كله ولتعرِّفه بأن جميع ما جاء به الرسول عن ربِّه حق لا مجال فيه لأخذ ورد أو مُعارضة وشك. وقد بدأت هذه السورة بكلمة هي في الواقع مفتاح السورة كلّها {عَمَّ} فإذا أعمل الإنسان فكره فيما تدلّه عليه كان ذلك سبباً في وصوله إلى الإيمان وتصديقه بما جاء به رسول الله ﷺ ولذلك قال تعالى:

{عَمَّ}.

وكما أن (**الم**)، (**وكهيعص**)، وجميع أحرف أوائل السور هي مفاتيح لها[1] جاءت كلمة **{عمَّ}** مفتاحاً لفهم وإدراك وشهود المعاني العاليةِ الدلالات الواردة في جميع آيات السورة الكريمة، بل وجميع السور التي بعدها **فالليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلَّى، والشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها**، وغيرها عمَّت وشملت عباد الله جميعاً وعلى العموم ودون تمييز أو حرمان لأحد من منافعها وفوائدها.

(**كلاًّ نُمدُّ هَؤلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ ربِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ ربِّكَ مَحْظُوراً**)[2].

{عَمَّ}: أجل لقد عمَّهم الله تعالى بفضله ورحمته وحنانه وعطفه الدائم وتسييره الخيِّر لهم وللخلائق المسخَّرة لهم أيضاً، أمَّا هم فبالرغم من كل هذه النِعَم الظاهرة والباطنة التي إن فكَّروا بها توصلوا منها للعظيم جلَّ وعلا بالرغم من هذه الحقائق التي ينبِّئُهم

---

(١) لطفاً انظر تأويل القرآن العظيم. المجلد الأول لفضيلة العلاّمة محمد أمين شيخو.

(٢) سورة الإسراء: الآية (٢٠).

بها رسول الله ﷺ فإنهم يتساءلون مستنكرين كلَّ ما نبَّأهم به ﷺ من عناية الله تعالى بهم وما عمَّهم به في تفضُّله عليهم بهذا الخلْق البديع الكامل وما زانهم به من نِعمٍ لا تُحصى كنعمة البصر والسمع والذوق والشم والحواس ورعايته إيَّاهم في بطون أمهاتهم وما هيّأه لهم من الحليب في أثداء أمهاتهم بعد إخراجهم لحيّز الوجود، وما خلق لهم من أم وأب وإخوة، وما حباهم به تعالى من حنان وحب صبَّهُ بقلوب ذويهم.. فرحمهم بهم في بليغ ضعفهم ونمَّاهم بِنِعَمٍ ودلال، كما سخَّر لهم الشمس والقمر والنجوم والكواكب بأمره وخَلَقَ لهم كافة وسائل الإضاءة لبصرهم ليروْا وليغذُّوا عيونهم بجمال ما يخلق لهم في الطبيعة ويرهفوا سمعهم بموسيقاها وبشدْو ما فيها، ويستنشقوا عبير الفل والورود والزهور الناضرة والزنبق ويتذوقوا اللذائذ بحواسهم، فإن ذكَّرهم بهذه النِعَم رسول الله ﷺ إذا هم يستنكرون ويستكبرون.. يتساءلون عن صدق هذا البيان والدلالة مستكبرين أنها توصلهم للعظيم مع أنها أوصلت أباهم إبراهيم عليه السلام وأصحاب الكهف وكافة المؤمنين المقرين المعترفين بما عمَّهم به من جليل العناية وعظيم الرعاية، فهم له شاكرون ولنصائحه مصغون وليسوا كهؤلاء المعرضين مستنكرين. فمن طرف حضرة الله أتمَّ نعَمه عليهم، أي عمَّهم بها بالمحسوس وبالملموس، وبالرغم من ذلك فهم من طرفهم يعاندون ويُعارضون الواقع المحسوس، فمعارضتهم مردودة عليهم وبقية هذه السورة توضِّح وتفصِّل ذلك بما لا يدع مجالاً لعاقل أن ينكره.

هذا وقد قرأ رسول الله ﷺ كلمة (**عَمَّ**) مطلقة لشموليتها لأن ما عمَّ الله تعالى الخلائق لأجلنا لا حدَّ ولا عدَّ ولا نهاية لها (.. **وَإِنْ تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا**..) [سورة إبراهيم (٣٤)] وهي عامَّة كاملة للخلائق على حدٍّ سواء، فالأرض: مهادٌ للجميع والجبال أوتادٌ لها من أجلنا وجعل كلَّ مَنْ خَلَق أزواجاً ليتنعموا ويسعدوا جميعاً، وجعل

النوم للجميع راحة وقطعاً للتعب والإرهاق إلى آخر النعم المذكورة بهذه السورة رحمة وحبّاً بنا جميعاً.

{عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ}.. لقد عمَّ فضل الله وإحسانه وحنانه وعطفه وتسييره الخيِّر لسائر خلقه، هكذا يفهم المؤمنون وبما عمّهم وعمَّ الخلائق جميعاً به من فضل يُقرُّون.

ومع ذلك يتساءل المعرضون هل عمَّنا الله بفضله وعطائه؟! . يقولون عمَّ؟ . هكذا يتساءلون، بل يظنُّون أنه قد أعطى وحرم ومنح وهضم... وخلق متفارقات عجيبة بين غني وفقير، وصحيح وعليل، وأكبر وأصغر وأعلى وأحقر، فهم في حقيقة أمرهم يُنكرون بتساؤلاتهم ما يُظهره لهم رسول الله ﷺ عن رحمة الله وحبّه لهم، بل ويتساءلون مُستنكرين هل عمَّ بالحقّ والعدل، أم ميَّز وحابى قبل أن يعقلوا أسماء الله الحُسنى وحكمته البالغة في السمو والرفعة لكل مخلوق خلَقَه، ثم قرَّبه بالحق والاستحقاق أو منع عنه ومنع عن غيره لخيره ولما فيه شفاء نفسه.

هذا وفي حال استرسالك ببقية السورة يتوضَّح لك أن الله عمَّ وشمل الخلائق كلّها برحمته وكلأهم جميعاً بعيون رعايته وفضله **{أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً... وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ۝ وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً}** للكل وبلا تفريق.

هذا وفي حال بلوغ الإنسان مراتب القرب من ربِّه الحنَّان المنَّان يجد أن جميع السور التي تأتي بعد سورة النبأ ما هي إلا تفصيل وشرح وتبيان عالٍ كريم للمعاني السامية العليَّة لكلمة (**عمَّ**).. **والسماء والطارق.. والشمس وضحاها.. والليل إذا يغشى.. ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين**.. إنها طائفة كريمة عظيمة من الآيات الدالَّة على فضل الله عليك وعظيم رعايته لك وحنانه المستمر بغير انقطاع... جميعها تدلُّك على فضل ربِّك عليك وتحذِّرك من الإعراض عن مصدر العطاء العالي

الكريم ونتائجه الخطيرة عليك دنيا وبرزخ وآخرة، وتبشِّرك في حال إقبالك عليه بجنّة عالية قطوفها دانية لا تسمع فيها لاغية، إنها آيات تبيِّن لك طريق الحياة الأبدية والسعادة السرمدية تحت لواء رسوله الكريم ﷺ.

إذاً فلسان حال المؤمنين ينطق بالحق والإقرار أي: نعم عمَّ الله عباده ومخلوقاته جميعاً وكلأهم بعيون رعايته كما عمَّنا بفضله العميم، أما لسان حال المعرضين الضالين فهم في حال المستنكرين لما عمَّهم به تعالى من بالغ عنايته وحكمة عطائهم بغية شفاء قلوبهم السقيمة من حبِّ الدنيا الدنيّة ثم تسليط العلاجات الشديدة علَّهم يشيحون عنها ويلتفتون لما خُلقوا من أجله ولما أعدَّه تعالى لهم من الخيرات، فإن ثابوا عن غيِّهم وآبوا بقلوبهم لربهم مَنَحَهم العطاءات السرمدية والجنَّات الأبدية..

وبذلك يستطيع من أدرك معاني كلمة (**عَمَّ**) أن يشهد معاني سورة النبأ وكذلك (**جزء عَمَّ**) ومن استيقن بفضل الله بما عمَّه علينا من نعم وإحسان يستطع إدراك معاني جميع آيات القرآن وسوره... إنه كلام الله الذي عمَّنا بفضله وكرمه وعظيم رعايته وإمداده... فالمؤمنون فكَّروا وعمَّقوا وعقلوا هذه الكلمة (**عَمَّ**) فآمنوا بما عمَّهم تعالى به من عميم فضله وإحسانه ورحمته وعطاءاته، أي آمنوا بلا إله إلا الله وبعدها آمنوا بما نبَّأهم به رسول الله ﷺ فآمنوا بأن محمداً رسول الله ﷺ وهم يتعجبون من حال الكفَّار الذين يتساءلون مُستنكرين ما نبَّأهم به هذا الرسول الكريم من بيان عظيم. والحقيقة أن حقيقة الإيمان هي تقدير النِعم والتي من خلالها قدَّروا المنِعم جلَّ وعلا ومن لا يُقدِّر النعم الإلهية فهو ليس بمؤمن.

وعَمَّ: إنما هي فعل ماضٍ، بمعنى: شمل، تقول: عمّ المطر الأرض وعمَّ الأمير القوم بالعطيَّة، أي: شملهم بها غير مخصِّص.

فالله تعالى بهذه الكلمة إنما يلفت نظرنا إلى ما عمَّ به هذا الكون كله من عطفه ورحمته وإحسانه وإمداده إيّاه بالتربية وقيامه عليه بالعدل، وتسييره إياه ضمن الحكمة إلى غير ذلك مما اشتملت عليه أسماؤه تعالى من الكمال، والتي بدونها لا ينتظم هذا الكون، بل لا يمكن أن يكون له وجود وقيام.

فالله تعالى يقول: عبادي! انظروا إلى هذا الكون كلّه، أرضه وسمائه، شمسه وقمره، حيوانه ونباته. لقد عمَّه الله بفضله وإحسانه، وشمله عطفه وحنانه، وتجلَّت فيه قدرته وحكمته، أفبعد هذا كله تعجبون ممَّا أخبرتكم به على لسان رسولي، وتتساءلون.

ويَتَسَاءَلُونَ: مأخوذة من سأل بمعنى: طلب العلم بالشيء.

ويَتَسَاءَلُونَ: أي يسألون أنفسهم ويسأل بعضهم بعضاً، مستنكرين ما أخبرهم به الرسول ﷺ مترددين في مبْلغ صحته، ثم فصَّل لنا تعالى موضع هذا التساؤل فقال:

{عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ}:

والنبأ: هو الخبر، **والعظيم**: مأخوذة من عَظُمَ، تقول: عَظُمَ عليه الأمر، أي: شقَّ وصعب، وعَظُمَ أيضاً ضد صَغُرَ.

وكلمة (**النَّبَإِ الْعَظِيمِ**) الواردة هنا إنما تشمل جميع ما أخبرهم به الرسول ﷺ من بيان القرآن العالي وهذه الدلالة الربّانية العليّة التي هي ضمن الحق والمنطق والتي يقبل بها كل عاقل مفكِّر نزيه من حيث أنَّ هذا الكون كلّه راجع في سيره وإمداده إلى مسيِّر وممدٍّ واحد يتجلَّى على كافّة مخلوقاته وعباده بنعمه الشاملة والتي يُحمد عليها، وهي تشمل أيضاً خبر البعث بعد الموت والفناء، كما تشمل الحساب على الأعمال، والجنة والنار، وأن كل إنسان مسؤول تجاه هذا الخالق العظيم عن أعماله صغيرها وكبيرها، وأنه ليس ينفع المرء يوم القيامة شفاعة الشافعين، إلى غير ذلك من الأمور

التي يفزع لذكرها من انحطَّت نفوسهم وتدنَّت فينكرون فضل الله تعالى بما أمدَّهم به بتسييره الخيِّر لهذا الكون وينكرون ما عمَّهم به تعالى من فضله وإحسانه وبما يتضمن عطفه وحنانه من رحمة بهم وتأمين عيشهم وحياتهم، بل يظنُّون الظلم ويحسبون الهضم بسبب إعراضهم عنه تعالى وعن رحمته وحنانه وبسبب أمراضهم وأغراضهم النفسية الخبيثة وإنكارهم للمحسوس والملموس ممَّا عمَّهم تعالى به من فضله بخلْقهم وتنظيمهم أجنَّةً في بطون أمهاتهم، ثم إتحافهم بهذا الكون المغدق المونق وإمداده الكون لإمدادهم بحياتهم ومعيشتهم، بل ينكرون كل ما عمَّهم به تعالى من منافع الشمس والقمر والنبات والمطر والخلْق بفضله تعالى فلا ينظرون إليها ولا يتعرَّفون بها على عظيم فضله وواسع رحمته، بل ولا يفكِّرون بما أغدق عليهم بنعمة البصر والنظر والسمع والذوق والإحساس والحواس ولا بما يتحفهم تعالى به ممَّا يناسبهم من مأكولات ومسموعات ومنظورات، نسوا نعمه تعالى كلّها ولو فقدوا واحدة من النعم لقالوا إنّا لمحرومون، بل نحن مهضومون، بل يتساءلون مُستنكرين: لمَ هذه؟ ولِمَ تلك وعلى حسب أهوائهم المهلكة العمياء الضالة المضلة يظنُّون السوء بربِّهم ويتساءلون عمَّ؟ هل عمَّنا؟ مُستنكرين دون تفكير صحيح ولا هُدى ولا كتاب مُنير.

ثم بيَّن لنا تعالى حال هؤلاء في تساؤلهم عن ذلك النبأ، فقال تعالى:

{الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ}:

ومختلفون: مأخوذة من اختلف، وهي ضد توافق، فهؤلاء الذين عجبوا لذلك الخبر إنما هم مختلفون مع الرسول في الإيمان به، كما أنهم مختلفون فيما بينهم، فهم ليسوا على درجة واحدة من الإنكار، فلكلٍّ منهم رأي فيه. ثم بيَّن تعالى ضلال أولئك في عدم إيمانهم، فقال تعالى:

{كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ}:

وكلا: حرف معناه الردع وتنبيه المخاطَب إلى بطلان كلامه. فهي تقول: ارجع أيها الكافر إلى تفكيرك! وعُد عن ضلالك!

فليس ذلك النبأ مما يستدعي التساؤل والاختلاف. **وسيعلمون:** مأخوذة من علم بمعنى: شاهد حقيقة الشيء ورآه، وجاء هنا الفعل بصيغة المضارع مقروناً بالسين ليبيِّن لهم أنهم سيشاهدون حقيقة ذلك عند موتهم.

{ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ}:

وثم: حرف عطف للترتيب على التراخي، وقد تكرَّرت كلمة (**كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ**) لا للتأكيد على المعنى الأول لأن كلامه تعالى حق لا يحتاج لتأكيد وتثبيت، بل لتبيِّن لنا معنىً جديداً وهو أنهم بعد رؤيتهم الحق عند الموت سيعلمون عند البعث والخروج من القبور ما يعود به عليهم إنكارهم. فكلمة (**كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ**) تقول:

وسترون أيها المنكرون نتائج تفريطكم، وستشاهدون مبلغ خسارتكم، وأليم ما سيحلُّ بكم من العذاب والحسرة والندم.

وبعد أن حذَّر تعالى أولئك الكافرين من الإنكار أراد أن يُلفت نظرنا إلى ما يغمرنا به من إحسانه، ويفصِّل لنا ما حدَّثنا عنه في مطلع السورة مما عمَّنا به من فضله ونعمته فقال تعالى: مستنكراً على أولئك عدم نظرهم وجمود تفكيرهم:

{أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً}:

والمهاد: هو الشيء المهيأ والموطأ للاستعمال والانتفاع.

فآية: **{أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً}** تقول:

أما رأيتم فضلي ونعمتي! إذ جعلت الأرض مهيَّأة لزرعكم موطَّأة لحياتكم! أما جعلت لكم فيها جميع الأسباب اللازمة لخروج الزرع! أما خلقت لكم فيها التراب ولولاه لما نبت زرع! أما جعلت فيها البحار لتمد السحب بالماء! أما أنشأت لكم فيها المستودعات التي تمدُّ العيون والأنهار[1]! أما ألقيت في الأرض جميع ما تحتاجونه من أنواع النبات والحيوان، إلى غير ذلك ما لا يتسع له البيان... ماذا يكون عليه حالكم لو لم أتفضَّل عليكم بذلك كله! أفلا ترونه! أفلا تفكِّرون!

{وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً}:

والأوتاد: جمع وتد، وهو كل ما غُرز في الأرض فكان مثبِّتاً ومقوِّياً وحافظاً للتوازن.

والله تعالى يريد أن يلفت نظرنا بهذه الآية إلى الجبال وما تقوم به من الوظيفة الهامّة في تثبيت الأرض خلال جريها في الفضاء وتثبيت القشرة الأرضية من الانسياح، فهذه الآية تقول:

أما نظرتم إلى حركة الأرض! أما شاهدتم دورانها الذي يدلُّ عليه تنقُّل الشمس والقمر والنجوم! أما بحثتم في ذلك فعرفتم مصدر هذا التنقُّل وتوصَّلتم منه إلى سبح الأرض اليومي المنظَّم، وتعرَّفتم إلى تلك القدرة العظيمة والقوة الحكيمة التي تمسك الأرض وتُدوِّرها بعد أن جعلت الجبال أوتاداً لها تحفظ توازنها في سبحها وجريها ولئلا تنساح بكم قشرتها الأرضية.

{وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً}:

والأزواج: جمع زوج، وهو كل واحد معه آخر من جنسه وهي تعني الذكر والأنثى.

---

(١) انظر كتاب مصادر مياه الينابيع في العالم لصاحب هذا التأويل.

فالله تعالى في هذه الآية الكريمة يريد أن يلفت نظرنا إلى ذلك النظام الذي يكون به التوالد، وبسببه تنتظم المعيشة، فلو أن الله تعالى جعل النوع الإنساني يتكاثر عن غير طريق التوالد، وكان الناس كلهم رجالاً لشقَّت على الرجل الحياة، ولما استطاع القيام بأعماله خارج المنزل وداخله على الوجه الأكمل، كما أنه يجد نفسه في هذه الحياة فريداً لا يتمتَّع بتلك السعادة التي يجدها الآن في الأسرة، ولو كان النوع الإنساني كله نساء لشقَّت على المرأة الحياة، ولوجدت نفسها أيضاً فريدة وحيدة لا تجد السعادة التي تجدها إلى جانب الرجل في الأسرة.

فمن الذي خلق الأزواج كلّها، وجعل بينها مودة ورحمة، وأعطى كلاًّ ما يناسب وظيفته؟ أليس ذلك هو الله الذي عمَّ فضله جميع الكائنات؟

{وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً}:

والسبات: مأخوذة من سبَتَ بمعنى: قطع، فالنفس دائبة التفكير تمرُّ بها الخواطر والمشاغل الفكرية، كالنهر الجاري لا ينقطع لحظة من اللحظات.

وكذلك الجسد طوال النهار متواصل الجهد مستغرق في الأعمال، فإذا نام الإنسان سبتت النفس، أي انقطع تيّار التفكير عنها، وبذلك يستعيد الذهن صفاءه والفكر قوته، كما يسكن الجسم فترتاح الأعضاء، ويعود للجسم نشاطه، وأنه لولا النوم وما فيه من السُّبات لهلك الإنسان، فمن الذي جعل النوم؟ ومن الذي يتوفى الأنفس حين نومها؟ أليس ذلك هو الله تعالى؟ ولكن ما الذي يساعد الإنسان على النوم؟

لقد بيَّن لنا تعالى ذلك بقوله:

{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً}:

واللباس: هو الثوب والشيء الساتر الذي يغطِّي غيره، وقد وصف الله تعالى الليل بكلمة (**لباساً**) ليلفت نظرنا إلى تلك الظلمة التي ترافق الليل، فتلبس كل شيء وتحيط بكل شيء، وبذلك يعمُّ الهدوء وتغشى السكينة جميع المخلوقات، وأنه لولا الليل وما فيه من ظلمة وسكون وغير ذلك من العوامل، لما استطاع الإنسان النوم، ولما حصل للإنسان ذلك السبات من بعد أن أرهقته المشاغل والأعمال.

{وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً}:

والمعاش: هو ما تعيش به من مطعم ومشرب وغيره، **والمعاش** أيضاً ما تكون به الحياة.

فالله تعالى كما جعل الليل لباساً يستر بظلمته المخلوقات جعل النهار معاشاً، أي: يتجهَّز به للإنسان طعامه وشرابه وما تتوقف عليه حياته. وإنك إذا توسَّعت في كلمة: (**معاشاً**).. وجدت أن صعود الأبخرة من البحار وتحوُّلها إلى سحب وأمطار كل ذلك متوقف على النهار.

فالنهار معاش، أي: به يتجهَّز لك كل ما تتوقف عليه حياتك أيها الإنسان. ولكن كيف يتولَّد الليل والنهار؟ وما هو السبب في نشوء هذا النظام؟ لقد بيَّن لنا تعالى أن ذلك متوقِّف على السموات فقال تعالى:

{وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً}:

والشداد: جمع شديد، وهو القوي والمتماسك المترابط الأجزاء، والمراد بكلمة (**شِدَاداً**) بيان صفة السموات في قوتها وعدم تطرُّق الفساد إليها، وقد مضى على وجودها الكثير من السنين والأعوام، فلولا أن الإمداد بالحياة متواصل عليها لفنيت، ولما ظلَّت باقية على ما هي عليه الآن.

وكلمة (**سبعاً**) إنما تريد أن تعرِّفنا بتلك الطبقات المتتالية، وإن شئت فقل: بتلك السموات التي تأتي متتالية مترابطة، محيطة بالأرض من جميع الجهات.

وإذا أردت أن تتعرَّف على هذه السموات السبع، فانظر إلى السحاب تجده يتلبَّد في طبقة معيَّنة من الجو لا يعدوها، فما الذي يمنع الأبخرة المتصاعدة من البحار من مجاوزة هذه الطبقة! أليس ذلك دليلاً على وجود حاجز يحول بينها وبين العروج المتواصل في الفضاء.

ثم انظر إلى الهواء الذي نستنشقه، والذي منه يتنفس النبات والحيوان، تجده محيطاً بالأرض من جميع جهاتها! أليس اتصاله بالأرض ومحافظته على كثافة معينة دليلاً على وجود طبقة، وإن شئت فقل: سماء محيطة به من جميع الجهات مانعة له من التخلخل والتشتُّت في الفضاء؟

وكذلك القمر في دورانه حول الأرض، وإذا أنت نظرت إليه وجدته في مدار معين، فما الذي يجعله يجري في فلكه لا يبتعد عن الأرض لا قليلاً ولا كثيراً؟ أليس ذلك دليلاً على وجود سماء مانعة له من التباعد عن الأرض والشرود في الآفاق؟

وهكذا فللهواء سماء، وللسحب سماء، وللقمر سماء، وللشمس سماء، وللكواكب السيارة سماء، وللنجوم المنتشرة في أقاصي الفضاء سماء جامعة لها، تضمُّها جميعاً وتحفظها من مجاوزة مواضعها، وأخيراً فهناك سماء سابعة، محيطة بهذه السموات جميعها، وهي أعظم السموات قوة وتماسكاً فمن الذي بنى هذه السموات؟

ومن الذي يمدُّها بهذه القوة الهائلة التي لا يمكن أن يتصوَّرها إنسان، أليس ذلك الممد هو الله تعالى الذي عمَّ إمداده وفضله جميع الكائنات؟

وبعد أن بيَّن لنا تعالى أن نظام الليل والنهار متوقف على وجود السموات، أراد أن

يبيِّن لنا أثر الشمس في تولُّد الليل والنهار، فقال تعالى:

{وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً}:

والسراج: هو المصباح المشتعل المضيء.

والوهَّاج: هو المتوقِّد الذي يبعث بالحرارة إلى جانب ما يبعثه من ضياء. فهذه الآية تُلفت نظرنا إلى الشمس من حيث إنارتها الأرض نهاراً، ومن حيث إمدادها إيَّاها بالحرارة، لنفكِّر في تلك الكتلة العظيمة الملتهبة، فنتوصل إلى تعظيم تلك القدرة التي أوجدتها والتي تمدُّها بما تمدُّها به، فتجعلها دائمية الإضاءة مستمرة التوقُّد والتوهُّج.

وبما أن الشمس المنصبة أشعتها على البحار تكون في توهّجها وحرارتها سبباً في تبخير مياهها وتكوين السحب، ولذلك أورد تعالى بعد الآية الدالَّة على الشمس آية:

{وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً}:

لندرك أن هذا الكون كله وحدة متَّصلة، وأن هناك يداً حكيمة ربطت الأشياء بعضها ببعض، فجعلت منها أسباباً ومسببات.

فعلى السموات السبع يتوقَّف وجود الشمس ودوران الأرض على هذا النظام، وبذلك يتولَّد الليل والنهار، وعلى الشمس المتوهِّجة يتوقَّف تكوُّن السحب ونزول الأمطار، وعلى الأمطار المنبعثة من السماء يتوقف خروج الزرع ونمو النبات، وهكذا فالكون مترابط بعضه ببعضٍ، إذا أنت دقّقت فيه وجدته وحدة متصلة ووجدت أن هناك يداً واحدة تديره كله وتسيِّره على هذا النظام.

ولتفصيل معنى (**الْمُعْصِرَاتِ**) نقول: المعصرات: جمع معصر، مأخوذة من عَصَرَ، تقول: عصر فلان العنب، أي: أخرج ماءه. وعلى هذا فالمعصرات: هي السحب إذ

باحتكاكها ببعضها، وبما هي مشحونة به من كهربائيات يخرج ما فيها من الماء، فتعتصر بالمطر.

والماء الثجّاج: هو الماء السائل المنصب متفرِّقة نقاطه، وقد لفت تعالى بهذه الآية الكريمة نظرنا إلى كيفية هطول الأمطار، لنشهد حكمة الحكيم في تدبير ملكه. فإذا أنت دقَّقت في هذه الكيفية التي يهطل عليها المطر رأيت من الآيات الدالَّة على لطفه تعالى وكمال تدبيره وحكمته، ما يجعلك تخشع بين يديه تعالى وتخشاه، ولولا أن المطر يهطل على شكل قطرات صغيرة كما هو عليه الآن لكان ذلك سبباً في إتلافه الزرع والشجر معاً، بل لكان سبباً في اقتلاع النبتة الصغيرة من أصولها. فمن الذي جعل المطر يهطل على هذا الحال؟ أفلا يجب عليك أن تفكِّر بذلك أيها الإنسان؟

{لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً}:

وقد جمعت كلمة (**حبّاً**) الواردة في هذه الآية سائر صنوف الحبوب كما جمعت كلمة (**نباتاً**) جميع أنواع النباتات.

فبهذا الماء المنصب أنواع الحيويات المختلفة، التي تكون سبباً في اختلاف هذه الثمرات وتمايزها عن بعضها بعضاً، من حيث تركيبها وطعمها ومنافعها. فمن الذي وضع في ماء المطر ما وضع فيه من حيويات؟

ومن الذي يسوق لكل نبات ما يناسبه منها، وما يجعله مختلفاً عن غيره هذا الاختلاف؟

{وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً}:

والجنَّات: جمع جنة، والجنة: هي كل شيء يبعث في نفسك إذا أنت نظرت إليه

وسُرَّت العين بمرآه نعيماً وسروراً داخلياً مستوراً عن الآخرين، فلا يستطيع أن يرى ما في نفسك شخص أو يطَّلع عليه إنسان، فبهذه الأشجار والنباتات وما اشتملت عليه من أثمار كل ذلك ينطوي تحت كلمة (**جنَّات**).

والألفاف: جمع لفّ، وهو ما يُجمع من هنا ومن هنا، والذي نفهمه من كلمة (**ألفافاً**): الثمار من حيث كونها ملتفة بقشرتها، محاطة بهذه القشرة من جميع جهاتها لتكون بمثابة وعاء لها يحفظها من تسرُّب الجرثوم والأوساخ والفساد إليها، كما تهبها شكلاً جميلاً تُسرّ العين بمشهده ومرآه.

فمن الذي جعل للثمر هذه الألفاف وجهَّزه هذا التجهيز البالغ أقصى درجات الكمال؟

وبعد أن أورد تعالى للإنسان ما أورد من آيات تدلُّ كلّها على تمام عنايته تعالى وكبير فضله، وما عمَّته به من الخيرات، ختم السورة بآيات تُشير إلى القيامة وساعة الحساب، وتصف مواقف الناس يومئذٍ ومصيرهم، لنعلم أن الذي خلق لك في حياتك الدنيا جميع هذه الأشياء التي تتوقف عليها حياتك وسرورك، لم يخلقك عبثاً ولم يتركك، بل لا بد لك بعد موتك من رجعة إليه، وأن الذي خلق السموات والأرض وأوجدهما على هذا النظام قادر على أن يعيدك ويخلقك من بعد موتك خلقاً جديداً.

فمن كان في هذه الحياة تقيّاً مُحسناً فاز بما أعدَّه له ربُّه في الآخرة من نعيم، ومن أضاع عمره وأهلك نفسه فليس له إلا المداواة في الجحيم، وكل امرئ بما كسب رهين، ولذلك قال تعالى:

{إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً}:

والمراد **بيوم الفصل**: يوم القيامة وسُمِّي بيوم الفصل: لأن الله تعالى يومئذٍ يفصل المجرمين عن المحسنين، ويقضي بين الناس بالحق.

والميقات: هو الوقت الذي عُيِّن لتنفيذ شيء موعود به، فهذا الربّ العظيم خلق ما خلق مما عدَّده لك في الآيات السابقة، يقول لك:

إن ذلك اليوم الذي يفصل فيه بين المحسن والمسيء، ويقضي بين الخلق، هو الموعد المضروب لتنفيذ ما وعدتك به.

{يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً}:

والنفخ: هو إرسال شيء لطيف برفق، وهي هنا تعني إرسال الروح.

والصور: مأخوذة من صوّر، تقول: صوَّر الله الإنسان، أي: جعل له صورة وشكلاً معيّناً. والمراد **بالصور** هنا: الأجساد من بعد فنائها، يخلقها خلقاً جديداً، ثم يُلبس كل جسد النفس الخاصة به، فإذا وُقفت هذه الأجساد شاخصة منطوية في نفوسها فعندئذٍ يرسل الله تعالى إليها الروح هنالك تحصل الحركة والسير. ويكون معنى **النفخ في الصور**: نفخ الروح بالأجساد.

والأفواج: جمع فوج، وهو الطائفة تنفصل عن مجموعة كبيرة من الناس، فالخلق يوم القيامة جميعاً يقفون بين يدي الله، فإذا صار النداء انفصل من هذا الجمع العظيم أفواج أفواج، فخرج كل امرئ مع من كانت نفسه مرافقة له في دنياه، وأتت في هذا الموقف، فإذا شهواتها وملذاتها وبنيانها وأمتعتها وعزُّها وسلطانها وقد اضمحلّ ذلك كله وزال، وكأنه ما كان، وليس بين يديك إلا ما قدَّمت من أعمال.

وقد أراد تعالى أن يبيِّن لنا أن الإنسان يوم القيامة تنكشف له الحقائق فيرى وهو بين

يدي ربّه ليس بينه وبينه تعالى سماء ولا حجاب أن كل ما كان يأتيه في دنياه من خيرات إنما كان من الله وحده.

وما كانت السماء إلاّ أبواباً وطريقاً لفضل هذا الإله المنعم المتفضِّل، ولذلك قال تعالى:

{وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً}:

والمراد **بفتح السماء:** ظهور حقيقتها، وجاءت كلمة (**السماء**) معرَّفة بالألف واللام لتبيِّن أن المراد (**بالسماء**) تلك السماء التي كانت تأتيك بالخيرات في الحياة الدنيا، والمراد بكلمة (**فكانت**): أي كانت في نظرك يومئذ. والمراد بكلمة (**أَبْوَاباً**): أي أنك يوم القيامة ترى أن السماء إنما كانت في الدنيا أبواباً، أي: طريقاً وممراً لفضل الله وإحسانه.

وتفصيلاً لهذا المعنى نضرب مثلاً فنقول:

هَبْ أن طفلاً لم يصل بعد إلى سن الرشد وكان كلما جاع أو اشتهى الطعام أو الفواكه أو المبرَّدات اعتاد الانطلاق إلى برَّاد البيت فيجد فيه مبتغاه من لذيذ الطعام وما تشتهيه نفسه من فواكه ومبرَّدات وهو يحسب أن البرَّاد هو الذي يجود عليه من مبتغاه بما يجود، حتى إذا كمل وعيه عندها يُدرك أن البرَّاد كان وسيلة وباباً لخيراته وأن والده هو الذي يجود على البرَّاد وعليه بمبتغاه.

وهَبْ أن طفلاً يتيماً لم يصل بعدُ إلى سن الإدراك المطلوب وقد رمدت عيناه رمداً حجبت عنه الرؤية، وكان جالساً بجانب باب الغرفة، وكان أهله يقدِّمون له بين الحين والحين ما يحتاجه من طعام وشراب وغيره، فتراه كلما فُتح الباب مدَّ يده وأخذ ما يُقدَّم له وهو يحسب أن الباب هو الذي يجود عليه بما يجود. فإذا ما كبر هذا الطفل

اليتيم وانجلت عن عينه تلك العلَّة المانعة من الرؤية، فهنالك يدرك أن الباب إنما هو في الحقيقة أهله.

وكذلك الإنسان يوم القيامة تنجلي بصيرته، وتظهر له حقيقة السماء، فيرى أنها إنما كانت في الدنيا أبواباً لفضل الله وإحسانه، والمعطي المتفضِّل هو الله تعالى، حتى إن هذه الرؤية لتتوضح للإنسان يومئذٍ إلى حد أبعد من هذا فيرى أن السماء بشمسها وقمرها، بنجومها وكواكبها، وسحبها وأمطارها، وغير ذلك مما فيها، إنما كانت أيضاً قائمة بنور الله وإمداده، وأنه لو انقطع عنها ذلك النور والإمداد الإلهي لما كان لها قيام ولا وجود، فبه تعالى قيامها، وبه وجودها وسيرها، ومنه تعالى وحده الإمداد والفضل، هذه الحقائق كلّها تظهر للإنسان يوم القيامة ساعة وقوفه بين يدي ربه، فيعلم أن لا إله إلا الله.

ثم إنه لينظر إلى ما حوله، فيجد نفسه في أرض ليس فيها تلك الجبال التي كان يراها في الدنيا، وتمرُّ على خاطره الدنيا بملاذها وشهواتها، بمبانيها وقصورها، بعزِّها وسلطانها، فلا يجد بين يديه شيئاً منها، ولذلك قال تعالى:

{وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً}:

والسراب: هو ما يجده السائر في الصحراء، فيحسبه بسبب الانعكاس ماءً، فإذا جاءه لم يجده شيئاً، فهذه الآية تقول: وإنك لتنظر يومئذٍ إلى الجبال فلا تراها، فلقد زالت ولم يبقَ لها في حياتك الجديدة لزوماً، وتلتفت بنظرك إلى الدنيا فلا تجد بين يديك من ملاذها ومتعتها شيئاً، فقد سِرْتَ بذلك كله، ومررت به سريعاً وكأنه ما كان، ولست تجد بين يديك إلا ما قدَّمت من أعمال. فمن كانت أعماله سيِّئة وجد جهنم مهيَّأة له ترقبه وتنتظره، وهي له أصلح مستقراً وأوفق مكاناً، ولذلك قال تعالى:

{إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً ۞ لِلْطَّاغِينَ مَآباً}:

والمرصاد: كل ما أُعِدَّ لالتقاط شيء آخر مأخوذة من رصد بمعنى: رقب وأعدَّ. فبمجرَّد وصول الطاغين إلى جهنم تلتقطهم وتجتذبهم.

والطاغين: جمع طاغ: وهو كل من تجاوز الحد الإنساني في أعماله وسلوكه. **والمآب**: هو المرجع فكل من طغى فجهنم مرجعه، وإليها مردّه.

ثم بيّن لنا تعالى أن المقام في جهنم إنما يدوم طويلاً، فقال تعالى:

{لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً}:

ولابثين: مأخوذة من لبث بمعنى: مَكَثَ وأقام.

والأحقاب: جمع حقب، هو السنة.

{لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً ۞ إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً}:

وكلمة (**لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً**) تبيِّن لنا استمرار الحرارة عليهم، فهم لا يفترُّ عنهم حرّها، ولا يستطيعون أن يُخفّفوا من ذلك الحرّ بشراب بارد يشربونه، بل ليس لهم إلا الحميم.

والحميم: هو الماء الحار يحمُّ صاحبه إذا شربه.

والغسَّاق: هو المظلم، ومنه الغسق، وهو الظلمة، فشراب أهل النار حار يحمُّهم وهم في ظلمة تحيط بهم من كل مكان.

ثم بيّن لنا تعالى أن ذلك هو الدواء المناسب لهم، قال تعالى:

{جَزَاءً وِفَاقاً}:

والوفاق: هو الموافق، فهذه الآية تقول: ذلك الحريق والشراب الحميم والمكان المظلم كل ذلك هو العلاج الموافق لهم، المناسب لعللهم وأمراضهم.

{إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً}:

أي: إن شهواتهم كانت غالبة عليهم، فما كان يوم الحساب يخطر لهم على بال.

ثم ذكر لنا تعالى أن غلبة الشهوة عليهم جرَّتهم إلى التكذيب بالحق، ولو أنهم قنعوا به، ولذلك قال تعالى:

{وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كِذَّاباً}:

والمراد بكلمة (**كِذَّاباً**): أي تكذيباً ظاهراً خطؤه وضلاله. فإذا أقنعتهم مثلاً بما يجرّه كشف الحجاب من تهدُّم لكيان الأسرة، وتفكيك لعرى الروابط الزوجية وفساد في المجتمع الإنساني، أصرُّوا على عنادهم وقالوا لك: هذا لا يتوافق مع المدنية الحديثة، وما يقولون ذلك إلاّ سعياً في ردِّ الحقِّ طمأنةً لشهواتهم وسيراً مع أهوائهم وإرضاءً لنفوسهم.

ثم بيَّن تعالى أن كل ما يقارفونه من إجرام، وجميع ما يكسبون من سيئات، ذلك كله محفوظ عليهم، وليس يضيع شيء من أعمالهم. قال تعالى:

{وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً}:

أي: حفظناه ولم نترك منه شيئاً. **وكتاباً**: أي مُسطراً مكتوباً.

ثم بيَّن تعالى أن عذاب هؤلاء متزايد في الشدة آناً بعد آن، قال تعالى:

{فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً}:

أي ذوقوا ما جرَّه لكم طغيانكم من عذاب. والسبب في تزايد العذاب أنه لو استمر على حال واحدة لخفّ تأثيره عليهم، وعندئذٍ تبدو لهم عللهم وتظهر أعمالهم المخزية فيتألمون معها ألماً لا يُطاق.

وبعد أن ذكر لنا تعالى النار وعذاب أهلها، أراد تعالى أن يبيِّن لنا حال المتقين وما أعدَّ لهم سبحانه في الآخرة من النعيم، فقال تعالى:

{إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً}:

والمتقين: جمع متَّقٍ، وهو الذي وقى نفسه وسترها من الأذى بنور الله. فبإقباله على ربِّه رأى الخير خيراً والشرَّ شرّاً، فكان هذا النور الإلهي وقاية له من الوقوع في المهالك.

والمفاز: هو الفوز المتواصل الذي لا ينقطع. فإذا استنار الإنسان بنور الله، وصار من المتقين، فأعماله كلها إحسان ومعروف وخير، ولذلك تجده يفوز يوم القيامة بما أعدّ له ربه من النعيم.

ثم فصَّل لنا تعالى ذلك المفاز والنعيم بقوله:

{حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً}:

والحدائق: جمع حديقة، وهي البستان المحاط بالجدران، والمراد بها هنا: الموضع المحدق نعيمه بالإنسان.

والأعناب: جمع عنب، وهو كل ما كان منتفخاً من الأثمار مملوءاً بالماء فهذه الآية تبيِّن لنا أن الله تعالى أعدَّ للمتقين في الآخرة حدائق ذات نعيم، مُحدق بهم خاص لهم من دون غيرهم.

وفي هذه الحدائق الأعناب، والتي تكون سبباً في زيادة سرورهم ونعيمهم.

{وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً}:

والكواعب: جمع كاعب وهو ما يرتكز عليه غيره والمراد (**بالكواعب**) هنا: الأشياء التي تستند وترتكز عليها النفس في حصول النعيم.

فالروائح الزكية، والمشاهد والفواكه اللذيذة، والحور العين، كل ذلك ينطوي تحت كلمة (**كَوَاعِبَ**).

والأتراب: جمع تِرْب: وهو المماثل في السن. والمراد **بالأتراب** هنا: ما كان متماثلاً ومتوافقاً مع عملك، فكل ما يُعرض لك من صنوف النعيم المنطوي تحت كلمة (**كَوَاعِبَ**) إنما تتنعم به على حسب أعمالك التي قدَّمْتها في دنياك. وبصورة متوافقة مع ما أنت فيه من القرب والإقبال على الله والمنعكس نعيم هذا التجلِّي والقرب على صنوف الأطعمة والفواكه.

فلكل امرئ لذة متناسبة مع صحته وحالته النفسية، ونعيمه إنما هو خفي ومستور عن غيره، وليس يطَّلع عليه أحد من الناس.

{وَكَأْساً دِهَاقاً}:

والكأس: هو الوعاء الجامع، والمراد به هنا: كل شيء جامع لصنوف المسرَّات.

والدهاق: الممتلئ ليس فيه نقصان. فآية **{وَكَأْساً دِهَاقاً}** تقول:

وسينالون **كأساً** أي: أشياء جامعة لصنوف اللذائذ.

وهذه اللذائذ جارية متواردة على استمرار. ثم إنهم إلى جانب ذلك لا يكدّر عليهم صفوهم في حياتهم هذه مكدّر، ولذلك قال تعالى:

{لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً}:

واللغو: هو الكلام الباطل عمَّا سوى الله تعالى وكلامه السامي الحق.

والكذَّاب: هو التكذيب. فكلامهم كله حقائق، ولا يكذِّبهم فيه أحد، وليس ينغِّص عليهم عيشهم منغِّص.

ثم بيَّن لنا تعالى أن هذا الجزاء الحسن إنما نالوه جزاء على أعمالهم التي قاموا بها في دنياهم، قال تعالى:

{جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً}:

والمراد بكلمة (**عَطَاءً**) أي: إنما يُعطون ذلك على أعمالهم الطيبة.

وحِسَاباً: أي ضمن حساب. فلكل امرئ العطاء المتناسب مع أعماله، والناس يومئذٍ درجات عند الله.

ثم إن الله تعالى أراد أن يعرِّفك بذاته، ويلفت نظرك إلى عظمته فذكر لك أن هذا الربّ الذي سيجزيك على أعمالك، ويعطيك حقَّك ضمن حساب دقيق، هذا الرب هو رب السموات والأرض وما بينهما قال تعالى:

{رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ..}:

فكلمة (**رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا**) تريد أن تعرِّفك أن ربَّك تعالى ليست تربيته قاصرة عليك وحدك، بل هو المربِّي أيضاً للسموات والأرض وما بينهما من المخلوقات، فكل ما في الكون قائم بإمداده مستمدٌّ منه مفتقر إليه.

أما كلمة (**الرَّحْمَنِ**) فتريد أن تعرِّفك أن ربَّ السموات والأرض وما بينهما إنما هو الرحمن أي: العطوف على خلقه الرحمن بهم.

وبعد أن عرَّفك تعالى بعظمته ورحمته أراد أن يستحثك على طاعته والسير ضمن أوامره، فقال تعالى:

{... لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً}:

وليس المراد من كلمة (**لاَ يَمْلِكُونَ**) هنا النفي، إنما المراد الحضّ على الطاعة فهذه الآية تقول:

أفبعد هذا الفضل والإحسان! أفبعد هذه الرحمة والحنان! لا يدرك هؤلاء المعارضون شيئاً يسيراً من أوامر ربّهم الرحيم، ولا يفقهون أن طاعته إنما تعود عليهم بالخير، ثم بيَّن لنا تعالى أن المتصرّف في ذلك اليوم العظيم هو الله وحده، والخلق جميعاً بين يديه سواء، قال تعالى:

{يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفّاً...}:

والروح: تلك القوة التي تكون بها الحياة، والمراد بقيام الروح: عودتها، وقيامها في الأجساد، فعندما تعود الروح للأجساد، تقف الملائكة صفاً واحداً وعلى صعيد واحد مع الخلق، والله تعالى وحده الملك في ذلك اليوم العظيم.

وقد أراد تعالى أن يبيّن لنا حسرة الكافر يومئذٍ في بعده عن ربِّه، فهو يتمنَّى أن لو كان له عمل صالح يقرِّبه من خالقه ويفسح له المجال لخطاب هذا المربي المحسن والخالق الكريم! . لكن خجله يمنعه من الكلام بين يدي الله، وأعماله المسيئة تجعل نصيبه الحرمان من ذلك الخطاب اللذيذ، قال تعالى:

{... لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً}:

فالذين يُسمح لهم بمناجاة خالقهم، والذين يُؤذن لهم بخطاب ربّهم هم الذين أذعنوا

في دنياهم للحق، ورأوا أن كلامه تعالى وتشريعه هو الصواب وفيه الخير والسعادة.

{ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً}:

والمراد بكلمة (**الْحَقُّ**): أي ذلك اليوم الثابت وقوعه والذي ينال فيه كل امرئ حقَّه.

والمآب: هو المرجع.

والمراد بكلمة (**فَمَنْ شَاءَ**): أي: أنكم أيُّها الخلق مُطلقون في الاختيار، فمن أراد منكم قدَّم من الأعمال الصالحة في حياته هذه ما يبعث في نفسه الطمأنينة من رضاء الله عنه، وبذلك تؤوب نفسه إلى خالقه وترجع إليه.

{إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً...}:

وأنذرناكم: أي: حذَّرناكم بلسان رسولنا من ذلك العذاب القريب. الذي تحدَّثت عنه الآيات من قبل في هذه السورة، ولكن متى يرى ذلك الإنسان المعرض قرب هذا العذاب!

{.. يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ..}:

أي: في ساعة الموت التي ينكشف فيها عن الإنسان غطاؤه، ويشهد ما قدَّمت يداه من أعمال، في تلك الساعة يرى ذلك العذاب القريب! وهنالك يتمنّى أنه لو كان في الدنيا مُطيعاً لربِّه مذعناً لأوامره، ولذلك قال تعالى:

{... وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً}:

أي: وفي تلك الساعة، ساعة الموت يقول الكافر المعرض عن ربِّه: يا ليتني كنت مُطيعاً لخالقي، يا ليتني وطأَتْني الأرجل كما تطأ التراب، ولم أكن مُستكبراً عن أمر ربِّي وطاعة رسوله، وهكذا فالاستكبار عن طاعة الرسول ومتابعة أهل الحق يصل بصاحبه

إلى الإعراض عن الله، والإعراض يولِّد في النفس الخبث والشهوات التي تسوق للوقوع في الأعمال المنحطة، فإذا كنت ممّن يخشى ذلك المصير، فأذْعن للحق وأهله وأقبل بصحبتهم على الله.

(وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)[1].

---

(١) سورة العنكبوت: الآية (٦).

صدر لفضيلة العلاَّمة الإنساني الكبير محمَّد أمين شيخو (قدِّس سره)

١) -تأويل جزء عمَّ.

٢) -زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم وأثر محبته في رقي النفس المؤمنة.

٣) -عصمة الأنبياء.

٤) -درر الأحكام في شرح أركان الإسلام (المدارس العليا للتقوى).

٥) -مصادر مياه الينابيع في العالم وبحث كشوفات سر الختان (باللغة العربية).

٦) -تأويل القرآن العظيم (أنوار التنزيل وحقائق التأويل) -المجلَّد الأول.

٧) -تأويل القرآن العظيم (أنوار التنزيل وحقائق التأويل) -المجلَّد الثاني.

٨) -موسوعة عمَّ (آلاء الرحمن في تأويل القرآن) -المجلَّد الأول.

٩) -من سير الأبطال للأولاد والأطفال (الغلام الشجاع والجنيَّة) رقم (١).

١٠) -من سير الأبطال للأولاد والأطفال (الكلب الذي أصبح حصاناً) رقم (٢).

١١) -من سير الأبطال للأولاد والأطفال (الغلام الشجاع وردِّه العملي على خاله) رقم (٣).

١٢) -من سير الأبطال للأولاد والأطفال (حلبة الصراع) رقم (٤).

١٣) -من سير الأبطال للأولاد والأطفال (تأديب بائع الخضار) رقم (٥).

١٤) -من سير الأبطال للأولاد والأطفال (سلمت يداك يا شبل الحي) رقم (٦).

١٥) -من سير الأبطال للأولاد والأطفال (مغامرة الفارس الصغير) رقم (٧).

١٦) –تأويل الأمين للقرآن العظيم (المجلَّد الأول).

١٧) –الترجمة الإنكليزية لكتاب مصادر مياه الينابيع في العالم وبحث كشوفات سر الختان.

١٨) –صفحات من المجد الخالد (سيرة حياة العلاَّمة الإنساني الكبير محمَّد أمين شيخو) المجلَّد الأول.

١٩) –حقيقة الشفاعة: حوار بين (د. مصطفى محمود) و (د. يوسف القرضاوي).

٢٠) –حقيقة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم تظهر في القرن العشرين.

٢١) –الترجمة الفارسية لكتاب حقيقة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم تظهر في القرن العشرين.

٢٢) –الله أكبر (رفقاً بالحيوان): دراسة علمية طبية حول فائدة ذكر اسم الله على الذبيحة.

٢٣) – لِمَ الحجاب، ولِمَ الطلاق، ولِمَ أكثر من زوجة.. يا إسلام؟!

٢٤) –الغرب حرَّر الإنسان من العبودية، والإسلام لِمَ لَمْ يُحرِّره؟!

٢٥) –الكشف العلمي الجبَّار (الحقيقة الرهيبة للسموات السبع والأيام الستة).

٢٦) –صواعق معجزات أمّ الكتاب في القرن الحادي والعشرين.

٢٧) –الإيمان (أول المدارس العليا للتقوى).

٢٨) –الصلاة (ثاني المدارس العليا للتقوى).

٢٩) –الزكاة (ثالث المدارس العليا للتقوى).

٣٠) –الصيام (رابع المدارس العليا للتقوى).

٣١) –الحج (خامس المدارس العليا للتقوى).

٣٢) –حوار هادئ عن فضيلة العلاَّمة الإنساني الكبير محمَّد أمين شيخو.

٣٣) –موسوعة عمَّ (٨) ـ تأويل سورة الماعون.

٣٤) –موسوعة عمَّ (٩) ـ تأويل سورة قريش.

٣٥) –موسوعة عمَّ (١٠) ـ تأويل سورة الفيل.

٣٦) –موسوعة عمَّ (١١) ـ تأويل سورة الهمزة.

٣٧) –الدواء العجيب الذي شفى من مرض القلب القاتل والشلل والناعور والشقيقة والعقم والسرطان.

٣٨) –العلاَّمة الإنساني الكبير محمَّد أمين شيخو يردُّ على معارضيه.

٣٩) –البحوث المجيدة.

٤٠) –الفتوحات المحمَّدية.

٤١) –تأويل القرآن العظيم (أنوار التنزيل وحقائق التأويل) –المجلَّد الثالث.

٤٢) –كشف خفايا علوم السحرة.

٤٣) –الترجمة الفارسية لكتاب الله أكبر (رفقاً بالحيوان).

٤٤) –حقيقة تيمورلنك العظيم تظهر في القرن الواحد والعشرين (الجزء الأول).

٤٥) –السيد المسيح رسول السلام يلوح بالأفق.

٤٦) -أسرار السبع المثاني وحقائقها.

٤٧) -وداعاً لطبيب المقوقس.

٤٨) -وصايا الطب النبوي باللغة العربية والفرنسية والقمرية.

٤٩) -نظرات في صحائف العلاَّمة الإنساني الكبير محمَّد أمين شيخو للدكتور مصطفى محمود.

٥٠) -الترجمة الإنكليزية لكتاب (السيد المسيح رسول السلام يلوح بالأفق).

٥١) -الترجمة الفرنسية لكتاب (السيد المسيح رسول السلام يلوح بالأفق).

٥٢) -الترجمة الإنكليزية لكتاب (لِمَ الحجاب، ولِمَ الطلاق، ولِمَ أكثر من زوجة.. يا إسلام؟!)

٥٣) -الترجمة الفرنسية لكتاب (لِمَ الحجاب، ولِمَ الطلاق، ولِمَ أكثر من زوجة.. يا إسلام؟!)

٥٤) -حقيقة تيمورلنك العظيم تظهر في القرن الواحد والعشرين (الجزء الثاني).

٥٥) -تأويل جزء تبارك.

٥٦) -الترجمة الإنكليزية لكتاب (كشف خفايا علوم السحرة).

٥٧) -هل السعادة حقاً حلم لا يتحقق؟! باللغة الإنكليزية.

٥٨) -الترجمة الإنكليزية لكتاب (الحج ـ خامس المدارس العليا للتقوى).

٥٩) -التربية الإسلامية للناشئة (تعليم الصلاة) ـ منهاج دراسي تعليمي.

٦٠) -حقائق علم النفس والاجتماع ـ منهاج دراسي تعليمي.

٦١) -درر الأحكام في شرح أركان الإسلام (المدارس العليا للتقوى) ـ منهاج دراسي تعليمي.

٦٢) -تأويل الأمين ـ منهاج دراسي تعليمي.

٦٣) -روض الرياحين من ثنايا علوم القرآن الكريم ـ منهاج دراسي تعليمي.

٦٤) -تأويل القرآن العظيم (أنوار التنزيل وحقائق التأويل) -المجلّد الرابع.

الفهرس